

الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا
(١٩٠٣ - ١٩٦٠)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الأفريقية
من قسم التاريخ (التاريخ الحديث والمعاصر)

إعداد الباحث
على بدوى على سنالمان

إشراف

د : ماهر عطية شعبان	إ.د : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد	أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية	بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية

الإجازة

أجازت لجنة الحكم والمناقشة هذه الرسالة للحصول علي درجة الماجستير في الدراسات
الأفريقية من قسم التاريخ "حديث ومعاصر" بتقدير جيد جداً بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/٥ بعد
إستيفاء جميع المتطلبات .

لجنة الحكم علي الرسالة

أ.د. شوقي عطا الله الجمل

رئيساً
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ بالمعهد

أ.د. رأفت غنيمي الشيخ

عضواً
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ بجامعة الزقازيق

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ بالمعهد

د. ماهر عطية شعبان

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد بالمعهد

مشرفاً
بصوت واحد

مشرفاً

ملخص الرسالة

الطالب / علي بدوي علي سالمين

عنوان الرسالة / الطريقة القادرية و الاستعمار الفرنسي في موريتانيا ١٩٠٣-١٩٦٠
تنقسم الرسالة إلى مقدمة و تمهيد و خمسة فصول و خاتمة .

تناول التمهيد التصوف بشكل عام و الطريقة القادرية و طريقة دخولها إلى موريتانيا و علاقتها بالطرق الأخرى . وتناول الفصل الأول الاحتلال الفرنسي لموريتانيا منذ ١٩٠٣ وحتى ١٩٣٤ ثم المخططات الفرنسية في موريتانيا حتى السيطرة عليها ويعالج الفصل الثاني القوى القادرية و مواقفها من الاستعمار الفرنسي و بالجماعات المؤيدة للاستعمار ووجه التعاون معه و كذلك القوى المعارضة للاستعمار وعلاقة القادرية بالسلطات المحلية و القوى الخارجية أما الفصل الثالث فيدور حول الدور الثقافي للطريقة القادرية و أثر هذا الدور على المقاومة من خلال المحاضر في موريتانيا أما الفصل الرابع فيدور حول الطريقة القادرية والإدارة الفرنسية منذ سنة ١٩٣٤ و حتى الاستقلال سنة ١٩٦٠ . أما الفصل الخامس فيركز على آثار الاستعمار سواء كانت سياسية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية ويختم الباحث رسالته بخاتمة تتناول أهم ما توصلت إليه الرسالة من خلاصة للدور الصوفي للطريقة القادرية ومقاومة الاستعمار الفرنسي في موريتانيا و أرفق الباحث عدداً من المخطوطات و الوثائق التي تؤيد وجهة نظره .

ABSTRACT

Name : Ali Badawy Ali Salman.
Nationality : Egyptian.
Degree : Master of Arts.
Specialization : Modern African History.
Supervisors : Prof. Dr. Abdulla Abdelrazik
Dr. Maher Attia Shaaban.

Title of the thesis " The Quadiri Order and French colonization of Mauritania.

Summary :

The Thesis is divided into an introduction and a preliminary chapter and five other chapters and a conclusion.

The Preliminary chapter is about Sufism in general and the Quadiri order and the relation with the other orders in the country.

The First Chapter deals with the French occupation to Mauritania since 1903 till 1934 and the French plans till the colonization of the country.

The second Chapter deals with the Quadiri power and its role against the French and the Powers that sponsored the French.

The Third Chapter focuses on the cultural role of the Quadiri order and its effect on the Mahadirs.

The Fourth Chapter deals with the Quadiri order and the French administration from 1934 till independence.

The Fifth Chapter sheds light on the political, economic, cultural and social effects of the French colonization of Mauritania.

The Thesis ends with the conclusion of the main ideas discussed in the chapters.

The researcher encloses the thesis with a number of documents and manuscripts that are unpublished to assure his point of view about the great role played by the Sufi orders in the face of foreign powers that tried to cancel the Islamic powers in Mauritania. There are also some maps showing the various places of Sufi influence.

الفهرس

المقدمة :	١ - ٢
التمهيد :- التصوف والطرق الصوفية في موريتانيا	٢ - ٤٥
اولا :- التصوف في موريتانيا	٣
- التصوف والصوفية	٤
- تاريخ لفظ التصوف	٥
- مراحل علم التصوف	٦
- عوامل انتشار التصوف	١٣
ثانيا :- الطرق الصوفية في موريتانيا	١٧
- الطريقة القادرية	١٧
- انتشار الطريقة القادرية في افريقيا	٢١
- فروع الطريقة القادرية	٢٤
- الطريقة القادرية البكاية	٢٥
- الطريقة القادرية الفاضلية	٢٦
- طرق اخرى في موريتانيا	٢٧
- علاقة القادرية بالطرق الاخرى في موريتانيا	٢٨
- علاقة القادرية بالطرق الاخرى من حيث الاسانيد	٢٩
ثالثا :- الفرنسيين وعلاقتهم بموريتانيا قبل الاحتلال سنة ١٩٠٣	٣٢
- تاسيس فرنسا اول محطة عند نهر السنغال	٣٤
- نتائج البعثات الكشفية في موريتانيا	٣٧
- اوضاع موريتانيا الداخلية قبل قدوم الفرنسيين	٤٠
الفصل الاول :- الاحتلال الفرنسي لموريتانيا من ١٩٠٣-١٩٣٤	٤٦
اولا :- الاحتلال الفرنسي لموريتانيا	٤٧
- وسائل فرنسا لاحتلال موريتانيا	٥٤
- اهداف فرنسا لاحتلال موريتانيا	٥٥
- مراحل احتلال فرنسا لموريتانيا	٥٧
- التدخل الفرنسي المباشر	٥٨
- المراحل التنفيذية لاحتلال فرنسا لموريتانيا	٦٠
- احتلال الوسط والشمال (تكانت وادرار)	٦٣
- نتائج احتلال ادرار	٧٠
ثانيا :- المخططات الفرنسية في موريتانيا	٧٢
ثالثا :- السياسة الفرنسية في موريتانيا	٧٥
- سياسة فرنسا تجاه الطرق الصوفية في موريتانيا	٨٠
- اخطاء الادارة الفرنسية في موريتانيا	٨٤
الفصل الثاني :- موقف الموريتانيين من الاستعمار الفرنسي	٨٥
- اسباب المقاومة	٨٧
اولا :- القوى الموريتانية ومواقفها من الاستعمار الفرنسي	٨٨
- عوامل ضعف المقاومة ونهايتها	٩٣

٩٤	ثانيا :- القوى القادرية ومواقفها من الاستعمار الفرنسي
٩٦	- القوى القادرية المؤيدة للاستعمار
٩٩	- الشيخ سعد أبيية
١٠٠	- الشيخ التراد العباس
١٠٣	- تقييم موقف القطب المؤيد للاستعمار الفرنسي
١٠٤	- القوى القادرية المعارضة للاستعمار الفرنسي
١٠٨	ثالثا :- علاقة القادرية بالسلطات المحلية
١١٢	- حرب شربية
١١٤	- ناصر الدين
١١٥	- نتائج حرب شربية
١١٦	- علاقة القادرية بالقبائل والامارات
١١٧	- علاقة القادرية بالامارات
١١٨	رابعا :- علاقة القادرية بالقوى الخارجية (فى افريقيا)
١٢٠	- علاقة القادرية بالقوى الخارجية الاوربية
١٢٦	الفصل الثالث :- الدور الثقافى للطريقة القادرية ودورها فى المقاومة
١٣٠	- اولاً :- المحاضر فى موريتانيا
١٣٥	- تطور المحاضر عبر التاريخ
١٣٦	- علاقة المحاضر بالمعاهد الدينية الاخرى
١٤٠	- حرب شربية وازدهار المحاضر
١٤٥	- اثر المحاضر فى المجتمع الموريتانى
١٤٦	- المواجهة بين المحاضر والاستعمار الفرنسي
١٥٠	- ثانيا :- الصلة بين القادرية والمحاضر
١٥٧	- ثالثا :- النظام التعليمى للصوفى القادرى
١٦٣	- النظام التعليمى المحظرى
١٦٤	- السياسة التعليمية الفرنسية فى موريتانيا
١٧٢	- رابعا :- الشيخ ماء العينين ودوره فى المجال الثقافى والروحى واثرة على المقاومة
١٧٣	- علاقة الشيخ ماء العينين بسلاطين المغرب
١٧٦	- دور الشيخ ماء العينين فى المقاومة الثقافية
١٨١	الفصل الرابع :- القادرية والادارة الفرنسية من ١٩٣٤ - ١٩٦٠
١٨٤	اولاً :- الادارة الفرنسية فى موريتانيا
١٨٤	- السياسة الادارية الداخلية
١٨٩	ثانيا :- السياسة الفرنسية فى موريتانيا ١٩٣٤ - ١٩٦٠
١٩٠	- تطور سياسة فرنسا فى موريتانيا بعد الحرب العالمية الثانية
١٩٥	- الاتحاد الفرنسى بعد ١٩٤٤ وموقع موريتانيا فيها
٢٠٢	ثالثا :- الطريقة القادرية والحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الفرنسى حتى الاستقلال
٢٠٥	- الحركة الوطنية ودور رجال الطريقة القادرية حتى الاستقلال
٢١٣	الفصل الخامس :- اثار الاستعمار الفرنسى فى موريتانيا
٢١٤	اولاً :- الاثار السياسية
٢١٨	ثانيا :- الاثار الاقتصادية
٢٢٦	ثالثا :- الاثار الاجتماعية
٢٤١	- هجرة الموريتانى المبعود

٢٤٣	رابعاً :- الآثار الثقافية
٢٤٧	- أثر التعليم الاستعماري على الثقافة الإسلامية
٢٤٩	الخاتمة
٢٥٨	الملاحق
٢٥٩	وثائق منشورة
٢٥٩	وثائق غير منشورة
٢٦٠	مكتبة البحث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد
النبي الأمي الأمين صلي الله عليه وعلي آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم
بإحسان الي يوم الدين “

" ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير "

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

كان لموقع موريتانيا (شنقيط) كما كانت تعرف عبر العصور الإسلامية على الحدود الغربية للوطن العربي بين خطي الطول ١٧°٥ غربا وبين دائرتي العرض ١٦ - ٢٧ شمالا ، ويحدها المحيط الأطلسي غربا ، ومن الجنوب نهر السنغال ، ومن الشرق والجنوب الشرقي دولة مالي ومن الشمال الشرقي الجزائر ومن الشمال الصحراء الغربية أهميه كبيرة على خريطة الصراع في منطقة شمال غرب أفريقيا .

ومن حيث العرق يتألفون من القبائل العربية وقلة من القبائل الأفريقية وكان يعيشون على الرعي والزراعة ويعتبر الملح والثروة الحيوانية هما المصدران الأساسيان للاقتصاد . كما أن موريتانيا لم تحظ باهتمام الباحثين العرب علي المستوى الأكاديمي رغم أنها دولة عربية إسلامية إفريقية الأمر الذي أدى إلى نقص ملحوظ في المراجع العلمية العربية ، وإن وجدت كتابات مترجمة للقادة والحكام الفرنسيين أمثال فيدرب وغيره فقد اتسمت كتاباتهم في مجملها بالطابع الاستعماري وتجاهل الحقائق وتشويه تاريخ البلاد وطمس جهود زعمائها وتشويه صورتهم وإن كانت بعض هذه الكتابات قد اقتصرت علي ذكر المعارك التي دارت بين السكان المحليين و الفرنسيين وكثيراً ما كان أصحاب هذه الكتابات يتباهون بانتصاراتهم العسكرية ويتفاخرون بشخصياتهم وكانت كتاباتهم تنصف بالنزعة الاستعمارية والبغض الغريزي لكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين عقيدة وحضارة

- وهذا البحث يهدف الي دراسة الفترة التاريخية من بداية القرن العشرين حتى نالت هذه الدولة الشقيقة استقلالها عام ١٩٦٠م من ناحية الآثار الاستعمارية علي هذه الدولة .

- كما يهدف إلى إظهار دور الطريقة القادرية في مقاومتها للاستعمار الفرنسي بكل أشكال المقاومة عسكرية كانت أو ثقافية . وقد حدد البحث زمنيا بسنة ١٩٠٣ تاريخا لدخول الاستعمار الفرنسي في موريتانيا وبداية الاحتلال وانقسام الطريقة القادرية الى فريقين أحدهما

سيدياباب

-ولهذه الأسباب وقع اختيار الباحث على دراسة الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في الفترة من ١٩٠٣ - ١٩٦٠.

- وقد قسم الباحث الموضوع الى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة .

تناول في التمهيد التصوف عامة من حيث نشأته ومراحل تطوره وانتشاره ودخوله إلى غرب إفريقيا و موريتانيا ثم دخول الطريقة القادرية إلى شمال غرب إفريقيا علي يد أبي مدين شعيب الأشيلي وأهم الطرق الصوفية في موريتانيا وعلاقة هذه الطرق بالطريقة القادرية ثم دخول الطريقة القادرية إلى موريتانيا علي يد الشيخ عبد الكريم المغيلي ومن جاء بعده و صلة التصوف بالقوى الاستعمارية قبل الاحتلال الفرنسي لموريتانيا و التعاليم الأساسية للمدرسة القادرية من مبادئ وأوراد وأحزاب وأفكار وصلوات مع بيان الشروط الواجب توافرها في المريد وعلاقة فرنسا بموريتانيا قبل سنة ١٩٠٣ .

وتناول في الفصل الأول الاحتلال الفرنسي لموريتانيا منذ سنة ١٩٠٣ - ١٩٣٤م ثم المخططات الفرنسية في موريتانيا حتي تمكنت من فرض سيطرتها علي كامل التراب والشعب الموريتاني العنيد الذي قاوم المستعمر بكل ما يملك من قوات كانت ضئيلة عدداً وعتاداً في الوقت الذي كان فيه المستعمر أكثر عدداً وأقوي عتاداً وأحدث أسلحة وأكثر تنظيماً وأعلي معرفة بفنون القتال ووسائله وأساليبه وما اتبعته فرنسا من سياسة في موريتانيا في هذه الفترة .

وتناول في الفصل الثاني القوى القادرية ومواقفها من الاستعمار الفرنسي والجماعات المؤيدة للاستعمار ووجه التعاون معه وأساليبهم في ذلك وكذلك الجماعات المعارضة ومواقفها المختلفة منه ثم علاقة القادرية بالسلطات المحلية والقوى الخارجية .

وتناول في الفصل الثالث الدور الثقافي للطريقة القادرية وأثر هذا الدور علي المقاومة من خلال المحاضر في موريتانيا و صلة القادرية بها و النظام التعليمي الصوفي القادري في

مواجهة النظام التعليمي الفرنسي ودور الشيخ ماء العينين في المجال الثقافي والروحي وأثره على المقاومة.

وتناول في الفصل الرابع الطريقة القادرية والإدارة الفرنسية من ١٩٣٤م إلى الاستقلال ١٩٦٠م و السياسة الفرنسية وموقف الطريقة القادرية من هذه السياسة وكذلك الطريقة القادرية والحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار الفرنسي حتى الاستقلال .

ثم تناول في الفصل الخامس آثار الاستعمار سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية على موريتانيا في فترة الدراسة .

وقد واجه الباحث صعوبات كثيرة في هذه الدراسة خلال فترة البحث منها ندرة المصادر والمراجع الأجنبية وكذلك المخطوطات الأصلية كانت مكتوبة بالخط المغربي القديم وغيره من الخطوط التي كانت متداولة في العصور السابقة لكن بالصبر والجلد والأناة ومساعدة إخوة أفاضل من موريتانيا تم التغلب على هذه العقبة .

وقد اعتمد الباحث على العديد من المخطوطات العربية التي وصلتته من موريتانيا ومن أهمها مخطوط بعنوان " الجواب المحتوم للمنكر علينا في أمر الروم (النصاري) " للشيخ سعد أبيية بن الشيخ محمد فاضل وهو من أقطاب القادرية الذين أيدوا دخول المستعمر الى موريتانيا

وقد استفاد من الباحث في توضيح ما استند إليه مؤيدي الاستعمار الفرنسي من أساليب وأدله من الكتاب والسنة في موقفهم تجاه الفرنسيين .

وكذلك مخطوط " هداية من حار في أمر النصاري " للشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل وهو من أقطاب الطريقة القادرية الراقضين المعارضين المقاومين للمستعمر الفرنسي وقد استفاد من الباحث في ردة على الذين هادنوا المستعمر الفرنسي واستندوا لموقفهم هذا الى القرآن والسنة النبوية المطهرة.

وكذلك الى العديد من رسائل الأمراء الى الفقهاء ورسائل الأمراء الى الولاء الفرنسيين ورسائل الشيخ ماء العينين التي يدعو فيها الى الجهاد في سبيل الله .
وكذلك استطاع الباحث الحصول على صورة من تقرير كوبولاتي مهندس الاحتلال البريطاني الى الحاكم العام الفرنسي لغرب إفريقيا بعد أن كلفة حاكم السودان الفرنسي ترنبيان

Trintinan بمهمة التعرف على سكان موريتانيا سنة ١٨٩٨ لإخضاعهم للسلطة الفرنسية واستفاد الباحث من هذا التقرير فى توضيح أهمية موريتانيا الاستراتيجية وظهور اسمها رسميا لأول مرة .

اعتمد الباحث على العديد من المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى وصلته من موريتانيا والتى أفادت الباحث فى إنهاء هذه الدراسة .

وفى النهاية لايسعنى إلا أن أتقدم بخالص شكرى بعد حمد الله وشكره إلى أستاذى الأستاذ الدكتور / عبد الله عبد الرازق إبراهيم استاذ التاريخ الحديث والوكيل السابق بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة الذى لم يبخل على بعلمه وتوجيهاته طيلة مراحل البحث وكان لتشجيعه المتواصل وعلمه الغزير ونصائحه المفيدة ووقوفه بجانبى ناصحا مخلصا وموجها عارفا أثره فى إخراج هذا البحث الذى أرجو أن يحوز الرضا والقبول ، ولا يفوتنى أن أشكر الدكتور / ماهر عطية شعبان ، الأستاذ المساعد بقسم التاريخ على توجيهاته والوقوف بجانبى وإسدائه النصيح والإرشاد لى طوال فترة إعداد الرسالة فله منى خالص الشكر وأجزله ، ولا يفوتنى إلا أن أتقدم بالشكر العظيم والتقدير إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث حتى يتسنى لى الاستفادة من ملاحظاتهم القيمة كما أتوجه بالشكر إلى الأخوة الماجد من الدولة الشقيقة موريتانيا والذين ساعدونى وأعانونى بكل ما يملكون من مادة علمية مكتوبة أو شفوية كما أشكر زملائى بالعمل بالأزهر الشريف لمساعدتهم لى وتشجيعهم لى طوال فترة البحث كما أتقدم بخالص شكرى وتقديرى للسادة العاملين بمكتبة معهد البحوث والدراسات الأفريقية

التمهيد

التصوف والطرق الصوفية في موريتانيا

اولا : التصوف في موريتانيا .

ثانيا : الطريقة القادرية – مبادئها – فروعها – أورادها .

ثالثا : أهم الطرق الصوفية في موريتانيا .

رابعا :- الفرنسيون وعلاقتهم بموريتانيا قبل الاحتلال

أولاً: التصوف في موريتانيا :
التصوف و الصوفية :

اختلف المؤرخون حول نشأة التصوف واختلفوا حول كلمة التصوف هل هي عربية أم يونانية. والحقيقة ان هذه الكلمة تعددت حولها التفسيرات ، فهناك من يقول أن كلمة صوفي نسبة إلى رجل من بني صوفة انقطع إلى خدمة البيت الحرام وتشابه مع الصوفية في إنقطاعهم للعبادة^(١)، ومنهم من يقول أن كلمة صوفي نسبة إلى الصفاء (٢) ومنهم من يقول أنها كلمة سوفيا اليونانية (٣) ومنهم من يقول أنها نسبة إلى الصفا حيث يكون الصوفية في الصف الأول لمقامهم ومكانتهم بين البشر (٤) ، ومنهم من يقول أنها نسبة إلى أهل الصفة وهم مجموعة من الصحابة كان مجلسهم في مؤخرة مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم بالمدينة وانقطعوا للعبادة في شوق ولهفة وحال الصوفية يشبه حالهم (٥) ، ومنهم من يقول أن صوفي من ملابس الصوف لأنه كان لباس أهل الزهد والتقشف والنسك (٦) ، ومنهم من يقول أن الصوف نسبة إلى صوفة فقد ذكر ابن الجوزي أن المشابهة بعيدة حيث إنقطاع صوفة للمسجد الحرام كان طلبا للرزق والعيش اما إنقطاع الصوفية فهو إنقطاع فيه رغبة في الجنة وهروب من الدنيا (٧) ، ومن قال إن الصوفية من الصفا بعيد عن مقتضى اللغة يقول القشيري " ومن قال أنها من الصفاء فإشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد عن مقتضى اللغة " . ومن قال أنها نسبة إلى كلمة صوفيا اليونانية فهذا الرأي يصفه رأى الدكتور زكي مبارك فيقول : " لم لا تذهب إلى عكس ذلك وأن كلمة سوفيا مأخوذة من كلمة صوفي التي عرفها العرب في جاهليتهم(٨) ، وردوا علي من قال إن الصوفي جاء من كون الصوفية في الصف الأول بين يدي الله عز وجل وذلك لإرتفاع همهم لأنه أي النسب غير مناسب بقياس اللغة وإشتقاقها ، وكذلك علي من قال بانهم نسبة إلى أهل الصفة ومشابهة حال الصوفية لحال أهل الصفة فهو أيضا غير مناسب للإشتقاق اللغوي (٩)

ويرى الباحث كما يرى الغالبية العظمى من المحدثين بان أرجح الأقوال من قال أن الصوفية تنسب إلى لبس الصوف يقول الدكتور عبد الحليم محمود في دراسته للتصوف

١- ٧ ابن الجوزي - تلييس ابليس القاهرة - ١٣٦٨ هـ - ص ١٦١

٢- ٤ القشيري : الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٣٨ .

٣- ٨ زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٦٦

٤- ٨ السهروردي : عوارف المعارف علي هامش الأحياء ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٣٣٧ .

٥- ٦ عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، المجلد الأول ، بيروت ١٩٦٧ ص ٣٩٠ .

ومما يذكر أن أول خانقاه بنيت للصوفية كانت بالرملة بفلسطين وإن الذي أسسها كان أميراً مسيحياً فهذا المبدأ الذي بالتصوف وهو الإنقطاع في الزوايا بعيداً عن الناس في الصحراء والجهاد كما يفعل المسيحيون في الأديرة (١) .

ومن هذا يتضح أن الصوفية قوم جدوا في عبادتهم واتخذوا منهمج من الكتاب والسنة وتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتسبوا إلى التصوف لغالبية لباسهم للصوف ، وبين التصوف القديم وبين الطرق الصوفية المعاصرة مسافة شاسعة بل تكاد العلاقة مقطوعة ، والتصوف أنواع منها التصوف الفلسفي ومنها التصوف السلوكي الأخلاقي وقد تقبل المسلمون التصوف السلوكي أي قبلوا التصوف في الأخلاق والأداب والشمائل والذكر والعبادات (٢) .

تاريخ لفظ التصوف:

قيل إن لفظ صوفي أول ما استعملت في كتابات الجاحظ في كتابه البيان والتبيين حيث يقول " إن الصوفية من النساك " (٣) ، وهذا الرأي ذكره الدكتور عبد الدايم ابوالعطا في كتابه عن التصوف (٤) ، وقيل إن التصوف ظاهرة دينية وفكرية ومفهوم معين للإسلام عرف منذ القرون الأولى للهجرة زهداً وتنسكاً ثم تطور في التنظيم والهيكله حتى غدا سلطة مركزية تحكم حياة الناس وتنظمها في إطار روحي وسامه وقوامه فلسفة روحية تركز على الذكر والإعتكاف وفق أساليب تربوية مرفهة يتحملها المريد طاعة الله حتى تذكو نفسه وترقي إلى معارج عليا من الإيمان وتنبؤا منازل سامية من الصفاء والإشراق (٥) .

ويقول كاتب مادة التصوف في دائرة المعارف الإسلامية " ورد لفظ صوفي لقباً منفرداً لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري إذ نعت جابر بن حيان وهو صاحب علم الكيمياء شيخاً من أهل الكوفة له مذهب خاص وأطلقت هذه اللفظة أول ما أطلقت علي أبي هاشم الصوفي الذي قال عنه سفيان ، " لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقائق الرباء " (٦) .

ولقد أجمع معظم الدارسين علي أن التصوف كان وليد وضع داخلي في الحياة الإسلامية في القرن الثاني الهجري وقد إمتاز بتناقضات صارخة تجسدت في الثراء الفاحش لبعض الطبقات و الفقر المدقع للطبقات الأخرى تجلى في الإستبداد السياسي وعجز الكثيرون عن التصدي له مما دفع بالكثيرين إلى مؤامرة السلامة واللجوء إلى العزلة والإنزواء والتفرغ بإصلاح النفس (٧) .

والصوفية الصادقون هم المظهر الحقيقي للزهاد الأولين أو عباد الصحابة ولقد أثبت كارادي في كتابه عن العقيدة الإسلامية " أن القول بتأثير التصوف الإسلامي في الصوفية المسيحية أقرب إلى القبول وموافقة الواقع من العكس " (٨) .

١- أبو حامد الغزالي : مرجع سابق ، ص ٣١٩ .

٢- السهروردي : مرجع سابق ، ص ٣٣٢ .

٣- عبد الرحمن بن خلدون : مرجع سابق ، ص ٣٩٠ .

٤- محمد ثابت وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء الخامس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٦٥ .

٥- Hiskett M : the development of Islam in west Africa , London 1972 , P288 .

٦- عبدالله عبد الرازق إبراهيم : أضواء علي الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ، القاهرة ١٩٨٩

ص ١٣ .

٧-

وصفة الصوفي أن الخوف قوامه والذل لله حليته والرهبة باطنه والرغبة ظاهره والخير مراده والصبر أنيسه والرضا رفيقه والشكر زاده والثقة كنزه والفكر طريقه والتسليم مذهبه والتواضع رفعتة والفقه منهجه والصدق ضالته والاخلاص مراده والرسول صلى الله عليه وسلم مقصوده والله سبحانه وتعالى معبوده والشكر ذكره والدعاء عمله وما يقرب الي النار عدوه وما يقرب الي الجنة اليقه وبر الوالدين سروره وصلة الرحم وإدخال السرور علي عباد الله وصوله والرحمة بخلق الله تعالى خطوته والقرآن الكريم خلوته والحضور بقلبه مع الحق سبحانه وتعالى جلوته (١) .

مراحل علم التصوف وتطوره :

مر التصوف بمراحل عديدة لعل من أهمها:

المرحلة الأولى

بدأت هذه المرحلة في القرنين الأول والثاني الهجريين و تسمى بمرحلة الزهد فقد كان هناك أفراد من المسلمين أقبلوا علي العبادة بأدعية و قربات وكانت لهم طريقة زهد في الحياة تتصل بالمأكل والملبس و المسكن وقد أرادوا العمل من أجل الآخرة فآثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك ونضرب لأولئك مثلاً الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ (٢) ، ورابعة العدوية المتوفاه سنة ١٨٥هـ (٣)، وعبد الله بن المبارك (٤) وسعدون (٥) ، وإبراهيم بن أدهم (٦) .

١- الشيخ محمد ماضي ابو العزائم - صفحات من حياته ج ١ دار الهلال القاهرة ص ١٩٨
٢- الحسن البصري وكنيته أبو سعيد كان أبوه إيرانيامن مسيان وسباه المسلمون عند فتح العراق وسكن المدينة المنوره وقد اعتنقهم من كان عندهم من الأنصار وولد ابنه الحسن فيها عام ٢٢هـ وغادرها إلى البصرة وأقام إلى أن توفي عام ١١٠ هـ . لمزيد من التفاصيل أنظر ، عثمان السعيد : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

٣- هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك وتوفيت سنة ١٨٥ هـ ودفنت بالبصرة أطلق عليها أنها شاعرة المحبة الإلهية عند الصوفية وكانت تمثل مذهب الزهد مع الحب وكانت في حياتها زاهدة عابدة . لمزيد من التفاصيل أنظر . عثمان السعيد : التصوف ز

٤- ولد سنة ١١٨ هـ وكانوا يقدمونه في الأدب علي سفيان الثوري ومن أقواله علي العاقل ألا يستخف بثلاثة العلماء والسلطان والإخوان توفي سنة ١٨١ هـ بقرية هيت قرب نهر الفرات بعد عودته من احدي الغزوات وكانت إقامته بخراسان (طبقات الشعراني) .

٥- يوصف بالمجنون وكان ينادي بالليل يا نيام انتبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة فإن الموت يأتي بغتة (طبقات الشعراني ص ٦٨) .

٦- هو أبو اسحاق إبراهيم بن أدهم منصور من كورة بلغ من أولاد الملوك توفي سنة ١٦١ هـ وكان يوصي بأكل الحلال فإنه مقرب الي رضوان الله (موسوعة الحفني ص ١٦) .

المرحلة الثانية :

وظهرت منذ القرن الثالث الهجري حيث نجد الصوفية وقد عنوا بالكلام في دقائق احوال النفس والسلوك وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعلمهم فصار التصوف علي أيديهم علما للأخلاق الدينية وكانت سماعتهم الأخلاقية تدفعهم الي التعمق في دراسة النفس الانسانية ودقائق أحوال سلوكها وكانت تدفعهم إلي الكلام في المعرفة الذوقية واداتها ومنهجها والي الكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها وظهر الكلام في الغناء الصوفي خصوصا البسطامي (١) ، ونشأ من ذلك كله علم للصوفية حيث يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية وله لغته الإصلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم وتحتاج في فهم مراجعها إلى جهد غير قليل ومن أعلام هذه المرحلة أبو سليمان الداراني المتوفى سنة ٢٠٥هـ (٣) ، وأبو الحسن النوري المتوفى سنة ٢٠١هـ (٣) ، والحارث المحاسبى ت ٢٤٣ (٤) ، والمري السقطي ت ٢٤٥ (٥) ، وذو النون المصري ت ٢٤٥ (٦) ، أبو سراج النخشبى ت ٢٤٥ (٧) ، وأبو يزيد

١ - من كبار الصوفية أبو يزيد طيفو بن عيسى (١٨٨-٢٦١ هـ) من بسطام خراسان له مذهب الطيفورية وهو مذهب في المحبة الصوفية اشتهر بالشطح وهي كلمات تصدر عن الصوفي في حال وجدته وذهوله .

٢ - هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني وهو من أهل داريا وهي قرية من قري الشام وهو من رواة الحديث وعلماء التصوف ومشايخ القوم ، وله كلام في هذا العلم مصحوب بالعمل توفي سنة ٢٩٥ هـ .

٣- هو احمد بن محمد وقيل محمد بن محمد وشهرته أبو الحسن ولقبه النوري خراساني الأصل من أجل المشايخ وعلماء القوم ولم يكن في وقته أحسن طريقة منه ولا ألطف كلاما توفي سنة ٢٩٥ هـ .

٤- هو أبو عبد الله الحارث بن المحاسبى من علماء ومشايخ القوم اشتغل بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات و الإشارات وله كتب مشهورة فيها الرعاية لحقوق الله وهو من أهل البصرة توفي سنة ٢٤٣ هـ .

٥- هو أبو الحسن سري بن المفلس السقطي يقال انه خال الجنيد واستاذة صاحب معروفا الكوفي وهو اول من تكلم منفردا في لسان التوحيد وحقائق الاحوال ويعتبرونه امام اهل بغداد وشيخهم في وقته ، توفي سنة ٢٥١ هـ .

٦- هو أبو الفيض ثوبان ابن ابراهيم الاخميمي المصري وهو من النوبة كان فائق في التصوف واوحد وقته علما وورعا وحالا وإدبا قال عنه نيكلسون هو احق رجال الصوفية علي الاطلاق ان ينسب اليه انه واضع اسس التصوف وقد اعترف له بالفضل كتاب التراجم والمؤرخون من المسلمين ويقول عنه جامي في كتابه نفحات الانس هو راس هذه الفرقة قالكل قد اخذ عنه وانتسب اليه وكان اول من فسر اشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق وكان له اكبر الاثر في تشكيل الفكر الصوفي (٢٨٣-٣٥٣ هـ) عبد المتعم الحفني الموسوعة الصوفية ص ١٦٥ .

٧ - هو أبو تراب عسكر بن حصين نسبة الي نخشب مسقط رأسه من بلاد خراسان صاحب حاتم الاصم وهو علي عكس المعروف عن الصوفية لا ينصح المريدين بالأسفار وهو يقول لا أعلم شيئا أضر عليهم من أسفارهم علي متابعة قلوبهم ونفوسهم وما فسد من فسد من المريدين الا بالأسفار الباطلة وكان اصحابه كثيرا ومع ذلك قلما مات كان وحده بالبادية فنهشته السباع سنة ٢٤٥ هـ .

البسطامي ٢٦١ (١) ، والتستري ٢٨٣ (٢) ، والحراز ٢٨٦ (٣) ، والقصار النيسابوري
ت ٢٧١ ، والحلاج ت ٢٩٨ (٤) .

وفي هذه المرحلة نجد بعض المشايخ يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيته
فتكونت لأول مرة الطرق الصوفية في الاسلام والتي كانت آنذاك بمثابة المدارس
التي يتلقى السالكون فيها اداب التصوف علما وعملا (٥) .

المرحلة الثالثة :

كانت في القرن الخامس الهجري حيث كان الامام الغزالي الذي لم يقبل من
التصوف الا ما كان متمشيا تماما مع الكتاب والسنة حيث انتهى الامر الى ارساء
قواعد التصوف المعتدل الذي يساير الشريعة وفي هذه المرحلة والتي كان يمثلها
الامام الغزالي - اصبحت التصوف طريقا ذوقيا ومنهاجا روحيا يوصل الي المعرفة
ويستعان به علي تحقيق السعادة في الدارين الامر الذي ترتب عليه ان اصبحت
التصوف هنا مخالفا لعلم الكلام بعد ان كان مخالفا لعلم الفقه (٦) .

وقد كان الامام الغزالي يري في منهجه الي الزهد والتقشف وتهذيب النفس
واخلاصها وقد عمق الكلام في المعرفة الصوفية علي نحو لم يسبق اليه وحمل علي
مذاهب الفلاسفة والمعتزلة والباطنية وانتهى به الامر الى ارساء قواعد نوع من
التصوف المعتدل الذي يساير مذهب أهل السنة والجماعة ويخالف تصوف الحلاج
والبسطامي في الطابع .

١ - هو أبو محمد سهل بن عبد الله يونس بن ربيع التستري أحد أئمة القوم
وعلمائهم المتكلمين في علوم الرياضيات والاخلاص توفي سنة ٢٨٣هـ وتلقي
التصوف علي خاله محمد بن سوار والنقي بذو النون المصري .
٢ - أبو القاسم الجنيد بن محمد الحراز وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال له
القواريري وأصله من نهاوند ومولده ومنشأه في العراق وكان فقيها وهو من أئمة
القوم وسادتهم ومقبول علي جميع الألسنة توفي سنة ٢٩٧هـ .

٣ - عثمان السعيد الشرقاوي : التصوف حكمه وأركانه وخصال أهله ، القاهرة
٢٠٠٠ ، ص ٣٣ .

٤ - أبو الوفا النفتازاني : مرجع سابق ، ص ١٨ .

٥ - عثمان السعيد الشرقاوي : التصوف حكمه وأركانه وخصال أهله ، القاهرة (د/ت)
ص ٣٤ .

٦ - أبو الوفا النفتازاني : مرجع سابق ، ص ص ١٨ - ١٩ .

المرحلة الرابعة :

وكانت في القرن السادس الهجري حيث اخذ نفوذ التصوف السنّي في العالم الاسلامي يزداد بتأثير عظيم بشخصية الامام الغزالي حيث ظهر صوفية كبار كونوا لأنفسهم رتباً لتربية المريدين منهم الامام الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٠هـ والشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ علي انه منذ القرن السادس الهجري ، ايضاً نجد مجموعة اخرى من شيوخ التصوف الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة فجاءت نظرياتهم بين لاهي تصوف خالص ولا هي فلسفة خالصة نذكر من هؤلاء الشيخ السهروردي صاحب كتاب حكمة الاشراق ت ٥٤٩ والشيخ محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢هـ وابن سبعين المرسّي ت ٦٦٩هـ ، ومن هنا نحوهم في التصوف وواضح انهم استفادوا من عديد من المصادر والآراء الاجنبية كلفلسفة اليونانية وقد قدم لنا اولئك الصوفية نظريات عميقة في النفس والاخلاق والمعرفة والوجود لها قيمتها من الناحية انفسية والصوفية كما كان لها تأثيرها على من تلاهم من الصوفية المتأخرين (١) .

المرحلة الخامسة :

وكانت في القرن السابع الهجري حيث ظهر أئمة آخرون ساروا على نفس الطريقة وكان من ابرزهم ابو الحسن الشاذلي سنة ٦٥٦ هـ ، و تلميذه ابو العباس المرسّي سنة ٦٨٦ هـ وتلميذه ابن عطاء الله السكندري سنة ٧٠٩ هـ وهم اركان المدرسة الشاذلية في التصوف ويعتبر تصوفهم امتداداً للتصوف الغزالي السنّي وهي مرحلة ظهر فيها التطور الصوفي والتوسع في المجال الروحي (٢) .

على انه قد اصاب التصوف في عصوره المتأخرة " منذ القرن الثامن الهجري" تقريباً الى العصر الحاضر شيء من التدهور فأتجه أصحابه الى الشروح والتلخيصات لكتب المتقدمين كما يعنى أصحابه من الناحية العلمية بدروب من الطقوس

١ - عودة عبد الرحمن السيد الشوكي : الحياة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط ، رسالة دكتوراه ،

غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٥ .

٢ - أبو الوفا التفتازاني : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

والتشكيلات ابعدتهم فى كثير من الحياة عن جوهر دعوتهم وكثر اتباع التصوف فى عصوره المتأخرة ولكن لم تظهر من بين هذه الكثرة شخصيات لها ما لشخصيات التصوف الاول من مكانة مرموقة ولعل هذا التدهور راجع إلى عصر العثمانيين وعلى كل حال فان إنحراف بعض الصوفية فى بعض عصور التاريخ لا ينهض دليلا على فساد دعوتهم.

واذا كانت ثمة منكرات اخلت على القوم - اهل التصوف - او يدع تسربت اليهم فى حين انها لاكتفق مع ما ارادوه لأنفسهم وللناس فإى جماعة لم يبدى فيها المبتدعون ، وأى عقيدة لم تنتصق فيها طقليات تحاول امتصاصها والقضاء عليها وقد بين الإمام ابن تيمية ان هناك صوفية الحقائق وصوفية الاخلاق وهم الصالحون الصادقون ، وهناك صوفية الإرتزاق وهم الذين لا يهمنهم امرهم فى هذا الحديث . ومن صور مواقف صوفية الإرتزاق أنه وصل الأمر بهم إلى تأليب الاستعمار ضد الوطنيين وقياداتهم يكشف مواقفهم وإعطاء أسماء البعض منهم ليسهل ضربهم (١).

أما عند الحديث عن تاريخ الثقافة الاسلامية فى موريتانيا فقد بدأ يتشكل ابتداء من اواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وتبلور على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلادى) ، وذلك عندما فتح المسلمون بلاد المغرب وكانت قبائل صنهاجة الجتوية (الملتمون) ، تنتشر فى تلك الرقعة الفسيحة من الصحراء التى تمتد من جبال اطلس الكبرى (درنة) فى الشمال إلى نهر السنغال فى الجنوب وتصل الى منحى نهر النيجر فى الشرق بل تتخطى هذا النهر الى تاد مكة (٢) فى قلب الصحراء الكبرى بمعنى انها كانت تنتشر فى موريتانيا وتمتد لتشمل جزاءا كبيرا من منطقة مالى كذلك (٣) .

١-التلى العجلى :الطرق الصوفية والإستعمار الفرنسى بالبلاد التونسية ، منشورات كلية الآداب ، جامعة تونس ١٩٩٢ ، ص ١٥٤ .

٢- تاد مكة: من المدن التجارية ومن المحطات الرئيسية فى غرب إفريقيا فى العصور الوسطى

٣- عودة عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٥٣ .

واستطاع عقبة بن نافع ان يقضى على مقاومة قبائل البرانس في المغرب ثم تدفق بقواته الى المغرب الاقصى حتى طنجة وبدأت صنهاجة المغرب الاقصى تدخل في الاسلام وتتصل بالفاتحين وتكثرت جهوده البشرية في نشر الاسلام في إقليم الريف بالنجاح ثم اتجه الى إقليم السوس الأدنى وانتصر على قبائل المصامدة ثم وصل تقلمه حتى ادرك مدينة فاس الكبرى بالسوس الاقصى وفتح مدينة نقيس القريبة من اغماد (١) .

وزحف عقبة الى مدينة نول على ساحل المحيط الاطلسي في اقصى بلاد المغرب وهذا يعني انه توغل في موطن الملتمين ورغم ان كلا من قبيلة مسوفة وملتونة قد قامتا دفاعا عن كيانهما إلا ان عقبة تمكن من هزيمة مسوفة واخضاع (الملتمين) لسلطان الاسلام فاستكانت هذه القبائل ولم تعد الى المقاومة كما عمد عقبة الى بناء مسجد في مدينة ماسة وبناء هذا المسجد يدعو الى ان ثمة تحول الى الاسلام قد ظهر بين الملتمين (٢) . على أن الهجرات العربية كان لها الأثر الأكبر في توطيد ودخول الإسلام إلى موريتانيا ومن أبرز الهجرات العربية وأكثرها اثرا في تكوين

البيئة الموريتانية العربية الحالية بدءا مع هجرة بني هلال واحلافهم واعتبارا من القرن الحادي عشر الميلادي كما انبعثت من هذه الهجرات حركة اصلاحية كبرى اضطلع بها المرابطون يصحبها تحمس شديد في نشر الاسلام في البلاد المحيطة (٣)

ولقد شهد القرن العاشر والحادي عشر اكبر انتشار للإسلام في ربوع موريتانيا حيث قام المرابطون عن طريق الفتوحات الاسلامية وعن طريق بث الدعاة للنشر رسالة الاسلام في حوض السنغال بقيادة عبد الله بن ياسين ، فقد ذكر بعض المؤرخين ان يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة خدالة البربرية وصاحب مدينة ادغست في صحراء شنقيط قد عاد من الحج في اوائل القرن الحادي عشر مصطحبا معه عبدالله

١- حسن ابراهيم حسن : إنتشار الإسلام في الفارة الأفريقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٨٧ .

٢- ابو عبد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ١٦٠ .

٣- احسن احمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٤ .

بن ياسين الفقيه القيرواني ليقوم بتعليم قبيلته وكان هذا شعلة من الحماس لنشر الاسلام
والجهاد في سبيله (١)

ولقد دخلت الصوفية الاندلس في فترة مبكرة وعلي يد ابن مسرة منذ طلائع القرن الرابع
الهجري ومنه انتقلت الي المغرب لكنها لم تنتشر بسرعة لمضايقة دولة المرابطين لها حيث
كبحت جماحها وتابعت اصحابها متهمة اياهم بالزندقة وما أن أفل نجم دولة المرابطين
حتى كان التصوف ينتعش ويتخذ لنفسه منزلة بين الناس وذلك تحت نفوذ دولة الموحدين
التي تعتبر الخصم اللدود لدولة المرابطين فكثرت زوايا التصوف وانتشرت علي نطاق
واسع فقد شهدت الطرق الصوفية ابتداء من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر
الميلادي) انتعاشا كبيرا مستقلة عن الامارات الحسانية وذلك تحت تأثير الجزولي (٢)
وتلاميذه ومن المؤكد أن الطرق الصوفية لم تنتشر انتشارا واسعا الا مع بداية القرن الثالث
عشر الهجري .

حيث اضطلعت بدور سياسي رائد اذ انها كانت اداة لتعويض السلطة المركزية في البلاد
ووسيلة لمحازية الاستعمار (٣)

وقد كانت الصحراء لها السهم الاوفر في الاقبال علي مشايخ التصوف وزواياهم
مبكرا حتي عرفت البلاد " بداية من القرن التاسع الهجري بأرض الأولياء " وترسخت
الطرق الصوفية في المنطقة وأصبحت تزحف حاملة معها تعاليم الاسلام الي المناطق
المجاورة من افريقيا مكونة لنفسها سلطة مستقلة عن الامارات الحسانية ولقد كانت الطرق
الصوفية من حيث وجودها و تنظيمها سابقة لظهور الامارات الحسانية في البلاد لذلك ،
كان لابد من معرفة دورها في المقاومة الوطنية في موريتانيا واعطائها حجمها الحقيقي
في المقاومة ضد المستعمر .

١- علي بن عبد الله بن ابي زرع الفاسي : الاقيص المطرب في آخير ملوك المغرب ، ج ٢ ، الرباط ١٩٣٦ ، ص ٨٩

٢- هو ابو عبد الله محمد بن سليمان السملالي الجازولي الشاذلي (٨٠٧ - ٨٧٠ هـ) صاحب كتاب
دلائل الخيرات وهو مجموعة صلوات علي النبي صلى الله عليه وسلم وهو منشئ الطريقة الجازولية
الشاذلية كان الي جانب ثقافته الواسعة بالطرق الصوفية فقيها متمكنا يحفظ عن ظهر قلب المدونة
وغيرها من امهات الكتب قيل انه ربي اكثر من ثلاثة الاف تلميذ (الموسوعة الصوفية) عبد المنعم
الحفني - ص ١٠٢

٣- عودة عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

أما سنة ١٩٣٤ فهي علي مستوى موريتانيا كانت نهاية الدور المسلح للمقاومة وإن ظل الدور الثقافي بارزا في مقاومة الاستعمار الفرنسي وفي هذه الفترة الثانية ومع الحرب العالمية الثانية تميزت ببداية النقص للقوى التقليدية متمثلة في الطرق الصوفية كقيادات دينية كان لها اثرها ودورها البارز والفعال وكذلك امراء الامارات من بني حسان كان الدين الإسلامي هو الركيزة الاولى التي ساعدت علي الوحدة الوطنية في موريتانيا كما كانوا يتبعون المذهب المالكي .

كما كان يتبع معظم السود وخاصة (التكرور) الطريقة التيجانية وتبع أكثر البيض الطريقة القادرية وقد طبعت التقاليد والبيئة المحلية تلك الطرق الصوفية بخصائص معينة في جعل الطرق الصوفية في موريتانية تختلف عن كثير من الطرق المشابهة التي ظهرت في العراق ومصر . ولقد تمتعت الزوايا الصوفية بسلطة ومكانة عالية كما قامت من حول هذه الطرق حركة ثقافية وشعرية هائلة لولاها ما وصفت البلاد بارض الشعراء كما ارتبط انتشار الاسلام في شمال افريقيا وغربها بانتشار الطرق الصوفية وعلي الاخص القادرية والتيجانية وقد زاد عدد اتباع هذه الطرق الصوفية ولاسيما المشتغلين بالتجارة ولعب اتباع هذه الطرق دورا دينيا وسياسيا وثقافيا هاما كان له اثره في تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها .

ولقد دخلت عدة طرق صوفية الي بلاد شنقيط (موريتانيا) والتحم التصوف بالعلم في رحاب المحظرة وكانت الزوايا الصوفية في البلاد سندا للمحاضر في تدريس علوم القرآن والحديث والفقه المالكي اصولا وقواعد وفروعا وكذلك تدريس السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي وعلوم اللغة وغيرها (١) .

عوامل انتشار التصوف في موريتانيا :

لقد تضافرت عدة عوامل ساعدت علي انتشار التصوف وطرقه في

موريتانيا منها الداخلي الخارجي:

العوامل الداخلية :

- وجد بعض منافسي اوصياء الدين التقليدي (الفقهاء) مادة جديدة في الاسلام

١ - الخليل النحوي : بلاد شنقيط ، المنارة والرباط ، تونس ١٩٨٧ ، ص ١٢٠ .

الصوفي كبديل عن المرشد الديني يمكن من خلالها تعويض خطابة النصي الصارم بخطاب اخر باطني أكثر مرونة يصبوا الي تخلص الفرد من جحيم الدنيا ويحقق له فلاح الآخرة .

تشكل الطرق الصوفية نظرا لقداستها الروحية حرما آمنا منيعا لكل من يلجأ اليه سواء من فئة المحاربين حال هزيمتهم امام ابناء عمومتهم او المتملصين من سلطة حسان (١) من الزوايا (٢) والتابعين (٣) .

- مثلت الطرق الصوفية سلطة بديلة واطارا واسعا يتجاوز ثنائية حسان والزوايا وجد فيها المتطلعون بابا إلى اكتساب لمجاد جديدة لاضالتهن المنشودة . وهكذا بفعل تلاقي العوامل السابقة واخري ربما لم تبد لنا . برزت في البلاد الموريتانية مجموعة من الطرق الصوفية .
العوامل الخارجية : وتنقسم إلى :

- الطرق الفقهية التي استوردها المرابطون وادت الي اعتزال كافة المظاهر الترويجية . مثل الموسيقى والفنون والشعر مما خلق عند الاهالي شغورا في التعبير عن العواطف وممارسة الوجد والشطح والحب وهي الارض لمن يحمل هذه المفاهيم كالطرق الصوفية .
- السفر لاداء فريضة الحج فأغلب الطرق الصوفية جاء بها الحجاج الي البلاد بعد ان أخذوها من شيوخ النقوا بهم في الاماكن المقدسة او اقتبسوها عن اخريين النقوا بهم ويمكن ان للنمس الاحتكاك الحقيقي من خلال اساتيد ائمة الطرق الصوفية الموريتانية

١ حسان : هم الفئة المسيطرة عسكريا وسياسيا ، اقتسموا البلاد واحتكروا اسم العرب لأنفسهم ولا يسمحون بهذه اللفظة لغيرهم كانوا يابا مثلا تقوم فلسفتهم علي احتكار عالم العنف ومنهج حياتهم يقوم علي القوة والحرب والفروسية والتدريب عليها منذ نعومة الاظافر وحتى الحد ومن طباعهم عدم التملك واحتقار المشتغلين بجمع المال-

٢ - الزوايا : يطلق هذا الاسم علي الفئة المتعلمة المسيرة للغييب وهذه الفئة هي المنتجة للثقافة العالمية ويبدأ فيها الفرد الدراسة من صغره كما انهم مساهمون فاعلون في التحكم في وسائل الانتاج فهم القائمون علي حفر الابار والتجارة ويملكون انعاما كثيرة وينقسمون الي طبقات كالزوايا والطلبة فالزوايا تميل الي المعرفة وتحتل مكانة خلقية رفيعة في حين يعبر الطلبة عن تدني المستوي الخلقي والمعرفي .

٣ - التابعين الطبقة الثالثة في السلم الهرمي للمجتمع الموريتاني حيث كانوا يعيشون في حماية الطبقة الارستقراطية (حسان والزوايا) ويقومون بخنمتهم مقابل الحماية .

الاحتكاك المباشر بالمغرب حيث سمحت حركة التجارة عبر الصحراء بالتوغل الي كبريات المدن المغربية والنهل من معينها المعرفي والتأثر بثقافتها . وقد تميز القرن ١٩ في موريتانيا بحدث هام اتسم بالشمولية والاتساع تمثل في اكتمال انتشار الطرق الصوفية التي اصبح لها دور فعال وتأثير قوي علي القرار الأميري وخاصة الطريقة القادرية اذ شكل هذا الحدث قفزة نوعية في تاريخ الغرب الافريقي عموما وفي تاريخ موريتانيا خاصة . ولكن هذه الطرق الصوفية في اغليها كانت ترتبط بالشخصيات المؤسسة او القائدة وان كانت تضم اعرافا واجناسا لا يربط بينها الاطار الجغرافي وسرعان ما خرجت هذه الطرق عن المنهج الصوفي العتيق لتدخل حياة المادية النشطة ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وبهذا تكون قد استطاعت ان تجمع بين الاطار الروحي المميز لها والولاء السياسي ولا سيما الطريقة القادرية (١) .

ولقد ساهمت الطرق الصوفية في افريقيا عامة وموريتانيا خاصة في نشر الدين الاسلامي جنوب الصحراء ومقاومة التوسع الاوربي في افريقيا ومقاومة حركات التصير المسيحي التي قام بها الاوربيون من الوثنيين وكذلك دفاعا عن الاسلام امام التيار الاوربي الجارف خصوصا في القرن التاسع عشر كما ان انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء في السنغال ومالي والنيجروغانا وغينيا وتشاد انما يرجع في الشطر الاكبر منه الي رجال الطرق الصوفية خاصة رجال الطريقة القادرية و التيجانية والشاذلية . حيث كانت الزوايا التي انشأها زعماء هذه الطرق بمثابة ركائز لنشر الدعوة الاسلامية بين الشعوب الوثنية في غرب القارة الافريقية ووسطها ففي موريتانيا نجد ان

١- محمد فاضل محمد الخطيب : الشيخ التراد ودوره الثقافي والسياسي ، كلية الآداب ، انواكشوط ، موريتانيا ١٩٩٢ . ص ٩ .

الطرق الصوفية قد انتهجت مبادئ العصور الوسطى في التصوف حيث كان اقطاب الطريقة يشكلون طريقتهم بما يتناسب مع عقلية الشعوب البدائية ولم يكن لمعظم الطرق الصوفية تنظيم مركزي معين بل كانت تضم مدارس سرية تعمل لسد الفراغ بعد القضاء علي بعض التنظيمات السياسية التي كانت تتولي الحفاظ علي الدين الاسلامي كما انه لا يمكن الحديث عن انتشار الاسلام او دور المسلمين في مقاومة الحركات الاستعمارية الصليبية دون ان نتعرض الي الطرق الصوفية التي وجدت لها مجالا خفيا لنشاطها وتعلق الناس بشيوخها وصارت جزءا اساسيا من حركات الجهاد الاسلامي في القارة .

ولقد اثرت الحركة الصوفية في حركة العلم في البلاد الي جانب مقاومة بعضها للاستعمار حيث استطاعت الطرق الصوفية والمحظرة من خلالها ان تخرق كل الحواجز وتمد الجسور بين قبائل شتى واجناس مختلفة وان تنظم قوي بشرية لاتستطيع القبلية تنظيمها وكانت بمثابة احزاب سياسية قوية يسودها الانضباط والطاعة وبذلك استطاعت ان تتنامى هيبة العالم وترتقي الي مصاف قادة الدول حتي اصبح يقال ان الطرق الصوفية استطاعت ان تقيم دولاً واشباه دول غير مغلنة اساسها شعبية عارمة تدعمها دبلوماسية حصيفة و روح سليمة يتحلل في مواجهتها قوة الرجال العسكرية (١) وقد لاحظ الرحالة الفرنسيون الامر في تقاريرهم من بداية دخول البلاد وذكروا ان احياء الزوايا حرما لا يستباح وان المغلوب الخائف اذا احتمي بهم امن وتلك ثمرة جهد بذاتها المحظرة العلمية واكملتها المحظرة الصوفية .

لقد توقفت الفتوحات التي تنصدها قوة سلاح ومنذ ذلك الحين لم تتوافر للعرب ولا للمسلمين القوة التي تمكنهم من ان يفتحوا بلاداً اخرى ويصدعوا فيها بما مروا ويبرز في حياتهم وسلوكهم نموذج الانسان المسلم ليقفدي بهم الناس عن بينة او يعرضوا وقد قامت عليهم الحجة .

والآن اصبحت ديار الاسلام دياراً متصدعة الجدر وكان في الوهن الذي اصاب المسلمين ما ينذر باحتمال توقف الاسلام خارج دياره هنا كان تدخل الطرق الصوفية رائعا ، لقد حملت لواء الفتوحات الذي وضعه المجاهدون واستمر في نشر الاسلام

١- عبد الله عبد الرازق : مرجع سابق ، ص ٢٥ .

في انحاء المعمورة محققة بالسبحة و الكتاب واللوح ما لم يتحقق في عهدها بالسيف والترس والرمح وفي أفريقيا بالذات ابلت هذه الطرق بلاء حسنا (١) .

ثانياً: الطرق الصوفية في موريتانيا :

إن الطرق الصوفية علي الخصوص ومنذ القرن التاسع عشر هي التي حملت رسالة الاسلام للشعوب السوداء ولا جدال في ان بقاء الجماعات الصوفية وامتدادها للآن إنما هو دليل علي قيام هذه الجماعات بادوار ووظائف فعالة للفرد والمجتمع كفلت لها الاستمرارية .

توجد في موريتانيا أغلب الطرق الصوفية الموجودة في شمال افريقيا (٢) وقد عرفت موريتانيا طرقاً صوفية لا عوج فيها ولا امتاً ولكن تختلف أهميتها من حيث المكانة والانتشار مثل الطريقة القادرية والتيجانية والشاذلية الغطفية والصديقية والخضرية

الطريقة القادرية:

تتسب هذه الطريقة للشيخ ابو صالح سيدي عبد القادر الجيلاني وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وهو حسني النسب (٣) وقد ولد في عام ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م في قسبة من بلاد جيلان أيام المستنصر بالله العباسي بن المقتدي بأمر الله ابي القاسم عبد الله العباس . واقليم جيلان يحده من الشمال بحر قزوين وجنوباً قزوين واذربيجان وشرقاً بلخندران وتقع وراء طبرستان وهناك من يقول انه ولد ببلدة أنجيل والجيل يطلق علي موضعين أحدهما اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الديلم يشتمل على بلاد كثيرة ليس فيها مدينة كبيرة والاخرة بلدة الشيخ عبد القادر وهي جيل وتسمى الكيل بكاف مشوبه بالجيم وكنيته ابو محمد ولقبه محيي الدين (٤)

١ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

Hiskett.mop .cit p .238

٢- اسماعيل بن السيد محمد سعيد القادري : الفيوضات الربانية ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٧

٤- ابو بكر القادري والشيخ عبد القادر الجيلاني : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

وقد وفد علي بغداد عام ١٠٩٥هـ وله ثمانى عشرة سنة وعاش من العمر إحدى وتسعين عاماً وتوفى ببغداد عام ١١٦٥هـ وقد اقبل علي شتي العلوم والمعارف يقتات منها ويسبر أغوارها بذكائه الخارق ودأبه المتواصل وسرعان ما أكتملت له موسوعية المعرفة والتبحر في كل العلوم وعلوم الشريعة خاصة بصورة اذهلت عقول اقرانه فطارت شهرته في مختلف الارحاء وشدت اليه الرحال في بغداد تستقي من فيوضاته العلمية النادرة (١) .

وكان يتكلم في ثلاثة عشر علماً وكان يقرأ القرآن بالقراءات العشر وكان يفتي علي مذهب الامام الشافعي والامام احمد بن حنبل وكانت فتواه تعرض علي ائعلماء في العراق فتعجبهم اشد الاعجاب فيقولون سبحان من انعم عليه (٢) .

وهكذا اخذ الإمام عبد القادر طريقه في العلوم نحو القمة حتى تربع فصار شيخ وحده (٣) ، وقد تلقى الطريقة من حماد الدياسي وله عدة مصنفات في التصوف منها:-
('الغنية لطالبي طريق الحق - القفتح الرباني - فتوح الغيب') .

وكان يأكل من عمل يده ويرع في الوعظ وتكلم في الزهد فكثر مريدوه واقام في مدرسته يدرس فيها ويتخذها رباطاً الي ان توفى وقالوا فيه انه اول من نادي بالطرق الصوفية واسسهاواته فاق اهل زمانه في علوم الدين وكانت له القدم الراسخة في المجاهدة وقطع دواعي النفس والهوى ووقع له القبول التام حتى ان عبد الله بن قدامة (١١٤٦هـ - ١٢٢٣هـ) الفقيه الحنبلي المشهور وضاحب كتاب (نم ما عليه مدعو التصوف) امتدحه فقال : { لم اسمع عن احد يحكى عنه من الكرامات اكثر مما يحكي عنه ولا رايت احدا يعظمه الناس للذين اكثر منه } . وأشاد بسلوكه الامام بن كثير لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزهده ومكاشفاته وورعه وصلاخه ، كما تأثر به ابن تيمية وقال عن طريقته انها (الطريقة الشرعية) (٤) .

١- عبد المنعم الحفنى : مرجع سابق ، ص ١١٤ .

٢ - جودة ابو اليزيد اعلام الصوفية مرجع سابق ص ٤٠١ .

٣ - عبد الوهاب الشعراني : (الطبقات الكبرى) ، ج ١٠ ، ص ١٠٩ .

٤ - جودة ابو اليزيد : اعلام الصوفية ، ص ٤١ .

وأنه فاق أهل زمانه في علوم الدين وكانت له القدم الراسخة في المجاهدة وقطع دواعي النفس وكان في التصوف لا ينام ولا يسأم فقد تضلع من الأصول والفروع وتقدم علي غيره في كل مشروع وقد اعترف له بذلك كل فقهاء عصره ويقول عنه العز بن عبد السلام سلطان العلماء (بلغت امامته القطع وكان عالما عابدا متبعا اتباعا لا شائبة للهوي فيه ومن اجل ذلك حازت طريقته القبول وقدره المفكرون قاطبة الكبار والصغار واخذت طريقته في الإنتشار منذ القرن الخامس الهجري في كل أرجاء العالم الاسلامي ولعل اعظم الجهات التي إنتشرت فيها هي افريقيا وبخاصة في شمالها وغربها وكانت اظهر ما تكون في المغرب الاوسط (١) ، وقد استطاع أبناؤه السير علي منهجه في كافة ربوع العالم الاسلامي (٢) ، وقد تحدثت معالم الجانب السلوكي عند الشيخ عبد القادر الذي حرص بكل وجدانه علي اقتحام عقبات الطريق والمضي نحو غاية وهب حياته لها انها الوصول الى الله سبحانه وتعالى وكان الجانب السلوكي في بدايته حاقلا بالمجاهدات . يقول :

(قاسيت الاهوال في بدايتي فما تركت هولا الا ركبته وكان لباسي جبة صوف وامشي حافيا ولم ازل آخذ نفسي بالمجاهدات حتي طرقتني من الله الحال (٣) .

وواصل الشيخ عبد القادر طريقه الي الله تعالى بقلب ملاء الحب والشوق والخشية والاجلال ومع كل خطوة تزداد الاشراقات سطوعا واتساعا ويزداد القلب عكوبا بباب المولي عز وجل في محراب العبودية الخالصة وكانت عبادته لها نهجها (٤) .

١- عبد الحليم محمود : عقيدة الاكابر ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٢٥ .

- Garnier , Christine : La Mauritanie , Paris 1960 , P . 65

2 - ٣- عبد الوهاب الشعراني : مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

٤- جودة ابو اليزيد : مرجع سابق ، ص ١٠٣ .

والتصوف عند الجيلاني ليست أقوال تقال ولكنه طريق فيه الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات والخصال التي يجب ان يأخذ السالك بها نفسه هي خصال الانبياء عليهم السلام كالصبر الذي تحلي به ايوب عليه السلام وكل نبي له خصلة والمتصوف يكون في الابتداء ويتكلف هذه الخصال ، اما الصوفي ، فهو الذي انطبع بها فزهد الدنيا وفني عنها بحيث تأتية الاشياء فلا يريدتها ولا يبغضها وانما هو الممثل لأمر الله فيها والمنتظر لفعل الله معه بشأنها. وتعريف التصوف الذي يؤثره الجيلاني هو (الصفاء من ادران النفس والهوي والصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق) ويهدف من وراء ذلك ان يخلص المتصوف من المدعين ويلزم مريديه بالأداب الشرعية سواء في سلوكهم مع شيوخهم او مع بعضهم البعض او في ذكرهم ومجالسهم وخدمتهم لاخوانهم .

وعنده ان كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة وان المتصوف لا ينبغي له ان يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله عليه وكان يري الصواب في التصوف كطريق للعبادة ان يلتزم المتصوف بالكتاب والسنة التزاما حقيقيا وخاصة في الجانب المعرفي للتصوف او جانبه الكلامي ، ولذلك فطريقة الجيلاني سهلة علي المسلم ومفهومة وتتفق مع روح الاسلام ولا تباعد بين المتبع والسلف (١) . ومن المعلوم ان مجال العمل في الدعوة الي الله تعالى قعلان هما :-

١- امة الإجابة التي استجابت وتستجيب لله ورسوله عليه الصلاة والسلام اذا دعيت لما يحببها فهي في حاجة دائمة الي التذكير والبيان تثبيتا لها علي الحق وتحصينا من الفتن والزلازل (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

٢- امة الدعوة التي أمر المؤمنين ان يبلغوها دعوة الله ويسمعوها كلامه وينادوا فيها بالايمان والهدى لينقذوها من الكفر ومن عذاب الله في الدنيا والاخرة . ولقد وفق الله الشيخ عبد القادر الجيلاني في العمل في كلا الحقلين معا وكان لغرسه ثمار فيهما ، فقد كان غيورا علي الدين واصلاح المتدينين لا يهدا له بال في ذلك وفتح باب البيعة ودعا الي التوبة وتداعي الي ذلك المسلمون من كل ناحية يجدون

١- جوده ابو اليزيد : مرجع سابق ، ص ٤٠٣ .

وقد سيطرت الطريقة القادرية علي الحياة الدينية والاجتماعية في مراكش وما حولها طوال القرون التالية لدخولها وهذا ما جعل الطريقة القادرية مستعدة لاية افكار صوفية جديدة وقد اكد الكثير من الباحثين ان نجاح انتشار الدعوة الاسلامية في اقطار افريقيا وغيرها من الاقطار يرجع الفضل الاول فيه الي المسلمين الصوفيين وفي طليعتهم رجال الطريقة القادرية حتي ان بعض الكتاب الغربيين اظهروا تخوفهم من انتشار الطريقة القادرية وغيرها من الطرق الصوفية واعتبروا ان انتشار هذه الطرق خطر على مصالحهم وهكذا كتب المسيو تاتيلي يقول ان الاسلام مدين في كل فتوحاته السلمية وانتشاره في الاقطار لجماعة الصوفية فمشايخ الطرق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الاسلام الحية ولا يخفي ما في عملهم هذا من الخطر علي مصالح الاوربيين

ويقول توماس ارنولد (Tomas Arnold) في كتابه الدعوة الاسلامية:-

(وفي غرب افريقيا كانت هناك طائفتان تعملان بصفة خاصة علي نشر الاسلام هما الطريقة القادرية والتيجانية وقد تأسست الاولى وهي اوسع انتشارا في القرن الثاني عشر وقد دخلت القادرية في افريقيا الغربية في القرن الخامس عشرم علي ايدي مهاجرين من توات (Tuat) (١) ، وهي في النصف الغربي من الصحراء فاتخذوا من ولاته اول مركز للطريقتين ، ولكن احفادهم طردوا من هذه المدينة فيما بعد فلجئوا الي تمبيكتو في مستهل القرن التاسع عشر ونجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الاسلامي تائيرا عميقا تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون بالصحراء الكبرى وفي السودان الغربي علي نشر دعوتهم ولم يمض وقت طويل حتي قامت للطريقة القادرية مراكز كبيرة في تمبو بجبال فوتالجالون ميسردو الواقعة في بلاد الماننجو .

وكانت هذه المدن تؤلف مراكز للتزوير الاسلامي وسط شعب وثنى ، رحب برجال القادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب ثمائم ومعلمين وسرعان ما تطور الدخول في الاسلام من افراد الي جماعات صغيرة وعلي هذا النحو تسربت نواة الاسلام الي عباد الاوثان والاصنام وانتشرت العقيدة تدريجيا انتشارا عظيما بصفة مستمرة كما كان معظم المعلمين قد تربوا في كنف الطريقة القادرية وقد كان انتشار ونشاط هذه الجماعات في الدعوة ذاتابع سلمي للغاية يعتمد كل الاعتماد على الارشاد) كما لانجد في كتاباتهم أي عداة أو سوء نية نحو المسيحيين (١)

١- ابو بكر القادري :مرجع سابق ،ص ٢٦٤ .

٢-توماس ارنولد :مرجع سابق، ص ٣٨٥ .

فروع الطريقة القادرية :

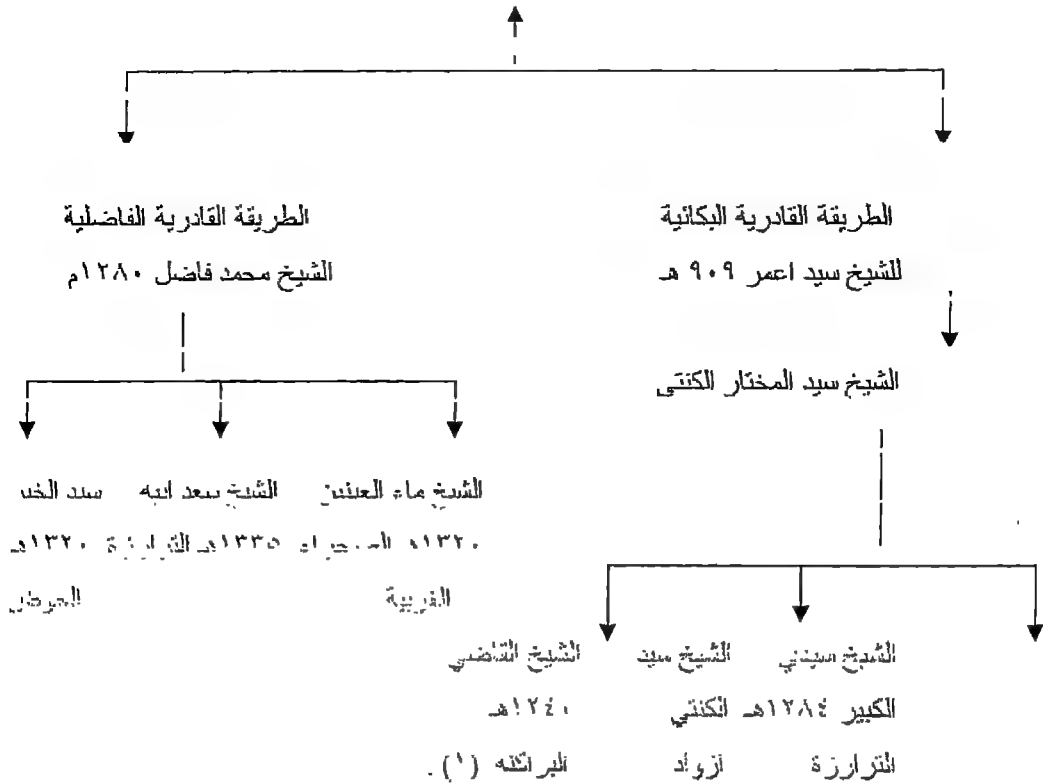
بعد ان انتشرت الطريقة غربي السودان علي يد الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي والكنتيون بدورهم اخذوا القادرية من عالم تلمساني وهو عبد الكريم المغيلي الذي ادخل الطريقة القادرية في موريتانيا غير ان الطريقة القادرية في موريتانيا انقسمت الي قسمين كبيرين هما :

(ا) الطريقة القادرية الفاضلية

(ب) الطريقة القادرية البكائية وكل من الطريقتين النرعيتين تشعبت الي شعب صغيرة ولكن تحت شعار الطريقة الام

سيدي عبد القادر الجيلاني ٥٦١هـ -- ١١٦٧ م

محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني ٩٤٠ هـ



١ - مخططه يوضح تشعب الطريقة القادرية في موريتانيا ، انظر ، عبد الله بن عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٤٥ .

١ - الطريقة القادرية البكائية :

أسس هذا الفرع الشيخ سيد عمر بن الشيخ سيد أحمد البكائي في القرن العاشر الميلادي وكان يسافر إلى الشمال مرارا وفي إحدى هذه المرات لقي الشيخ محمد عبدالكريم المغيلي في توات وقد بلغت هذه الشعبة أوج مجدها مع ظهور الشيخ سيدي المختار الكنتي (١) ، الذي عاش بين ١٧٣٠ ميلادية - ١٨١١م وكان هذا الشيخ يمتاز بغزارة العلوم والاستقامة وكانت الأفواج تقف إليه لتنهل من علمه وتعود إلى مناطقها حاملة راية نشر الطريقة القادرية

وإلى هذه الشعبة ينتسب الشيخ سيدي الذي تلقى العلم والتربية الصوفية في حضرة الشيخ سيدي المختار الكنتي ثم في حضرة الشيخ سيدي محمد ثم عاد عام ١٨٢٦م فنشر الطريقة القادرية في مناطق تمتد من جنوب بلاد شنيق (موريتانيا) إلى السنغال والسودان وغينيا ، وعنه أخذ الشيخ أحمد بن سليمان من علماء أولاد ديمان والشيخ أحمد بن حبيب الرحمن وعن الشيخ سيدي المختار أخذ الشيخ القاضي بن الحاج الأجيبي ١٢٤١ هـ - ١٨٢٥ م والشيخ المصطفى بن العربي الأبيري . وإلى نفس الفرع ينتسب الشيخ محمد المامي ومجموعة أهل برك الله في الساحل والمرابط بن عبدالفتاح التركزي في البراكنة (٢) .

وقد انتشرت هذه الطريقة بسرعة في أوساط عديدة تجاوزت الحدود الموريتانية أما تعاليم هذه الطريقة فلم تكن حادة ولا متوغلة في الوراثة بل نجدها تبرا من التواجد والسطح وغيره من مظاهر التصوف المألوفة غير ان انفصاما نال

١ - هو العالم الخصم والشيخ الاكظم كان موطنة في اراض ازواد وقد اسس هناك محظرة من اعظم المحاضرات في تلك العصر .

٢ - تطلق على دراري ثالث من ايناء (دامان هم عنصر اساس وزنون) ويمثلون في زمنهم جناحا قويا من الامارة ونة نوع من الاستقلال ولهم دور بارز في سرعات امارة الترابزة الداخلية وكانت مكروهة بسبب شرستها فقد افراطوا في ظلم الزوايا وفي دس السامس لهم ليجدوا طريقة لاكل مالهم

حصل على الرعيل الاول حيث انكب المريدون والأتباع على الطلاسم والجدول والأوقاف حتى يخيل إلى المرء أن الطريقة البكائية لا تعني إلا هذه الأساليب الميتافيزيقية ويمكن تلمس هذا التحريف بجلاء عند الرجوع إلى المصادر المكتوبة بالطريقة وكذلك تعاليم سلفها المعتمد سنديا ، ولهذه الطريقة فروع أخرى خاصة في مدينة انجاسان وقد انتقل إليها نشاط الكنتيين وكان نفوذهم يمتد في قبائل بمبارا في جمهورية مالي على أنه يلاحظ أنهم لا يلعبون دورا يضاهي الأسر الأخرى من أصحاب الطرق الأخرى (١) .

الطريقة القادرية الفاضلية :

أسمها الشيخ محمد فاضل (٢) بن مامين القلقي (ت ١٨٧٩م) ، الذي كان يقيم في منطقة الحوض شرق البلاد ثم انتقل إلى أدوار شمالي مدينة شنتقيط فاتخذ منها مقرا له . وقد انتهج سياسة حكيمة فوزع أبنائه في لبلاد فكان لكل منهم منهج ومنطقة نفوذ خاصة به فقد بعث الشيخ سعد ابيه (٣) إلى ولاية الترارزة والشيخ ماء العينين (٤)

١ - ابو بكر القادرى : مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

٢ - ولد الشيخ محمد فاضل من مامين فى منطقة الحوض عام ١٧٨٠م وتلقف تحت راية والده وعلي يد شيوخ آخرين ابرزهم الشيخ محمد الكحيل وهو مؤسس الطريقة القادرية الفاضلية وتنسب عائلته للإشراف الادارسة وتزوج كثيرا وكان له من الاولاد الذكور ٤٨ ومن البنات ٥٠ وله العديد من المؤلفات في التصوف والفقه وغيره توفي ٢٢ ابريل ١٨٦٩م عن عمر يناهز التسعين .

٣ - هو الشيخ سعد ابيه بن الشيخ محمد فاضل تميز بتقواه وعلمه الفياض وتعدد مواهبه وكثرة جوانب عطاءاته توفي عام ١٩١٦ هـ .

٤ - هو الشيخ محمد مصطفى المشهور باسم الشيخ ماء العينين تتلمذ علي يد والده وظهر عليه النموغ مبكرا وله من التأليف ما وصل الي ٤٠٠ كتاب فى الفقه والتفسير ، وقد جمعت هذه المؤلفات ونصبت الي خمسين مجلدا مستعمرا ونوافي عام ١٩١٠م عن عمر يناهز المائة والى البصاليين عابا

إلى منطقة الصحراء الغربية والشيخ سيد الخير ت ١٣٢٠هـ إلى منطقة الحوض (١) وكان لهذا التوزيع غايات علمية وعملية واضحة فقد سئل الشيخ محمد فاضل عن الحكمة في توجيه الشيخ ماء العينين إلى الشمال الأقل علما وتوجيه الشيخ سعد أبيه للقبيلة المشهورة بالعلم فرد قائلا ليعلم الأول أهل الشمال ويتعلم الثاني من أهل القبيلة وقد برزت في العشيرة ثلاث أسر التف حولها المريدون أهل محمد فاضل بن الطالب أهل محمد فاضل بن عبيدي أهل الطالب المختار .

وكان للشيخ ماء العينين والشيخ سعد أبيه ابرز الشخصيات وقد اخذ عن الشيخ ماء العينين الشيخ المجتبي بن خطري البصاري وعن الشيخ سعد أبيه اخذ الشيخ احمد أبو المعالي النقاطي والشيخ التراد بن العباس بن الشيخ الحضرمي وعن الشيخ التراد اخذ الشيخ محمد بن عبد الله البصاري ٩٨٤هـ بهذا استطاع الشيخ محمد فاضل أن يشكل من الطريقة القادرية فرعا خاصا به يجمع بين جميع الطرق الصوفية الأخرى بمكانة اجتماعية مرموقة ليس علي الصعيد الموريتاني فحسب بل علي صعيد الغرب الاقريقي وافريقيا كلها وهذا الأمر جعله يفكر في تصدير ارانه خارج موريتانيا .

طرق أخرى في موريتانيا:

إلى جانب الطريقة القادرية فانه توجد الطريقة الشاذلية (٢) وهي تنسب الى الشيخ ابو الحسن الشاذلي وهي من اوائل الطرق الصوفية التي دخلت موريتانيا وكذلك الطريقة التجانية (٣) وهي من اخر الطرق التي دخلت موريتانيا وهي من اوسع الطرق انتشارا بعد القادرية ومع هذه الطرق الثلاثة الكبرى ظهرت طرق أخرى تباينت في التأثير والانتشار وسادت في فترات محدودة وفي مناطق محدودة ولكنها أدت أدوارا هامة وهي طرق ليست جديدة او مختلفة عن الطرق الرئيسية ولكن تحمل اسماء اقطابها واماكن انتشارها في ظل الشيخ الجديد للطريقة (٤) ،

١- عبد الله عبد الرحمن: مرجع سابق، ص ٤١.

٢- لمزيد من التفاصيل : عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية وامامها ابو الحسن الشاذلي ، القاهرة ١٩٦٧ .

٣- لمزيد من التفاصيل : علي حرازيم جواهر المعاني ويلوغ الاماني من فيض سيدي ابو العباس

٤- التجاني ، القاهرة ١٩٣٧ .

ومن اهم هذه الطرق الطريقة القظفية والحضرية والوفائية والناصرية والسمانية .
وهكذا ومن خلال عرضنا للطرق الصوفية فى موريتانيا وجدنا أن
انتشارها كان متفاوتا ونفوذها لم يكن علي نفس المستوى ففى حين كانت الشاذلية
محصورة في مناطق محدودة من البلاد كانت القادرية والتيجانية تزحفان علي امتداد
واسع مع التراب الوطنى وتتوغلان فى أدغال افريقيا السوداء حاملتين معهما طلائع
الفتح الاسلامى ، وبالرغم مما اصاب القادرية من فتور وتفكك نسبى فى الأونة
الأخيرة من تاريخ البلاد فإن ذلك لم يثن أصحابها عن اعتناقها والدعوة لها كما يمكن
القول بأن الزوايا عموما حققت بالتصوف ما عجزت عن تحقيقه بأكثر من وسيلة
أخرى حيث أفلحت فى خلق إطار روحى يتجاوز الولاءات القبلية بجمعهم تحت شيخ
واحد مجموعة من القبائل المتعارضة المصالح والمتباينة الأصول والمتنافرة في
الغالب مما سمح لها بتشكيل مؤسسات موازية للتنظيمات السياسية (الامارات عند
حسان) بل ان الطرق الصوفية ومن خلال الزوايا جعلت بعض حسان يمثل
لأوامرها واستطاعت هذه الطرق ان تجد لنفسها قواسم مشتركة تشكل سدي للحمّة
بينهما تمتّبت في ثلاث نقاط :

- ١- اتصال اسانيدھا ولو نظريا بالرسول صلى الله عليه وسلم .
- ٢- تجمع علي ان هدفها الاسمي هو صقل النفس وعبادة الباري كما امر .
- ٣- اعتماد كل طريقة علي قبيلة ما تعتبر نفسها المسؤولة عنها وتلتزم عفويا بالدفاع
عنها والترويج لها ولو كان اغلب المريدين والمقدمين لا ينتسبون الى هذه القبيلة .

علاقة القادرية بالطرق الصوفية الأخرى فى موريتانيا:

العلاقات الفكرية :

ترى الطريقة القادرية ان الطرق الي الله سبحانه وتعالى كثيرة وان كل شيخ
يعلق بطريقة خاصة به ولا يعنى تعدد الطرق عند القادرية ان تتصادم هذه الطرق بل
علي العكس من ذلك يرمز هذا التعدد إلى مرونة الدين وفضل الله الكثير الذي يسر علي
كل اجد ما يستطيع تحمله وممارسته ليصل الى ربه ومن هذا المنطلق اعتبر الشيخ
محمد فاضل ان طرق اهل الله واحدة ولا تفرقة بينها ولا بين اوردانها فكان يعطي
لإبدائه كثافة الاوراد ويقول لأجدهم هذا الورد كان يداوم عليه الشيخ الفاضل من دون ان

يقول له ان فلان هذا لا ورد له غير المذكور او انه لم يعط غيره وبالتالي فلا حواجز بين الطرق ما دامت البدايات والوسائل والنهائيات و المرجعية واحدة ، هكذا جاءت الطريقة القادرية جامعة لكل الاوراد مما جعل الشيخ ماء العينين يري ان ورد طريقته هو من اجل الاوراد قدرا ويغني عن جميع الاوراد ولا يغني عنه ورد لان كل الاوراد فرع مما عند القادرية حسب رايه (١) .

ويبدو ان الطريقة القادرية في عصرها الاول لم يكن لها تباين مع الطرق الصوفية الاخرى في اطارها الجغرافي المحدود نظرا لعلاقات الاعتبار المتبادلة بينها الا انه بخروج الطريقة القادرية عن مكان ظهورها الي انحاء موريتانيا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا يبين خلاف ذلك ، كذلك نجد الشيخ ماء العينين عند خروجه عن بلاد والده يتمتع من رؤية الاخرين للطرق الصوفية ومن رؤية الطرق لبعضها البعض قائلا (اذا بالناس كانتها اعوذ بالله اهل ملل متفرقة واهل طرق مختلفة فتعجبت مما فيه الناس وتعونت) ويتضح التباين بين القادرية وغيرها عند عقد صفقة البيعة ويتضح اكثر عندما يبحث المرء في الاسانيد التي توصل مصادر هذا السند .

علاقة القادرية بالطرق الصوفية الاخرى من حيث الاسانيد:

مع الطريقة البكائية :

للطريقة القادرية في موريتانيا فرعان الفاضلية نسبة الي الشيخ محمد فاضل مامين والفرع البكائي نسبة الي الشيخ سيدي المختار الكنتي ويلتقي سند الفاضلية والبكائية عند الجد السابع عند الشيخ علي ابو الحسن الشانلي ليظل هذا السند متصلا حتي الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه (٢) .

١- ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل : نعت البدايات ، مرجع سابق ، ص ١٨٨

٢- محمد فاضل محمد الخطاب : مرجع سابق ، ص ١٦٨

مع الطريقة الغظفية :

لقد تناول الباحثون هذه العلاقة بشئ بعيد عن الدقة التاريخية فمنهم من ذكر ان جد الشيخ محمد فاضل وهو المسمى بالطالب اخيار تعلم علي يد الشيخ محمد الاغظف مع ان الشيخ محمد الاغظف توفي عام ١٧٩٨م بينما الشيخ الطالب توفي قبله بحوالي ستين سنة الا ان بعضهم ذكر ان الذي تعلم علي يد الشيخ محمد الاغظف هو الشيخ محمد فاضل وليس جده وهذا مردود عليه ايضا بان عمر الشيخ محمد فاضل عند وفاة الشيخ محمد الاغظف لم يتجاوز الست سنوات ولكن ترجع الصلة الي اعجاب الشيخ محمد فاضل بالشيخ محمد الاغظف وتكرار ذكره مع كثير من شيوخ واقطاب الطرق الاخرى الذين لم يكونوا اشياخا له ولا اساتذه بل منهم من لم يجمعه وياهم اطار زمانى او مكانى قط.

مع الطريقة التيجانية :

بدأت هذه العلاقة عندما التقى الشيخ احمد التيجاني بالشيخ مامين في مدينة فاس عام ١٧٩٦م وطلب منه ان ياخذ الورد عنه الا ان الشيخ محمد فاضل رفض بحجة انه راي الشيخ مامين - اخذ ورده عن اجداده فلما الح عليه اعطاه الشيخ مامين الورد ولا تبدو هذه المسألة غريبة علي الطريقة القادرية لان طريقتهم تسمح باخذ الاوراد عن كافة الطرق واعطائها للمريد وتسمح للمريد بان ياخذ وردها ويظل علي طريقة شيخه الاول .

هذا الاختلاف في اسانيد الطرق ولد اختلافا آخر في مادة كل طريقة وربما كان ذلك هو السبب في تمايز الطرق وتسمي كل منهما باسم خاص بها ويتجلي ذلك الاختلاف اكثر في فكر وممارسات كل طريقة علي حده، تعتمد الطرق الصوفية في موريتانيا كغيرها علي حلقات الذكر العلني او الخفي والفرع الفاضلي من القادرية يعتمد علي الذكر العلني بلفظ لا اله الا الله واسم الجلالة المفرد (الله) بقوة كمنهج اساسي اما القادرية البكاية فالذكر عندهم بالصوت الخفي (١) .

Paul Marty : Eudes sur Islam . Paris 1939 . p 261

ولقد اعطي الذكر العلني للطريقة الفاضلية مظهرا ترويجيا جعل مرديها يتميزون ، ويمكن للحاق بهم نظرا لحلقاتهم المؤثرة في قلوب من لهم تعاطف مع الاسلام الممارس وهذا ما نوه به بعض الاداريين الفرنسيين معتقدين ان الذكر العلني كان من اهم العناصر الترويجية لهذه الطريقة القادرية الفاضلية (١)

ومن الممارسات الظاهرة للتربية عند الصوفية انهم كانوا يحضون مرديهم الي عمليات التجويع وتحمل المشاق في الاعمال ولقد اشتهر اغلب مشايخ التصوف في موريتانيا بصعوبة تربيتهم واخضاعهم لتعاليم مرهقة وكانوا يهدفون من وراء ذلك الي كسر شوكة النفس عند المريد وتحجيم نزواته ، لان القادرية كان لها تربية ميسورة اذا قورنت بالطرق الاخرى لا سيما الشاذلية والبكائية حيث يطالعنا المؤرخون بممارسات حادة عند هاتين الطريقتين ولطيفة عند الفاضلية وقد روي بعض مرديهم ان شيخه ربما رقي بمجرد النظر او الهمة وقد ياتي المريد فيصعبه من غير ان تكون له همة بالطرق الي الله تعالى بل انما مراده ان يقرأ العلم او ينفق عليه الشيخ او يكسبه فينجح في اسرع وقت من دون ان يكون اوصل الي الشيخ احسانا ولا اهدي اليه عرضا

وتختلف الطرق الصوفية في مدة تربية المريد ويجمعون علي اخضاعه لفترة تربية تتراوح بين ليلة واربعين ليلة وربما اكثر في مكان منزو للعبادة ولم تختلف الطريقة القادرية في موريتانيا عن هذا السلوك المتعلق بالمريد المنتسب للطريقة في بداية انتسابه لها ويتباين اقطاب الطرق فيما يتعلق بالمظهر الخارجي من حيث البساطة والاهتمام بلبس الثياب الفاخرة ومن وصايا اقطاب القادرية وصية الشيخ محمد فاضل لابنة الشيخ سعد ابيه بالتلطف بالمريدين قائلا له اوصيك بتقوى الله العظيم والرفق بالتلاميذ والمسامحة ان اخطاوا (٢) .

وقد تميز اقطاب القادرية بلبس فاخر الثياب وجميلها وهم بذلك يختلفون عن بعض الطرق الذين كان لهم زي معين وهيئة مخصوصة

١- محمد فاضل : سرجع سابق ، ص ٧١

٢- الشيخ سعد ابيه بن الشيخ محمد فاضل : الاسنة النافذة ، مخطوط بالملحق .

الفرنسيون وعلاقتهم بموريتانيا قبل الاحتلال عام ١٩٠٣م :

شهد القرن الخامس عشر الميلادي بداية التوسع الأوربي والاكتشافات الأوربية وما صاحبها من تأسيس المراكز التجارية علي الشواطئ الأفريقية العربية . وهذا التأسيس غير تدريجيا أساس النظام التجاري في المنطقة (١) .

لقد كان أول حضور للوفد الأوربي تمثل في البرتغاليين وكانوا علي الشواطئ الأطلسية في جزيرة اكاديردوم وليس الحضور البرتغالي في هذه الشواطئ التي تضم الشعب العربي المسلم بالأمر الغامض في دوافعه ولا في مرامييه وإنما يأتي في سياقه التاريخي المتناغم والمنسجم . وقد أتاحت الفرصة مبكرا للبرتغال من اجل التفرغ لان تسلك طريقها في الغزو لمتابعة حروبها الدينية ضد العرب المسلمين (٢) . وقد ساعد البرتغال علي هذه المهمة قريهم من الشواطئ الأفريقية فكانت ترسل البعثات التجريبية وترسم الخرائط علي ضوءها وقد استفادت البرتغال من خبرات العرب الجغرافية والفلكية (٣) ، وتوالت الرحلات البحرية علي الشواطئ الأفريقية بعد الاحتلال .

وقد وصل البرتغاليون بعد ذلك إلي الشواطئ الشنقيطية عل عهد هنري الملاح (١٣٩٤) وقد تمركز البرتغاليون عام ١٤٤٨م في اركيه الذي يعرف عند الشناقطة باكايدردور ثم توغلوا في البلاد حتى أدرار وودان (٤) .

CA , damasto : voyorges of cadamosto and of her docusments on
wester af rice in the second of hald of thexvth cantary africa in
the , london 1937 , p. 125.

٢- شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٧١ م ص

١٥٤ .

٣- ليلى الصباغ : معالم تاريخ اوربا فى العصر الحديث ، دمشق ١٩٨٢ ، ص ٢٥ .

٤- ودان احدى المدن التاريخية الموريتانية تقع فى منطقة ادرار بالشمال الموريتانى

وترجع الروايات التاريخية التي تبناها معظم الباحثين من يفترض انها تأسست سنة ١١٤١ م وقد اضطلعت بدور نشط في التجارة عبر الصحراء وهي الآن عاصمة مقاطعة من مقاطعات ولاية ادرار

ولقد رمى البرتغاليون من وراء ذلك إلي تحويل طرق التجارة من تمبكتو وعندما فشلوا في ذلك انصرفوا إلي تجارة الرقيق وكانت قلعة اركيه من أهم مواقع تصديره في هذا الوقت وقد واصل البرتغاليون اكتشافاتهم حيث احتلوا مواقع أخرى (الراس الأخضر - ساحل الذهب) وطافوا حول راس الرجاء الصالح ووصلوا إلي شرق أفريقيا (١) .

ولقد كان ذلك عام ١٤٩٧م والملاحظ أن حضور البرتغاليين كان علي الشواطئ فقط في بداية أمره ومرد ذلك إلي ضالة عدد البرتغاليين وتواضع إمكانياتهم وكان الهدف من هذا الحضور تجارياً مع أهداف أخرى ، وقد استطاعت البرتغال أن تتصل بتجارة الشرق مباشرة وإن تقوض القوة التجارية العربية وإن تسيطر علي المسالك البحرية ولكن البرتغال لم تمكث في السيطرة علي هذا المنحنى فترة طويلة ويرجع ذلك إلي ظهور قوي استعمارية أخرى مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا مما أدى إلي احتدام الصراع بينهما وإلى تقسيم أملاك البرتغاليين التي ضمتها أسبانيا عام ١٥٨٠م واستمر ضم أسبانيا لها مدة تزيد علي سبعين عاماً (٢) .

ظهور قوى جديدة :

وقد تمكنت قوه جديدة هي هولندا التي أنشأت شركة الهند الغربية الهولندية من فرض السيطرة علي المحطات التي كانت بحوزة البرتغاليين وهكذا سيطروا علي ميناء اركين في مطلع القرن السابع عشر وكذلك ميناء هدي (٣) ، الذي يعرف في المصادر الأوروبية ، Portendick ، وقد احتدم الصراع بين القوي الأوروبية حيث استطاع الفرنسيون من انتزاع الجزيرة من الأسبان عام ١٥٧٨ ثم تحولت السيطرة لهولندا عام ١٦٣٨م الذين انسحبوا منها تحت ضغط إنجلترا عام ١٦٦٦م .

١ - ليلي الصباغ : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

٢ - شوقي الجمل : مرجع سابق ص ١٨٥ .

٣ - نسبة الي هدي بن احمد بن دلمان ثاني امراء الترازة .

وظل الصراع بين إنجلترا وفرنسا وهولندا للسيطرة علي هذا المركز ثم انسحبت هولندا من الصراع المحتدم بين إنجلترا وفرنسا والذي ظل محتدما حتى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلادي حيث ظهر مركز سانت لويس مركز الثقل التجاري الفرنسي والذي أسسته فرنسا عند مصب نهر السنغال عام ١٦٥٩ م وظلت إنجلترا فرنسا تتعاقبان السيطرة عليه حتى استطاعت فرنسا السيطرة عليه عام ١٨١٧ م بموجب اتفاقية فيينا في ١٨١٥/٦/٩م في إطار استرجاع فرنسا لممتلكاتها بعد الحرب النابليونية وقد كان هذا المركز الذي ارتكز عليه الفرنسيون في أسبانيا لغرب أفريقيا فيما بعد (١) .

تأسيس فرنسا أول محطة عند مصب نهر السنغال :

لقد اقترنت فرنسا من منابع تجارة الصمغ العربي بين البيضان والتجار الأوربيين لتأسيس أول محطة لها عند مصب نهر السنغال واتخذت فرنسا من سان لويس مركزا لقيادتها وشيدت فيها حصنا وسرعان ما تعاضمت كمدينة .
لقد كان الحضور الفرنسي الذي بدأ يتعاضم منذ تأسيس مدينة سان لويس التي تنامي دورها الاستعماري بدرجة أنها بعد احتلال فرنسا لبلاد شنقيط كانت مقرا الحكم الفرنسي للبلاد بها . كان الحضور إذا حضورا تجاريا ولكنه تطور لينتهي إلي التدخل المباشر فيه خاصة أمور السكان ومن ثم فرض هيمنتهم عليهم وخاصة عن طريق العلاقات التجارية مع الأمراء والمشايخ ، ومنذ عام ١٦٢٦م وصل الفرنسيون إلي مصب نهر السنغال بعد الحروب التي عرفت باسم حروب الكندر (٢) التي نشبت بين فرنسا وإنجلترا وهولندا وبذلك تم إرساء الوجود الفرنسي في سان لويس وتحويل سوق الصمغ من بورتنديك (Portendik) .

١ - محمد الامين ولد سيدي احمد : السلطة والفقهاء في امارة الترارزة خلال القرن التاسع عشر

، رسالة ماجستير غير منشورة معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٧٠ .

٢ - حروب الكندر : الكندر هو الصمغ وتعني حروب الصمغ التي واجهت فرنسا الهولنديون فيها خلال الربع الاول من القرن ١٨ ثم بريطانيا خلال الربع الثاني من القرن نفسه ومن جراء تصدير موريتانيا للصمغ أصبحت تحتل مكانة بارزة في السياسة الاستعمارية الاوربية

ومنذ ذلك الوقت أصبح الفرنسيون في سان لويس هم الجيران المقربون لموريتانيا وقد مرت فرنسا بفترة فتور بعد هزيمتها من بروسيا عام ١٨٧٠م ثم تجدد الاهتمام باستكشاف موريتانيا بعد ذلك بعد أن وطد الفرنسيون أقدامهم في مصب نهر السنغال وكانت الأهداف الفرنسية تنلخص في لجذب القوافل التي تحمل المنتجات المحلية وكان الصمغ علي راس هذا المنتجات ، لذلك قام الفرنسيون بعمل رحلات استكشافية إلي موريتانيا تلك الرحلات و البعثات التي كثفت من نشاطها خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر (١) . والتي كانت تحمل معها نوايا استعمارية تجاه البلاد ومن المرجح أن تكون هذه الرحلات قد ساعدت في بلورة مشروع كويلاني (٢) الهادف إلي احتلال الأراضي الموريتانية ووضعها تحت الهيمنة الفرنسية وهو المشروع الذي خرج إلي الوجود في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ومن هذه الرحلات رحلة بول امبرت الذي وصل إلي الشواطئ الموريتانية عام ١٦٣٠م (٣) ، وهذه الرحلات الاستكشافية لم تصبح حقيقة ملموسة إلا في القرن التاسع عشر مع ريني كابي الذي زار البراكنة وغيره من الرحالة الآخرين الذين زاروا مناطق مختلفة من البلاد . والواقع أن فرنسا كانت لا تفكر في احتلال موريتانيا لاعتقادها أن هذه الصحراء والتي تقع شمال السنغال فقيرة وان نفقات الاحتلال لا تساوي ثروات هذا الإقليم (٤) .

١ - محمد الراضي بن صدفن : السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا واثرها علي الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠-١٩٦٩) ، بيروت ١٩٨١م ، ص ١٣.

٢- كويلاني مهندس احتلال فرنسا لموريتانيا لثم دراسة في قسنطينا وعمل كموظف للتصدير ثم عين سكرتير في المجلس المختلط لمديرية وادي شرق بالجزائر ثم عين مساعدا لحاكم الفرنسي في لجزائر سنة ١٨٩٦م وكان له اهتمام بالدين الاسلامي واللغة العربية وكان مشبع بروحا الاستعمار وكان ذلك سببا في ترقية في عملة . سعد خليل ص ٢٣٢.

Janral , Christine : Desertfertile unnoveletat La Mauritanie , paris , 1926 p.76

٤- عبد المالك خلف التميمي : الاستيطان الاجنبي في الوطن العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت

١٩٨٧ ، ص ٦.

ومهما يكن من أمر فإن تعيين فيدرب جاكما علي السنغال عام ١٨٥٤م يشكل الانطلاقة الأولى لأعمال البعثات الكشفية الكبرى التي ستصل المغرب انطلاقا من السنغال وقد كان فيدرب (١) يتطلع لجمع أكبر قدر ممكن من للمعلومات العلمية الجادة حول موريتانيا خاصة وإن ممثلي المؤسسات التجارية المتواجدة كانوا يضعون آمالا كبيرة عليها باعتبار الشخصية القادرة علي تخليص السنغال من تهديد البيضان ولذلك فقد قام بدراسة المحتويات الأرشيفية في المستعمرة في الوقت الذي أقام فيه نظاما سياسيا يعتمد علي المعارف الدقيقة . (٢) .

ومع نهاية الخمسينيات كان الشغل الشاغل بالنسبة لفيدرب هو كشف السواحل الموريتانية لأغراض تجارية لمعرفة ما إذا كان يمكن إقامة علاقات تجارية مهمة مع البيضان وفي فترة بيني لآباد الحاكم العام بالسنغال الذي حل محل فيدرب تواصلت حملات الكشف وتحصيل المعلومات حول غرب أفريقيا بشكل عام و موريتانيا بشكل خاص حيث أوفد هذا الحاكم بعثة لكشف مياه الراس الأبيض بحرا وذلك عام ١٨٦٩م (٣) وقد حدثت في هذه الفترة محادثات من جانب الفرنسيين مع أمراء الترارزة والبراكنة وغيرهم وعقدت فرنسا اتفاقيات ومعاهدات وذلك للحصول علي الصمغ العربي حيث اهتمت معاهدة بين ليونارد دوران باسم ملك فرنسا وبين الأمير الترارزي وقد تكفل الأمير بتسهيل التجارة للفرنسيين بصفة عامة والصمغ بصفة خاصة كما تنازل عن ملكية الأرض اللازمة لإقامة مركز تجاري في منطقته وتعهد أيضا بتقديم المساعدة والحماية بشتي الطرق وذلك مقابل الحصول علي البضائع الغربية ويعتبر هذا الاتفاق هو أول اتفاق بين الفرنسيين واحد الأمراء الموريتانيين .

١- فيدرب (١٨١٨ - ١٨٨٩) يعد من أكثر الضباط اهتماما بنشر الاستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا والصحراء الكبرى ، بدء خدمة بالجزائر سنة ١٨٤٢ الى ١٨٥٢ ثم نقل الى السنغال حتى ١٨٦١ ثم رجع اليها مرة ثانية سنة ١٨٦٣ حتى ١٨٦٥ ، ارسل العديد من البعثات الكشفية الى موريتانيا كما سعى الى تنظيم مستعمرة السنغال (وثائق محمود ص ١٠٧)

١ - Chailley ,Marcell : Histore de pao feeditiony baer fevrautt 1960 p 198 .

٢- Aclurvell , Atravers : La Mauritanie occidentale Saint Loous apart etienne

vol partie generale et ecomeque editon lorozu , paris 1909 , p 17

كما أن الفرنسيين بدأوا يتعاملون مع البراكنة الجيران الأقرباء للترارزة وذلك لأن صراعا علي الحكم نشا بين امرأ الترارزة وعلي ذلك رأت فرنسا أن هذه فرصة مواتية للتدخل والحد من تسلط الأمراء علي التجار وذلك بإتباع سياسة التحريض لاحد المتنافسين علي الآخر(١)

وقد تجددت فكرة الاهتمام باكتشاف موريتانيا بمناسبة طرح مشروع إنشاء سكة حديد تربط بين السنغال والجزائر وعلي ذلك أوفدت فرنسا بعثة استكشافية في عام ١٨٧٦ م ولم يستطع قائدها سولييه للوصول إلي إقليم أدرار الذي كان هدف البعثة ثم أعقب ذلك رحلة فابرت وبلانتش وغيرهم كثيرون (٢) .

لقد كان للصمغ شأن عظيم وأثر خطير عند الأوروبيين وتجلي ذلك في احتدام الصراع علي هذه المادة لدرجة الحرب والمنهج الذي سلكته الشركات التجارية الفرنسية في الحصول علي الصمغ وكان في المقام الأول إبرام اتفاقيات مع أمراء البلاد وأعيان القبائل وهذه الاتفاقيات التي فاعت بامتيازات علي هؤلاء الأعيان والأمراء فبموجب هذه الاتفاقيات سمحوا للفرنسيين بالمبادلة التجارية في المناطق المحددة (٣) ، ومقابل ذلك يتعهد الفرنسيون بإعطاء ٣% من قيمة الصمغ الذي يتم مبادلته علي ضفة النهر وقد وقعت فرنسا اتفاقية مع ادوعيش عام ١٨١٨م في عهد ادوعيش محمد بن محمد شين وفي عهد بكار اسويد احمد عام ١٨٥٧م ووقعت فرنسا اتفاقية مماثلة مع أمير الترارزة وأمير البراكنة عام ١٨٨٥م (٤) .

نتائج البعثات الكشفية في موريتانيا :

أن المتتبع للبعثات الكشفية في موريتانيا يلاحظ أنها كانت من الأهمية حيث افضت الي نتائج مهمة تحوم حول معرفة البلاد بما في ذلك معرفة القدرات الاقتصادية المتوفرة بها (٤) . ومن هذه الأهداف :

١ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

٢ - ازيد بية بن محمد محمود : مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

٣ - صورة من نص المعاهدة بالملحق.

٤ - محمد الرازي : مرجع سابق ، ص ٤٩ .

١- معرفة الناحية الطبيعية للبلاد :

لقد كانت معرفة التضاريس لموريتانيا تشكل إحدى المشاغل الرئيسية بالنسبة للحاكم الفرنسي الذي كان ينوي إنجاز خريطة للعالم ، وفي تقرير لقائد أركان القوات المسلحة الذي أوفده فيدراب في مهمة لادرار جاء ما نصه (لقد قدمت الرحلة معلومات هامة عن التضاريس)

١- معرفة السكان :

لقد تركزت كل البعثات الكشفية علي معرفة السكان وعلي عاداتهم وتقاليدهم وكان الرحالة ينظرون إلي تلك العادات وتلك التقاليد باعتبارها من نوع خاص ومعرفة السكان يسهل للمستعمر كيفية السيطرة عليهم .

ب - جمع المعلومات الاقتصادية للمنطقة :

بالرغم من المحاولات العديدة والجادة التي قام بها البعثات الكشفية في سبيل جمع المعلومات عن الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة في موريتانيا فإنه لم تتوفر لدى الحكومة الفرنسية المعلومات الكافية المتعلقة بثروة البلاد المعدنية أو السمكية إلا من خلال السنوات الأولى من الاحتلال والذي يمكن القول هو أن هناك أصداء توحى بأن الرحلات الكشفية في موريتانيا لم تكن مستقلة كل الاستغلال عن المسار الذي استخدمته السياسة التوسعية الفرنسية في البلاد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي السياسة التي استهدفت تقويض النفوذ السياسي لدى الأمراء والحد من التجاوزات الناجمة عن هيمنة السكان البيضان الذين يهددون الأمن والاستقرار علي مستوي ضفة النهر وهو ما كان يستدعي من السلطات الفرنسية المتمركزة لدي السنغال كتطبيق السياسة التوسعية الجديدة عن طريق تهيئة الظروف المناسبة لذلك فإن الرحلات الاستكشافية التي علي ما يبدو مهدت وساهمت إلي حد ما في إنجاز مشروع كويبولاني والذي حظي بالموافقة من الحكومة الفرنسية في السنوات الأولى

من القرن الماضي والقاضي باحتلال موريتانيا ووضعها تحت سيطرة الاستعمار . (١)
(لكن موقف الفرنسيين سوف يتغير وسياستهم ستستبدل خاصة في النصف الثاني
للقرن التاسع عشر (١٨٥٠ - ١٩٠٠ م) التي تعرف في كتب التاريخ بفترة حرية
التجارة وبداية التدخل الفرنسي .

لقد تغيرت من جهة الفرنسيين إذ ماطلوا في دفع الرسوم التي تعودوا علي
دفعها سنويا للأمرأ وتغيرها من جهة الأمرأ الذين قاموا بسياسة النهب مما حدا
بالتجار إلي رفع شكوي إلي الحاكم الفرنسي من وضعية الابتزاز والاعتصاب
والتلصص وعلي ضوء هذه الشكاوي قام الحاكم الفرنسي بتدشين سياسة توسعية لا
هوادة فيها وستلغي هذه السياسة الرسوم والمواثيق التي كانت قائمة بين الفرنسيين
والإمارات البيطانية بخصوص تجارة الصمغ . وإلغاء الرسوم التي كانوا يدفعونها ولقد
رأى أن يستعمل القوة في سبيل تحسين هذه السياسة (٢) .

ولقد دشن الفرنسيون بذلك سياسة مواجهة الأمرأ وستفضي إلي التدخل المباشر
في شئون السكان تمهيدا للسيطرة عليهم ولذلك في الواقع بواعثه علي المستويين
الداخلي والخارجي ولن يتأتى للفرنسيين السيطرة ألا باتخاذ مجموعة من التدابير
المختلفة كان من أهمها التغلغل في البلاد عن طريق الرحلات الاستكشافية التي تعتمد
علي جمع مختلف المعلومات عن بيئة السكان وسجاياهم وكان هذا العمل عملا شاقا بل
أحيانا ركوب خطر قد لا تحمد عقباه (٣) .

١- محمد الرازي بن صدفن : مرجع سابق ، ص ٥١ ،

٢- Janral , Christine : Op . Cit , p . 112

٣- ازيد بيه بن محمد : مرجع سابق ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ .

أوضاع موريتانيا الداخلية قبل قدوم الفرنسيين:

عاشت موريتانيا فترة طويلة من تاريخها ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي وحتى نهاية القرن التاسع عشر تحت تأثير مجموعة من العوامل التي فرضت عليها نوعا من الانعزال والاتغلاق مما حرمها من التفاعل والتأثر بما حولها .
ومن هذه العوامل :

١- عدم وجود سلطة مركزية تضبط حدود البلاد الموريتانية بشكل دقيق نظرا لتوزيع البلاد السياسي بين خمس إمارات محلية ، شكلت كل منها علي نظام سياسي له حوزته الجغرافية شبه المتعارف عليها .

١ - تعدد المؤسسات الأهلية وضعفها وانغلاق كل منها علي ذاتها انغلاقا اجتماعيا ووظيفيا شبه راكد .

٣- قلة الاتصال بالعالم الخارجي بشكل قوي لا يسمح بالاستفادة من المتغيرات الخارجية ونظرا لهذه العوامل ظلت موريتانيا بعيدة عن التأثيرات التي توقظ الشعور الوطني أو التي تسمح لمفهوم القضية الوطنية بالنضج ولقد ظل تعدد الولاءات هو العائق الكبير أمام انتعاش الشعور بالحس الوطني فالأمير لا يهتمه إلا مجال إمارته الجغرافي وشيخ الطريقة الصوفية لا يعتني إلا بالأفراد المتصوفين تحت لواء طريقتة أو المتعاطفين معها . كذلك شيخ القبيلة كان اهتمامه منصبا علي أفراد قبيلته خاصة منهم أولئك الذين يدينون له بالولاء ويستفيد من خدماتهم ولقد ظلت هذه المؤسسات الأهلية الثلاثة (شيوخ الطرق- شيوخ القبائل- الأمراء) تحكم علاقاتها النسبية المصالح الآتية والتي تركز في نفس الوقت الصراعات فيما بينها ودخل كل مؤسسة منها علي حدة وبقي الولاء الأوحد الذي يجمع هذه المؤسسات هو الولاء الإسلامي الذي يفتقر إلي قطب يوحد جهود هذه المؤسسات أو يوطدها أو تستمد منه شرعية ممارستها ، هذا الافتقار والفراغ هو ما ستحاول الطرق الصوفية سده في فترات متأخرة كنوع من البحث علي الشرعية الزمنية والروحية لتوحيد الجهود المحلية في وجه الهيمنة الفرنسية تحت شعار الجهاد الإسلامي خاصة بعدما فشلت جهود الدفاع عن الإمارات نظرا للاستهلاك من قبل في المواجهات مع الإمارات الأخرى .

هذا الوضع هو ما انتبه اليه رواد الهيمنة الفرنسيين لما اعلنوا أن موريتانيا مستعمرة فرنسية في السابع والعشرين من ديسمبر عام ألف وثمانمائة وتسع وتسعون ١٨٩٩/١٢/٢٧ م (١). فبدعوا في تحديد علاقتهم مع كل طرف ومؤسسة أهلية حسب وضعية وإمكانيات ذلك الطرف وتلك المؤسسة بغية إجهادها أولا واستغلالها ثانيا لصالح الهيمنة الجديدة فاتبعوا في ذلك سياسة الإبقاء علي الهياكل الصورية للمؤسسات وتحطيم أي تعارض منها مع الأهداف الجديدة وتفضيل ما يخدم السياسة الفرنسية في دورها التوسعي لذا تميزت علاقاتهم بهذه المؤسسات بالتشيط تارة والتجميد تارة أخرى مما احدث اختلافات غير طفيفة تشير إلي بعضها :

١ مع الأمراء :

لقد بنيت العلاقة بين الفرنسيين وحكام الإمارات في البداية علي أساس أن الأمراء هم سادة الأرض وان الفرنسيين تجار يدفعون رسوما جمركية للأمراء من اجل تأمين التبادل التجاري وتطور هذه الضرائب مع الزمن وتتنوعت وازداد كمها وكيفها حتى اصبحت تشكل العمود الفقري لاقتصاد الإمارات المحاذية لنهر السنغال لكن تنوع آخر طرا في دلالتها فبعد أن كانت رسوما مستحقة أصبحت مكافأة من الفرنسيين للأمراء وورقة رائجة في يد الإداريين للفرنسيين بالضغط علي الأمراء للخضوع لشروطهم فاصبحوا يدفعونها لمن يرضيهم من الأمراء ويمنعونها عن خصومهم وهكذا شينا فشيئا أصبحت كافة النظم الأميرية في نهاية القرن التاسع عشر تتمحور حول هذه الضرائب إذ كان التنافس عليها من الإمارات السبب الرئيسي في كل الحروب كما كان الدافع الخفي وراء اغلب النزاعات من الأفراد والأسرة الأميرية الواحدة بغية استئثار كل فرد منها بنصيب الأسد لما سمح الفرنسيون بان يتخذوا منها وسيلة لتغذية الصراعات الداخلية ويتمكنوا من خلالها من التسرب إلي التحكم في النظام الأميري خاصة مع احتفاظهم المباشر بالوحدات القبلية المكونة للنظام الأميري (٢).

١ - محمد فايزل : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

١- مع شيوخ القبائل :

فى محاولة لتقليص قبضة الأمراء على قواعدهم عمل رواد الهيمنة الفرنسية على تدعيم دور رؤساء القبائل على حساب الأمراء من خلال تقديم المساعدات المالية والعسكرية إليهم والتعامل معهم مباشرة دون الوسيط الأميرى مشجعة حركة عصيانهم على الأمراء فى محاولة لتهميش المؤسسة الأميرية المتداعية كهدف أول ولإزكاء نار الصراعات الداخلية كهدف ثان مما جعل بعض الشيوخ فى المرحلة الأولى للتدخل الفرنسى يرفضون دفع الغرامات للأمراء ويلوحون بالخروج على طاعتهم مما سمح لبعض الإداريين الفرنسيين باعتبار موقف الشيوخ هذا نجاحا مشجعا لسياستهم فى موريتانيا ، أن سلطة فرنسا قضت على نفوذ الأمراء ومشايخ القبائل الذين كانوا فى غاية التعاون معهم من أجل استخلاص ديونهم مقابل عطايا لقاء هذه الخدمة ٢ وقد أورد كويولانى نص شكوى أحد مشايخ القبائل قائلا:-

(لقد جنناكم رجاء أن تشرحوا لنا الطريقة التى يمكننا من الآن فصاعدا أن نسترجع بها ديوننا الكثيرة من القبائل المحاربة والزوايا فى ارض البيطان فلقد كان قبل احتلال الفرنسيين لهذه الأرض أمراء وشيوخ نعتبرهم ملاذا لنا نلجا إليهم لاسترجاع حقنا مقابل هدايا تضاف قيمتها للديون المستحقة وتمنحها لهم لكن بالمقابل فانهم يذهبون أموال القبائل المتأخرة يأخذون حقهم من هذه الأموال ثم يقضون ديوننا مما تبقى وكان لكل منا أمير أو شيخ أو علي الأقل بعض المحاربين تحت تصرفه مما يجعله فى أمان من ضياع أمواله واليوم لم يعد هناك أمير أو شيخ والمحاربون يتحاشون القيام بمهامنا ولذا فان سيطرتكم على ارض البيطان أصبحت على حسابنا إلا إذا كان بوسعكم أن ترجعوا لنا حقوقنا دون إلزامنا باللجوء إلي أحكام القضاء أو الحكام الإداريين الذين ليس بوسعنا أن نرفع لهم امورنا).

١- أزيد بيه بن محمد محمود : مرجع سابق ، ص ١٧٣ .

٢- انظر تحقيق كويولانى ألف الذكر الملحق رقم ٢ .

ولقد ازكى الفرنسيون الصراع بين شيوخ القبائل ورعاياهم ققاموا وفقا لمحاولتهم للابقاء علي الهياكل للصورية للمؤسسات الاهلية وتقاديا لعدم الاحتكاك المباشر مع الاهالي باتخاذ بعض الشيوخ جباة ضرائب علي تابعيهم مقابل نسبة معلومة الأمر الذي اعطي منصب الشيخ القبلي اهمية اقتصادية وسياسية جديدة استدعت الصراع علي هذا المنصب بين أفراد عائلات الشيوخ للانفراد به والاستحواذ عليه ومن جهة أخرى أثارت هذه الأهمية تذمر الأهالي خاصة وان إيكال جمع الضرائب إلي شيوخ القبائل أثار جشع بعضهم مما افقده التقيد بأي وازع إلى درجة انه كان يكره فتيات تابعيه ولو كن مسلمات علي الزواج من الفرنسيين يبتغي في ذلك مرضاتهم وعائدات الضرائب وهذا ما انتبهت إليه بعض القبائل وحاولت تقاديه قبل وقوعه فكتبت إحداها مخاطبا الإدارة الفرنسية في هذا الأمر قائلة (أن جماعة من بني ديمان تريد من أهل الدولة الفرنسية أن يكتبوا لنا كتابا ويجعلوا عليه طابع فيه إلا يتعرضوا لإنساننا من قريب أو بعيد ولا يطلب أو بخطبة فان ذلك مؤذ للزوايا كلها ومنفر) (١) ، هذا الإكراه وممارسات أخرى أدت إلي ازدياد تذمر الأهالي طرديا مع ضغوط المستعجلات الاقتصادية التي زامنت دخول الفرنسيين وسارعت بتفكيك النهج الاجتماعي خاصة مع فئة التابعين(٢)

بقدم الاستعمار الفرنسي إلي موريتانيا وانخاله النظم الجديدة للإدارة الفرنسية في البلاد وجدت وسائل جديدة للعيش ومصادر للدخل كالراتب والمنح والتشجيعات والامتيازات ووظائف جديدة اثرت بشكل كبير علي السلم الاجتماعي كما اثرت علي نمط الاستهلاك المعيشي ووسائله حسب ما اوجزه حاكم فكانت في تقريرة السنوي والي حاكم موريتانيا بقوله (فقد تحرر البيطان للعرب من مستلزمات وسطهم حيث تخلوا عن جلود النعام واصبحوا يستوردون الجديد من المواد الأوربية المصنعة) (٣) .

١- غيثي بن امم : امارة اولاد يحيي بن عثمان (١٩٠٠ - ١٩٣٢م) ، المدرسة

العليا للتعليم ، انواكشوط ١٩٨٦ ، ص ٢٧ .

٢- محمد فاضل محمد الحطاب: الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢ .

A.N M serie 2 dossier 116 relations mautes et haratines dans
rapport brakna 1943 p 511

هذا التحول الإقتصادي أدى إلى مزاحمة المنتجات المحلية وتعويضها بمنتجات أجنبية مما خلق اختلالات عميقة فرضت إعادة صياغة الهيكلة الاجتماعية أو إدخال مرونة عليها لتكييفها حتى تستجيب للظروف الجديدة وزعزعة هذه المستجدات كثيرا من الثوابت الاجتماعية خصوصا مع عمل الفرنسيين علي تجريد المحاربين من أسلحتهم ليصبحوا عاجزين عن حماية المجموعات التابعة لهم مما شجع هذه الأخيرة علي التخلص من هيمنتهم هذه الهيمنة التي طالما عاني منها التابعين . وأدى هذا التجريد إلي انعدام مصادر دخل المجموعة المحاربة المتمثل أصلا في جمع الضرائب وسارع بعملية تفجيرهم ، وادخل خللة جديدة علي وظائف السلطة الأميرية التي بدا افرادها يزاولون أنشطة كانوا يتأففون منها كالزراعة مثلا حتى أصبح حسان والعبيد يمارسون النشاطات الزراعية في كل المواقع جنبا إلي جنب ويتضح أن هذا الخلل من خلال التقرير السنوي الذي بعث به حاكم أدرار إلي حاكم موريتانيا بقوله : (لما سيؤدي إلي الاختفاء التدريجي للسلم الاجتماعي وظهور سلم اجتماعي جديد مبني علي أساس الثروة) (١) . وعموما فضلت مجموعة التابعين إلغاء العلاقات القديمة التي ترمز إلي البعد الاجتماعي وحذت استبدالها بعلاقات جديدة تقطع الصلات مع السادة أو تدعو متذمرين التابعين من خلال دعوات السلطات الفرنسية إلي تحرير العبيد تلك الدعوة التي وجدت اذان صاغية فظهرت احياء من الموالي المحررين موازية لإحياء السادة سابقا لا تربطها بأسيادها التقليديين غير روابط صورية واصبح هؤلاء المحررون يفضلون العيش بمعزل عن أسيادهم وبذا قطع الكثير منهم علاقاته مع العبودية (٢).

وهكذا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عرفت البلاد الموريتانية بداية لمرحلة جديدة من تاريخها السياسي والاجتماعي تمثلت في خضوعها للهيمنة الفرنسية بأساليب مختلفة طبعت كل مرحلة بسمات وخصائص مميزة . مما سمح في النهاية للنظام الفرنسي الجديد أن يحدث ارتباكا قويا علي النظام المؤسس المحلي .

١ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ٣٢٧ .

٢ - A.N M serie 2 dossier 116 relations mautes et haratines dans rapport
brakna. Op.cit. P. 512.

عموما أن هذا التسرب الفرنسى قد سبقه وصاحبه استكشاف نظري هام حول الواقع الدينى والطرقى للبلاد كان له دوره البارز في اختراق هذه المؤسسات .وهو ما جعل الإدارة الفرنسية تحرص علي أن يكون مهندس استعمارها في موريتانيا هو كوبولانى أحد المختصين في تاريخ الطرق الدينية ، ولم يتردد هذا المهندس في اجراء اتصالاته الاولى بالزعامات الدينية بغية انجاح مهمته التي كانت قد تمت التوطنة لها من خلال الرحلات والمستكشفين الفرنسيين (١) .

فكانت الرؤية واضحة له مما سمحت له بمعرفة الشخصيات الدينية التي سيتصل بها ويعتمد عليها في بداية توغله فبدا يهانها ويكتب لها مبينا الوضع السياسي المنهار مركزا علي حالة الفوضى وعدم الأمن والصراعات بين الإمارات من جهة وبين القبائل من جهة أخرى ومبشرا بالأمن الذي ستقرضه فرنسا موحيا إلي الزعامات الدينية بان فرنسا لا علاقة لها بالمسائل الدينية مما جعل بعض الشيوخ يستشعر في إغداق الولاة الفرنسيين للهدايا عليه نوعا من تشجيع الدين والقائمين عليه بدلا من كونه تأليفا لقلبه قصد مباركة الهيمنة الجديدة مع أن هناك فريقا آخر من العلماء ورجال الدين ظلوا يرفضون أى وجود للفرنسيين بوصفهم كفارا يمتلكين لبلاد المسلمين هدفهم المساس بالدين بما تستروا به مما يسمح لنا بالتساؤل عن موقف الطريقة القادرية من هذه الهيمنة الجديدة أكانت مهانة أم معارضة أم وجدت في الانسحاب من الساحة السياسية حلا ثالثا ؟ هذا هو موضوع الفصل الثاني من الرسالة.

الفصل الأول

الاحتلال الفرنسي لموريتانيا – الفترة من
عام ١٩٠٣ – ١٩٣٤

أولاً: الاحتلال الفرنسي لموريتانيا.

ثانياً : المخططات الفرنسية في موريتانيا.

ثالثاً: السياسة الفرنسية في موريتانيا .

أولا: الاحتلال الفرنسي لموريتانيا - الفترة من عام ١٩٠٣ - ١٩٣٤:

يعد مشروع موريتانيا الغربية الحلم الذي شغل مساحة كبيرة في الدبلوماسية الفرنسية حيث كانت فرنسا الاستعمارية تعمل على تكوين إمبراطورية استعمارية كبرى في شمال وغرب أفريقيا ولم يتم لها ذلك إلا باحتلال موريتانيا التي تمثل حلقة وصل أساسية بين الطرفين (١) .

وتتطلب دراسة مشروع احتلال موريتانيا منا أن نعطي في البداية لمحة موجزة عن كوبولاني (Xavier Coppolany) ذلك الرجل الذي تجمع أغلب الدراسات المعاصرة بأنه هو الشخصية الاستعمارية التي ترعمت دخول الاستعمار الفرنسي هذه البلاد وتعزيز النفوذ الفرنسي فيها علاوة على ذلك لا يمكننا أن نفهم خصوصيات السياسة التوسعية الفرنسية في موريتانيا دون الرجوع إلى أعمال الرجل ونشاطاته الاستعمارية تلك النشاطات التي كانت تستهدف تهيئة المجال لاستعمار شمولي لبلاد موريتانيا. اتخذ طابعا سلميا في مرحلته الأولى وطابعا عسكريا في مرحلته الثانية (٢) .

ولد كوبولاني في كرسيا بمنطقة مريانه في ١ فبراير ١٨٦٦م وقد استقر مع غالبية أسرته في الجزائر (قسنطينة) وبعد أن اكمل دراسته في هذه الأخيرة عمل بمقاطعتها الإدارية بمثابة كاتب مراسل و في أبريل ١٨٨٥م عين كاتبا بالبلدية المختلطة لوائي الشرق وفي يوليو ١٨٩٦م عين إداريا مساعدا بنفس البلدية و أثناء فترة تدريبه في المكاتب العربية بالجزائر نشر بالتعاون مع ديبون كتابا كبيرا عن (الطرق الصوفية والدين الإسلامي) (٣) .

-
- ١- الهيبة ولد سعد أبيه : الشيخ ماء العينين ودوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، رسالة كفاءة ، كلية الآداب جامعة نواكشوط ، ص ٣٠ .
 - ٢- محمد بن صدفن : مرجع سابق ، ص ٥٣ .
 - ٣- ديبون قائد فرنسي لموقع الكجوجت وخلال فترة تعيين فرنسا للقائد جوروا وحاكما على موريتانيا وقد قتل ريبون في أبريل ١٩٠٨م وكان مقتله على يد الوطنيين بمثابة انتهاء لفترة الهدوء التي مرت بها موريتانيا خلال هذه الفترة .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب المهمة من بين أي دراسة عن الإسلام وقد مكنته معرفته باللغة العربية وإطلاعه على القرآن الكريم من إعطاء صورة عن الحياة الروحية للمسلمين بالجزائر (١) .

وقد توصل كويلاني من خلال دراسته للطرق الصوفية إلا أن الإشعاع الديني لهذه الأخيرة قد يمتد إلى بقع شاسعة في المعمورة وذلك لأنها تنقسم إلى فروع متعددة كما توصل إلى أن العقيدة تحل محل الوطن في الأراضي الإسلامية وعلى هذا الأساس كان يري ضرورة إنشاء مصلحة خاصة بالشئون الإسلامية تتكلف مركزة كل المعلومات المتعلقة بالإسلام وتوفير المعلومات الأساسية التي تهتم الحكومة الفرنسية والمصالح المعنية بذلك في الوقت المناسب هذا في الوقت الذي تتكلف هذه المصلحة بإعطاء توجيهات عامة للسياسة الاستعمارية فيما يتعلق بمحاربة أو كسب ود الطرق الصوفية (٢) .

وقد لاحظ كويلاني أن التقليل من قوة التعصب لدى هذه الطرق سيكون خطأ في حين اعتبر احتواءها من الحكمة بمكان أن كان بذكاء ويرى أنه من الأفضل عدم محاولة تحييدها بل كسب تعاطفها دون أن تشعر بذلك ، ويبدو أن سياسته كانت تنصب في اتجاه واحد هو التفاهم مع الطرق الصوفية بشكل يضمن كسب ودهم وذلك بوضع اليد على الزوايا حيث يرى أنه باستخدامه للزوايا كواسطة يستطيع أن ينجح في إقامة علاقات سياسية وتجارية مع السودان الشرقي والغربي (٣) وهو ما يضمن دخول أفكار الحضارة الفرنسية إلى الدول الإسلامية (٤) .

- Desire', Vuillemin : Contribution a' l' histoire de la Mauritanie , 1900 -

1934 , Dakar 1962 p p . 148 - 149 .

Revu : op. cit , P . 264 .

-٢-

٣ - تشكلت في ١٨٩٦/٧/١٦ وضمت ثمان من المستعمرات الفرنسية هي داخومي (بنين حاليا) - ساحل العاج - السنغال - السودان (مالي حاليا) - غينيا - فولتا العليا (بوركتينا فاسو حاليا) - موريتانيا - النيجر .

٤ - محمد الراطي بن همدان، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

وقد كشفت التقارير في هذا الصدد عن عمق نظرية كويولاني واتساع افقه وفهمه للإسلام وعن ميلاد اراء صافات للمبادئ التي ستجعل منه في المستقبل منظرا للسلطة الاستعمارية في مجال سوسها للشعوب الإسلامية التي تخضع لسلطتها (١) .

لقد رأي كويولاني في هذا الكتاب انه بالرغم من الخلاف الشكلي موضوع الدراسة فانه ثمة خيطا رفيعا يجمعها وهو مناهضة الوجود الأجنبي ومن رايه انه يمكن تحقيق مصالح فرنسا وإخضاع القبائل التي تتألف منها هذه الطرق عن طريق الاتصال بالمشايخ (٢) أصحاب السنن والآداب والتجارة ومحاولة كسبهم عن طريق الإقناع والأغراء (٣) ، وهي سياسة مارسها في بلاد شنقيط ومنهج سار علي هدي منه في التعامل مع سكانهم لقد رأي كويولاني انه من اجل أن يصل إلى نهاية الأفق الذي رسمه ووضع تصوره في كتابه المشترك مع زميلة ديون راي أن يكون مسئولاً عن البعثات في البلاد الإسلامية من اجل التعرف علي فجاج البلاد وخاصة بلاد شنقيط وبلاد السودان ولقد رأي انه لإزايما عليه أن يحاول بقدر المستطاع إلا يواجه الرؤساء الدينيين بالعداء لان ذلك يزيد من نفوذهم بل رأي أن يجندهم الي جانبه . وخلال شهر نوفمبر ١٨٩٨م تم تكليفه من طرف حاكم السودان الجنرال ترينيتان للقيام بمهمة تقوده إلى السودان والساحل الجنوبي علي أن يلتقي بقبائل البيطان والطوارق (٤) من اجل الوصول إلى إخضاعهم .

ووجدت هذه البعثة دعمها المالي من طرف الحكومة العامة بالجزائر علي الرغم من أنها تكتسي طابعا مدنيا حيث لم يتم استخدام أي جهاز عسكري وقد انطلقت من سانت لويس (٤) . لتصل إلى قبائل :

Desire' , Vuillemin :Op .Cit , p . 132.

٢- الطوارق في الصحراء الوسطي بدو يرعون الجمال ويسكنون شمال منحنى نهر النيجر و منطقة جزمة الداخلة فيه لهم نظام طبقي يقسم القبيلة إلى نبلاء وتوابع وعشائر خاضعة لتنظيم دينية وعبيد سود وطبقة أصحاب الحرف تماما كما في قبائل البربر وللمرأة في مجتمعهم حظوة ومكانة .

٣- ازيد بيه بن محمد محمود : مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

٤- أول مركز أسسه الفرنسيين بالسنغال في حدود سنة ١٦٣٨م وهو يقع في شبه جزيرة بمصب نهر السنغال وقد تمكن الإنجليز في نطاق صراعهم بالمنطقة مع الفرنسيين من انتزاع هذا المركز مرتين في منتصف القرن الثامن عشر وفي نهايته قبل أن يستعيده الفرنسيين منهم آخر مرة في يناير ١٨٠٧ .

الحوض أولاد علوش (١) - مشطوف (٢) ، وغيرها وقد استقبل كويلاني بحفاوة من طرف البيضان وبفضل ثقافة العربية الإسلامية نجح في إخضاع الكثير من القبائل التي زارها كما زار قبائل الحوض وكانت (٣) وتشيت وكان الهدف الرئيسي من زيارة كويلاني هذه الى الحوض كان هو اجراء بعض الاتصالات مع رؤساء القبائل هناك وإقناعهم بجدوى الخضوع لفرنسا الذي يبنى أساسا على احترام وصيانة ممتلكات ومعتقدات هذه القبائل على حد زعمه ثم اطلعهم على الدوافع الإنسانية التي تدفع فرنسا إلى مواصلة مسيرتها نحو الشمال واثناء عودته اثر انقضاء مهمة عرض كويلاني تقريرا عاما عن نتائج مهمة ركز فيه على مخطط شامل لتنظيم قبائل البيضان وعلى السياسة التي ينبغي انتهاجها في الصحراء الغربية كما اورد في التقرير دراسة مفصلة لمختلف المناطق التي جابها ولائمات معيشة سكانها وركز على الدور الذي يلعبه الشيخ الكبير ماء العينين في الصحراء الغربية وعلى استراتيجية منطقة الساقية الحمراء التي يقطن بها هذه المنطقة التي تشكل حسب رأي كويلاني ملقأ هام للطرق والقوافل ويضم التقرير كذلك اشارة الى أهمية ادرار الاستراتيجية وضرورة انشاء مايسمى بموريتانيا الغربية التي تضم تحت قيادة واحدة كل القبائل (٤) .

وقد مكنته هذه الزيارة من جمع معلومات متنوعة تتعلق بالناحية الجغرافية والاثوغرافية وبناءا على نتائج هذا التقرير سيتم البدء برسم سياسة الخطوط الكبيرة لاحتلال البلاد الذي يعتبر مشروع انشاء موريتانيا الغربية الصادر في ديسمبر ١٨٩٩ من وزير المستعمرات لبنته الاولى .

١ - أولاد علوش إحدى قبائل موريتانيا ولها تاريخ طويل .

- ٢- قبيلة موريتانية لها وزن كبير خاصة في منطقة الحوض حيث أسس أحد فروعها مشيخة مستقلة بقيادة احمد محمود بن المختار (١٨٨٣م) الذي ترك الرئاسة في بنيه .
- ٣- مدينة موريتانية تاريخية اضطلعت بدور هام في التجارة عبر الصحراء بصفتها نقطة ربط في الطريق الواصل بين منطقتي السودان الغربي وشمال أفريقيا في فترة القرون الوسطى وهذه المدينة الان عاصمة مقاطعة ادرارية تابعة لولاية تكانت الواقعة بوسط البلاد الموريتانية
- ٤ - أنظر تقرير كويلاني بالملاحق .

هذا المشروع المحدد والمنظم تحت اسم موريتانيا الغربية ليشمل كل المناطق الممتدة من الضفة اليمنى بنهر السنغال والمناطق الواقعة من خاي وتبتكتو حتى راس جيبى غربا حتى تخوم المغرب ومن الشمال حتى جنوب الجزائر . الا ان هذا المشروع الذى يستهدف وضع موريتانيا سيصطدم بمقاومة من طرف التجار في سانت لويس الذين لا يرون في المشروع من اساسه سوى مغامرة مضرّة للغاية بمصالحهم التجارية . لان اى عمل عسكري يقام به ضد البيضان خلال هذه الفترة سيؤدي حتما الى قلب الاوضاع التى يزاولون فى ظلها انشطتهم التجارية .

كما اعرب الحاكم العام للسنغال عن معارضته للمشروع وكذلك وزارة الخارجية الفرنسية وهو ما يمكن اعتباره أحد المعوقات الأساسية للمشروع الذي كان يتارجح بين القبول والرفض (١) . وكانت وزارة الخارجية الفرنسية تعترض علي المشروع متذرة بأنه قد يسيئ إلى سياستها الخارجية وذلك بالحرج الذي يفرض عليه في علاقتها مع أسبانيا وبريطانيا وهما دولتان ترغب فرنسا في كسب ودهما من أجل إحراز النصر في معركتها البلوماسية مع ألمانيا وفي هذا الصدد وجه دلكاسيه delcassi وزير الشؤون الخارجية رسالة إلى وزير المستعمرات يقول فيها (لم يفتني ما لهذا المشروع الإداري من مميزات وخاصة من حيث التنوع إلا انه ينبغي أن أنكركم بالوضع الدولي الذي تعيشه بعض الأماكن الواقعة في موريتانيا الغربية فهناك خصومات واقعة بين باريس ومريد بشأن الحدود الشرقية لوادي الذهب ومع ذلك فقد اعتمد المشروع وكان مرسومه ذا مغزى بالنسبة لتاريخ بلاد شنقيط اذ يقضي بإنشاء مستعمرة تحت اسم موريتانيا ١٨٩٩م . ثم اتبع هذا القرار بإنشاء مكتب للدراسات للتعرف على هذه البلاد وكان مقرة سان لويس وعين علي رأسه كوبولاني وبمساعده روم الحاكم الفرنسي فيها وقد قام كوبولاني بتجسيد عزمة المتمثل في الحرص علي العلاقات مع أعيان القبائل البيطانية الذين تعرف عليهم خلال رحلته بين عامي ١٨٩٨ - ١٨٩٩م (٢) .

١- محمد اللراظي : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

وقد أعرب عن نيته هذه من خلال اقتراحه لنفسه مسئولاً عن هذا المكتب يطيب لي أن التمس من حضرتكم أن تولوني مؤقتاً علي هذه المصلحة لكي انتهز الفرصة في بقائي في باريس من أجل إعطاء البعد الذي تستحقه والدفع المناسب لها خاصة فيما يخص رؤساء القبائل البيطانية الذين تعرفت عليهم خلال رحلتي بين عامي ١٨٩٨ - ١٨٩٩م ومنحوني ثقتهم و أعربوا لي عن ولائهم اذ التوقف اليوم عن الحرص علي استمرار مساندتهم وتبعيتهم سيكون خطأ فادحاً ليس من السهل تداركه في المستقبل (١) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من اعمق أسباب نجاح مشروع كوبولاني تحويل الحاكم الفرنسي بالي Pally (٢) الذي كان يرى ان ارض البيطان لا تحقق نتيجة تساوى هذا الجهد الذي ذكر في التقرير الذي حرره كوبولاني وكانت معارضته شديدة لاستغلال هذه المنطقة فاستبدل هذا الحاكم بروم الذي ستولد لديه فتاعة باهمية مشروع كوبولاني وسيشاركه فتاعة بعده الاستراتيجي .

لقد كان كوبولاني داهية مأكراً خداعاً طموحاً وقد استطاع بفضل هذه الصفات ان يحقق لفرنسا ما ارادت دون جهد عسكري يذكر علي الأقل في عهده قبل اغتياله عام ١٩٠٥ م وقد كتب كوبولاني في تقريره (٣) .

إن الفرنسيين هدفهم الأول والأخير من الاتصال بالسكان هو ازدهار الاقليم وان النوايا مقصدها في النهاية السلم والامن ثم بين جملة المشكلات التي قد تتعرض لها فرنسا في موريتانيا والمتمثلة أساساً في المصالح الخاصة لبعض التجار والمتعاملين والتي قد تفسد علي فرنسا ما اصلحه الفرنسيون وتفسد عليهم كذلك بواكير انجازاتهم بجهود كوبولاني .

١ - ازبد بيه بن محمد محمود : مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

٢ - (تولي وزارة الخارجية الفرنسية من ١٨٩٩ الي ١٩٠٥م وهي نفس الفترة التي زاول فيها كوبولاني خطه في موريتانيا وقد كان هناك ارتباط بين خطوات كوبولاني في موريتانيا بالسياسة الفرنسية التي اتبعها دلكاسيه في مراكش

٣ - Coppolaniy rapport op. cit, P. 142.

(احتلال مائتين وخمسين الف كيلومتر وإخضاع تسعة مراكز وعمالات داخل شعوب
عرفت بشراستها و اعتمادا على مشاركة هذه الشعوب نفسها محققين بذلك حماية لم يسبق
لها مثيل لضياح الزنوج علي ضفة السنغال وان نطبق مبادئ حكمنا علي اكثر من ثلثمائة
الف رجل من الرجل كنا بالامس القريب ندفع لهم ضرائب سنوية واليوم اذ تقدم هذه النتائج
الايجابية التي قد حققناها عليهم دون اراقة الدماء ودون حرب ا وهجوم بواسطة نفقات نقدية
محدودة يكن استرجاعها علي الفور بواسطة الدخل المساوي لجباية الزكاة الجارية حاليا فانه
يوسعكم أن تعتبروا انه ان الاوان للتصدي لهذه المصالح الخصوصية الالفة الذكر بمختلف
مصادرها من اجل ان توقف اذا كان ذلك امرا لامفر منه معارضتها للمصالح لعامة التي
نحرص كل الحرص علي الزود عنها ومن جهة أخرى حافظ كويولاني علي الطابع السلمي
للتوغل فلقد اكد في كتاباته أن الدولة الفرنسية ذات القوة والشوكة لا تريد الا مساعدة
الضعفاء وتبجيل العلماء وعدم التعرض لاي أحد في دينه ولن تقدم علي تغير العوائد
وتسعي جاهدة علي حماية الأموال والانس ووضع حد لاهاق الأرواح المتفق علي
تحريره في كل الشرائع ، ومن لم يتفق مع الفرنسيين في هذه السياسة فالدولة الفرنسية
ستكون كفيلة بالرد عليه علي حد تعبيره جاء ذلك في رسالة كويولاني للامراء و أهل الحل
والعقد في موريتانيا (١). وقد بوب كويولاني في هذه الرسالة علي أن للعافية والأمن ثمنا
مقبوضا يجب أن يؤديه هؤلاء الذين ينعمون بها إذ شرع في اخذ العشرات أو الذكاه كما
يسميا هو وذلك تجسيدا منه للتعبئة الفعلية ، ويخلص كويولاني القول في كتابه ليثبت
منهجه السلمي (وكرر عليكم أن المتصود بقدمنا المصلحة للكل واثبات العافية الدائمة في
الارض ومن سمع هذا ورغب فيه فليأتنا بغير سلاح وعلينا أن نعامله بما هو أهله ويكون
في أمن وأمان لم يفعل فانه يحفظه والسلام) . ولكنه مع ذلك بصرح في التقرير انه قد
يخرج عن منهج توغلة السلمي عند الاقتضاء اذا تطلب بعض المواقف نوعا من القمع او
الاجراء البوليسى . لقد لجانا والكلام لكويولاني وربما يتكرر ذلك إلى احتلال بعض لنقاط
الاستراتيجية بواسطة قواتنا النظامية في حالة عدم وجود قوات اخري وبموجب استخدمنا
لهذه القوات ظهرت بعض التصرفات في اوساط مناوئة لهذه السياسة)

(٤) ، ولقد أكد كويولاني في خاتمة تقريره أن كل النقاط التي احتلها وحتى تلك التي ينوون احتلالها في المستقبل إنها لم تكلفهم إطلاق رصاصة واحدة إذ هم استقاموا علي النهج السلمي واتبعوا السياسة التي رسموها والتي أشير إلى خطوطها العامة في ثنايا التقرير .
لكن كويولاني كان غافلا عما ينتظره قد استهان بهؤلاء السكان البسطاء في نظره إذ افترض في الاعتماد علي التدابير السلمية التي كان يظنها ووثق فيها واعتبرها صمام أمان ولن تكلفه إطلاق رصاصة الا انه اغتيل في تجكجة في ١٢ مايو ١٩٥٥ علي يد المقاومة الموريتانية

وسائل فرنسا لاحتلال موريتانيا:

قبل الحديث عن مراحل احتلال فرنسا لموريتانيا نشير الى بعض الوسائل التي اتبعتها فرنسا في تحقيق سياستها الاستعمارية لاحتلال موريتانيا .
لقد لجأ المستعمر في وسائله واستراتيجياته الي الحيلة والدهاء بكل ما يعنيه ذلك من إظهار المثل الإنسانية الرفيعة والسماحة والوفاء كما كان يلجا الي جهة اخري وبالتوازي مع الوسيلة الانفة الذكر الي بذر النزاعات وتغذيتها علي جميع الاصعدة السياسية والاجتماعية والفكرية مثلما انه كان يلجا الي العمل العسكري المفتوح حسب الظروف وبخاصة في المناطق التي تصمد امامه وتابي الانصياع لضغوطه او أن تتخدر باساليبه الفتانة ، وقد اقتنعت فرنسا باهمية موريتانيا وشرعت في احتلالها وبدأت في تنفيذ الاحتلال عام ١٩٥٢ م (١) . وحتى تحقق فرنسا أطماعها في الاحتلال اتخذت عدة وسائل منها :

- ١- المرونة في المواقف وسياسة التغلغل في البنيان الاجتماعي والسياسي والفكري للمجتمع البيطانى قبل الإقدام علي احتلاله .
- ٢- سياسة فرق تسد والتي شرعتها الوضعية الاجتماعية والسياسية في البلاد فور ظهور هذا المستعمر علي السواحل الموريتانية ولعب المستعمر دورا كبيرا في انكاء الخلافات والصراعات الاجتماعية مما كان له تأثيره في أنهاك القوي النشطة في المجتمع وضعف مردوده الجهادى وذلك كله عزز من مواقع المستعمر ومهد له الطريق لتثبيت أقدامه في المنطقة (٢) .

١- فاطمة بلت الامام : المقاومة الدينية من خلال المحاضر ، بحث لنيل شهادة الكفاءة ، كلية الآداب جامعة نواكشوط ، ١٩٨٩ ص ٩ .

٢ - عبد الملك خلف تيمى : مرجع سابق ، ص ٦٨ ، كذلك ، الهيبه ولد سعد أبيه : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

٣- الحملات العسكرية : وكان يلجا اليها في إطار الجانب الردعي لفصائل المقاومة المنتشرة علي قمة الوطن ولقد كان الجانب العسكري اقل شأنا من وسائل الاحتلال اذ عجز هذا المستعمر عن استتصال شأفة المقاومة المسلحة بالقوة دائما استأصلها عن طريق المكائد وزرع الشقاق داخل صفوفها وامتصاص أفرادها فردا فردا عن طريق الاغراء المادي والمعنوي الذي بذله للعائد إلى أحضانه (١).

٤- الإمتزاج العرقي : وكان من أساليبهم التي اتبعوها لاحكام سيطرتهم علي البلاد الإمتزاج العرقي فقد نصح كوبولاني رجاله منذ دخوله تجكجة بالسعي للزواج من مواطنات شنقطة حتى يعزز الفرنسيون من مكانتهم الاجتماعية باتباع هذا الأسلوب الا ان الشناقطة رفضوا هذا الأسلوب حرصا علي التمسك بتقاليدهم حيث أن هذا يتنافي مع الدين الإسلامي (٢) .

أهداف فرنسا لاحتلال موريتانيا:

كأنت أهداف كوبولاني وزملائه من التوغل واحتلال موريتانيا تتلخص في عدة أهداف منها :

- ١- تأمين المستعمرات من هجمات البدو الرحل التي تهددها بين الحين والآخر وخاصة المتمركزة علي نهر السنغال من البيطان الذين كانوا كثيرا ما يتعرضون لها بالتهب والسلب .
- ٢- دعم السلم في موريتانيا من اجل حماية القوافل التجارية وتوسيع دائرة تجارة لمستعمر المستغلة لثروات البلاد من صمغ وملح واسماك ومعادن .

قطع الطريق أمام المقاومة المغربية وابقائها متمركزة وراء خطوطها الظهيرية وعدم استفادتها من الصراع علي المغرب من فرنسا والدول الأوروبية .
العامل الاستراتيجي:

ويتمثل أساسا في ربط المناطق المتصلة من المغرب العربي بأفريقيا الغربية حيث أن موريتانيا تعتبر همزة الوصل وقنطرة الجسر الرابط بين المستعمرات الفرنسية في شمال القارة الأفريقية وغربها من لجل الربط بين هذه المستعمرات

١- فاطمة بنت الإمام : مرجع سابق ، ص ٩ .

٢- الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ٣٣٤ .

فكان احتلال موريتانيا امرا ضروريا وهدفا منشودا . اول الطرق ضرورة توفير الأمن والاستقرار في المنطقة وذلك يضع حدا للنزاع والخصومات وإيقاف إشعال الحروب بين الفئات الموريتانية (١) ،

- عرقلة المد الثقافي الإسلامي.

كان الفرنسيون يرمون أيضا الي محاصرة انتشار الدين الإسلامي الذي كان ينتشر علي أيدي علماء التصوف الموريتانيين في القارة الأفريقية مما كان يترتب عليه انحصار الديانة المسيحية في هذه القارة ومن ثم وعيا منهم بهذه الحقيقة عملوا علي احتلال موريتانيا وعرقلة هذا المد الثقافي الإسلامي الذي كان يشكل زراعا مانعا دون التغلغل الثقافي الفرنسي في الشعوب الأفريقية بل أن هذه الشعوب كانت في أغلبها وراء انتفاضات إسلامية ضد الغزو الفرنسي بالإضافة الي هذه الأهداف الاستراتيجية فان السيطرة علي منطقة مهما كانت صحراوية فان هذا يعني علي الأقل خلق رصيد للمستقبل(٢)

١- حيمد بن محمد علي : المواجهة الثقافية الموريتانية للاستعمار الفرنسي (١٩٣٦- ١٩٥٠) ، بحث لنيل شهادة الكفاءة ، كلية الاداب جامعة انواكشوط، سنة ١٩٨٩ ، ص ٨ .

٢ - Gouraud , Ge'ne'ral : Mauritaine (Adrar) , Souvenir d'un —
Africain , Paris 1927 , p . 121.

أولا :- مراحل احتلال فرنسا لموريتانيا :

لقد قررت فرنسا احتلال موريتانيا بموجب قرار صادر في ١٨٩٩/١٢/٢٧م بناءً على تقرير قدمه كوبولاني عقب قيامه بمهمة في البلاد (١) ويمكن رد بداية احتلال موريتانيا واستعمارها إلى البعثات الكشفية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بغرض الحصول على المعلومات الضرورية لتمكين المستعمر من التصرف في إمكانيات البلاد وكانت آخر هذه البعثات بعثة كوبولاني التي سبق الحديث عنها (٢).

أولا : مرحلة الاحتلال غير المباشر:

إن هذه العملية الكشفية تعتبر أولى مراحل الاستعمار الفرنسي لموريتانيا وتمثل في بداية الأمر في الرحلات الكشفية حيث كان المستكشف يتظاهر دائماً باعتناق الدين الإسلامي .

وقبل الحديث عن الاحتلال المسلح أو العمل لأبد من الحديث عن موضوع آخر من الاحتلال يمكن تسمية بالاحتلال غير المباشر تجسد أساساً في السياسة المحكمة التي اتبعتها فرنسا في دمج السلطة التقليدية في التبعية الاقتصادية ومحاولة أضعاف نفوذ الإمارات بفعل التدخل في أمورها تمهيداً لفرض الحماية والتبعية السياسية والعسكرية للبلاد لاحقاً الأمر الذي يستدعي المواجهة بين فرنسا ورواسب الإمارات التي انهارت فترتها بفعل الحروب والاقتتال الداخلي وبفعل الضغط المترتب على السياسة الاستعمارية وهنا تدخل في المرحلة النهائية والفعالية لاحتلال موريتانيا بعد فترات تأزم وانفراج وبعد مئات العقود (الاتفاقيات) التي كانت لا تنص فقرائها أبداً على الحماية الفرنسية (٣) .

١- محمد الهادي ولد الطالب : المقاومة الموريتانية في مواجهة الإستعمار ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الأدب جامعة عين شمس ١٩٨٩ ، ص ١٠٦ .

٢- انظر خريطه رقم (١) بالملحق.

٣- مريم احمد الامين : النظم السياسية والادارية واثرها على التركيبة التقليدية للمجتمع البيظاني ١٩٠٠-١٩٤٥ ، جامعة انواكشوط ١٩٨٩ ، ص ٩ .

ولكن فرنسا ظلت تحتال على عوامل القوى في المجتمع المتمثلة في الإدارات والوحدات القبلية حتى إذا طلع القرن العشرين كانت كل القبائل وكل الامارات قد تم استنزافها في حروبها الداخلية وبالتالي توافرت كل الظروف الملائمة لاعلان فرنسا عن نواياها الحقيقة في احتلال موريتانيا فبدأت القوات الفرنسية الغازية توغلها في الأراضي الموريتانية بادنة بمنطقة القبلة وخاصة الترارزة . (١)

وقد اصبح روم roume حاكما عاما على السنغال وكان متفقا مع كربولاني على احتلال موريتانيا وقد أيده الأخير في احتلال المناطق المحاذية للنهر بما فيها منطقة الجنوب الغربي الموريتاني وذلك تحت حجة وضع حد لعمليات النهب والسلب واعادة الأمن للمنطقة المذكورة وحماية المجتمعات الزنجية من اغارة البيضان (٢).

التدخل الفرنسي المباشر :

لقد جاء التدخل الفرنسي في ظروف قاسية من الفوضى والبلبلة ، فالامارات متناحرة والقبائل كذلك بل إن القبيلة الواحدة تتحارب فيما بينها وحتى في الزوايا المسالمة . وهناك مقطوعة شعرية تبرز مثالا لذلك والتي قالها أحد طلاب المحاضر من مجتمع الزوايا وهو الطالب محمد بن سيد أحمد عندما جاء للعلامة محمد فال بن متالي من أجل طلب العلم ، لكنه لم ينس مقتل أخيه وفكرة النثار المقيتة تشغلة فقال شعرا يصف هذا الوضع المتردى في أكثر من عشرين بيتا منها .

اشفاقك تهتاف الحمام المغرد	...	وايات رسم قد عفون لمهدد
ثم قال		
انيتك ارجو العلم والدين والهدى	...	على اننى لم انسى مصرع احمد
ومصرع فتیان اماتل حولة	...	وماحدث الركبان فى كل مشهد
الى ان قال:		
وفى الدهر للاوتار اهل ومطلب	...	اذا لم ازل ثارى من اليوم او غد (٣)

وبالنسبة لأمارة الترارزة فإن الأمر أشد ، فمنذ أن قتل محمد الحبيب ظل أبناؤه في صراع دموى على السلطة كل منهما يقتل الآخر مما جعل فرنسا التي تقف على الحدود متفرجة يقلقها الوضع وخاصة عندما قتل سيدي بن محمد الحبيب على يد أخيه أحمد سالم سنة ١٢٨٨ هـ ، مما جعل أحمد سالم يرسل للحاكم الفرنسي بمدينة " سان لويس " التي يسميها الموريتانيون مدينة " اندر " رسالة يقول

١ - فاطمة بنت الإمام : مرجع سابق ، ص ١٣ .

٢ - محمد الراضى : مرجع سابق ، ص ٥٦-٨٨ .

فيها : إن القتل علي الإمارة لا يعتبر أمرا مشينا عند العرب . ومما لا يخفي علي أن هذا الصراع والخلاف والفرقة كان مبعثه التدخل الفرنسي الذي زرعة في صلب الأمة الموريتانية ، وكذلك إنكاء نار الفتنة ليكون بإمكانه السيطرة علي الأمة

وكذلك اتباعه لسياسة فرق تسد وخاصة في الإمارة المجاورة له لأن الإمارات الأخري إلي حد ما كان يسودها الإستقرار ، ورغبة من الاستعمار الفرنسي في إضعاف الولاية المجاورة له حيث إنه في سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨م قام الصراع علي الإمارة بين أبناء سيدي بن محمد فال الحبيب وأبناء أعلي .

لقد كانت البلاد كما رأينا عند دخول الاستعمار تعيش نوعا من الفوضى ، وأمام هجمة الاستعمار كان لابد أن تتوحد تحت قيادة الفقية والسياسي المحنك والزعيم الحربي ومن هو موصوف بمقومات القيادة بحيث تخضع له كل الطبقات الموريتانية وعلي رأسها الزوايا وحسان ، وكان ذلك الزعيم المنشود هو الشيخ ماء العينين وهكذا استطاعت فرنسا أن تسيطر علي موريتانيا عسكريا لعدة عوامل لعل من أهمها :-

التفوق العسكري ، واستمالتها لكثير من الأفراد ، وبعض القبائل التي استطاعت أن تجعل منهم جيشا من ركاب الأبل ، وققد الشيخ ماء العينين ، وتعدد الجبهات القتالية ، وعدم توفر المجاهدين علي السلاح والمؤونة . . والحرب النفسية التي كانت تشنها فرنسا في الأوساط الشعبية . أما الزعماء فلم يتأثروا بها ففي إحدى المعارك أخذ الأمير سيد أحمد بن عيده أسيرا ، وأرسلته فرنسا إلي آرار محل إمارته لتبرر أسرة ، بسبب إنتصار الاستعمار قامت موجات من الهجرات وخاصة إلي الحرمين الشريفين لفتاوي بتحريم دخول المدارس الفرنسية . لقد حاولت فرنسا من بداية تدخلها أن تنشر المدارس الفرنسية باعتبارها الوسيلة الجيدة لبحث دعوتها وأفكارها والتربة الخصبة لزراع مبادئها الاستعمارية وذلك في سياسة التعليم لمنظمة دول غفريقيا الفرنسية (١) .

حيث إشمطت هذه السياسة علي ثلاث نقاط :

الأولي : التحضر : وذلك لا يتسني إلا بإقامة المدارس الفرنسية وبغرس معتقدات لا تتنافي في ظاهرها مع المعتقدات المحلية .

الثانية : الفرنسية وذلك بسلخ الأمة من تراثها الحضاري وجذورها الثقافية ولغتها وإبدالها بمعطي حضاري جديد مختلف في قيمه ومعتقداته عن الإسلام وأصوله .

الثالثة : اختيار النخبة : من أجل إيجاد فئات موالية للإستعمار .

وتحت ستار التحضر انتشرت المدارس في غرب إفريقيا ورفضها الموريتانيون بشدة بوصفها تهدد التعليم الإسلامي ، وتمسكوا بالمحاضر رغم الاغراءات الفرنسية .

ولم تكن الفتاوى في تحريم إرسال الأطفال للمدارس فقط بل كانت تشمل مقاطعة الإدارة الفرنسية ورفض التوظيف بالإدارة الفرنسية وقسمت الفتاوى الموريتانية المتصلة بالفرنسيين إلى قسمين :-

القسم الأول : عاصى وهو العامل المسالم الذي يعمل من أجل كسب قوته ولا يعين الإدارة الفرنسية في نقل أي معلومات عن المسلمين ولا يساعدها علي ظلمهم .
والقسم الثاني : كافر ، وهو العامل الناصح للإدارة الفرنسية ويعطيها المعلومات عن المسلمين .

لقد كانت فترة الإستعمار الحقيقي قصيرة ، ومن أجل توطيد الإستعمار ، قام المستعمر بتكوين مجموعة من الأتباع وسلمها السلاح وسلطها علي المواطنين الذين ظلموا الشعب وامام هذا الظلم تولدت حركة المطالبة بالاستقلال والتي ساهمت فيها عوامل عدة ، كظهور حركات التحرر بعد الحرب العالمية الثانية وتخيير فرنسا للمستعمرات فيما يعرف بالقانون الإطاري تحت شعار لا " أو " نعم " بمعنى لا للبقاء مع فرنسا أو نعم للبقاء معها ، وكان ذلك سنة ١٩٥٨ .
كانت هذه نماذج من استراتيجيات الدفاع المدني التي اتخذتها المحاضر أمام هجوم الإستعمار الفرنسي العسكري والثقافي .(١) .

المراحل التنفيذية لاحتلال فرنسا لموريتانيا (٢):

كانت إمارة الترارزة هي المتاخمة للسنغال وكانت تبسط نفوذها عليه وفي عهد الأمير محمد الحبيب ابن عمر بن المختار الذي حكم من سنة ١٨٢٧ - ١٨٦٠ قررت فرنسا محاربة ودخلت معه في صراع لسبيين :

الأول : أن الأمير محمد الحبيب كان أميرا عادلا محببا عند الزوايا فمستشارة الشخصي محمد الصوفي بن محنض أحمد وقاضية محنض بابا ابن عبيد واعتبرت فرنسا أنه في يد الزوايا يسعون بها لإقامة دولة إسلامية وهذا ما ترفضه فرنسا .

الثانية : هو أن فرنسا تعتبر السنغال أرضا لها ، ثم قامت الحرب ودامت مدة طويلة وفي هذه الفترة اشترى النفوس إلي نصب إمام تتوحد تحت حكمة البلاد وكان الحنين في هذه الفترة إلي الدولة العثمانية رغم الإنقطاع عنها لأسباب جغرافية لقد نبه العلماء علي خطورة فرنسا وأنها لا محالة قادمة إلي البلاد ونادوا بالاستعداد للجهاد ، ولكن الاستعمار كان أمرا مقدرا وخاصة بعد التطورات التي نجمت عن قتل محمد الحبيب سنة ١٢٧٢ هـ .

١- محمد الصوفي - مرجع سابق ص ١٥٦

٢- انظر خريطه رقم (٢) بالملحق.

كما إدعت بعض الدول الإستعمارية الأخرى بأن مبررات إستعمارها ثقافية ودينية لرفع المستوى الثقافي لهذه الشعوب وتزويدها بالحضارة الأوروبية وكان الأستعمار الفرنسي من هذا النوع ثم اجتمعت الدول الأوروبية في برلين سنة ١٨٧٨ بزعامة بسمارك علي تقسيم أفريقيا ومن المعلوم أن الأستعمار كان أشكالا فالفرنسي منه اتخذ سلاح الثقافة كوسيلة لتثبيت الإستعمار السياسي والعسكري (١)

وكان من الطبيعي أن تكون موريتانيا هدفا للإستعمار الفرنسي للأسباب السابقة ولموقعها الجغرافي بين المستعمرات في إفريقيا الغربية بإفريقيا الشمالية ، ثم بدأت فرنسا تخطط للسيطرة علي موريتانيا وأول عمل قامت به في هذا المجال هو أسلوب التجسس حيث عهدت إلي أحد جواسيسها بالجزائر المعروف باسم رنية كاييه Renin kaye بهذه المهمة فتعلم العربية واعتنق الإسلام ظاهرا ثم اتجه إلي المغرب ومكث به سنة كاملة يتدرب علي تأدية شعائر الدين ، فلما أيقن أنه أصبح جاهزا للقيام برحلة الخطرة تنكر في زي عربي متسميا باسم عبد الله ودخل موريتانيا كطالب علم وتجوّل من محظرة إلي أخرى ، وبعد فترة وجيزة تبحر في اللغة العربية والفقه وأصول الدين مما جعله يصبح إماما لمسجد ولما أنهى مهمته التجسسية فر ليلا بعد أن كتب علي لوح قول خليل

"وطلعت بافتداء بمن بأن كافرا" (٢) .

ولقد تزامن الدخول الفرنسي لمنطقة الترابزة مع سلسلة من الأزمات الداخلية التي كانت تعيشها إمارة الترابزة والمتمثلة في الصراع علي السلطة الذي اشتد في وقت تولي أحمد سالم ولد علي السلطة في الإمارة (١٨٩١ — ١٩٠٥) بعد أن تخلص من عمه الأمير السابق عمر سالم ولد محمد الحبيب الذي حكم الإمارة من قبله لمدة أربع سنوات لقد بلغ الصراع أشده عام ١٩٠٢م وهي السنة التي أرسل الحاكم العام لافريقيا الفرنسية الرائد ديابلان dela plane علي رأس بعثة لتقصي الحقائق في الترابزة .

١ - شكيب ارسلان : حاضرم العالم الاسلامي ج ٢ ط ٤ دار الفكر بيروت ١٩٧٤م ص ٥٢.

٢ - سعد خليل مرجع سابق ص ٢٧

وقد تمكنت البعثة من استقطاب أبناء محمد فال وهم أعداء احمد سالم وقد أعلن خضوعه لاحمد سالم بتوجيه من فرنسا التي وجدت هذه الخلافات فرصة نادرة لتدخلها في الشؤون الداخلية للأمارة وقد أدى تأكيد فرنسا لاحمد سالم الي هجرة سيدي خارج الترازة الي إمارة البراكنة واصبح لفرنسا الحق في تعيين الامراء وحق تعيين مقيم فرنسي في المحضر الأميري .

ثم جاء كوبولاني في ديسمبر ١٩٠٢م والتقى بأحمد سالم الذي تنازل عن العرش للسلطات السنغالية المكلفة بإقامة العدل في دولته، كما عقد كوبولاني في ١٧/١/١٩٠٣م اتفاقية مع الطرف المنشق (سيدي الذي أعلن تخليه عن سلاحه وخضوعه للسلطة الفرنسية كما أعلنت القبائل الزاوية والحسانية التي تضررت من واقع الأزمة عن خضوعها للاستعمار في الايام الأولى من يناير ١٩٠٣م .

وقد نصت الاتفاقية المذكورة على قبول أولاد احمد بن دامن الواقع الفرنسي والامثال لأواسر السلطة الفرنسية وعدم مقاومتها وفي المقابل يحترم كوبولاني الدين الإسلامي والعادات والتقاليد المعمول بها وقبول اختيار اولاد احمد بن دامن من يحق له تاريخيا إدارة شئون الامارة وفق التقاليد الأميرية (١) ، وبهذه الإتفاقية تم وضع الترازة بصفة نهائية تحت الإدارة الفرنسية ويفسر نجاح كوبولاني في الترازة باعتماده علي الزوايا وخاصة تحالفه مع الشخصيات ائدينية ذات التأثير الروحي القوي في المنطقة أمثال الشيخ سعد ابية والشيخ سيديا باب (٢) .

وفي أعقاب خضوع سكان الترازة السلمي تمت إقامة مركز اداري في اصويت الماء (٣)

١ - Desire Wullemmin .Op Cit p 85

٢ - سيديا باب : حفيد الشيخ سيدي الكبير المتوفى ١٢٥٨ هـ ، لمزيد من التفاصيل ، انظر ، محمد الراضى : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

٣ - منطقة في نهاية نهر الأركيز ، ينتهى إليها الماء وينتشر في مساحة واسعة .

الا ان الأمن بالمنطقة لم يستتب بصورة نهائية ولذا قامت عدة حركات تمرد ضد المستعمر ثم تمكن المستعمر من إخضاع كل القوي السياسية بالترارزة تحت الحماية الأجنبية وحقق كويولاني للنجاح الذي كثيرا ما كان يرأوده هذا النجاح الذي يعتبر البداية الحقيقية لمسيرته الاستعمارية التوسعية والتي كان نجاحها يتطلب من ضمن أمور أخرى ، توفير المئونة والعدة العسكرية والذخيرة العسكرية ولذلك كان لتحسين وسائل النقل أولوية بالنسبة إلى كويولاني في ذلك الوقت وقد أسس كويولاني عدة مراكز (باعتبارها نقاط استراتيجية) لعبت دورا أساسيا في حماية ضفتي نهر السنغال وهكذا يكون سقوط الترارزة في أيدي السلطة الفرنسية بمثابة سقوط حبات المسبحة علي التوالي .

احتلال البراكنة :

ان احتلال الترارزة لم يمنع قبيلتي (أولاد عبد الله) (وإدو عيش اللتين تتجانبان علي التوالي الي كل من البراكنة (١) وتكانت (٢) من مواصلة أعمالها المعادي للنفوذ الفرنسي حيث كانت هذه القبائل تقوم بنهب القبائل الموالية للفرنسيين وتنظيم العمليات المعادية للوجود الفرنسي وذلك علي كامل امتداد منطقة النهر وقد ازدادت قوه هذه المعارضة اثر تحالف احمد بن سيدي علي أمير البراكنة وبكار ولد اسويد احمد امير تكانت علي امر أعلن المصالحة بين سيدي ولد محمد قال (٣) واحمد سالم الذي تخلي عن تحالفه مع الفرنسيين كل ذلك دفع جاستون دوميريه jaston doumergue وزير المستعمرات الذي كان يعد من دعاة التريث فيما يتعلق باحتلال موريتانيا علي الموافقة المرة لكويولاني علي دراسة الطريقة التي يمكن بواسطتها احتلال منطقة البراكنة - تكانت - أدرار اشتهرت هذه القبيلة بأنها محل بغض القوم في

الترارزة بسبب شراستها

- ١ - من الوادي الابيض الي المنطقة الواقعة بين بوتلميت وهي تغطي ولاية البراكنة اليوم.
- ٢ - وتعني الغابة وهي حلقة كادرار يحفها من الجانبين جبل عظيم كجبل أدار ويسمونه سن تكانت وهي وادي يزرع زراعة موسمية .
- ٣ - مولود بركيز من ولاية الترارزة موريتانيا وكان مشغولا بالفتح المالكي حتى ظهر فيه وهو متصوف وله مؤلفات منها - شرح مرتقي الوصول الي علم الأصول لابن عاصم .

وقد وضعت اتفاقية الترابزة السابقة امارة البراكنة تحت الحماية الفرنسية عندما تمكن كوبولاني في يوليو ١٩٠٢م من إقناع الأمير احمد ولد سيدي علي بالتخلي عن إدارة القبائل وذلك في اجتماع ضم وجهاء البراكنة أعلن خلالها الأمير عن خضوعه للسلطة الفرنسية .

وقد بدا الاحتلال الفرنسي للبراكنة في ١٩٠٣/٣/٢١م وتتمثل الخطوة الأولى من عملية هذا الاحتلال في تأسيس مركز للتموين للتزوين والتزويد في بوكي خلال ١٩٠٣م وفي ديسمبر ١٩٠٤م رحل كوبولاني الي البراكنة حيث استقر في الاك انطلاقا من بوكي وقد تحمس أمير البراكنة وأمير تكانت لصد الغزو الفرنسي عن المنطقة الا ان جهودهما في نهاية المطاف باءت بالفشل حيث كان النصر النهائي لصالح الفرنسيين وذلك في كثير من المواقع الحربية . وبتأسيس مركز الرقبة عام ١٩٠٤م وتعين ديريـهـ Derey مقيما بالاك في مايو من نفس العام يتوطد النفوذ الفرنسي لهذه الجهة من الناحية الجنوبية الغربية من البلاد ، هذه الناحية التي بالإعتماد عليها كقاعدة ظهرية ومصدر أساسي من مصادر التموين سيستمر كوبولاني في المضي قدما لانجاح سياسته الداخلية في كل من امارتي تكانت وادرار وابتدا من ذلك التاريخ فبراير ١٩٠٤م اصبحت البراكنة مسرحا للحروب والفوضى وفقدت الكثير من أبطالها وقد كانت احتلال البراكنة مجرد تمهيد لاحتلال تكانت (١) .

احتلال الوسط والشمال (تكانت – ادرار) (٢):

لقد شكلت منطقة الوسط والشمال بعد الجنوب الغربي الموريتاني الشغل الشاغل بالنسبة الي كوبولاني لانها محل استقطاب شامل للمعارضة للاستعمار والمخبا السياسي لجميع القوي الرافضة الخضوع (٣) .

١ - محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٦١ . أيضا ، فاطمة بنت الإمام : مرجع سابق ، ص ١٥ .

٢ - انظر خريطه رقم (٣) بالملحق.

٣ - Gouraud , Ge'ne'ral : Mauritaine (Adrar) , Souvenir d'un Africain , Paris 1927 P . 34 .

إحتلال الوسط (تكانت):

لم يكن إحتلال تكانت عن طريق الوسائل الدبلوماسية ولا بواسطة الطرق السلمية ، ذلك ان كوبولاني قد جهز حملة عسكرية لهذا الهدف وتعهد بمنح كل شخص يشارك في هذه الحملة ميدالية استعمارية عسكرية وقد استهدفت فرنسا من إحتلال تكانت التوسع في وسط موريتانيا وكانت تكانت مركزا رئيسيا لمقاومة وطنية مسلحة ستجابه المستعمر الي حين ، كما كان إحتلال هذه المنطقة استجابة لضرورة ماسة تقتضي السيطرة علي أعالي نهر السنغال وذلك بإحتلال هضاب تكانت وبهذا الخصوص كتب (Christian laigret) يقول (لقد كان كوبولاني يري لتحقيق مشاريعه ينبغي عليه ان يواصل نفوذه السلمي بطريقة تضمن استقرارا شاملا بالنسبة لإمارتي الترازو والبراكنة وينظر إلى تكانت بأنها تمثل نقطة مفتاح التوسع الفرنسي كما كان يعتبرها مركزا للتموين والنفوذ وفي حالة عدم مراقبته لا مجال لاي استقرار علي الضفة اليمنى لنهر السنغال) (١) كل ذلك دفع كوبولاني الي التدخل لإخضاع تكانت منذ اوائل ١٩٠٤م وقد ساعدته علي انجاح هذا التدخل وإنشاء بعض المراكز الاستراتيجية التابعة للاستعمار ، وقد وافقت بعض قبائل الوسط علي قبول الحماية الفرنسية مما دفع الحكومة الفرنسية الي إصدار مرسوم ١٠/٢٨/١٩٠٤م الذي ينص علي اعتبار موريتانيا منطقة مدنية والتخلي عن نظام الحماية وتعين كوبولاني مفوضا عاما للحكومة الفرنسية وكان من صدي هذا المرسوم ان اندفع كوبولاني في السنة التالية لمواصلة المرحلة الثانية من الإحتلال الاستعماري لموريتانيا فكانت حملة تكانت التي نجحت دبلوماسيا في القضاء علي قوة ادوعيش وتفريقها (٢) . كما تمكنت من القضاء علي بكار ولد اسويد احمد أمير تكانت الذي رفض الاستسلام والخضوع السلمي وذلك بتاريخ ١٩٠٥/٤/١م ونتيجة لهذا النجاح تم تأسيس مركز تكجكة الاداري خلال نصف السنة.

١ - فاطمة بنت الامام : مرجع سابق ، ص ١٥ .

٢ - Liagret ,christian : Naissance d une nation La Mauritnia -
imaune national Paris 1969 , p . 37 .

ولم يقدر كويولاني البقاء طويلا بعد موت بكار حيث تعرض هو الآخر لمحاولة ناجحة لاغتياله ليلة ١٢/٥/١٩٠٥م أودت بحياته ،ويمكن ان نفسر سرعة هذا الانتقام بان المقاومين كانوا يرون ان وجوده في موريتانيا يشكل خطرا علي الدين وعلي رجاله وهذا ما دفع سيدي ولد الزين احد مريدي الطريقة القادرية الغطفية (١) ، الاقدام علي تصفيته ويذهب مونتاني montane copdefosc الذي خلف كويولاني علي ان المقاومة هي المسئولة عن قتل هذا الأخير وهو يحمل المسئولية علي كل من أمير ادرار ولد عيد والشيخ ماء العينين وقد أدى اغتيال كويولاني الي بعث الحماس في صفوف القبائل التي كانت موالية لفرنسا والتي اعلنت عصيانها من جديد كما زاد هذا الحدث من قوة وعزم الشيخ ماء العينين علي مقاومة الفرنسيين (٢) ، وخاصة انه كانت فرصة لتقوية نفوذه وازدياد شعبيته في اوساط القبائل وصيانة لمكاسب الاستعمار خاصة في ظل هذه الظروف الوضعية الصعبة قامت الإدارة الفرنسية باتخاذ سلسلة من المراكز الدفاعية لحماية المناطق المحتلة وإخضاع عدد من الولايات لنفوذ فرنسا (٣) .

وخلال عام ١٩٠٦م تم انشاء مراكز بالكجوجت وكان الهدف من انشاء هذه المراكز منها هو مراقبة الممرات التي تربط شمال ادرار بالإمارات الجنوبية .وبالرغم من مقتل كويولاني فان مشروع الاحتلال سيتواصل من جديد وان كان سيأخذ الطابع العسكري اكثر من أي وقت مضى وذلك انطلاقا من تعليمات الحاكم العام لافريقيا

١١- (نسبة الي مؤسسها السيد سيد ولد الغطفي

٢- Gilier, Commandant: Penteration cot en Mauritanie , Paris 1965, p 136.

٣- Ba alitoun ibra les Mauritanies face a la penetration de 1900a la 2 eme gurre mondiale memore matrise nktti m r s 1975 , p 29.

الغربية الفرنسية وليم بونتي^(١) (wiliam ponty) الذي حدد بقوله :

(ان القبائل البيطانية تنطلق في مقاومتها من مناطق وهي النهر ، تكانت ، ادرار وتنقل هذه القبائل من هذه المناطق باستمرار ويكفي ان يصبح سيدا علي هذه المناطق التي هي مراكز للتموين حتى يفرد بالسيطرة علي هذه القبائل المشار اليها ، اننا قد حصلنا علي النهر وتكانت ويبقي لنا ان نضمن سلطتنا علي ادرار ولتحقيق هذه السيادة والسيطرة علي ادرار اوفدت فرنسا حملة جوروا علي ادرار).

احتلال ادرار :

ان احتلال منطقة تكانت و التوفر علي سلسلة من المراكز الدفاعية قد مكن مونتاني الذي خلف كويولاني من تحقيق السلام الي حد ما في الامارات التي شملها الغزو الفرنسي الا ان هذا السلام لم يستمر طويلا بسبب اضطرابات ادرار التي ستفجر خلال هذه الفترة كما ان مقتل كويولاني تسبب في أحداث موجة كبيرة من الحماس لدي المقاومين الموريتانيين الذين هجروا المناطق المحتلة الي ادرار والتقوا حول أمير ادرار ولد عيد والشيخ ماء العينين في وقت كان هذا الأمير قد أعلن (الجهاد) دعوته للحرب المقدسة من اجل إيقاف التوسع الفرنسي (٢) .

١- بونتي eugene pionnier كان الحاكم العام لفرنسا في السودان الغربي سنة ١٨٩٣ وقام بتنفيذ سياسة التهدة واخماذ الفتن التي ستنتهجها فرنسا في المنطقة وقد بهمن من دخول تنبكتو سنة ١٨٩٣ بسهولة إلانة غادرها في يناير ١٨٩٤ لانقاذ فرقة فرنسية يقودها الضابط الفرنسي جوفر (joffre) من كمين اعدة له الطوارق الا ان بونتي وقع في كمين نصبة له الطوارق وبادوا جميع أفراد فرقة وتوفي عام ١٩١٥م بعد مرض دام لبضعة اشهر عانا فيها الكثير ولكنه اخفي الامه ليستمر في موقعه مراعاة لظروف الحرب وتولي اعماله بالنيابة كلوزيل .

٢ - Amadou Ba : Les Regueibatts , Bulletin de renseignement , col - ٢
N.IET 2 Paris 1926 , P. 298 .

وكان غزو ادرار قد تم بالطرق السلمية والدبلوماسية قبل ان يكون عسكريا حيث تمكن مونتاني وبواسطة هذه الطرق من تثبيت قوة المعارضين وذلك بكسبه ود بعض القبائل والافخاذ المعادية للإستعمار وسيقوم جورو الذي سيحل محله والذي سيسنقر في اطار منذ يناير ١٩٠٩م (١). كبدية فعلية لحملته العسكرية علي ادرار في هذه الفترة التي كان الفرنسيون خلالها يعدون عندهم وقد استفاد جورو من تجربة كوبولاني السابقة عندما قام بدراسة شاملة للمجتمع الموريتاني وتأتى هذه الحملة علي ادرار بعد صدور مرسوم سبتمبر ١٩٠٨م والقاضي باحتلال المنطقة والذي تم فعلا في ١٩٠٩/١/٩م وقد كان جورو عند دخوله المدينة قد أعرب عن نواياه الطيبة نحو السكان وعن احترامه للدين والعادات المحلية الخاصة بالأهالي ولذلك توافقت عليه القبائل طلبا للسلام والامان وبذلك يكون قد وضع حجر الأساس للاستقرار الفرنسي في موريتانيا بعد تحطيمه لمراكز المقاومة في (اطر) (٢).

الأحداث التي تمت عند احتلال فرنسا لإدرار:

في الفترة التي كان الفرنسيون يعدون فيها العدة علي قدم وساق للحملة علي ادرار كان المقاومون يكتفون من عملياتهم العسكرية ضد الفرنسيين وفي هذا السياق توجهت حملة فرنسية يقودها النقيب ريبو والملازم اشميت الي انشيري من اجل احتلاله فاستولت علي اكجوجت ثم أخذت في طريقها الي ادرار بقصد معرفة طريق المنطقة ومراكز تواجد المقاومين كما تهدف الي جلب انتباه السكان بغية تسهيل الظروف للحملة التي ستطلق لاحلال ادرار وعند اكرارت تقابلت الحملة الفرنسية مع مجموعة من الثوار بقيادة الأميرسيد احمد بن احمد بن عبده وكانت هذه أول معركة علي ارض ادرار وقد اظهر خلالها المقاومون شجاعة واندفاعاً لا مثيل لهما وكانت الخسائر الفرنسية مقتل قائد القوة واربعة من جنوده وجرح الملازم اشميت وكانت خسائر الثوار استشهدا ثلاثة وبعد هذه العملية اتجه الثوار الي اكجوجت حيث توجد حامية فرنسية فهاجموها واستولوا عليها ثم خرج الثوار يطاردون الجيش الفرنسي الذي انسحب من

Juigret ,Crhistioan : Op . Cit , p . 135 .

-١

٢- (اطر) مدينة موريتانية يقال انها بنيت لأول مرة غربي البطحاء في اواخر القرن التاسع الهجري وهي الان عاصمة لاقليم ادرار .

المدينة واتبع الثوار في هذه الغارات طريقة تتمثل في الاستيلاء على الجمال من الفرنسيين وذلك من اجل منع الفرنسيين من مطارتهم (١) .

وقد فشلت الحامية الفرنسية وانسحبت من اكجوجت بسبب الجوع والمرض وشدة مهاجمة الثوار المتكررة لها و خلال هذه الفترة (١٩٠٨/٦) كانت فرنسا تعد حملة للاستيلاء على ادرار ولما علم الثوار بذلك راوا ضرورة القضاء عليها في مهدها او شلها على الأقل وعلى هذا الأساس أخذت فرقة المقاومين طريقها الى المجوية لتنفيذ العملية وتجاهت هذه الفرقة مع الحامية الفرنسية في واحة المنيان ودارت معركة اصيب من جرائها الفرنسيون بخسائر فاحشة منها مقتل قائد الحامية مانجين ونائبه الرقيب ماتيا كما استولي الثوار على عدد كبير من الأساحة والجمال وتوالى عمليات الثوار على القوات الفرنسية التي كلفتها الكثير من الجيش والقتال (٢) .

وبهذه العمليات المتتالية تكون المقاومة قد برهنت للفرنسيين أنها لا تزال شامخة رغم فقدانها لمصدر السلاح الوحيد من الشمال من المغرب بعد منع وصول الأسلحة الي الثوار من الشمال وفي هذه الأثناء تمكن الفرنسيون من الأعداد للحملة التي ستحتل ادرار والتي تضم ١٠٠٠ رجل من بينهم ٧٠٠ من الرماة ٢٤٠ من الجمال و من الفرسان ٣٠ من أصحاب المدافع الثقيلة ٣٠ و ١٥٠-٢٠٠ من المجندين الموريتانيين وكان قائد الحملة جوروييري ان هذه القوات كافية للقضاء على الثوار وقد انطلقت هذه القوات منقسمة الي فرقتين الأولى منطلقة من تجكجة ويقودها جورو والفرقة الثانية بقيادة افيريجان (٣) ، وستطلق من التراززة على ان تلتقي بفرقة جورو عند مشارف مدينة اطار ودارت

١ - محمد سالم بليغور : المقاومة في ادرار ، كلية الآداب ، جامعة فواكشوط عام ١٩٨٦م ، ص ٣٩ .

٢ - انظر خريطه رقم (٤) بالملحق.

٣- (١٨٦٩-١٩١٧) louis frerejean احد ضباط الجيش الفرنسي كان من قادة حملة احتلال البلاد الموريتانية في مطلع القرن العشرين نجح في تجنيد افراد من قبائل المحاربين مثل قبيلة ابو السباع القوية وحملهم على طاعة والخضوع لاوامره كل ذلك بنى انة خلق للنضال والقتال والعمل في ميادين المعارك لاقى المجال الدبلوماسي والواقع انة يمكن تشبيهة بلورنس الانجليزى فى الجزيرة العربية من حيث شدة التحمل والتاقل مع البيئة البدوية والتعامل مع القبائل (سعد خليل ص ٢٩٢) .

معارك طاحنة بين الفرنسيين والثوار دامت لفترة طويلة وقد وقع قتلى كثيرون من الفريقين وخسائر فادحة في القتال والمعدات وبعد هذه المعركة انسحب المقاومون من بلدة اماطيل واتجهوا الي اطار ولما علموا بقدوم الفرنسيين انسحبوا منها ثم دخلت قوات فرنسا اطار في يناير ١٩٠٩م حيث طلب السماميد الامان من فرنسا ثم طلب سكان شنقيط الامان فاعطت فرنسا لهما الامان نظير دفع ١٥ طن من التمر من كل منهما - وكان المقاومون يتحينون الفرصة للهجوم علي الغزاة حيث تمكنت من قتل عدد من الجنود الفرنسيين وقتل بابلون (قائد فرنسي) وعدد من الرماة السنغاليين وبهذه العملية الغذة برهن المقاومون للغزاة على أن المقاومة رغم فقداتها لقاعدتها الاساسية في اطار ما زالت قائمة وستظل كذلك حتى تحقق النصر ، ولكن قد بدا الضعف يذب في المقاومة بسبب الخسائر الفادحة التي منيت بها وقوة وحدائة اسلحة الفرنسيين (١) .

نتائج احتلال ادرار:

لقد حققت حملة ادرار من وجهة نظر الفرنسيين نتائج مادية حاسمة فقد تم غزو ادرار معقل الجماعة الخطرة وزاد عدد القبائل واقسام القبائل التي قدمت خضوعها وهربت عناصر المقاومة الي الشمال يتركهم الخوف من العقاب في حالة عودتهم للهجوم وادي استعراض القوة الذي قامت به الحملة الي تثبيت الهيبة الفرنسية فالمحارب عادة يبجل مظاهر القوة ومن الطبيعي ان يؤدي ذلك الى زيادة نفوذ المرابطين المقربين الي فرنسا مثل الشيخ سعد ابيه والشيخ سيد بابا وكذلك زيادة عدد اتباعهم في الوقت الذي قل فيه انصار الشيخ ماء العينين وتوارى أى نفوذ اخر خلاف النفوذ الفرنسي ومع ذلك فان حملة جورو لم تكن كلها مكاسب فخلاص الخسائر في الارواح والتكاليف التي لم تؤثر في الواقع في البلاد فان موريتانيا قد دفعت ثمنها غاليا لتأمينها ضد السلب والنهب كما ادعي الفرنسيون (٢).

١ - محمد سالم بلفريو: مرجع سابق ، ص ٤٤ .

٢ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .

وخلص القول فان هذا الاحتلال الفرنسي للاراضي الموريتانية لم يكن احتلالا ثابتا ولا نهائيا قبل عام ١٩٣٤م ذلك انه علي الرغم من الإنتصارات التي حققها في نهاية المطاف كل من كوبولاني في تكانت وجورو في ادرار فانها لم تسفر عن توفير جو الامان والاستقرار لينعم به الجميع كما كان متوقعا من طرف الادارة الفرنسية في سانت لويس التي كانت ترى في البداية أن الاحتلال الفرنسي العسكى لهذه المناطق لن يكون مكلفا فعابوا على المعارضة الصريحة والمنظمة من طرف المؤسسات التجارية في سانت لويس التي أثار حفيظتها مشروع الاحتلال وتردد الاوساط الرسمية في الحكومة الفرنسية في العديد من المرات إدانة مواصلة هذا الاحتلال فان المشروع كان يصطدم في الواقع على مستوى البلاد الموريتانية لرفض مطلق من طرف بعض الاوساط السياسية والدينية ذات التأثير الاجتماعي الكبير.

وسياخذ هذا الرفض في النهاية شكل مقاومة علنية منظمة معادية للوجود الفرنسي فالمناوشات العسكرية التي ظلت قائمة حتى حدود سنة ١٩٣٤ ضد الاهداف الاستراتيجية الفرنسية خير دليل على صلابة هذه المقاومة وبرهان ساطع على مدى رفضها للاستسلام وذلك رغم تواضع امكانياتها المادية والعسكرية مقارنة بالجيش الفرنسي هذا عن احتلال فرنسا لموريتانيا اما عن خطط فرنسا في موريتانيا حتى تثبت دعائم هذا الاحتلال على الارض الموريتانية فهو على الصفحات القادمة اما عن موقف القوى الموريتانية من الاستعمار الفرنسي فيكون الحديث عنها في الفصل الثاني .

ثانياً: المخططات الفرنسية في موريتانيا :

لقد بدا الحكام الفرنسيون يعملون علنا من اجل القضاء علي شكاوي التجار في سانت لويس ممن يدفعون الأتاوات اللازم دفعها لاهل الضفة اليمنى لنهر السنغال وهكذا بدا بروتي ثم فيدروب من بعده سياسة تدخلية تهدف الي التخلي عن سياسة الاتفاقيات والأتاوات وسن سياسة جديدة تهدف الي فرض الوجود الفرنسي لدخل موريتانيا للدفاع عن حرمة التجارة وقد امتازت السياسة الفرنسية تجاه موريتانيا بالحركة والاستمرار أي ان هذه السياسة متغيرة من وقت الي اخر حسب الظروف وقد اخذت هذه السياسة شكلا تصاعديا من المهانة الي الاحتلال العسكري (١) .

وكان لفرنسا اسلوب عجيب تتبعه في اعداد رجالها للمهام المنتظرة له مثل ارسالها لجوروفي لجازة قضاها في اعماق صحراء الجزائر بدعوة من الفرنسي ليوتى قبل ارساله قائدا لمستعمراتها في موريتانيا وقد بدأت فرنسا تنهج سياسة كفيلة بتحقيق اهدافها في موريتانيا حيث سلكت سياسة المعاهدات والهدايا تجاه المجموعات الشنقراطية وهكذا بدأت العلاقة تتغير واصبحت موريتانيا معرضة للتدخل الفرنسي الموجود عند بوابتها الجنوبية هذا التدخل الذي ينتظر من يخطط له ويقوم به حيث اقتنعت فرنسا باهمية موريتانيا وشرعت في احتلالها وبدأت في تنفيذ الاحتلال خلال عام ١٩٠٢م . وقد جاء تعيين فيدرب لويس faidherbe luws حاكما للسنغال مواكبا لطموح فرنسا في تأكيد سيطرتها عل مناطق غرب افريقيا وقد جاء تعيينه بعد موجة من الاضطرابات عرفتها المنطقة وقد كانت سياسة فرنسا في المنطقة قبل فيدرب تقوم علي سياسة التهدئة والسلام دون التورط في القيام بعمليات غزو للمنطقة (٢) .

١ - محمد عمار : مرجع سابق ، ص ١٧ .

٢ - الهام محمد علي ذهني : بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ افريقيا الحديث ، القاهرة ١٩٩٩ ص ٤٧ .

لكن هذه السياسة تغيرت بمجيء فيدرب الذي طمع في تدعيم النفوذ الفرنسي في المناطق المذكورة حيث وضع فيدرب الخطوط العريضة لسياسته في التعامل مع مختلف القوي الوطنية تمثلت اساسا في سياسة الترغيب والترهيب (السلم ام الحرب) وعلي القوي الوطنية للتعامل معه والاستسلام للنفوذ الفرنسي . ولهذا وضع فيدرب هذه السياسة موضع التنفيذ وقد جاء تعيين فيدرب مواكبا لنزعة فرنسا وقد اتبعت فرنسا سياسة توسعية متمثلة في تنفيذ سياسة اكثر نشاطا في افريقيا وهي توسعية عسكرية سعت فرنسا من خلالها الي الربط بين ممتلكاتها في الشمال في الجزائر ومستعمراتها في غرب افريقيا وكان فيدرب يمثل النموذج الاستعماري وقد كان اهم عمل عند فيدرب هو تأمين حدود المستعمرة ضد هجمات القبائل الشنقيطية التي كانت تهدد المستعمرة من جهة الشمال وقد قال في هذا (لابد ان نملي ارادتنا علي رؤساء المور من اجل تجارة الصمغ كما يجب الغاء مواني التبادل التجاري باستخدام القوة لذا فشلت سياسة الاقتناع وينبغي الغاء كل الاتاوات وعلينا ان نكون اسياذ النهر وكذلك انتزاع منطقة والو من الترازة).

ومنذ بداية القرن العشرين وتسابق الاضراب جعلت موريتانيا تمتاز بمعطيات استراتيحية فهي البلد الوحيد في غرب افريقيا - والمغرب الاقصى - بدون احتلال او حماية واحتلال احدهما يعطي المحتل حق الحماية علي الاخر والاستثناء باحد البلدين لغير فرنسا قد يكون في غير صالح فرنسا حيث كانت تخطط لاتشاء امبراطورية استعمارية متكاملة جغرافيا واداريا ومفتاح ذلك يتمثل في احتلال موريتانيا وهو ما يخول لفرنسا دخول المغرب من ناحية للجنوب (١) .

ومن المعروف ان فرنسا في حكمها للمستعمرات التي احتلتها كان حكما مباشرا الا ان هذا الاسلوب تغير في موريتانيا ويرجع ذلك الى كيوالاتي الذي اسس الادارة غير المباشرة في بداية الامر عن طريق رؤساء الامارات الكبيرة كالترازة والبراكنة وغيرها اذ لم يبلغ نظام الإمارات بل العكس ثبت امراء لم يكونوا موجودين

١ - محمد عمار: مرجع سابق ، ص ٣٧ .

من قبل كما حدث في تكانت الا ان الملاحظ في المعاهدات التي عقدت عام ١٩٠٣م مع الترابزة والبراكنة كانت تخلع السلطات الفعلية عن الامراء حيث تنص علي ان تقوم السلطات الفرنسية بتحصيل الضرائب وتعيين القضاة وتقديم هذه السلطات مخصصات ثابتة للامراء مما تحصله من الضرائب (١) ، وقد حرص كبولاني علي اشراك زعماء القبائل في ادارة البلاد وكانت سياسة فرنسا الادارية في موريتانيا في مجال السياسة الاجتماعية تحرص علي تجنب وقوع هزات عنيفة للهيكل الاجتماعية القائمة او زعزعة الممارسات والمعتقدات (٢) السائدة ولقد وضعت فرنسا مجموعة من المخططات حتى تتمكن من تنفيذ اغراضها واطماعها في موريتانيا من فرض سيطرتها علي كل التراب الموريتاني ويظهر ذلك من خلال الوثائق الفرنسية ومنها هذه الوثيقة الموجودة بالملحق رقم والمرسلة من الجمهورية الفرنسية الي الحكومة العامة الافريقية الاجنبية الفرنسية بداكار ٣١ غسطس وبعد رحيل جورو وتولى الكولونيل باتي (٣) أعمال المفوض العام في موريتانيا ابتداء من ١٩١٠ رأى باتي ان الاحتفاظ بالنظام الاداري المباشر في المناطق الجنوبية للبلاد حيث الأقاليم الزراعية المجاورة للنهر المزحمة بالسكان كما رأى ان تخضع للمناطق الشمالية والتي تشمل (الترابزة - البراكنة - تجانت - ادرا) ٠ (حيث قبائل الرحل) لنظام خاص اشبه بنظام المحميات اساسه الاعتماد على المحاربين التقليديين ويتمشى بقدر الامكان مع طبائع البدو وعاداتهم وتقاليدهم وفي المجال الاداري عمل باتي على تحديد موقف كل قبيلة بالضبط مجتهدا في مراقبة عدالة القضاة المحليين مع ترك الحرية لهم في ممارسة اعمالهم ذلك لان الموريتانيين لا يميلون الى القضاء الفرنسي .

١- نصر السيد نصر - مرجع سابق ص ٤٩

٢- صالح بكناش رجع سابق ص ١٤٠

٣- عمل مفوض عام في موريتانيا سنة ١٩١٠ خلفا لجورو ولم يكن غريبا للبلاد حيث عمل مدير المكتب العسكري للحاكم بونتي كما تولى أعمال للمفوض العام فترة سنة ١٩٠٧ قبل رحيل مونتانيه وقد اهلته خبرته لمباشرة عملة خلفا لجورو وكانت معرفة بالتيارات والاحداث قد زودته بالكثير من الدهاء السياسي علاوة على الحزم الذي يتصف به كرجل عسكري ولذلك جاءت سياسته اساسا سار على نمطة كل من جاء بعده (سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٤٥٦) .

ثالثا : السياسة الفرنسية في موريتانيا :

كانت فرنسا في بداية احتلالها لموريتانيا تعتمد على الزوايا في تنفيذ سياستها الاستعمارية مما ادى الي تعاضم شأن الزوايا نتيجة لأسباب الامن وتقلص الضغوط التي كان يمارسها الامراء في حين تقلصت قوة هؤلاء الامراء غير ان فرنسا بعد ١٩١٤م تحول اعتمادها إلى المحاربين من حسان بدلا من سياسة الاعتماد على الزوايا وقام بتنفيذ هذه السياسة الحاكم الفرنسي الجديد باتي الذي كان يهدف من وراء ذلك إلى الإستفادة من البيضان المقاتلين من أجل تدعيم السلام الجديد وتهدف هذه السياسة إلى أمرين هما :-

١- الحصول على محاربين يقومون بمساعدة قوات فرنسا في تعقب المجاهدين وليكسب هؤلاء البيضان خبرة قتالية ليصبحوا في النهاية جنودا عاملين في الجيش الفرنسي النظامي في موريتانيا (١) .

٢- اعطاء غطاء من الشرعية على الاحتلال الفرنسي لموريتانيا وقد نجحت فرنسا من جراء اتباع هذه السياسة في تحطيم الهياكل والبنية الداخلية للمجتمع الموريتاني وذلك بنمو طبقة من المنتفعين وقد كانت هذه الطبقة منبوذة اجتماعيا الا ان الانسان الموريتاني اصبح مجبرا على التعامل معها بل واحترامها وفقا لمعايير غير واضحة لايريد الموريتاني الاصيل ان يفكر فيها كثيرا مخافة ان يقع في المساولة وقد نجحت هذه السياسة في تزويد فرنسا بمقاتلين جدد حلوا محل الجنود السنغاليين وعملت بذلك على مرتنة الاستعمار .

وحتى يتمكن المستعمر من احكام قبضته على المنطقة وعلى سكانها عين علي راس كل قبيلة رجل يدافع عن مصالح الاستعمار هذا بالإضافة الي استعماله لبعض الأشخاص ضعيفي الضمائر عرفوا محليا باسم (كميات) لاضطهادها المواطنين وانتزاع ممتلكاتها هذا بالإضافة الي حمايتهم العسكرية للفرنسيين .

١ - مجلة الامة القطرية :عدد ٧١ ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٧٥

وقد كان المستعمر يحاول من وراء هذه السياسة الخبيثة والقائمة علي الاعمال الوحشية التمثلة في اغتصاب المحاصيل للزراعية والماشية والابل يهدف الي دفع السكان الي الدخول في أحضانه فيزداد اعدا اتباعه الشئ الذي يساعده في الاعمال الحربية(١) .

وقد مر تنظيم الحياة السياسية بعد دخول الاستعمار باربعة مراحل عرفتھا جل المستعمرات الفرنسية في ذلك العهد وهي :-

- ١- سياسة الإجناس
 - ٢- سياسة الانماج
 - ٣- سياسة الاشرار
 - ٤- الاتحاد الفرنسي
- سياسة الاستيعاب (الفرنسية الاجتماعية) :

تعتبر هذه السياسة النمو الطبيعي والامتداد الاوحد لتمسك فرنسا بسياسة الحكم المباشر بعد ان ارتبط بمفاهيم وقيم الثورة الفرنسية وسياسة الاستيعاب تعنى ببساطة فرض ثقافة الفرنسيين ولغتهم ومفاهيم حياتهم ونظم مؤسساتهم السياسية والاجتماعية على الاقريقين حتى يستوعبوها فيصبح كيانهم النفسى والثقافى متفرنسا. تماما كالفرنسيين انفسهم فتتم هذه العملية كما تصورھا الفرنسيون بواسطة عمليات تنقيف وتربية وتعليم طويلة الأمد .

وقد بنت فرنسا هذا الاعتقاد على اسس ان ماضى الثورة الفرنسية وما حققة يفرض على فرنسا ان تقوم بهذا الدور ولكن للمهم ان هذا الايمان الفلسفى العميق الذى انتاب السياسة الفرنسية بعد الثورة اصبح اداة للتوسع الفرنسى الاستعمارى ونهب وغزو اراضى اخرى فى افريقيا والتبرير الذى يقدمه مؤيدو السياسة الفرنسية الاستعمارية انه يجب على اهالى المستعمرات معرفة معالم ومحاسن النظم الفرنسية وان كل تقدم او رقى يصيبهم لن ياتى او يتحقق الا عن طريق الثقافة واللغة الفرنسية والمستوي الروحية والحياتية التى غرسها الثورة الفرنسية وحملت فرنسا رسالتها الى العالم

١ - محمد سالم بن بلفيريو: مرجع سابق ، ص ٥١ .

اجمع ولعل هذا هو مادعا كثيرين من الدارسين الى تسمية هذه الظاهرة الفرنسية باسم الاستعمار الثقافي النفساني ومن اجل تطبيق هذه السياسة " الاستيعاب " استخدم الفرنسيون سلاح الخضوع لقانون الاحوال للشخصية الفرنسية بجانب المستويات الثقافية واللغوية والنفسية فقد اعتبر المشرعون الفرنسيون ان قبول الافريقى الخضوع لقانون الاحوال الشخصية الفرنسية والقانون المدنى والجناى الفرنسى انما هو فارق ضخم يميزه عن الافريقى الذى يرفض الخضوع لهذا القانون ويتمسك لقانونه الخاص للاحوال الشخصية وخاصة الشريعة الاسلامية ، فالافريقى الذى يخضع للقانون الفرنسى يتمتع بصيغة المواطنة والافريقى الذى يخضع لقانونه الدينى او القبلى يظل رعية .

وقد ترتب على هذا ظهور ما يسمى بقانون (الانديجينا) وهو مجموعة من الاوامر الادارية والعرفية التى يطبقها الضباط والحكام العسكريون والمدنيون وتطبق فقط على الرعايا الافريقيين الذين لم يقبلوا مبدأ الاستيعاب والاندماج فى البيئة الاجتماعية الفرنسية ومن ثم فهؤلاء الافريقيون يحاكمون امام محاكم ادارية خاصة وعقوبات قانون الانديجينا قاسية وتتراوح بين الاعتقال وتنتهى بالنفى وغير المندمج لا يتمتع باى ضمانات او حريات او حقوق سياسية او ثقافية (١) .

وكان هدف الفرنسيين تطبيق سياسة الاستيعاب على جميع الافريقيين بمختلف مستوياتهم ومراحلهم ومكانتهم الاجتماعية او بمعنى اوضح هو تنفيذ سياسة الفرنسية الجماعية لكل الافريقيين وفى خلال عملية الفرنسية الاجتماعية هذه يظل الحكام الفرنسيون هم اصحاب السلطة فى تصريف الامور وفى توجيه وقيادة الافريقيين حتى يصلوا الى مستوى الفرنسية الاجتماعية وليس لهذا المستوى تاريخ محدد او مراحل معروفة انما هو متروك لتحديد وتقدير السياسة الفرنسية وبمرور الزمن بدأ الفرنسيون يقلقون من نتائج تطبيق سياسة الاستيعاب لان نتائجها كانت قليلة لا تتفق مع ما عقده عليها من آمال وما ملأ نفوسهم من حماس وشعور بالنقمة فقلائل من الافريقيين هم

١ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٦١٧ .

الذين بذلوا الجهد للتمتع بميزات الاستيعاب والفرنسة بينما الكثرة الغالبة هم مسلمون اثروا التمسك باحكام الشريعة الاسلامية ولو كان فى هذا خضوع لاحكام قانون الانديجينا وحتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن هذا الاستيعاب قد ظهر فى افريقيا الا فى السنغال (١) :

لم يجد كيبولانى صعوبة كبيرة فى اقامة علاقة شخصية مع بعض الزعامات الدينية بل ان البعض اعتقد " وهذا خطأ فاحش " أنه أى كيبولانى مسلم لتفقهه فى الدين وحسن اخلاقة كما ان سياسة كانت تنصب فى اتجاه واحد وهو التفاهم مع الزوايا حيث يرى انه باستخدامه للزوايا كواسطة يستطيع ان ينجح فى التغلغل سلميا فى البلاد فضلا عن تفوق الزوايا المادى والعدى فانهم يملكون قوة مؤثرة على السكان ويكونون عداوة قديمة لبنى حسان اصحاب السلطة ورغم ان كيبولانى قد استثمر ثقافة العربية ودبلوماسية الماكرة وعلاقة ببعض زعماء الطرق الصوفية المحلية فان البعض الاخر وعلى رأسهم الشيخ ماء العينين قد اعلن الحرب المقدسة ضد الفرنسيين مستندين فى ذلك على الادلة الشرعية ومهما حاول البعض ربط مقاومة الشيخ ماء العينين بعلاقاته الطيبة بملوك ورجالات البلاط المغربى على اعتبار ان احتلال موريتانيا يمثل الخطوة الاولى الى المغرب

وكان الشيخ ماء العينين بدون شك قد استثمر تلك العلاقات بالإضافة الى مكانته الدينية لتعطيل مشروع موريتانيا الفرنسية الغربية وكان له دور فى مقتل كيبولانى الذى ادى الى التغيير فى السياسة الفرنسية تجاه احتلال موريتانيا حيث بدأت فرنسا مراجعة خططها للرامية الى احتلال موريتانيا لتبدأ مرحلة جديدة من المناورة انتهت باحتلال ادرار فى يناير ١٩٠٩ ومما لاشك فيه ان الانتصار الفرنسى فى اضرار مثل ضربة قاسية بالنسبة للمقاومة التى فقدت معقلها والكثير من انصارها الذين اعلنوا عن قبولهم للواقع الفرنسى.

وقد تولى مونتانيه ادارة موريتانيا بعد كيبولانى حيث اتخذ كثيرا من التدابير بعد ان فطن الى خطأ اتخاذ مواقع دفاعية ثابتة فعول على الاستفادة من اسلوب المقاومة

١- عبد الله عبد الرازق ابراهيم - شوقى للجمال - تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر القاهرة ص ٢١٠

الموريتانية في القتال واقتبس عنهم مايمكن ان يطلق عليه نظام الدفاع الايجابي الذي يعتمد على خفة الحركة وسرعة الاختفاء ومن ثم بدء مونتانية في تشكيل وحدات الهجانة التي صار لها تأثير كبير فيما بعد ومن اهم اماكن بة الفرنسيون في تلك الفترة تقسيم نفوذهم الى دوائر ومقاطعات وكان هذا التقسيم قد تتبع التوزيع القبلي بدقة تامة حتى بقيت هذه الحدود الادارية دون تغيير يذكر على مدى نصف قرن طوال فترة الاستعمار الفرنسي للبلاد .

وبعد استيلاء باثي patey . على تكانت وادرار وضع سياسة جديدة تقوم على اساس تقسيم البلاد الى منطقتين الاولى في الجنوب غرب نهر السنغال وتدار بصورة مباشرة والثانية في الشمال وتدار بواسطة الرؤساء التقليديين على ان يزودا بجيش خليط من البدو والزنوج السنغاليين وذلك حتى لا تحتاج فرنسا الى اقامة مراكز عسكرية كثيرة في الشمال والواقع ان فرنسا لم تستطع ان تتخلص من الشيوخ المحليين واكتفت بتجريدتهم من سلطاتهم ولعل فرنسا قدرت ان وجود اولئك الشيوخ يساعدها على تجنب الاتصال المباشر بين السكان والحكام العسكريين وبالتالي أصبح أولئك الشيوخ او الامراء بمثابة رؤساء اداريين مسئولين امام الادارة الفرنسية ، حقيقة ان كثيرا من هؤلاء أعلن تمرده على هذا الوضع ولكن البعض الآخر ظل يتعاون مع الفرنسيين (١) .

ويبدو ان السياسة الاستعمارية تجاة الطرق الصوفية في موريتانيا في الفترة الاولى قد اعتمدت على اسس غير مستمدة من واقع البلاد وإنما من خارجها وان ذلك من رصيد التجربة من الجزائر ثم تونس والفكرة المسبقة التي لبعض رموز الاستعمار تجاة المسلمين والواقع ان الطرق الصوفية في الجزائر قد حددت ملامح السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاة الطرق الصوفية بموريتانيا ذلك ان صعود بعض الطرق وقيادتها للعديد من الثورات بالجزائر جعل فرنسا تتوجس خيفة من ان تلقى من الطرق الصوفية في موريتانيا نفس ما لقيته من مثيلتها بالجزائر والتي وان هادن البعض منها الاستعمار الفرنسي وكرس نفوذه الروحي لخدمة المستعمر كالطريقة التجانية مثلا فان البعض منها كان وراء العديد من

١ - نصر السيد نصر : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

الثورات التي عرفتها الجزائر طيلة الخمسين عاما الاولى من استعمارها كالطريقة القادرية وخاصة الرحمانية.

وبالتالى فان فرنسا ظلت حتى قبيل احتلالها لموريتانيا فى صراع مع بعض الطرق الصوفية وخاصة على الحدود بين موريتانيا والسنغال الامر الذى ادى الى لجوء بعض الزعامات القادرية الى الشمال حيث اسست زوايا لها .

ان المتأمل فى معظم الكتابات والدراسات التى قام بها بعض المختصين وبعض المكلفين من قبل السلطات الاستعمارية حول الطرق يتبين له اتفاقها حول خطورة الطرق على المصالح الاستعمارية وكانت الزوايا على حد قولهم لم تعد قط مكانا لتعليم القرآن الكريم بل أصبحت مركزا للثورة ترسم فى ظلام أركانها مخططات الإنتفاضة (١) .

أما شارل بروسلاز فقد وصف اتباع الطرق بالميليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة مستعدة للانطلاق بمجرد اول اشارة من قائدها فكل هذه الاحكام وغيرها وان صدرت بعد تجربة الجزائر وتونس فانها قد صرح باغلبها قبيل إستعمار فرنسا لموريتانيا مما جعل الادارة الاستعمارية طيلة بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وحتى قبيل الحرب العالمية الاولى تخشى الطرق الصوفية التى كان يرى الاستعمار الفرنسى انها قوة مجاهدة عن الاسلام تساهم فى نشر التعصب فى صفوف الموالين لها حسب د راستهم كل ذلك جعل بعض الاوساط الاستعمارية وحتى مصادر القرار فيها تهول وتضخم امر الطرق وترى فى كل تحرك جهادا مقدسا موجها اساسا نحو النصارى والمستعمرين تقف وراء الطرق الصوفية الامر الذى حتم على فرنسا القيام بدراسات واحصائيات للتعرف اكثر على واقع موريتانيا وفق معطيات شبة ميدانية .

سياسة فرنسا الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية فى موريتانيا :-

عملت فرنسا فى موريتانيا على تشديد الخناق على الطرق الصوفية اعتقادا منها انها مصدر الخطر وذلك ب :-

١ - التللى العجلى : مرجع سابق : ص ٧٧ .

١ - مراقبة فرنسا مشايخ الطرق الصوفية:

إن التنظيم الداخلى للطرق والعلاقة الموجودة بين الطريقة وزواياها فى مختلف انحاء موريتانيا وما تتطلبه من اتصال شبه دائم حتى خارج حدودها بالإضافة الى الطاعة شبه المطلقة للاتباع تجاه مشايخهم وخشية استغلالها ضد الاستعمار دفع فرنسا الى مراقبة دقيقة انصببت بالدرجة الاولى على المشايخ وذلك فى عدة مستويات منها :-

أ - تدخل فرنسا فى شئون اقطاب القادرية :

فرضت فرنسا عن طريق الحاكم العام الفرنسى لمستعمراتها فى غرب افريقيا عدة اجراءات ادارية يجب توافرها فى شيوخ الطرق وخاصة القادرية حيث عملت على اختيار وتأييد نوع معين من الشيوخ الذين لهم مكانة اجتماعية ووجاهة ونفوذ على السكان حتى يتسنى لفرنسا توظيفهم لصالحها كما تمكنت فرنسا من اقضاء المشبوهة منهم لعدم وضوح ولائهم وتبعيتهم لفرنسا وعلى سبيل المثال تأييدها للشيخ سعد ابية والشيخ سيدباباب والشيخ التراد بن العباس الذى جاء فى فترة لاحقة لهما وكذلك محاربتها للشيخ ماء العينين واولاده من بعده وبذلك تمكنت فرنسا من مساندة الذين لم يدخروا جهدا فى معاونة فرنسا ومساعدتها على السيطرة على البلاد (١)

ب - مراقبة فرنسا لتنقلات شيوخ الطريقة :

إن فرنسا رغم كل التحريك فى تعيين ومساندة مشايخ الطريقة القادرية فرضت عليهم عدة اجراءات تتعلق بتنقلاتهم حيث كانت فرنسا ترى لاقطاب الطريقة القادرية نفوذا ماديا وأدبيا ورحيا على اتباعهم وهذا يشكل خطرا على اطماعهم الاستعمارية وكانت ترى فى تنقلاتهم وسيلة من وسائل الاتصال المباشر الذى قد لايهدف الى جمع الاموال من الاتباع فحسب بل يساهم فى نقل الاخبار وايعال المعلومات وتبادلها ضمن قنوات شكلت الى حد ما جهازا اعلاميا منظما ذلك ان زيارة الشيخ الى مكان ما ينتج عنها تجمع ضخم لجل الاتباع الذين قد يحرسون على الحضور لنيل البركة والثواب على ما يعتقدون اكثر من حرصهم " ربما " على حضور الاجتماعات الرسمية التى تدعو اليها السلطة الحاكمة نفسها .

١ - التليلى العجلى : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

ونظرا لكل هذه الاعتبارات وغيرها واضعافا للطريقة ولننفوذ اقطابها على اتباعهم عملت فرنسا على سن قوانين حددت الاجراءات اللازم احترامها والعمل بها قبل التنقل الذى صار ممنوعا بدون ترخيص حيث سنت فرنسا عدة قوانين تلزم مشايخ الزوايا ونوابهم بالاعمال القانونية التى يلزمهم اتمامها قبل الانتقال من الدوائر المقيمين بها وبهذه الإجراءات فقد مشايخ الطرق الصوفية عامة والقادرية خاصة حرية التنقل التلقائي واصبحوا مطالبين قانونيا قبل تنقلهم بتقديم مطالب للمستعمر الفرنسى للتنقل داخل بلاده او خارجها جنوبا وشرقا وفى ذلك مهانة ومعاناة من البيروقراطية واضاعة للوقت وتعطيل للمصالح العامة والشخصية للشيوخ مما دفع بعضهم الى التنقل بدون اذن او ترخيص وقد عرضهم ذلك الى عقوبات ادبية ومادية ومعنوية . ولم تقف فرنسا فى مراقبتها لزعماء القادرية عند حد اجبارهم على تقديم مطالب تسمح لهم بالتنقل داخل البلاد او خارجها بل طالبتهم باجراءات أخرى من أهمها :-

- ضبط مسالك التنقل وتوضيحها بذكر الاماكن التى ستقع الإقامة بها خلال الرحلة وتحديد مكان إقامة وتنقل الشيخ حتى يتمكن المستعمر من الامساك بكل القنوات التى تمكنه من مراقبة الشيوخ فى حلهم وترحالهم .

- توضيح اسباب وغاية التنقل حتى تقف فرنسا على الغايات الحقيقية لذلك عمدت الى التثبت منها بالبحث والغائها اذا ظهرت أسباب وغايات تختلف عن التى وضحتها وبذلك تمكنت فرنسا من منع عدد هام من المشايخ من التنقل بتعلات واهية احيانا وفى ذلك اضعاف لدور الشيوخ فى جميع المستويات .

- السماح بالتنقل شريطة عدم جمع الزيارات (الهدايا) . (١)

- شددت فرنسا فى هذا الجانب مع كل المشايخ متعلقة بالاضاع الاقتصادية للسكان وخاصة فى سنوات الجفاف والكوارث الطبيعية فى حين كان هدفها الحقيقى من ذلك التحفيف على السكان حتى يتمكنوا من دفع الضرائب المقررة للمستعمر الفرنسى حيث ان السكان اذا منحوا اقطاب الطرق الهدايا والعطايا فانهم يصبحون عاجزين عن تسوية اوضاعهم المالية تجاة الاستعمار الفرنسى لذلك ضيقّت فرنسا على المشايخ المنافذ الاقتصادية حتى لا ينافسوها فى ابتزاز الرعية .

ج - احتواء فرنسا لبعض أقطاب القادرية :

كانت فرنسا تهدف في سياستها الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية في موريتانيا الى استغلال وتوظيف هذه الطرق " وخاصة القادرية " لخدمة مصالحها وتحقيق اهدافها وذلك لمكانة اقطابها بين الاتباع ولنفوذهم الروحي عليها ولتحقق فرنسا اهدافها خصت بعض الاقطاب للطرق بعدة امتيازات منها :-

أ - الاعفاءات :- كالاغفاءات من الخدمة العسكرية والاداءات الدولية

ب - التسهيلات وتتمثل في التكتّم على مخالفات بعض شيوخ الطرق وعدم فضح محاكماتهم علنياً مثل تهريب الأسلحة كما تمثلت الامتيازات احيانا في منح بعض الشيوخ تسهيلات في تسديد ديونهم هذا الى جانب منح المستعمر لبعض اقطاب الطرق مبالغ مالية في شكل حوالات بدعوى مالهم ولزواياهم من الفضل والاعتبار وكان الهدف من وراء تلك الامتيازات الخصوصية احتوائهم وحملهم على الوقوف الى جانب المستعمر مستعينا بهم لتحقيق اهدافه في احتلال البلاد باقل خسائر وتكاليف ولم يتم للمستعمر ذلك الا بمساعدة الشيوخ لهم .

ج - التوظيف :- لقد تعددت المهام التي قام بها بعض الشيوخ لصالح الاستعمار الفرنسي مستغلة في ذلك نفوذهم على السكان مثال ذلك كان انصار القطب القابل للمستعمر يحارب اتباع القطب الرفض للاستعمار وضرب بذلك المستعمر الشعب الموريتاني بعضه ببعض كما كلفت فرنسا انصارها من المشايخ حماية البعثات الفرنسية التي كانت تجوب البلاد للتجسس على احوالها وكذلك القوافل التجارية الفرنسية سواء على شواطئ النهر او المحيط الاطلسي او في الداخل ، لقد تمكن المستعمر بفضل توظيفه لبعض المشايخ من تحقيق عدة اهداف باقل التكاليف وفي مدة وجيزة كما وفرت لها الأمن والاستقرار في اشد الاوقات حرجا وفي اماكن حدودية نائية من الصعب السيطرة على قبائلها وارجاعها الى الجادة وحملها على الانقياد والدخول في طاعة المستعمر وبعد استيلاء باثي patey . على تكانت وادرار وضع سياسة جديدة تقوم على اساس تقسيم البلاد ولقد حد المستعمر من حريته الرؤساء الذين اصبحوا محملين بعبء فرض قرارات لم يشتركوا فيها وليس لديهم الوسائل لتنفيذها وهكذا عملت الادارة الفرنسية دون قصد علي تدمير هيكل اجتماعي دون ان يكون لهذا التدمير فوائد

محسوسة لدى الموريتانيين. اما ما قامت به الادارة الفرنسية من حفر الابار والعمل علي استقرار البدو الرحل فقد احدث نتائج عكسية وذلك ان الاستقرار استلزم تشجيع تربية القطعان بدلا من الجمال لتحديد مسافات التجول وخلاصة القول (ان الازمة الاقتصادية كشفت عن عيوب الادارة الفرنسية في موريتانيا التي زاد من تفاقمها الوضع العسكري في البلاد وبالرغم من كل هذه المحاولات والمخططات فان السكان بقوا ثابتين علي موقفهم المعادي لهؤلاء الغزاة وبهذا الموقف يكون قد حافظوا علي ثقافتهم وعلي الطابع العربي الاسلامي في هذه الفترة .

اخطاء الادارة الفرنسية في موريتانيا

لعل من ابرز اخطاء الادارة الفرنسية في هذا الشأن انهم لم يحترموا النظام الاجتماعي القائم في البلاد وعلي الاخص حقوق الحرمة (١) . و التي فرضها المحاربون علي القبائل التي يحمونها ، ورغم ان جورو وباتي قد اوصوا منذ عام ١٩١٠-١٩١١ باحترام هذه الحقوق الا ان الادارة الفرنسية قد اهملت ذلك مع مضي الزمن وعلمت علي تخفيض هذه الحرمة باعتبارها ضرائب باهظة وعلي اساس ان انتظام دفعها يعوض تخفيضها ولكن عدم الانتظام كان من طبائع هذه البلاد وكان واضحا ان اجراءات الادارة الفرنسية في موريتانيا كانت تهدف إلى إحلال التطور الاقتصادي محل النظم الاجتماعية الموروثة وهدم تقاليد عامة الشعب باسم قانون التطور الذي لم يفهمه احد لأن المشاكل بقيت كما هي فالمحاربون استمروا مسئولين عن الدفاع عن الارض رغم فقدهم لامتيازاتهم والعبيد صاروا مطالبين اكثر مما سبق بتحمل خدمة اسيادهم بالرغم من حريتهم قانونا والرؤساء اصبحوا محملين بعبء فرض قرارات لم يشتركوا في وضعها وليس لديهم الوسائل لتنفيذها (٢) وهكذا عملت السياسة الفرنسية دون قصد على تدمير هيكل اجتماعي اوجدته طبيعة الاشياء وهدم تنظيم سياسى فرضته حقائق التاريخ دون ان يكون لهذا التدمير والهدم فوائد محسوسة لدى الموريتانيين .

١-نصر السيد نصر مرجع سابق ص ٤٩

٢- سعد خليل مرجع سابق ص ٥٩٦ - ٥٩٨

الفصل الثانی

موقف الموريتانيين من الاستعمار الفرنسي

اولاً : القوى الموريتانية ومواقفها من الإستعمار الفرنسي .

ثانياً : القوى القادرية ومواقفها من الإستعمار الفرنسي .

(أ) الجماعات المؤيدة للإستعمار وأوجه التعاون معه .

(ب) الجماعات المعارضة ومواقفها المختلفة .

ثالثاً : علاقة القادرية بالسلطات المحلية .

رابعاً : علاقة القادرية بالقوى الخارجية .

عرفت بلاد شنقيط (١) مع مطلع القرن الماضي ، ١٩٠٣ م دخول الفرنسيين ، وهو حدث جليل بل خطب مهول كان له بالغ الأثر في سير تاريخها العميق ، وإذا كانت أحداث دخول الإسلام وقيام دولة المرابطين وإتسياح القبائل العربية الحسانية إلى هذه الربوع وهي كبريات الوقائع التي عرفت البلاد قد مكنت الأهلين من أن يلعبوا أدواراً رائدة جعلتهم يحوزون عن جدارة إحلال صفحات مشرقة في سجل المسلمين .

فإن دخول الفرنسيين بجهود الإستعماري المعروف كويولاني ، قد أدى ذلك إلى إرباك ساكنيها ، وأفضى إلى نتائج وخيمة ، فقد إنشطروا طرائق قحدا وتصدعت كلمتهم بين مقاوم لا يلوى على شيء ، ومسالم لا يكثرث لشيء وإذا نظرنا إلى خريطة البلاد نجد معظم الذين صفقوا لدخول الإستعمار كانوا في منطقة الترارزة والبراكنة في جنوب البلاد والذين وقفوا ضد دخول المستعمر البلاد في شمال البلاد في إماراتي تكانت وادرار

ولقد شكل هذا الحدث (قدوم المستعمر) نازلة فقهية ، إنقسم بينها العلماء بين مفتي بالمسالمة وأن الله ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر وبين مفتي بالجهاد والهجرة وإباحة مال من لم يهاجر وسبى تراريزه وكلا الفريقين تهادى في الوجهة التي يدور حولها موقف القطبيين .

فالفريقان مسكونان بالبحث عن قيام الدولة وإستصرخوا بني جلدتهم في هذا السبيل ، (فتاوى وشعراونثرا وعملا سياسيا دمويا) ، ولكن فريق القبول يئس على الأفق القريب المنظور من قيامها وكانت البلاد في ذلك الوقت حبلها على غاربها يسود فيها السلب والنهب والإقتتال وكان هم حقن الدماء عندهم فوق كل إعتبار .

وعلى الرغم من الإجراءات التعسفية الفرنسية من طرف المستعمر ضد المقاومة فإنها لم تزد سكان البلاد إلا إستماتة في المقاومة ضد الإستعمار ، والتي بدأت تأخذ طابعا جديدا بعد عام ١٩١٠ م ، حيث أعلن محمد العاقب ولد مايبا حملة واسعة معادية للإستعمار مؤكداً على أن الواجب الديني يفرض عدم التعامل مع النصاري الغزاة وعلى صعيد آخر فقد أعلن الشيخ حماة الله في الحوض الجهاد ضد النصاري دون سلاح وبث الدعاية ضد المستعمر وقصر الصلاة سنتين معتبرا أن البلاد في حالة حرب فاعتقلوه ورحلوه إلى المزرزة (٢) . وعلى هذا الأساس إنتقلت المقاومة من شكلها هذا إلى شكل جديد ومنظم ولم تعد المعارك عشوائية وإنما أصبح التخطيط لها يتم بدقة ، وإنتهج المقاومون حرب العصابات ضد المراكز الفرنسية ويبرز من خلال هذه الفترة المجاهد العظيم محمد تقي الله ولدا على ، الملقب بوجاهة ، الذي كان على موعد مع إنتفاضة المجاهد ، عبد الكريم الخطابي في المغرب . وإشتبك وجاهة مع القوات الفرنسية في مارس ١٩٢٤ م .

١ ، وكان الموريتانيون ينطلقون منها للحج كل عام ويتعلق بهم كل من أراد الحج من كل البلاد المجاورة . - تأسست مدينة شنقيط على مرحلتين ، الأولى عام ١٦٠ هجري في موضع إبير ، والثانية عان ١٢٦٢ هجري . بناها رجل يدعى محمد وهو جد الأعلال .

٢ - محمد الهادي ولد الطالب : مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

وأوقع بهم هزائم كبيرة وظل هكذا يقود الجهاد إلى أن سقط شهيداً في الخامس من شهر مايو عام ١٩٢٤ م .

ولقد كان لنجاح المقاومة في هذه الفترة أسباب موضوعية من أهمها المركز الروحي والسياسي الذي يحظى به زعمائها كما يحتمل أن تكون عدوى المقاومة قد تسربت إلى البلاد من الجزائر كما أن المقاومة في الشمال إستفادت من التناقضات القائمة بين الدول الأوروبية حول المسألة المغربية . (١) .

وبطول عام ١٩٣١ م ، شكل المجاهد المأمون ، شقيق وجاهة ، سرية كبيرة قامت بهجوم على الفرنسيين وتمكنت من قتل أربعين فرنسياً ، (٢) . وبعد عام من الحادثة إشتبك المجاهد الأمير سيد أحمد ولد عبده وهو في طريقه إلى حليفه في الشمال ، ابن الشيخ ماء العينين بالنقيب لكو والملازم (ميسات) الذي قتله الأمير قبل إستشهاده في وديان الخروب . (٣) .

أسباب المقاومة :-

من خلال الحقائق التاريخية الثابتة ان مراحل الكفاح والنضال الذي خاضته الدول التي إكتوت بنيران الإستعمار والإستبداد الذي عانت منه على وجه الخصوص الدول الأفريقية ، اتضح بأن الحرية والخلاص من السيطرة بطريق العنف هما الأسباب الحقيقية في تاريخ أى شعب خاض مراحل الكفاح المختلفة ، وتعد موريتانيا واحدة من هذه الدول ، بالإضافة للأسباب سبالة الذكر هناك أسباب أخرى إختص بها المجتمع الموريتاني وهي تتمثل في الآتي :-

أولاً : الأسباب السياسية :

كانت المناطق الشمالية وخاصة أدرار قبل الغزو الفرنسي تحميها سلطة سياسية تمكنت من بسط نفوذها على كامل تراب المنطقة كما تمكنت من إخضاع كل المجموعات البشرية الموجودة في المنطقة عند دخول الإستعمار إلى المناطق الموريتانية الأخرى ، وذلك بسبب السلطة التي يتمتع بها الزعماء التقليديون . فأصبحت كل السلطة بيد الأوروبيين الغرياء على هذه الأرض المسلحة عندما أصبح السكان في الشمال ، خاصة الزعماء التقليديون يخشون أن يلحق بهم ما لحق بالمناطق الأخرى من سلب للسلطة .

Isselmou La Mauritani , Op.Cit , p . 188 .

٢ - الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٣٤١ .

٣ - محمد سلم بلقيور : مرجع سابق ، ص ٤٧ .

ثانياً : الأسباب الاقتصادية :

كان الحضور الفرنسي إلى موريتانيا سببه إقتصادي ، وكان حرصه على إستنزاف ثروات البلاد ، وكانت المناطق الشمالية عبارة عن مجموعة من الواحات يشغل أهلها بالزراعة والرعى ومنذ مجيئه إلى موريتانيا ظل المستعمر يأمل في الحصول على هذه المنطقة نظراً لأهميتها الاقتصادية وموقعها الإستراتيجي ومن جانبهم كان سكان الوسط والشمال يخشون على مناطقهم وعلى إقتصادهم الذي سيقوم الغزاة بتحطيمه وفتح المجال أمام الموارد الاقتصادية الأوروبية ، وقد فرضت فرنسا على موريتانيا أن تقوم بتيسير الموارد الاقتصادية من أجل تغطية النفقات التي تحتاجها الإدارة ، لذلك وجد السكان أنه لا بد من مقاومة المستعمر للمحافظة على إقتصادياتهم .

ثالثاً : الأسباب الدينية :

لقد اعتنق سكان موريتانيا الدين الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري وقد اعتنقوه عن وعى ، وظل هؤلاء السكان على مر العصور وأعون بالمخاطر التي تحدق بهذا الدين ، وقد إنكشف هذا الوعي خاصة في العصور الحديثة عندما بدأ الأوروبيون يتوسعون على حساب البلدان الإسلامية ولما دخل المستعمر إلى موريتانيا رأى هؤلاء السكان ضرورة الإلتفاف وراء الزعماء الروحيين .

وتسمى موريتانيا ببلد المليون شاعر ، وقد كان الشعر من بين أسلحة المقاومة للمستعمر وكان من شعراء المقاومة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي النذير تدوى صرخته المؤثرة التي يستنهض فيها الناس للجهاد في سبيل الله لإنقاذ الدين من الخطر الداهم :

حماة الدين إن الدين صار	أسيراً للصوم وللنصارى
فإن بادرتموه تداركتوه	وإلا يسبق السيف البدار .
ويعلل الشاعر أسباب الهجمة الإستعمارية المرتقبة ، ويقول إن الروم عاينوا ما عليه الناس من تهاون لدينهم وتشتت فأغراهم ذلك :	
وروم عاينوا في الدين ضعفاً	فرامو لكل ما رموا إختياراً
فإن أنتم سعيتم وإن تدبتم	برغم منهمو إزدجروا إزدجاراً
وإن أنتم تكاسلتم وخبتم	برغم منكم ابتدروا إبتداراً
فالقوكم كما ييغون فوضى	حيارا لا إنداب ولا إئتمارا (١) .

ولقد إلتف السكان حول أمرائهم وزعمائهم الدينيين للدفاع عن الدين الإسلامي الذي سيكون هدفاً للغزو الأوروبي المسيحي الجارف (٢) .
هذه هي بعض الأسباب التي إعتمدها السكان في مقاومتهم للمستعمر فما هي مراحل المقاومة والنضال الموريتاني ضد المستعمر الفرنسي

١ - محمد سالم بلفريو : مرجع سابق ، ص ٣٢ .

٢ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ٣٨٤ .

أولاً : القوى الموريتانية ومواقفها من الاستعمار الفرنسي :

مراحل المقاومة :

لقد كانت للمقاومة الموريتانية في طورها العسكري أربعة مراحل أساسية ، اتسمت كل مرحلة منها بطابعها الخاص بها والذي يميزها عن المرحلة التي تليها ، وهي كالتالي :-

- ١ - مرحلة الإصطدام (١٩٠٢ - ١٩٠٥) .
- ٢ - مرحلة إشداد المقاومة (١٩٠٦ - ١٩١٣) .
- ٣ - مرحلة إسترجاع الأنفاس (١٩١٤ - ١٩٢٢) .
- ٤ - مرحلة الإنبعاث (١٩٢٣ - ١٩٣٤) .

لقد قام الفرنسيون بغزو البلاد في مطلع القرن العشرين وقد واجههم السكان الموريتانيون بأساليب مختلفة من المقاومة ، تمثلت في الإعراض عنهم تارة والإصطدام بهم تارة أخرى ، هذا مع إعتداد الفرنسيين على طريقة خاصة خلاصتها محاولة الإحتواء السلمي . (١) .

وبما أن الإستعمار دخل من الجنوب فإن البداية ستكون منه لكونه نال السبق في الدفاع عن الوطن ، وهكذا كان للمجاهدين على ضفاف النهر معارك بطولية رائعة مع الغزاة .

فبعد تعيين كويولاني مفوضاً عاماً للحكومة الفرنسية ، كون جيشاً قوياً وبدأ بالزحف نحو الترارزة ، التي كانت تعيش أزمة داخلية وعندما وصل دكانة عام ١٩٠٢ م ، أعلن أمير الترارزة الحرب عليهم وعلى أعوانهم ثم تتابعت المسيرة النضالية بعد ذلك في الترارزة بقيادة أحمد بن الديد . (٢) .

ولم تقتصر المقاومة على أرض البراكنة فقط بل امتدت إلى ايدو عيش في مرحلة لاحقة ، كما عمد سكان ايدو عيش للرد على كويولاني الذي تمركز هو وقواته في المنطقة الشمالية وبنائه لمراكز عسكرية بها وأعلن الجهاد بقيادة الأمير بكار ولد اسويد معلناً بذلك مرحلة جديدة وحاسمة إعتد فيها على أسلوب الكر والفر والمباغنة وسرعة الإنسحاب .

وهذا هو ما دفع كويولاني إلى الإستجداد بخبير الدروب الصحراوية أفرير جان (٣) ، للتسيق بهدف القضاء على خطر بكار وتحالف ايدو عيش بقيادة عثمان بن بكار (٤) ، هذا التحالف الذي خاض به معارك طويلة .

١ - أزيد ابيه : مرجع سابق ، ص ١٦٢١

٢ - أحمد بن الديد هو الذي قتل أحمد سالوم الترارزي عام ١٩٠٥ م أثناء إنشغال كويولاني في بعثة تجاغت ، أدرار ومن جهة أخرى كان قد أغار على بونلميت في السابع والعشرون من عام ١٩٠٤ وقتل الملازم ريبو وأباد قوة من الفرسان كانت تتبعه .

٣ - أفرير جان :- ملازم فرنسي قائد لمصرية فرنسية مع جورو حاكم موريتانيا الفرنسي .

٤ - هو عثمان بن بكار ولد أسويد أحد أعظم وأقوى أمراء أدوعيش وربما البلاد الموريتانية ، تجوز نفوذه إيكاك ليصبح في بعض الأحيان زعيماً لأدوعيش .

واستعداد للصمد حملات كويولاتى على نكانت قام بكار بإحتلال الممرات الرئيسية المؤدية إلى المنطقة ، الا ان كويولاتى اجبر بكار على الانسحاب وأمكن للمستعمر القضاء على بكار فى الأول من أبريل عام ١٩٠٥ م ، وقد كان موت بكار صدمة كبيرة للمقاومة التى كانت فى ريعان شبابها ، ومن نتائج موت بكار :-

- ١ - تفريغ قوة ايدو عيش ومصادرة الكثير من املكها .
 - ٢ - كما أثر موته عقب إعلان بعض القبائل الموالية له عن خضوعها للإستعمار ، بما فى ذلك مجموعات ايدو عيش حيث جاء الحسين ولد بكار إلى كويولاتى مبعوثاً من طرف مجموعتى ايدو عيش " أشراتيت ، أيكاك " (١) . وذلك طلباً للأمان .
- وبعد إستكمال كويولاتى لإحتلال المناطق الجنوبية والمحاذية للنهر ، والتى تتواجد بها أكبر نسبة من السكان ، دفع الغرور كويولاتى إلى الزحف شمالاً فى إتجاه بجاية التى قتل بها بعد عشرة أيام من وصوله فى وقت كان يعد فيه لغزو أدرار ..

وهكذا كان لعام ١٩٠٥ حدث كبير فى تاريخ المقاومة التى راح ضحيتها العقل المدبر لإحتلال موريتانيا . (٢) :

ولقد كان مصرع كويولاتى وإنتصار أتميلان ، (٣) ، وحصار تجكجة وما صحب ذلك من ضربات متتالية ضد الغزاة كان ذلك بمثابة الفتيل الذى أشعل النار على إمتداد الأراضي الموريتانية ضد الغزو الفرنسى البغيض حيث إتخذت المقاومة أساليب متنوعة جديدة مسجلة إنتصارات كبرى وبعدها شعر الفرنسيون أن هيبة فرنسا قد مست وأنه من الضروري أخذ النار لها ولا يكون ذلك إلا بإحتلال موريتانيا وخاصة إحتلال مناطقها الحيوية مثل أدرار وقد قاوم مشاريع الإحتلال أميرها سيدى احمد بن سيدى احمد بن عبده ، (٤) ، الذى تربى على مائدة الشيخ ماء العينين وخاض معارك طاحنة حتى

جرح فى تيشيت (٥) ، وأسر عام ١٩١٣ م وعلى الرغم من الضربات التى وجهها المستعمر الفرنسى إلى المقاومة فقد إستمر الجهاد (٦) .

١ - أشراتيت معناها الدبية ولقبوا بهذا الاسم لأكلهم أموال الناس .

وأيكاك معناها الصمغ الأسود ولعلهم لقبوا بهذا الاسم لكثرة ماقيهم من أطراف الناس .

٢ - Isselmou La Mauritanie , Op.Cit , p . 183 .

٣ - موقعة أتميلان تبعد ٢٥ كم جنوب غرب تجكجة وحسب البيان الفرنسى خسر الفرنسيون فى هذه المعركة من الأوروبيين الكثير فتركت أجسامهم دون دفن فى العراء أما الموريتانيون فقد خسروا ١٥٠ رجل منهم ٣ من رؤساء و ٥ من أولاد بكار رئيس قبيلة ايدو عيش .

٤ - ولد عبده هو سيدى احمد بن سيدى احمد بن عبده ، الذى شغل منصب أمير أدرار عام ١٨٩١ م حتى وفاته عام ١٨٩٩ م عندما سقط عليه داره حيث كان خصومه من أولاد غيلان يحاصرونه وقد إمتازت مدة حكمه بالكثير من الإضطرابات والحروب .

٥ - تيشيت هى مدينة مشهورة بعد نكانت وهى قرية من الحوض بينها وبين تجكجة نحو خمسة أيام وبها نخل وأهلها لهم نشاط تجارى .

٦ - الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٣٣٦ .

وحتى تتمكن فرنسا من القضاء على المقاومة عينت جيورو ، (١) ، خلفاً لكوبولاني نهاية ١٩٠٧ ، حيث التقى بوزير المستعمرات الذي أبلغه رسمياً خشية فرنسا من المقاومة المتنامية في موريتانيا ورجبتها في القضاء عليها ، لذا أعد جيورو نفسه بحملة ضخمة لإحتلال أدرار ، والتي فشلت في تحقيق أهدافها حتى أن جيورو نفسه وقع في كمين نصبته المقاومة ومات جميع الأفراد الذين كانوا معه كما أن قائده الملازم أفريير جان وقع أيضاً في حصار ، وتعرضت حملة ثالثة تحت قيادة الملازم بايلوه لهجوم قتل فيه بعض جنوده وجرح قائدها . ويصف جيورو هذه المقاومة في إجتماع أمام الجمعية الجغرافية الفرنسية المنعقدة يوم الثالث عشر من شهر يوليو عام ١٩١٠ م فيقول:

(لقد تم قتل النقيب ريببو قائد حامية أكووجيت على يد جماعة من المجاهدين ، ثم يصف جيورو مقاومة بقية القبائل ويختتم هذا الوصف السريع ، بقوله :
لقد تعرضنا في هذه الفترة ، لما لا يقل عن مائة وخمسة وعشرون هجمة ، تمخضت عنها مقتل ثلاثة ضباط وخمسة ضباط صف ومائة وأربعة وثلاثين جندياً ، بالإضافة إلى جرح سبعة فرنسيين ، وثلاثين من الأعوان المجندين . (٢) .

ولقد كان تركيز المقاومة في هذه الفترة على حملات جيورو الإستعمارية وهاجموا أهمها وهي فرقة الملازم بالون ، الذي سقط قتيلاً إلى جانب عدد كبير من جنوده .
وفي سنة ١٩١٠ م ، عرفت المقاومة حدثين كان لهما أثرهما الواضح في مسيرة المقاومة وردود الأفعال الناتجة عنها ، وهما :-

١ - وفاة الشيخ ماء العينين ، فلم تفقد قائداً أو مرشداً دينياً فحسب ، وإنما فقدت فيه عامل توحيد ومصدر تسليم لا غنى عنه ، الأمر الذي نشأ عنه فراغ لا يمكن سده وسيأتي الحديث عنه .

٢ - تعيين العقيد باتي خلفاً لجيورو ، وإنتهاجه أسلوباً جديداً إعتد فيه على التصالح ورد الاعتبار للمؤسسات التقليدية وتوظيف موارد البلاد في خدمة الإحتلال الفرنسي خشية من سيطرة المقاومة على طرق التموين .

وعلى الرغم من التفوق الفرنسي لم يمنع المقاومة من مواصلة كفاحها ، حيث كانت المقاومة عرضة للعديد من عمليات النهب المدبرة من جهة مجموعات المقاومين التي كانت تنظم في شكل فرق محاربة لتنفيذ الأعمال التخريبية ضد الأهداف الإستعمارية . وحتى يضع المستعمر حداً لعمليات التخريب المتواصلة ، كتب الإداري الفرنسي بأدرار إلى حاكم موريتانيا ، يقول :-

١ - جيورو قائد فرنسي أشرف على العملية الإستعمارية في سوريا وقتل في موريتانيا في ثلاثينيات القرن العشرين .

٢ - Isselmou La Mauritanie, Op . Cit , p . 186 .

(فى الطرف الحالى إتنا نفكر فى طريقة تمكن من إستخدام قبائل حسان فى أدرار فى حملة مضادة للتجمعات القبلية ، والتي يقودها الأمير السابق أحمد ولد عبده ، وكذلك ضد جماعات أولاد غيلان . وأهل أحجوج المعادية والمحاربة لفقودنا ، وأعتقد أن القبائل الحسانية يمكن إستخدامها فقط مع توفير الثقة الكاملة ضد قبائل الشمال ، الرقيبات ، أولاد أدليم و أولاد أبى السباع . وذلك عندما تكون الفرصة مواتية . (١) .

هذا بينما رأى عند الرافضين هو ألا سبيل إلا إلى إمتشاق السيف وحمل السيف لتدمير العدو الغازى ، وذلك عن طريق جهاده أو الهجرة وأخذ أموال من قعد معه وسبى ذراريهم ولا يجدون وجهاً شرعياً لولايتهم مهما كانت المصالح الدنيوية التي تتولاه عن موقف القبول ، وأن قيام الدولة أمر يمكن إدراكه دون أن يكون مطيئة التعامل مع العدو ، ولذا كان الحضور الأوروبى فى المنطقة حضوراً تجارياً بحثاً ، ثم بدا الطابع الإستعمارى متسللاً إليه إبتداءً من القرن التاسع عشر حتى إستطاع فى النهاية تحريك المنطقة إلى منطقة نفوذ إستعمارى مع مطلع القرن العشرين على يد الفرنسيين .

وعلى الرغم من خطورة هذا التطور على البيضان فى المنطقة ، فقد ظل فقهاؤهم فى مواقفهم من ذلك الحضور منطلقاً دينياً بحثاً يعمل على حماية المسلمين وذب التعامل مع المخالفين فى الدين دون أن يكون للدافع الوطنى وحمايته ضد المحتلين حضوراً يذكر فى هذا الموقف فى الوقت الذى كان المستعمر يعمل على إحكام قبضته على البلاد . (٢) .

ولقد كان للفئات السياسية والدينية من مشروع كبولاتى ، والذي يقر البداية الأولى للإحتلال ، موقفاً كبيراً: ولقد كان من الطبيعى أن يصطحب التوسع الفرنسى فى البلاد الموريتانية مقاومة مسلحة تضع حداً لهذا الإحتلال تضعف شوكته على الأقل إن لم تكسرها من أساسها ، وفى هذا الإطار فإن أول حدث سجله المقاومون فى البراكنة عام ١٩٠٢ م على يد الأمير أحمد حيث تمكن من مواجهة قوة عسكرية فرنسية مشكلة من ١٠٠٠ جندي ومقاتل تضم بعض القبائل الموالين للفرنسيين ، مدعوماً برجال الدين . وقد شكلت المقاومة المسلحة أحد أبرز عوامل الرفض التي جابهت بها فرنسا منذ بداية حضورها .

ولقد كانت القبائل الموريتانية فى مقاومة المستعمر الأوروبى تنظر إليه نظرة دينية تسرى فى كيان المجتمع بأكمله وشعور يصل إلى أعماق النفس فيرخص كل غالٍ لصون المعانى وكل نفيس . وإنطلاقاً من هذا المفهوم ، فإن المقاومة الموريتانية وإن لم تكن تظهر جلية إلا فى مطلع القرن العشرين ، فإنها قديمة قدم التواجد الأوروبى على هذه الأرض التي حملت زعامتها السياسة لواء مقاومة الأجنبي والتصدى له فى المناطق الإستراتيجية ، البحرية والنهرية ، فى حين كان لقادة الزعامات الروحية صنعاً آخر عرف بالمقاومة الثقافية حيث طالبت هذه الزعامات بمقاطعتهم ورفض لغتهم ورفع

شعار (من يتولهم منكم فانه منهم) . (١) . الآية ٥١ سورة المائدة

١ - أولاد ابى سبع ، قبيلة يرجع نسبها إلى محمد بن ادريس ولها وجود فى موريتانيا والمغرب وقد إضططعت بدور بارز فى النشاط التجارى وأولاد غيلان والرقيبات وأولاد أدليم من أشهر القبائل العربية الحسانية فى موريتانيا وكان له إمارات ولهم سطوتهم وسلطتهم . .

٢ - الهيبة ولد سعد ابنيه : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

عوامل ضعف المقاومة ونهايتها :

لقد استمر الجهاد نحو اربعة وثلاثين عام منيت فيها القوات الفرنسية بهزائم عديدة وباع المؤمنون انفسهم غير هيايين الموت لكن المقاومة واجهت مصاعب متزايدة وصلت بها الي طريق مسدود فقد عمدت فرنسا في خطوه تالية وهي غلق حدود موريتانيا مع كل من الجزائر والصحراء الغربية لتضع حدا لجيوب المقاومة (٢) ، كما مرت البلاد بموجات من الجفاف القاسي الذي ادي الي تراجع المراعي وهو ما فرض علي رجال المقاومة طلب الامان بعد هزيمتهم في ميجيك .

وبنهاية هذه الفترة يكون الستار قد اسدل علي اخر مظاهر المقاومة المنظمة ولم يبق الا افراد لجأوا الي المرتفعات الجبلية والادغال وفي الثامن من مارس ١٩٣٤م تسابق الناس الي المنطقة الرئيسية في اطار ليشاهدوا زعماء الشمال الذين طالما اثاروا العرب في ادرار والسودان وموريتانيا لقد جاء هؤلاء ليقدموا خضوعهم لحاكم دائرة اطار ديسية (Descnet) فخطبهم حاكم الدائرة قائلا:

(لقد اصبح لزاما علينا ان نذكركم باننا نحن الاقوياء وانتم الضعفاء ونحن السادة وانتم الرعية ثم تلا عليهم فقرات الاتفاق الجديد) (٣) .

- الغنائم المستولى عليها تعاد .
 - كل البرتيات والمكافآت التي كانت موجودة سابقا لاغية .
 - مسئولية جماعية لافرع الرقيبات .
 - الالتزام بدفع الضرائب مثلهم مثل كل الخاضعين للادارة الفرنسية .
 - تحريم المرور شمال خط معين دون تصريح بذلك .
- وبعد هذا الاستعراض الشامل لحركة المقاومة الباسلة التي واجهت التدخل الفرنسي يفرض ملاحظات منها :

- ١- ان سكان موريتانيا كانوا غيورين علي حريتهم واستقلالهم مفضلين استمرار انظمتهم الاجتماعية والسياسية مهما كانت هشاشتها (الإمارات) .
 - ٢- ان حركة المقاومة رغم افتقارها للسلاح والمال فقد تمكنت من إلحاق خسائر جسيمة بالمستعمر الفرنسي كما استطاعت ان تؤخر احتلال موريتانيا ولو الي حين .
- لقد كان الفرنسيون يعملون علي تشويه صورة المقاومة الموريتانية في مراجعهم فيخلعون عليها أسماء مختلفة مثل عادات السلب والنهب او سرقات الصحراء او اعمال اللصوصية ، ولكن الموريتانيين خاضوا حروبا طاحنة خلال الفترة من بداية القرن العشرين حتي عام ١٩٣٤م

١ - ديبون صديق حميم لكوبولاتي وقد صحبه في بعثة إلى تكلنت وأدرار ، والتحق بالبعثة الحسينية في مارس ١٩٠٥ م ، وقد ألف مع كوبولاتي كتاب كبير عن الجماعات الدينية الإسلامية .

٢ - سعد خليل : مرجع سابق ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

٣ - أزيد ابييه : مرجع سابق ، ص ١٦٦ .

٤ - حميد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ١٣ .

ثانياً : القوى القادرية ومواقفها من الاستعمار الفرنسي:

لقد لعبت الطرق الصوفية دوراً بارزاً في المجتمع الموريتاني لا سيما الطريقة القادرية ذات الانتشار الواسع والنفوذ المتحكم (١) .

ولقد كانت الأوضاع الدخلية السيئة التي جاءت كنتيجة لظاهرة السببية وغياب السلطة قد وضعت الفئة المستبشرة والزعامات الروحية في البلاد الموريتانية أمام إشكالية معقدة حسب اعتقادهم والتي أدت إلى جدل كبير بين هذه الزعامات وهي هل يجب التصدي للاستعمار الفرنسي رغم ما يلوح من شعارات كاحلال السلم والامن الذي يتوق الجميع اليه وضرب ايدي الناهيين للصوص وتوفير الظروف الملائمة للعيش ؟ ام انه يجب التصدي بكل الوسائل بوصفه غزواً خارجياً (٢) .

هذه الإشكالية التي طرحت مع مطلع القرن الماضي بمجئ الاستعمار الفرنسي جاء الرد عليها متضارباً أدى إلى ظهور انقسام واضح بين الزعامات الروحية الدينية في البلاد والتي كانت تشكل السلطة التشريعية (٣) .

ولقد حملت لواء رفض الاستعمار وقبوله زعامات من الطريقة القادرية ومثلت بذلك قطباً للرفض وآخر للقبول والمتأمل في علاقات الطريقة القادرية بالاستعمار الفرنسي سلبي وإيجابي لا يستطيع ان يجد مبررات ذلك الا في السياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية بصفة عامة والطريقة القادرية بصفة خاصة وإذا نظرنا إلى خريطة البلاد نجد معظم الذين صنفوا للاستعمار بل ودافعوا عنه من منطقتي الترارزة والبراكنة في جنوب البلاد (٤) .

وهناك من وقف من الاستعمار موقفاً عدائياً ووقف في وجهه مستخدماً في ذلك جميع الوسائل وقد حمل لواء المقاومة إبناء المناطق الشمالية للتابعين لامارتي فكانت واندرا (٥) .

١ - حميد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ١٦ .

٢ - حماد ولد مولاي : تحقيق مخطوط رسالتين للشيخ سيدي بابا ، ص ٥ .

٣ - حماد ولد مولاي : نفس المرجع ، ص ٧ .

٤ - محمد الهادي ولد الطالب : مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

٥ - حماد ولد مولاي : مرجع سابق ، ص ٥٣ .

ولقد كانت هناك اسباب متعددة ادت الي تولد زعماء وانصار القطب القادري المؤيد للاستعمار في الجنوب ووجود زعمات وانصار القطب الراض للاستعمار في الشمال
ولعل ابرز هذه الاسباب :

١- تأثير الوسط الطبيعي:

فمناطق الشمال تخضع لمناخ شديد القسوة يضاف اليه فقر التربة وتوالي الكوارث الطبيعية مثل الجفاف وهبوب رياح السموم وغير ذلك والتي من شأنها ان تجعل النفس البشرية ذات شفافية دينية مستعدة للجهد هذا بالاضافة الي ان هذه المناطق الصحراوية كانت بمنافي عن الرحلات الاولى للأوربيين وبعيدة عن مناطق الساحل التي الفت الوجود الاوربي الذي كان يغير لونه من وقت لآخر حسب للتطورات الراهنة .

٢- الوسط الاجتماعي :

وفي المقابل فان اتباع الطريقة القادرية في الجنوب علي سواحل نهر السنغال والارض الخصبة قاننا نجد الوضع الاقتصادي والتركيبية الاجتماعية لسكان هذه المناطق لا ترتبط حياتهم بالعوامل الطبيعية وانما يعتمدون علي بعض الحرف وخاصة التجارة وما تتطلبه من علاقات واتصالات وتفتح علي الخارج وما يرتبط بذلك بالتأثير علي نمط حياة السكان هذا بالاضافة الي حياة المدنية وما تفرضه عليهم من جهد يومي تتوقف عليه حياتهم ويضاف الي ما سبق وجود نخبة مثقفة في المناطق الجنوبية تبعا للتنقلات والعلاقات الاجتماعية التي يفرضها عليهم نمط الحياة (١) .

مما سبق يتضح ان اتباع الطريقة القادرية والراضين للاستعمار هم من ابناء البدو والريف والمؤيدين هم من ابناء الحضر .

وفي النهاية قد تمكنت الطريقة القادرية من الانتشار في كافة ربوع موريتانيا بل تعدت الي خارجها وهذا الانتشار لم يخل من عقبات تمثلت في علاقة هذه الطريقة بالمؤسسات السابقة لها والتي حاول بعضها التصدي لهذا الانتشار ولكن التوجه الهام لهذه الطريقة قلل طابع المسالمة والقبول من الطرف الاخر قبل ان تدخل البلاد تحت الهيمنة الفرنسية تلك الهيمنة التي ادت الي انقسام الطريقة القادرية علي نفسها نظرا للمعطيات كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وجغرافية جعلها في الشمال تحمل السلاح وتدعو الي الجهاد بينما اثرت في الجنوب الغربي حيث التسابق الي التعامل مع هذه الهيمنة ووفرة قبائل الزوايا وحيث العجز عن المواجهة واتعدام سلطة خارجية داعمة للجهاد .

١ - محمد فاضل محم خطاب : مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .

ب - الجماعات القادرية المؤيدة للاستعمار وأوجه التعامل معه :

لقد عانى أتباع الطريقة القادرية الكثير من العنف والإعتداءات ، وذلك بسبب حالة السبية (وتعنى بلاد سائبة بغير حكومة مركزية) التى تعيشها البلاد وكانت معاناتهم و الإعتداء عليهم من السلطة الزمنية ، هذا الوضع الذى رغب الكثيرين فى حمل السلاح من أجل الحصول على عائدات حملة أو الدفاع عن النفس فقط ، وهذا الوضع جعل الطريقة القادرية على العكس من ذلك تتنمر من حملة السلاح وتعتبره عدواً لأن أخلاق الطريقة القادرية إلى أخلاق المجموعة المحاربة وهو ما حدا بالشيخ سعد أبيه (١) ، إلى أن يعتبر حمل السلاح لأى هدف كان لابد وأن يؤدى إلى التخلق بأخلاق المجموعة المحاربة من الحسانية والقائمة على الإيمان الكاذب وترك العمل .

وقد تزعم هذا الاتجاه المؤيد للاستعمار الفرنسي بعض المشايخ والزعماء وكان علي راسهم سعد أبيه والشيخ سيدي باباب و الفريق الآخر كان معترضا ومقاوما للاستعمار الفرنسي وكان لكل فريق حجته التى استند اليها ، ولو تتبعنا موقف المجموعة المؤيدة نجد انها تستند للي بعض اراء الامام مالك الذى تنص علي (جلب المصلحة ودرأ المفسدة) (٢) .

لقد كانت كل تصرفات ومواقف هذا القطب قائمة علي تشخيص لواقع بلادهم السياسي والعسكري وانهم نشروا الامن وحفروا الابار وأتوا بالاطباء كما ان هناك العديد من الاعتبارات منها :

الجهاد والسبية :

لقد انتقد الشيخ سيد الخير بن الشيخ محمد فاضل الوضع الامني السابق للهيمنة الفرنسية وكان يستغبط ما فرضه الفرنسيون من نظام مخاطبتهم :
(كان الحوض قبل مجيئكم ما من غارة وسبي وخوف واخذ اموال ولما سكنه أبناؤكم حفظوه ومنعوه وصاروا كل ما يجر علي موضع او مال تبعوه وقتلوا صاحبه وارجعوا المال لاهله)

١ - الشيخ سعد أبيه : النصيحة العامة والخاصة ، مخطوط بالملحق .

٢ - محمد فاضل : مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .

أما الجهاد في هذا المجتمع المفتقر الي السلطة فان مجموعة كبيرة من اتباع الطريقة القادرية اعتبرت أن إعلان الجهاد هو بمثابة فتنة كبيرة وذلك لأسباب منها :

١- تفوق فرنسا العسكري :

اهتمت القوي المؤيدة للاستعمار الفرنسي بتوضيح امكانيات المستعمر وقدرتهم البشرية والاقتصادية وطالبوا الذين يعلنون الجهاد بالانتباه الي هذه المعطيات فمن ذلك ما نجده من مخاطبة الشيخ سعد ابيه لأخيه الشيخ ماء العينين :

وتفكر في امر هؤلاء النصاري فان قصرا من قصورهم التي في اللبر مثل كاندرو وخاي (١) ودكار (٢) . وغير ذلك ليشمل علي ما لا يحاط من السلاح والنفقات والجنود مما لا يكون الا للعثمانيين وامثالهم وبهذه القدرات استطاع الفرنسيون أن يقتحموا القرى والممالك الزنجية التي اعترضت علي هيمنتهم دون عناء الامر الذي جعل المؤيدين يحتاطون ان يفعل بهم مثل غيرهم .
اما المجتمع الموريتاني وقواده فقد كان اعلنهم فيهم للجهاد مثار استغراب الشيخ سعد ابيه متسائلا بقوله مخاطبا المجاهدين (٣) :

(فما ظنكم بمن لا جيش له ولو قل ولو بسبعه رجال يتق بهم ولا سلاح له ولا زاد) .

٢- الأحوال الاقتصادية :

لقد بحث الفرنسيون عن تسويق لمنتجاتهم في اسواق خارجية وكانت هذه المنتجات تزاحم المنتجات المحلية وربما قضت عليها وهو ما تم ينتبه اليه المؤيدون للاستعمار بل علي العكس عد اغراق الفرنسيين للسوق المحلية بمنتجاتها انجازا ومساعدة طالما افتقرت اليها البلاد ولقد صاحب هذا فوائد كثيرة تمثلت في خفض الضرائب حيث عانت الزوايا من الضرائب الباهظة التي كان يفرضها الحسانيون عليهم اما الطوائف الاخرى من الاتباع فقد كانت هي وما تملك يعتبرها الحسانيون ملكا لهم وهو ما عبر عنه احد الفرنسيين بقوله (ان حسان اكتفوا بامتلاك المالكين) .

١ - مدينتان سنغاليتان وماليتان .

٢ - لا تعتبر دكار عاصمة السنغال وحسب بل عاصمة افريقيا الغربية كلها من حيث اهميتها البحرية والجغرافية ، ويرجع الفضل في تطورها المتواصل إلى المهاجرين اللبنانيين ، ويعد مرفئ دكار أكبر مرفئ على ساحل الأطلنطي . وخاي ودكار مدن مالية وسنغالية

٣ - الشيخ سعد ابيه : الجواب المحتوم ، مخطوط بالملحق .

٣- عدم التعرض إلى الدين :

وإذا كان الاستعمار الفرنسي قد نشر الأمن وحسن من الظروف المعيشية الخشنة فإنه لم يهدد الجانب الديني بل ربما قدم له خدمات كان يفتقر إليها ، فقد كانت القوي القادرية المؤيدة للاستعمار يعتبرون أنفسهم المسؤولين عن المؤسسات الدينية وعن حماية الدين وتنقيته من البدع والخرافات والزود عنه (١) .

وبالتالي فإن عدم التعرض لدورهم يعتبر بمثابة دعم للجهود التي كانوا يقومون بها بعد من وجهة نظرهم محمودا لدرجة أن الشيخ التراد اعتبر أن فرنسا اعانت المسلمين علي اقامة المساجد والمدارس التعليمية وتيسير الحج وإيصال المؤلفات والتصانيف المطبوعة الشرقية والغربية إلى البلاد وأكرمت أمة الدين من الفقهاء وشيوخ التصوف ومكنت لشريعتهم الإسلامية علي اعتبار أن الدين هو غذاء المسلمين .

وهناك أكثر من شيخ أيد الإستعمار منهم الشيخ سيد بابا وهناك مخطوط يضم رسالتين من الشيخ سيد بابا للشيخ سعداوية عندما سئل الثاني عن شأن مسالمة النصاري في بلد لا يتعرضون فيه للدين الاسلامي (٢) .

والرسالة الاولى عبارة عن سؤال حول تعلم اللغة الفرنسية والثانية اجابة علي سؤال :

" هل ينبغي للمسلمين ان يجاهدوا النصاري في ارض هم بها غير متعرضين لهم في شئ من دينهم بل يساعدونهم علي اتباع الدين بنصب القضاة وما شابه ذلك وهذا مع علمهم ان المسلمين لا حول لهم ولا قوة علي الجهاد كاهل الجهة القبلية من ارض المغرب".

لقد كان هذا السؤال موجها من الشيخ سعد اية الي الشيخ سيد بابا وجاء الجواب علي السؤال

" في هذه الحالة يتعين علي المسلمين ان يهادنهم والا يتعبوا انفسهم بالتصدي لهم ومحاربتهم " ولقد استخلص هذه الاجابة من تأويل بعض ما ورد في كتب الفقه المعتمدة لدي المسلمين وخاصة المالكية ومنها مختصر خليل وشروحه وبعض كتب التفسير مثل تفسير البيضاوي والنسفي وغير ذلك وكانت هذه الرسالة بتاريخ الخامس من شوال عام ١٣٢٠هـ (٣) .

١ - محمد فاضل : مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

٢ - حماد ولد مولاي : مرجع سابق ، ص ١١ .

٣ - أنظر نص الرسالة بالملحق .

ويجب ان ننوه بان الشيخ سيديا باب ابن لرجلين هما الشيخ محمد والشيخ سيديا الكبير حيث كان لهما ادوارهما في مواجهة الحضور الاوربي ولعبت ادوارا سياسية وفكرية هامة علي مستوي المنطقة التي كانا يعيشان فيها
فالشيخ سيدي الكبير (١١٩٠-١٢٨٤هـ) بما عرف عنه من علو الهممة وسعة المعارف قارع الفرنسيين عبر جهوده الشخصية ومراسلاته وحاول جمع كلمة البلاد في وجه هذا الخطر محاربا النزعات والافتتال بين القبائل الذي كان سمة هذا العصر وقد سلك سبيله ابنه الشيخ سيدي محمد (١٢٤٥-١٢٨٥هـ) وكان عضده وكان خليفته غير انه لم يعمر بعد ابيه ولما قوي عود صاحبنا ولا مس مقصده في المعرفة ابان عن خصال حمدها قومه (اولاد ابييري) فاجمعوا علي تعيينه رئيسا لهم .

ولقد كان قوي الذاكرة يستحضر المعلومات التي تتناسب مع المقام عند الاقتضاء ووقت الحاجة لها. وكان رفيع الاخلاق يذم الكسل ويرغب في العمل وفي مساعدة الضعفاء هذه الخصال التي نوهنا عنها والتي ينعقد عليها اجماع المعاصرين له من أقوى أسباب التأثير وغلب الأبواب والسيطرة علي وجدان الناس . وكان صاحب علاقات من الطراز الاول فقد كان يحب الاخوان والاصدقاء ويرغب في الإكثار منهم وكان له نظامه الخاص فقد كانت له تشريفات فلا يقابل احدا الا علي موعد ولا يقضي بالنوازل وكان له حرس مؤلف من الاتباع والتلاميذ واعتمد في الوصول الي الاجابات علي امهات الكتب الشرعية .

الشيخ سعد ابيه والفرنسيون :

وهو من اقطاب الجماعات المؤيدة للاستعمار وقد ولد بعين الفتح بمنطقة الحوض الشرقي (١٨٤٨ - ١٩١٧م) (١) ، في موريتانيا وهو ينتمي الي اسرة عريقة ، درس القرآن والتجويد وعلوم الشرع في سن مبكرة وقد ابان عن نكاه حاد في مراحل الاولي وكان سلوكه يوحى بذلك فكان يفاخر اقرانه بحفظ مائة بيت في حكاية واحدة (٢) .

وقد درس علي يد علماء كبار وكذلك علي يد والده الشيخ محمد فاضل كدابه مع ابنائه الذين استخلص من نظره اليهم مخايل النبوغ والمشیخة فاشار اليه بان يسافر الي منطقة الجنوب الغربي من البلاد وكان ذلك في عام ١٨٧٣م وقد وصل الي هذه المنطقة وهو يتشوق الي نشر العلم وقد صادفت دعوته استجابة عريضة من الناس فالتقوا حوله ولكن لم يلبث ان غادر القبلة الي منطقة اينشيري اذ استقر ببلدة اتوز كتحيت اثالث عليه الجماعات والافراد من كل الانحاء ثم رجع الي منطقة القبلة التي قضى فيها مرحلته الثالثة وبقي فيها حتى مات في التمجاط (٣) .

١ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ٥١٨ .

٢ - الشيخ سعد أبيه : النصيحة العامة والخاصة ، مخطوط بالملحق .

٣ - ازيد بية بن محمد محمود - الزوايا في بلاد شنقيط (مرجع سابق ص ١٩٧ .

الشيخ التراد ابن العباس :

هو الشيخ التراد ابن العباس بن الشيخ الحضرامي بن الشيخ محمد فاضل ولد عام ١٨٨٧م ، في بلدة اوري الواقعة بين مدينتي النعمة وولاته وتربي في كفالة جدته لأمه واخذ علومه المحظورية علي يد خاله محمد المختار وهي العلوم الظاهرية اما علومه الباطنية فقد ذكر انه ذهب الي عمه الشيخ سعد ابيه لياخذ عليه طريقته الطوفية ويحدد بصحبته له اهم ملامح شخصيته ومواقفه السياسية والصوفية بعد ان مكث مع عمه اربع سنوات كانت كافية لاستيعابه منهج عمه الصوفي ولقد اسس الشيخ التراد محظرتة .

واستطاع في رحلته حيازة بعض العلماء الاجلاء الي جانبه فضلا عن جمعه لمكتبة عامة ولقد كان عامل الاستقرار ذا أهمية كبرى في تنمية المعارف وتطويرها هذا فضلا عن التحسن الاقتصادي الذي ساعده علي اداء المحظرة لدورها التربوي والعلمي ولم يقصر التعليم عند الشيخ التراد علي المحظرة اذ اقر الاكتتاب في مدارس النصاري وذلك بارساله لابنه انطلقا من قاعدة من تعلم لغة قوم امن مكرهم ولقد استطاع ان يكتسب معرفة تحسنته في مواجهات المستقبل وان يثري ثانيا محظرتة التي يدعمها دور حضرته الصوفية (١) .

اما عن اثره العلمية الزاخرة فلم تخرج عن مجال التصوف والعلوم الشرعية والمطبوع والمخطوط منها يزيد علي اربعين مؤلفا وقد نثر كثيرا براء شيخه وعمه الشيخ سعد ابيه الذي كان يري في التعامل مع فرنسا هو الضامن الوحيد لسلامة الدين نظرا لعدم تعرضها له حسب لجماع الجميع بل والاعانة عليه كما وضحنا سابقا (٢) .

٤- النقية والموالة

كانت القوي المؤيدة للاستعمار الفرنسي تري موالة الظلم والكفرة مستندة إلى مبررات دينية تجعل أحكام الشرع تنتابها إذ تحرم إن كانت بالقلب وتجوز بغيره علي وجه النقية (تنقي البأس بالمدارة) .

وقد تصل الموالة حد اللوجوب يأنم تاركها خاصة إذا علم العالم أو ظن أنه لا سبيل الي الحكم بما امر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك لكافر وفاسق فله ان يستظهر به استنادا الي القاعدة الشرعية التي ترى ارتكاب أخف الضررين وقد تصدبت القوي المؤيدة للهجرة عندما يتقن أهل البلاد من عدم قدرتهم علي دفع الغزاة عن بلادهم (٣) .

١ - محمد فاضل : الشيخ التراد ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

٢ - أزيد بية بن محمد محمود - لزوايا في بلاشنيق مرجع سابق ص ١٣٨ .

٣ - محمد الأمين ولد سيدي احمد : السلطة والفقهاء ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ .

ولقد ذهب هذا الفريق من الطريقة القادرية صراحة الي الدعوة الي موالة الفرنسيين اذ كانوا يقولون (يجب علينا حفظ عهدنا وموالاتها ولزوم ودها وطاعتها واعانتها علي مطالبتها) . وقد سلك الشيخ التراد مسلك الفريق المؤيد للاستعمار متأثرا بعمه الشيخ سعد ابيه وكان يقول (فلما كبرت وبخلت مداخل الدنيا تحققت من ذلك مشاهدة وعيانا) (١) .

ولقد كان الشيخ سعد ابيه نظرا لتمرزه في الجنوب الغربي الموريتاني التي اخترقها الفرنسيين اولا من اهم الشخصيات الدينية التي تعاملت مع الفرنسيين وقدمت لهم خدمات جليلة وقد كتب رسالة عنوانها (النصيحة العامة والخاصة) (٢) .

والتي يحس فيها اخوه الشيخ ماء العينين الي عدم التصدي للفرنسيين وان يبقي علي الطريق القويم الذي تركه له والده وهو ترك حمل السلاح ولقد كان الشيخ سعد ابيه في بداية امره من المعارضين للوجود الفرنسي في موريتانيا يدل علي ذلك ما تركه من اثار علمية شعرا ونثرا ، الا انه مع احتكاكه مع الفرنسيين اظهر فكرة اخري بدا يتعامل بها معهم مستقرنا للواقع الإقتصادي والسياسي والبديل الذي يمكن ان يوفره الفرنسيون من خلال نقاط اهمها:

١ - العدل :

مثل حماية المظلوم ودفع الجور عنه والانتقام له وكانت الدولة الفرنسية دولة العدل والانصاف وقد كان يري ان القوي الحصانية تقوم علي ابتزاز الرعايا واهانتهم فلما جاء الفرنسيون لهذه البلاد استراحت الزوايا من ظلم اولئك الظلمة وهذا العدل كان مبررا عند الشيخ سعد ابيه للتعامل مع الفرنسيين .

٢ - الامن :

اعتبر الشيخ سعد ابيه ان الحروب التي كانت حامية الوطيس بين الامارات وبين الامراء في الامارة الواحدة فيما بينها كلها حروب عاتقة امام تاسيس المجتمع الاسلامي القائم علي الوحدة والالفة والقبول بالاستعمار سيؤدي الي شاعة الامن والاستقرار المفقودين ما سيرافق ذلك من تحسن علي جميع الأصعدة (٣).

١ - محمد فاضل : الطريق الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢٢٨ .

٢ - مخطوط بالملحق .

٣ - حماد ولد مولاي : مرجع سابق ، ص ٦ .

لقد كان الشيخ سعد ابية والشيخ سيديا يريان أن الإستعمار مرفوض لذاته وهو شر لابد منه او هو شر مفيد (١) ، وبقومه وفرضه الامن استطاع عامة المسلمين العيش بسلام طالما تشوقت نفوسهم اليه .

٣ -السلطة المركزية:

كانت حالة السبية التي تعيشها البلاد والتي انتشرت الفوضى بحكمها وقد كانت البلاد بين خمس امارات متصارعة فيما بينها وطوال الفترة التي سبقت قدوم الفرنسيين كانت البلاد في حالة فوضى وافتقار دائم الي سلطان يوحد وهذا العجز عن افراز قيادة موحدة جعل مساعي الأهالي مختلفة دائما باختلاف أمرائهم وشيوخهم وهو فراغ قد يسده وجود الفرنسيين (٢) .

٤ -الفتنة:

لقد كانت حاجة البلاد الي امير واحد موحد يجعل كل دعوة للجهاد هي بمثابة اعلان للفتنة لان الجهاد لابد وان يكون تحت راية سلطان وبامره وان يكون لاعلاء كلمة الله فقط وهذا لا يتحقق في مقاومة الفرنسيين لانهم لا يعترضون على الدين ولا أهله (٣) . ولذا صار جهادهم اقرب الي الفتنة خاصة وان محاربيهم غالبا ما يفتقرون الى الثقافة الدينية التي تسمح لهم بالتمييز بين الفساد في الارض والجهاد من اجل اعلاء كلمة الله .

لذا رأى الشيخ سعد ابية ان نفوس المحاربين تحتاج اولا الي التدريب حتي تكون مستعدة للجهاد الحقيقي استعدادا غير مرجوع فيه اما الاندفاع الاول والعاطفي فغالبا ما ينسحب اصحابه عند اصطلاء الحرب ويترجعون نظرا لضعف العقيدة وعدم التكافؤ العسكري والمؤسس بين المتحاربين هذه العوامل وغيرها دفعت بالشيخ سعد الي فتح مجال التعامل مع الفرنسيين بشكل تدريجي يتنافس حسب تدرج الفرنسيين انفسهم فقد طلب الفرنسيون منه عند بداية توغلهم ان يلتزم بحمايتهم وتأمين الرحالة والمكتشفين وارسال احد ابنائه مع هؤلاء لتأمينهم فرفض اكثر من مرة رغم الاغراءات المادية والمعنوية التي قدمت له (٤) . إلا أنه وبناء علي موقف فقهي يسمح باجازة الكافر قبل في مراحل تالية لنقاذ بعض الفرنسيين من القبائل التي اعتقلتهم وتعلل الشيخ هذا الموقف بعدة عوامل :

١- ان قتل فرنسي في بلاد موريتانيا او عدم تأمينه سيضر ضررا بالغا بالموريتانيين المقيمين او المتاجرين في البلاد السودانية التي تهجم عليها فرنسا

١ - الهبة ولد سعد ابية : الشيخ ماء العينين ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

٢ - محمد فاضل : الشيخ التراد ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

٣ - الشيخ سعد أبية : النصيحة العامة والخاصة ، مخطوط .

٤ - الشيخ سعد أبية : الجواب المحتوم ، مخطوط .

وقد يعرض اموالهم وانفسهم للخطر ولذا وجب صونا لاموال المسلمين ودمانهم حماية الكفار.

٢ - ان قتل فرنسي واحد قد يؤدي الي اراقة دماء كثيرة من المسلمين واناخذ كافر واحد اولي من قتل اكثر من مسلم .

٣- اعتبر الشيخ سعد ابية ان الرحلات التي كان يقوم بها الفرنسيون ليس لها غير دافعين الاول روح المغامرة وكل ما يسعى اليه هؤلاء الرحالة هو المفارقة بين بعضهم البعض وأما الثاني فهو أن يكون لهم نوايا سيئة تجاه المسلمين ولذا كان الشيخ سعد ابية يحجزهم عنده ويبلغ في اكرامهم مهما طال مكثهم عنده فمنهم من يقيم في محلته اكثر من خمسة اشهر ويقوم بارسال من يقوم بمهامهم التي يتظاهرون بها حرصا من الشيخ علي ان لا يطلع هؤلاء علي عورات المسلمين ولا يحتكون بهم مباشرة فيستبينوا تداعي مؤسساتهم ويستوضحوا نقاط ضعفهم (١).

يقول الشيخ سعد ابية (هذا هو ما غاب عن اذهان اعدائنا واعتبروا اننا نكرم النصراري طمعا في مالهم او رغبة اليهم ويقسم الشيخ بالله الذي لا اله الا هو انه ما داهن فرنسيا قط بكلمة يخافها علي دينه او مروءته ويورد هذه المبررات في سياق دفاع مستميت عن موقفه الذي يعتقد انه لم يسهل للفرنسيين امرا بل قدروا امورهم من دونه (٢).

وبعد التوغل الفرنسي في موريتانيا اصبح التعامل مع هذه السلطة الجديدة واجبا يمليه واقع الغلبة المعيشي ويتطلبه الامل الامني والاقتصادي والديني الذي بعثه رواد الهيمنة الفرنسية في نفوس مشايخ الطرق الصوفية خاصة وان التعامل معهم حسب رأي الشيخ سعد ابية لا يحصل له الذل بل يصبح ماوي للخائفين فكان اهل هذه البلاد المتاخمة للسفنال اذا علموا بقدم الشيخ سعد ابية انتظروه حتى يدخلون في جملة المسافرين معه فيجعل لهم الامن بذلك ومنهم من يرتبط به دائما نظرا لإعفاء آل الشيخ محمد قاضل مطلقا من الضرائب وكذلك من دخل في جملتهم من التابعين او من المريرين (٣) .

تقييم موقف القطب المؤيد للاستعمار الفرنسي :

لقد اتخذ موقف هؤلاء الفقهاء شكلا متدرجا بدأ بالدعوة الي المهادنة وانتهى بالدعوة الي طاعة السلطان الفرنسي مروراً باسقاط الجهاد والهجرة عن بلادهم ويرجع موقف هؤلاء الي ان للفرنسيين دور كبير في تسريب هذا التصور الي اذهان أولئك الفقهاء بما وفروه لهم من معلومات عن واقع البلدات الاسلامية الواقعة تحت الاستعمار الاوربي وعجز العثمانيين عن تخليصها بالاضافة الي ما بثوه من رعب في نفوسهم من خلال ما اطلعوهم عليه من معدات حربية غير مألوفة عند فقهاء عزل يعيشون في مجتمع صحراوي تقتصر معداته علي البنادق والخناجر (٤)

١ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢٢٩ .

٢ - الجواب المحتوم مخطوط بالملحق

٣ - محمد فاضل : نفس المرجع ، ص ٢٢٣ .

٤- محمد الأمين : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

ومن اهم الاسباب لهذا الموقف الذي اتخذته هؤلاء المؤيدون :

- الحفاظ علي المصالح :

- التناقضات الداخلية

يبدو من مواقف القطب المؤيد انهم كانوا مدفوعين بدافع الحرص علي صيانة المصالح المادية والروحية والتي يقتضي الحفاظ عليها والعمل علي إستتباب الأمن كما ان فترات الحروب والفتن من شأنها ان تتسبب في اتلاف المحاصيل الزراعية وإفقار الأتباع وبالتالي حرمان زوايا القادرية ومشايخهم من مواردهم الطبيعية .

كما يمكن القول ايضا ، ان بعض مشايخ الطريقة القادرية كانوا مدفوعين بدافع الطمع في بعض الامتيازات ونيل المكانة والحظوة تدعيما لموقفهم وتوسيعا لنفوذهم المادي والأدبي وإن هذا كله يوضح ان السياسة الاستعمارية قد عملت علي التمكين لمشايخ الطرق الصوفية المولوية لها ، كمكافأة لهم علي ما صنعوه من مواقف وسعت الي احتوائها حتى تخضع للامر الواقع وتتقبل التعامل معهم وهم بالجملة مدركون للمواقف التي كانوا يقفونها ومن اجل ذلك فقد تسلحوا له باحد الاسلحة بالنصوص الشرعية واجادوا وامضوا اعمالهما وايرادها في انق مقاصدها (٢) .

وأيا كان الاسباب الكامنة وراء هذا الموقف فإن هؤلاء الفقهاء قد خدموا السياسة الإستعمارية وأوهنوا عضد السكان في الدفاع عن بلادهم بل أحالهم إلى متقابلين فيما بينهم خاصة بعد فتوى وجوب طاعة السلطان الفرنسي ، حيث إنضمت مجموعة كبيرة إلى الخدمة الفرنسية فتحولت في عيون المجاهدين إلى أعداء بحكم موالاتهم للنصارى علي حساب المسلمين ، التي نهى الله تعالى عنها كما أن حرص الفرنسيين علي سلامة جنودهم وضرب السكان بعضهم ببعض ، كان وراء إسناد مهمة متابعة المجاهدين إلى الجنود البيضان ، مما أدى إلى كثرة الصدمات والأضرار في صفوف السكان .

ب : القوى القادرية المعارضة للاستعمار الفرنسي في موريتانيا :

في مستهل القرن العشرين انتهت مرحلة الاستعداد لاحتلال موريتانيا وشرعت فرنسا في العمليات العسكرية وكان كويولاني يضع الخطط السياسية والعسكرية للاستيلاء علي مقاطعات البراكنة وتكانت ودرار وفي هذا الصدد يقول (وفي موريتانيا بالذات اعتبر نفسي راضيا لان مشاريعي قد تحققت واعتقد انه في خلال بضعة اشهر سنتمكن من كشف درار والتعرف علي محطة اجل وهنا تبرز الأهمية الكبرى التي تجول في نفوس الفرنسيين تجاه الاقتصاد الموريتاني وربط المناطق الحساسة وشمل منافذه (٢) .

وبدأ دخول الاستعمار الفرنسي الي موريتانيا من جهة للمناطق الجنوبية المجازية لنهر السنغال في مراحلہ الاولى والمناطق للواقعة علي حدود مالي في المرحلة الثانية (٣) . وهكذا دخلت موريتانيا منذ السنوات الاولى من القرن العشرين مرحلة جديدة من تاريخها ويرتبط هذا التحول في نجاح الفرنسيين في التوغل داخل الاراضي الموريتانية

١ - أزيد بيه : مرجع سابق ، ص ٣٣٧ .

٢ - الهبة ولد سعد ابية : الشيخ ماء العينين ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

٣ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

وما صاحب ذلك من تسلط المستعمر الذي لم يكتف هذه المرة بالسيطرة علي السواحل وإنما حرص علي التوغل في الداخل مستنزفا لثروات البلاد واضعاف مقوماتها المادية والبشرية (١).

ولقد استغل كيبولاني المناقشات والصراعات علي السلطة داخل الامارات الموريتانية واحتدام الخلاف بين الامراء وشيوخ الطرق الذين كانوا يعانون من ابتزاز الامراء للشعب وحسب الروايات الفرنسية كان هؤلاء المشايخ يعبرون عن قسم كبير من الراي العام .

ولقد إستنتج كيبولاني من خلال دراسته للطرق الصوفية أن المتصوف فيها له الأثر البالغ في تنفيذ مشاريعه ، وقد بدأت الزوايا تستعيد نفسها بعد أن فقدت السلطة الحسانية جزءا من قيمتها السياسية تجاه المستعمر ولكن كانت هناك مشيخات هامة في المنطقة ولديها من السلطة الكثير .

استطاع كيبولاني ان يستقطب بعض شيوخ الطريقة القادرية الي جانبه مثل الشيخ سعد ابيه والشيخ سيديا باب بعد ان شكلا قطبي القبول القادري للاستعمار وكان لظروف امامة الشيوخ في المناطق الجنوبية اثر في موقفهما من الاستعمار ولم يكن صحيحا ان جميع شيوخ الطرق للصوفية عامة وخاصة الطريقة القادرية رحبوا بالاحتلال الفرنسي فسوف نري كيف ترجم الشيخ ماء العينين وهو زعيم طريقة قادرية قطب الرفض للاحتلال الفرنسي وحاربهم .

واذا كانت المناطق الجنوبية قد خضع بعضها سلما للاحتلال فان المناطق الشمالية ظلت بعيدة الي حين عن خطر الاستعمار وساعدها علي ذلك طبيعة تضاريسها الجبلية الوعرة ومن الناحية السياسية فان الشمال الموريتاني قريب من مركز القيادة في المغرب وهذا القرب دفع الاهالي الي التعلق بسلطات المغرب بوصفها تسد فراغ السلطة المركزية عندهم (٢) . وهذان العاملان ، الجغرافي والسياسي قد أعاقا تجاسر القوات الفرنسية نسبيا علي المناطق الشمالية ، وحصنت المناطق الشمالية حتى تمت الهيمنة علي المناطق الأخرى لتصبح السيطرة علي الشمال للمرحلة المقبلة أو الأخيرة في إكمال إحتلال فرنسا لموريتانيا (٣) .

وهذا التأخر النسبي في إحتلال مناطق الشمال سمح لها بان تكون ماوي لقلول المقاومة الوطنية ولكن القوات التي تريد ترتيب امورها بعد كل مواجهة وبهذا اصبحت المنطقة الشمالية مركز المقاومة وعليها يدور رحاها ويبدو ان هذه الصيغة الجهادية لعملية المقاومة هي ما سمح لرجال الدين دون غيرهم من شرائح المجتمع الموريتاني ان يلعبوا دور الوسيط بين الاهالي والسلطة المركزية في المغرب وهو دور استأثر به الشيخ ماء العينين مقدما مصوغات الشرعية لعملية الجهاد علي النحو التالي فقد تمكن من تأمين حاضرة احتشد فيها المقاومون من حسان المنطقة ومن زواياها بالاضافة الي الذين قدموا من زوايا اخري وقد قاد الشيخ ماء العينين القوي المعارضة للاستعمار وهو

١- الهيبة ولد سعد ابيه : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

٢- نصر السيد نصر وآخرون : مرجع سابق ، ص ٤٣ .

٣- محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢١٥

قائد الرفض الذي كان على النقيض من موقف دعاة المهادنة واستل المعارضون اقلامهم لتسفيه آرائهم وتحريم الانصياع لدعوتهم وقد استندوا الي الآيات الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة الداعية الي الجهاد وعدم موالة اليهود او النصارى سلاحا لتأكيد موقفهم من الاستعمار حتى انه وجد منهم من حمل السلاح وجمع المتطوعين ونظم صفوفه وشن الغارات علي الفرنسيين (١) .

لقد كان الشيخ ماء العينين يري ان الامر بالقتال وإباحته في القرآن الكريم ناسخ لجميع ما جاء بالقرآن قبل ذلك من الصبر علي الاذي من المشركين واللين معهم والصفح عنهم وذهب الي تقسيم يبين فيه عينات اهل الكتاب والكفار الذين يجوز العهد معهم وللتعامل معتبرا ان دخول الفرنسيين البلاد الموريتانية لا مسوغ له شرعا خاصة وانه لم يكن باذن من سلطان ولا من مسلم قادر علي دفعهم ولذا وجب قتالهم نظرا لدخولهم علي الذين لا قدرة لهم علي دفعهم وخروجهم علي بلاد المسلمين السائبة التي لا سلطان فيها يقيم الحدود وليس فيها من يتلقى العساكر النصارى بل فيها شئ من المسلمين بين زوايا لا حيلة لهم وعرب لا قدرة لهم علي التصدي للمعتدي (٢) . ومن هذا المنطلق رفض الشيخ ماء العينين أن تكون له أية صلة مع الفرنسيين خاصة بعد احتلالهم منطقة الطرخاية وايضا من هذا المنطق ذهابه الي التهديد لهم بان من خرج منهم الي ارضه بغير شروط فانه سيقطع رأسه (٣) .

أما مهادنة النصارى بحجة انهم لا ضرر علي المسلمين من وجودهم فانه علي حسب رأي الشيخ ماء العينين وانتصاره ان النصارى من وجهة نظره هم اعدى الاعداء لان عداوتهم دينية وهي اشد من البدنية واحري اذا (اجتمعا معا) والقول بعدم عداوتهم وجواز مهادنتهم انما يرجع حسب هذا الرأي إلى جهل المدهانين بما فعل النصارى بالانكلس ومصر . واستندوا في موقفهم هذا على عدة عوامل أهمها:

الولاء للإسلام :

لقد انطلقت رؤية القوي القادرية للمعارضة للاستعمار الفرنسي من أبناء الطريقة القادرية وعلي راسهم الشيخ ماء العينين من مبدا ان العامل الوحيد الذي يربط كافة مكونات المجتمع الموريتاني ويمكن ان تقوي لديه مقاومة الاستعمار هو عامل الدين ويعزز هذا المبدا مع تأثير ابناء الطريقة القادرية بالمحيط السياسي من حولهم خاصة لما تأثر الشيخ الخليفة بن الشيخ محمد فاضل بحركة الحاج عمر الفتوي (٤) ، الجهادية وحمل مدفعه اثناء الصلاة بوصفه في حالة حرب واستنفار دائم يحفز به اعزاز الحاج عمر اليه ان يتامر علي جميع اهل الحوض والتزامه بمؤنة الجيش وتجهيزه غير ان والده قد

١ - محمد الأمين : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

٢ - الشيخ ماء العينين : هداية من حار في أمر النصارى ، مخطوط .

٣ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

٤ - ولد عام ١٧٩٧ ، في قرية الفار من بلاد بنيار وهو تيجاني الطريقة ، قاد جهادا كبيرا لإقامة دولة إسلامية في فوتي ولتوحيد السودان الغربي . لمزيد من التفاصيل عن الحاج عمر الفتوي التكروري ، انظر ، عبد الله عبد الرازق : الإسلام وتحدي الاستعمار الأوروبي في غرب إفريقيا .

أخذ عليه هذا وأمره عدة مرات بأعادة صلاته نظرا لبطانها الا ان الابن اصر على عدم الاعادة سبع سنوات لتمسكه بحسب رأي الشيخ سعد ابيه بظاهر الحكم ، فلم يزل والده يأمره حتى استجاب له (١) ، واعادة الصلاة ولقد أفتى كثير من فقهاء البلاد الموريتانية بحرمة التعامل مع الغزاة وحثوا علي اداء طريق الجهاد وشاركوا فيه وفي هذا الف سيد محمد الصغير بن جبت رسالة عنوانها " في حكم من غلب علي وطنه النصارى " .

وبدا يدعوا الى اعتزال النصارى مثل الفقيه محمد عبد الجليل وولده الشيخ المصطفى ، ونظرا لبيعة الشيخ ماء العينين للسلطان المغربي وقد كلفه رسميا بإدارة شئون الجهاد في الصحراء ولا سيما قيام قبائل الشوكة ليلتحقوا به من اجل الجهاد ومن اجل ذلك كاتب الشيخ ماء العينين جميع رؤساء القبائل في موريتانيا وناشدهم الله ان يحملوا السلاح وتنقل مبعوثوه بين مخيمات وتكائنات والحوض معطيا لهم الوعد بامداده لهم بالاسلحة والذخيرة وتأمين السلطان لهم .

وقد لبي نداءه امير ادرار وامير الترارزة وامير تكانت وامير البراكنة وامير الحوض ولقد ذكر الشيخ النعمة في حديثه عام ١٩٠٥م هو عام الذي اتت فيه الوفود الصحراوية الي الشيخ ماء العينين وفيه بعث البعث للجهاد وخاصة ابنه الشيخ الولي والشيخ حسانه (٢) ، الي ادرار وامر تلاميذه علي الغزوات .

لقد انحازت اغلب القبائل الي صلح الزعامة الشمالية المجاهدة واعلنت مبايعتها له وقبولها المقاومة وفي ذلك دلالة علي مدي تاثير الروح المجاهدة في عموم المجتمع الموريتاني علي ان قدرة الشيخ ماء العينين القيادية جعلت من السمارة معقل لبعث الرسائل والفناري الداعية الي مقاطعة ومقاومة الاستعمار (٣) لقد أعلن الشيخ ماء العينين الجهاد المقدس لإعلاء كلمة الله ونقاعاً عن الوطن ضد الإستعمار بمختلف أشكاله وأنواعه وإرسالياته التنفيذية ، فأعلن النفيير بذلك في أوساط القبائل الصحراوية وبدأ يطوف عليها واحدة تلو الأخرى ، وهو يقول :-

(الجهاد ليها المسلمون ضد أعداء الله ورسوله وأعداء الإسلام الذين يتربصون بكم وبوطنكم الدوائر) .

فاجتمعت له وحوله الجموع الغفيرة واثقت تحت راية الجهاد المعلن له قبائل لا تعد ولا تحصى معروفة بشجاعتها وبسالتها ، وغيرها ومكافحتها عن الإسلام وعدم الإنطواء تحت راية الإلحاد والشرك ، فخاضت تحت رايته حروباً شرسة مع الإستعمار مكبدة إياه في معارك متعددة وحملات متكررة أفدح الخسائر وأشنع الهزائم في الرجال والعتاد والمال ، ولقد ظل الشيخ ماء العينين هو الروح المغذية للجهاد والمقاومة في شمال البلاد في مواجهة الإستعمار بحزم (٤) .

١- الشيخ ماء العينين : النصيحة العامة والخاصة ، مخطوط .

٢ - الشيخ حسانه، تولى الرعايه الروحيه للامير الشاب ولد عايده ولقد عمل على نشر نفوذ والده الشيخ

ماء العينين وله دور كبير في مقاومة التغلغل الفرنسي ، أنظر: سعد خليل : مرجع سابق، ص ٣٠٨ .

٣- فاطمه بنت الامام (المقاومة للديتية من خلال المحاضر) مرجع سابق، ص ٢٨ .

٤ - حميد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ١٦ .

كذلك كان للشيخ دوره القيادي في حركة الجهاد فقد تبادل المراسلات مع أعيان البلاد حول الموقف من الاحتلال ، فكان يحدث على الجهاد مستعزضاً أدلة وأجوبة شرعية ويسعيه إستطاع أن يقتنع الزعيم الكنتي محمد المختار بن الحامد ،

بالإتضمام إلى المقاومة ، وقد كان لموت كوبولاني دفعا كبيرا لحركة المقاومة لدى الشيخ ماء العينين وتعطيلا كبيرا للسلطات الفرنسية التي كانت تعمل على شل حركة الشيخ ماء العينين وجهاده الواسع النطاق وقد أشاع مقتل روحا من الإرتياح بين القبائل المعارضة مثل ، أدرار المعارضة والرافضة للتوغل الفرنسي (١) .

فقد قامت القبائل بمبايعة الشيخ ماء العينين بعد دخول الفرنسيين منطقة القبلة ، وبعد ظهور طلائع الاحتلال الفرنسي قامت هذه القبائل بالدعوة للجهاد ، حيث تحولت أسمارة إلى عاصمة للجهاد فبعد أن ظهرت طلائع الجيوش الغازية مطلة على إمارات كل من الترارزة والبراكنة وتكانت والحوض ، تحرك أعيان ووجهاء هذه البلاد مكونين فيما بينهم وفودا كثيرة بلغت أكثر من ألف فارس من العلماء والأمرء والأعيان ، وتدل كثرة هذه القبائل على الولاء التام الذي تعطيه للشيخ والإستعداد للجهاد (٢) .

خاض الشيخ ماء العينين كثيرا من المعارك والتي كلفت الفرنسيين ثمنا غاليا ، ومن هذه المعارك ، (معركة اكصيدالفرسان) ، التهبيلات ، وتجكجة ، وغيرها من المعارك التي نظمها الشيخ ماء العينين ووجهها ضوب الهدف فتقهقر الفرنسيون في يادي الأمر ، إلا أن وصول تعزيزات فرنسية جديدة ومتلاحقة أثرت نوعا ما على الجهاد و بعد فترة مد وجزر ، وجهت الحكومة الفرنسية حملة كبيرة إلى منطقة أدرار كمرحلة أولى بالوصول إلى مركز الشيخ ماء العينين مصدر المقاومة (٣) .

وقد لاقى هذه الحملة مقاومة شرسة قادها الشيخ ماء العينين وأتباعه ولكنهم هزموا ، وقد حققت حملة أدرار من وجهة نظر الفرنسيين نتائج مادية ومعنوية حاسمة فقد تم غزو أدرار معقل الجماعات الخطرة .

وبعد وفاة المناضل والبطل الشيخ الكبير ماء العينين ، في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩١٠ م-، عرفت المقاومة الكثير والكثير من الصعوبات سواء على المستوى الخارجي أو على المستوى الداخلي ، فقد توفي الشيخ ماء العينين تاركا الخلافة لإبنه الهيبة .

إستمرار المقاومة بعد وفاة الشيخ ماء العينين :

هل توقفت ينابيع الجهاد الموريتاني ؟ وهل ثبطت همم المجاهدين بعد وفاة الأب الروحي له ؟ هل هناك من جاء ليخلف الشيخ ، ويحمل لواء الجهاد من بعده ليكمل مسيرة الكفاح ؟

لقد سار خلفاء الشيخ ماء العينين علي منهجه في معارضة الاستعمار الفرنسي

١- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٣١٧ .

٢- أنور زغول : موريتانيا عربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٥ .

٣- الهيبة ولد سعد ايوه : الشيخ ماء العينين ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .

ومقاومته ومراسلة القبائل في الشمال لمقاومة الاستعمار . لقد كانت اسمازة مقر تجمع الشيخ ماء العينين تجمع كافة الوجهاء والنبلاء تحت رئاسة الشيخ ماء العينين وقد توجهت هذه الجموع الى العرش المغربي حيث استقبلوا بحفاوة من قبل السلطان مولاي عبد العزيز (١) ، الذي أمدهم بالسلاح والعدة فأرسل معهم أحد أبناء عمه كمشرف ومنظم (٢) والذي قوي المجاهدين في الصحراء ما اشيع من خير بين سكان الصحراء مفاده ان سلطان المغرب سيوجه نداء الي المسلمين يطلب منهم ايقاف الاقتتال والتناحر بينهم . وان يوحدوا صفوفهم ضد الغزو الفرنسي { للنصراني } فزاد المحاربون من جرأتهم ونشطوا في عمليات السلب والنهب علي سواحل السنغال املا في استعادة سيطرتهم علي النهر .

وبهذا الإقبال الرسمي من السلطات المغربية علي يد الشيخ ماء العينين وثقة الاهالي في جهوده واعتقادهم الروحي فيه استطاع ان يكون من اقوي رجال الجهاد وابعدهم اثرا في توجيه الجهاد وقيادته إلى درجة أنه لا تخلو فترة من عملية جهادية في انقرة عام ١٩٠٥ - ١٩١٠م وهذا ما يشير اليه التقارير الفرنسية الي دوره فيها سواء بشكل مباشر او يبعاز او بدعم منه ، حتى اذا عقد السلطان المغربي مولاي عبد الحفيظ (٣) معاهدة مع فرنسا . حاصر المجاهدين في الجنوب وقطع الامدادات عنه والتي كانت بمثابة الضربة القوية للشيخ ماء العينين والمجاهدين معه وكان سر هذا الانقلاب من اثار مؤتمر الجزيرة ثم وقوع المغرب تحت الاحتلال الفرنسي والذي حرم المقاومة من الاستفادة من استغلال تناقض المصالح الاوربية علي السواحل الاطلسية والمتوسطية وحرماها من التزود بالعتاد من مختلف الدول الاوربية التي كانت تعقد معها صفقات عسكرية .

ووجد هناك عامل اخر اثر في المجاهدين بالغ الاثر الا وهو موت الشيخ ماء العينين شبه المفاجئ في اكتوبر ١٩١٠م .

لقد أحدثت وفاة الشيخ ماء العينين تأثيرات عميقة علي المقاومة التي فترت علاوة علي قيادتها السياسية والعسكرية موحدها الروحي ومنظمتها الحزبي الامر الذي ادي فيما بعد الي تمزيق كبير في صفوف القبائل المناهضة للاستعمار فأغلبية هذه القبائل اصيبت بخيبة امل نتيجة للاوضاع الصعبة التي كانت تحيط بنشاط المقاومة في تلك الفترة وفي هذا السياق كتب المقيم الفرنسي (نحيف الي حاكم موريتانيا يقول ان المناوشات التي لا يمكن الا ان تشجعنا قد قسمت أعدائنا) .

لقد حمل لواء الجهاد ابنه وخليفته الشيخ احمد الهيبه الذي حاول متابعة جهاده رغم استئثار وضع العرش المغربي باغلب جهوده وعلي الرغم من ذلك واصل مساعيه

-
- ١- من سلاطين المغرب كان له صلة بالشيخ ماء العينين وله علاقه روحيه وسياسيه به .
 - ٢- محمد فاضل ، الطريقة الفاضليه ، مرجع سابق ص ٢٢١ .
 - ٣- تولى الحكم في المغرب بعد مولاي عبد العزيز وزانت صلته وتعاونته مع الشيخ ماء العينين وكان له دوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي في بداية حكمه .

الداعمة الي المقاومة والرافضة لاي اعتداء فرنسي وعقد ولاء مع الفرنسيين خاصة بعد ضغطهم علي الشيخ الطالب اخيار بن الشيخ ماء العينين لبذل الوسعة من اجل موالة اخيه . وقد ظل الشيخ احمد الهيبة علي رفض الموالة وأثر الكفاح والتسويق مع رجال المقاومة وتبادل الخبرات معهم وتلقي المساعدات منهم ولذا نجد ان عبد الكريم الخطابي زعيم الكفاح المغربي (١) ، يمدّه بالسلاح لمتابعة كفاحه .

ثم ضعفت المقاومة أثناء قيام الحرب العالمية الأولى حتى نهايتها وقد ساعد علي ضعفها وفاة الشيخ احمد الهيبة وكانت هذه الفترة من اصعب الفترات علي المقاومة وبعد وفاة الشيخ احمد الهيبة ١٩١٨م تولى أمره ربه (٢) أمور الجهاد وحاول انتعاش روح الجهاد وارسل الرسائل الي القبائل وهذا نص رسالة من رسالتين اكتشفتهما السلطات الفرنسية في متاع محمد المأمون .

رسالة من الخليفة الثاني للشيخ ماء العينين وهو الشيخ امره ربه يولي علي قيادة القوات المقاومة للاستعمار بن عمه محمد المأمون وهذا نص المخطوط :

(الله الحمد وحده وأصلي علي من لا نبي بعده ، ليعلم من مسطورنا هذا أسمى الله قدره وجمعه الصالحات طيبة ونشره اتنا بحولته وقوته وشامل يمنه قدمنا بن عمنا الشيخ محمد الامامون علي الغزوات في الجهة للصحراوية بعد ان لوصينا بمراعات التقوي لانها السبب الاقوي وان يقيم بالسوية بين الرعية بعد اخراج الخمس علي حسب ما امر به الله كان الله معنا ومعه واعاننا واياه علي رعاية ودافعه ويعطي ما اودعنا من شرانعه فنأمر الواقف من عمالنا وقبائلنا ان يعلم هنا ويعمل بمقتضاه ولا يدعه ولا يتعداه بل يعينه علي ما هو بصده من جهاد اعداء الله اعان الله كل من اعانه) (٣) .

صدر به امرنا القائم بالله في ١٥ شوال عام ١٣٤٣هـ .

الطابع - محمد المصطفى المربه ربه . وبالفعل ، قام الشيخ محمد المأمون واخوه وجاهة ، بعدة عمليات ضد الفرنسيين وبعد وفاة الشيخ امره ربه اجتمع ابناء الشيخ ماء العينين من اجل انتخاب مدير شئون خلافتهم بعده ، ولما استعصي عليهم الامر اتفقوا علي ان لكل واحد منهم للجهة التي يقطنها بما يراه فتوزع اغلبيهم في المناطق الغربية بينما اثر الشيخ الطالب اخيار السكن في منطقة لدرار الموريتانية (٤) .

ولقد استغلت فرنسا في موريتانيا عدم وجود ادارة مركزية لابناء الشيخ ماء العينين وفرقهم في الانحاء وحاولت تعميقه وكانت تحث اداريها علي الفصل

١- الهيبة ولد سعد ابيه ، مرجع سابق ص ٥٣ .

٢ - عالم جليل ، وهو أحد ورثة الخلافة للصوفية الموروثة عن الشيخ ماء العينين ، كما أنه كان أحد أقطاب حركة الجهاد الصحراوية ، التي إنطلقت من البلاد السائبة ووقفت في وجه الغزو الفرنسي للمغرب والصحراء وله مؤلفات كثيرة في التصوف .

٣ - أنظر نص المخطوط بالملاحق .

٤- محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

بين ال الشيخ ماء العيين في أدرار وأبنائه في المغرب ، وذلك بالحد من التزاور بينهم بمنعهم من تراخيص السفر وزيادة الضغوط عليهم ومراقبه تحركاتهم وتفتيش رسائلهم واحداث الوقية بينهم باساليب مختلفة حسب ما اوجدته رسالة من رئيس المكتب السياسي الفرنسي في ادرار الي الوالي العام في موريتانيا بهذا الصدد .

ومع بداية الثلاثينيات من القرن العشرين برزت شخصية اخري وهو اخر من حمل لواء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وهو الشيخ محمد المامون بن الشيخ محمد فاضل والذي توجه في بداية حياته الي المشرق الغربي عام ١٩٠٣م وعاد الي المغرب والتحق بعبد الكريم الخطابي وتأثر بحركته ونقل الي الصحراء عام ١٩٣٠م معلنا الحرب المقدسة ضد الفرنسيين مما تطلب من الفرنسيين ان يضغطوا على معاهديهم من اجل قبوله الموالاة .

وكان من كتبوا اليه الشيخ الطالب اخيار بعده ويمنيه حالة قبول الموالاة ويبين له عدم صواب موقفه خاصة بعد أن تخلت اسيرة الشيخ ماء العيين بغد وفاته ووفات ابنائه عن الجهاد قائلا له بالحرف الواحد :

(ما تقعله ليس جهادا ما دام اهل الشيخ ماء العيين ليسوا معك) (١) .
ولم تلق هذه الدعوات قبولا من لدن الشيخ محمد المامون الذي بدا في بعث الرسائل الي الامراء حاثا لهم علي الجهاد ومتوعدا بالعقوبة الدنيوية والاخرية الوخيمة للذين يوالون الفرنسيين.

ونتيجة لما تقم امام خطر الاحتلال الفرنسي والذي بدا في الجنوب في الترابزة والبراكنة وامتدت انظاره الي المناطق الشمالية من تكانت وادرار وامام هذا الموقف الذي اصبح يهدد بلادهم بداوا مقاومة شديدة للفرنسيين وكانت هذه المقاومة صورة معبرة عن كراهيتهم ورفضهم للمستعمر وقد تواصلت هذه المقاومة التي بذل فيها الاهالي كل نفيس وغال حتى عام ١٩٢٤م وبالرغم من تواضع وسانلهم فقد تمكنوا من تحقيق العديد من الانتصارات .

لقد تمكنت الطريقة القادرية من الانتشار علي كل التراب الموريتاني وخارج موريتانيا في الدول المحيطة بها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ولقد كان التوجه العام لهذه الطريقة القادرية هو المسالمة والقبول من الطرف الآخر (حسان) وذلك قبل ان تنخل البلاد بشكل فعلي تحت الهيمنة الفرنسية تلك الهيمنة التي ادت الي انقسام الطريقة القادرية علي نفسها نظرا لمعطيات عديدة سياسية وثقافية واقتصادية واجتماعية وجغرافية جعلها في الشمال تحمل السلاح وتدعوا الي الجهاد بينما في الجنوب اشرت بتبني خطاب فقهي يجيز التعامل مع الفرنسيين ووجد هذا الخطاب الاخير قبولا واسعا من طرف انتصار هذه الطريقة خصوصا في الحوض الموريتاني .

١- فاطمة بنت الإمام : مرجع سابق ، ص ٩ .

ثالثاً علاقة القلارية بالسلطات المحلية :

فى الحقيقة ليس هناك على مدار التاريخ دولا وشعوباً لا تخلو من الإضطرابات أو التقاتل الإجتماعى ، وتعد موريتانيا واحدة من هذه المجتمعات ، لذا فإنه من الضرورى الرجوع نسبياً إلى تركيبة المجتمع الموريتانى والتي نستشف منها العلاقات الداخلية لتركيبه هذا المجتمع على مدار تاريخه مروراً بمرحلة الإستعمار والكفاح والنضال من أجل إثبات الحق والحرية .

يتسم المجتمع الموريتانى شأنه شأن أغلب المجتمعات الأفريقية بصفة القبلية ، والتي تمثل النمط الغالب على حياة سكانه ، وتوصف موريتانيا بأنها أرض المور أو البدو الرحل ، وهم ينتمون إلى البربر ثم جاء العرب الفاتحين لهذه البلاد وهم بنو حسان (١) ومن هنا ينقسم المجتمع الموريتانى إلى فرعين أساسيين هما ، الفرع البربرى وهم سكان المنطقة الأصليين قبل مجيء العرب ، والفرع العربى ، الذين جاءوا للبلاد مع الفتح الإسلامى للمنطقة واندمج الفرعان معاً ونتج عنهما البيضان الذين يمثلون غالبية الموريتانيين . وتتميز موريتانيا بالطبقية فى المجتمع ، ويرجع ذلك لأسباب عدة لعل أبرزها مجيء بنى حسان إلى المنطقة وحرب شريبة (٢) ، التي وقعت فى منطقة القبلة ثم إهتمام بعض القبائل بأنشطة معينة من قبل مجيء بنى حسان للمنطقة .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المجتمع للموريتانى إلى ثلاث طبقات أساسية وهى : -

حسان : ويتولون الناحية العسكرية .

الزوايا : ويتولون الناحية الثقافية والدينية .

اللممة : ويتولون النواحي الإقتصادية من زراعة ورعى وغير ذلك من الأمور .

وحول التقسيم الطبقي للمجتمع الموريتانى يقول صاحب كتاب الوسيط :-

" سكان شنقيط من حيث الأصل والجنس ، قبائل من البربر كانت تقطن صحراء المغرب ثم دخلها العرب فى الفتوح الإسلامية فتغلبوا عليهم فساروا قسمين عرب وبربر ثم تجنسوا جنسين حسان وزوايا " .

وانقسمت حسان إلى قسمين ، العرب واللممة ، فصاروا بهذا الاعتبار سكان شنقيط ثلاثة أجناس فالأول كان يتوغل فى البلاد وينشر الإسلام وهم المجاهدون ، والثانى يشتغل بإحياء العلوم ، والثالث ، يشتغل بإصلاح الأموال وكان يدفع للمتعلمين الزكاة ويعطى الإعانة للمجاهدين ، فلقب الأول بحسان والثانى بالزوايا والثالث باللممة (٣) .

- ١ - جمال زكريا قاسم وصلاح العقاد : موريتانيا ، دراسة مسحية ، ص ٤٦٧ .
- ٢ - حرب شريبة وهى حرب بين المغامرة وبعض الزوايا ، إستمرت حوالى ثلاثون عاماً ، ويسمىها البعض بحرب المغامرة والزوايا وشر تعنى الحرب وببه اسم شخص كان سبباً فى قيام هذه الحرب .

- ٣- احمد الأمين : التوسيط فى معجم بلاد شنقيط ، القاهرة ، ص ٤٧٥ - ٤٨٠ .

إن ظهور المجتمع الموريتاني بتركيبته الثلاثية جاء وليد تفاعل منظومة من العوامل امتدت على فترات تاريخية طويلة تبدأ بالعوامل الطبيعية في المجتمعات التقليدية وإنهاء بالصراعات والحروب على إختلاف مقاصدها ووسائلها (١) .

وتعد قبائل حسان هي المسيطرة عسكرياً وسياسياً ، وقد إقتسموا البلاد إمارات وإحتكروا إسم العرب لأنفسهم ولا يسمى بهذه اللفظة غيرهم كالزوايا مثل الطبقة الوسطى منهم أنفسهم (٢) .

ولم تكن التركيبة الإجتماعية الموريتانية تقتصر على ثلاثية حسان والزوايا واللحمة السابقين فقط ، ولكن كان هناك فئة أخرى لم يعتمدوا المؤرخون في تصنيفاتهم للمجتمع ، وذلك بسبب حضورهم في كافة الفئات وعدم وجودها في أحياء أو كيانات مستقلة إلا في فترات تاريخية لاحقة نسبياً وهم فئة الشرفاء ، التي حرمها تدخلها السكنى مع الفئات الأخرى وعدم تمايزها الدينى الوظيفى من التصنيف المؤسس الذى مر بنا ، ولقد كان لفئة الشرفاء مكانتها فى المجتمع على قمة الهرم الإجتماعى وسمحت لها مكانتها هذه بالإنتفاخ على جميع الفئات فالشريف يستطيع الزواج من أى فئة بل ويرتفع رصيده أصهاره بالزواج منهم وهذا ما إستغله الشرفاء الموريتانيون وإتضح ذلك من كثرة أنصارهم الذين يدعونهم مادياً (٣) .

رأينا فيما سبق أن المجتمع الموريتاني ينقسم إلى عدة فئات تسيطر إحداها سياسياً وعسكرياً ، والأخرى تسيطر ثقافياً وروحياً وهم الزوايا والثالثة اللحمة والتي لها الجوانب الإقتصادية ، وغير ذلك وتعتمد عليها الفئات الأخرى فى توفير مستلزمات الحياة من مأكول ومشرب مقابل الحماية نفياً من جانب حسان ودينياً من جانب الزوايا (٤) .

من هنا كانت نظرة الزاوى للحسانى نظرة لص وسفاك ولا مانع من سفك دمه لظلمه وكان الزاوى فى نظر الحسانى جبان متملق مملوك له .

وقد كان الزوايا منقسمين إلى قسمين :-

أ - زوايا الشمس تعبيراً عن حيويتهم وسطوتهم .

ب - زوايا الظل ويستظلون بغيرهم نظراً لضعفهم وخمولهم .

والعلاقة بين حسان والزوايا معقدة فالمحارب الذى يشعر بقوته المادية أمام رجل الزوايا والذى يمثل نموذجاً تقليدياً لرجل الدين الأعزل كثيرأما يشعر برهبة إزاء قوة الزاوى الروحية المتمثلة فى سلاح الخوارق ، التى يمكن أن تتخذ فى إنتقام إلهى عندما ينتقم لعبده الضعيف ، وقد تمكن الزوايا من إستخدام هذا السلاح الذى أثبت جدارته فى المعتقدات التقليدية للمجتمع (٥) .

وهذه العلاقة المعقدة بين حسان والزوايا أدت إلى حرب شريفة المشهورة .

١- احمد الأمين : التوسيط فى معجم بلاد شنقيط ، القاهرة ، ص ٤٧٥ - ٤٨٠ .

٢ - ٤ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ١٧ - ٦١ .

٣ - محمد الأمين ولد السيد : السلطة والفقهاء ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

٥ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

حرب شريفة:

اندلعت هذه الحرب في منطقة القبلة واستمرت ثلاثين عاماً على وجه التحديد ما بين عامي ١٦٤٤ م - ١٦٧٤ م ، وقامت بين العرب والبربر وسببها الرئيسي محاولة الزوايا إزاحة العرب من حسان عن كاهلهم حيث كانوا يتقنونهم بالضرائب الباهظة، وربما تكون بسبب تأثير التواجد الحساني وما سببه من مضايقات للزوايا ومن حالة نفسية مضطربة ، خاصة عندما أصبحوا عاجزين عن التصدي لحسان المتغلبين . وقد تعود هذه الأسباب أيضاً إلى تراكم التناقضات داخل المجتمع الصنهاجي خلال فترة الإستقرار النسبي التي عرفت فيه القبائل الصنهاجية نمواً ديموغرافياً لم يعد يتناسب مع الموارد الشحيحة غير المتوفرة مما جعل التنافس على الموارد بين القبائل يشتد ، كذلك هناك إختلاف وخلاف بين الزوايا حول الموقف اللازم إتباعه تجاه السيطرة الحسانية التي قد تكون الأسباب لتلك الحرب (١) .

هذا إلى جانب السبب الديني الذي رجحه بعض الباحثين ، وذلك نتيجة للسيطرة الفرنسية الاقتصادية وما تبعها من إقامة مراكز تجارية وترتب على ذلك ثورة دينية شملت بالإضافة إلى زوايا موريتانيا علماء وحكماء السنتغال المسلمين . لقد كان ارتباط الزوايا بالحسانية (المحاربين) أمراً إقتضته صعوبة الحياة في الصحراء وقوة المعارك التي خاضها المحاربون فهم الذين يحمونهم ويدافعون عنهم ولهذا كثيراً ما ساندتهم الزوايا وقدموا لهم العون المادي وأمدوهم بحاجتهم من الخيول والجمال وأمدوا أسرهم بالطعام والمأوى .

وقد حمل الزوايا في قبائل عديدة السلاح إذا إقتضت الحاجة وغالباً ما تحارب ببسالة هذا إلى ما لهم من دور تعليمي وعقائدي وثقافي ، وهم إلى جانب ذلك لهم دور سياسي هام لدى رؤسائهم من المحاربين وهذه الأدوار لم تكن ثابتة دائماً ، كما يبدو ذلك ، وعلى أية حال كانوا على درجة عالية من المهارة السياسية ويعرفون كيف يستخدمونها جيداً في علاقاتهم مع القبائل الأخرى (٢) ، وحماية المحاربين للزوايا لاتعني خضوعهم للمحاربين أو تبعيتهم لهم وإنما جاءت هذه الحماية من دورهم المنوط بهم في حياتهم القبلية وهو حمل السلاح للدفاع عن أفراد القبائل المتحالفة ومصالحتها لحماية القبائل المتحالفة ، بينما كان دور الزوايا هو نشر للتعاليم الدينية والقيم الأخلاقية . فإذا كان المتحاربون هم رجال الحرب للمور فالزوايا غدهم رجال الدين والقضاء والعلم والثقافة (٣) .

وعلى الرغم من التفوق الذي أحرزه بنى حسان في أعقاب حرب شريفة إلا أن درجة التنظيم والوضع الإقتصادي والإنقسامات القبلية لم تسمح بإقامة دولة موحدة ، فكل ما حدث هو تكوين بعض الإمارات على أساس قبلي فإنه ما كاد النصر يكتمل لبني

١ - احمد حبيب الله : مرجع سابق ، ص ١١ ،

٢ - محمد المختار ولد السعد : الإمارات والمجال الأميري البيطانى خلال القرنين ١٨ و ١٩ م ، إمارة الترارزة نموذجاً ، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، أنواكشوط ١٩٩٠ ، ص ٤١ .

٢- الخليل الفحوى ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .

حسان حتى تفرقوا إلى إمارات متنازعه ومع ذلك فقد أصبح هناك وضعاً سياسياً للقبائل أخذ طريقه إلى الإستقرار منذ القرن السابع عشر قفى ذلك الوقت قويت عملية الإمتزاج بين العرب والبربر فى الصحراء ولذا فإن القرن السابع عشر يعتبر بحق عصر تكوين الإمارات الموريتانية .

ناصر الدين :

لقد اندلعت هذه الحرب فى منطقة القبلة التى وقعت قبائلها بأكملها فى فوضى شاملة نتيجة إنتقال السلطة من أولاد رزق ، الذين هم من أوائل القبائل الحسانية ، وقد حكموا منطقة القبلة والمناطق الواقعة شمالها إلى أن هزمهم المغامرة الذين هزمهم بقيادة أحمد بن دمان فى معركة أنتيتام (١) عام ١٦٣٠ م ، وكذلك نتيجة للثورة التى أشعلها ناصر الدين والتى وجهها ضد المغامرة ، وبدأ ناصر الدين (٢) نشاطه كداعية للإسلام بين القبائل الزنجية وعندما أحرز نجاحاً باهراً فى نشر الإسلام واجتذب مجموعة من الزنوج ، بدأت القبائل العربية تشعر بالخطر يهدد مركزها خاصة وأنه أخذ يدعو إلى فرض الزكاة إلا أن دعوته لم تلق فى البداية نجاحاً بسبب معارضة وإنكار الفقهاء لدعوته وقد أقام ناصر الدين ثورة مبايعته مجتمع تشمش (٣) النموذجى ، وشرع فى تكوين الجهاز التنظيمى لمشروع دولته فعين للقضاة والوزراء وجباة الضرائب كما قام بجمع ما إستطاع من السلاح وحث أتباعه على التدريب وإستخدام السلاح إستعداداً للمعركة .

دوافع الحرب :

لقد كان لهذه الحركة دوافع دينية وسياسية يستحيل الفصل بينهما ، وكذلك كان للحركة دوافع إقتصادية وإن كان له دور ثانوى جداً فى هذه الحركة .
أما عن الوسائل التى إعتمدت عليها الحركة فهى التعليم والوعظ والجهاد ، والتى إستخدمها ناصر الدين لتحقيق أهدافه المتمثلة فى إصلاح المجتمع تبعاً للنموذج الإسلامى الأول وتخليصه من الشوائب والعادات المخالفة والقضاء على الظلم الذى يعانى منه أينأوه وصد للخطر الأوروبى الذى يداهمه .

١. موقعة أنتيتام: حرب بين القبائل الحسانية مع بعضهم بين أولاد رزق وأولاد مبارك وأولاد رزق هم أول القبائل الحسانية التى دخلت موريتانيا ويسطو نفوذهم على سكان القبلة حتى كسر أولاد مبارك من الترازه شوكتهم برئاسة أحمد بن دلحان المتوفى سنة ١٠٥٠ هجرية .
٢. ناصر الدين: هو أبو بكر بن أيهم بن القفح، عالم من علماء أبناء ديمان وزعيماً للحركة الإصلاحية فى منطقة القبلة فى النصف الثانى من القرن ١٧ والتى كانت تبتهدف قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية على ضفتى نهر السنغال وكان تأثيره بالغاً وقيل عنه أنه كان تقياً نقياً عفيفاً مشاركاً فى جميع الفنون ، واستطاع أن يجمع كلمة زوايا المنطقة حوله ، وأولاد رزق الذين أطاح بهم أولاد مبارك بعثت رسائل إلى الممالك السودانية قلما لم يستجيبوا له بالحكام وولى غيرهم ثم أصبتم بالقبائل الحسانية وكانت حرب شريبه التى استشهد فى إحدى هذه المعارك وكانت وفاته خساره كبيره على الزوايا الذين فرض بنى حسان عليهم سلطتهم وسيطرتهم .
٣. تشمشه: معناها بالعربية الخمسة وسبب تسميتهم تشمشه أنهم خمسة رجال أنجب كل واحد منهم خمسة أولاد عقبوا كلهم وتعاقبوا على أن يعيشوا فى منطقة الترازه منذ القرن ٨ الهجرى ١٦ الميلادى وكانت لهم أدوار ثقافية وسياسية بارزه فى المنطقة .

وقد حظيت هذه الوسائل الثلاثة بكامل إهتمام مؤسس الحركة فقد كان يحض كثيرا على العلوم ويذم الجهل ويقول :
" من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه وبين سرجه فإن الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء للأخرة " .

وقد استخدم بعض أساليب أهل الطرق في إنجاح دعوته الإصلاحية .
أسباب هزيمة الزوايا في شريعة

لقد كان عدم إنصواء كل القبائل الزوايا في بداية الحرب ، وكذلك إغتيال ناصر الدين ، بمثابة هزيمة سياسية للزوايا ، فقد قتل مساعدوه الثلاثة وقد برزت مشكلة سياسية تتعلق بمسألة الخلافة أدت إلى تخلي بعض الزوايا عن الحركة والإلتحاق بالمغفرة ، هذا فضلا عن تخلي المجموعات التابعة للزوايا عن الحركة " أولاد رزق والسودان (١) .

نتائج حرب شريعة :

لقد كانت لهذه الحرب نتائجها في شتى النواحي أهمها :

أولاً : الإقتصادية :

فقد أسفرت الحرب عن أزمة إقتصادية نتيجة لنهب وإبادة المواشى وإحراق المزارع ، مما أدى إلى مجاعة كبرى وفاقعة حادة ، كما تعزز مركز سانت لويس (٢) .

ثانياً : الإجتماعية :

لقد أخذت الأوضاع الإجتماعية شكلها النهائي من تشكيل طبقات المجتمع من حسان وزوايا ولحمة ، وثبت على هذا التقسيم الهرم الإجتماعي .

ثالثاً : الديني :

أسفرت الحرب عن تعميق ديني لا بالرجوع إلى الأصول بل بالنشيط بالفروع التي توفرت بشكل نسبياً وإن أدى ذلك إلى الجمود وغلق باب الإجتهد ، كما أدت الحرب إلى إشاعة روح التعاليم الدينية وتعميق عقدة الشعور بالثعب وغرس روح الجهاد في المنطقة وفتح باب إفريقيا الغربية ، حيث ظلت هذه الروح متيقظة رغم الهزيمة (٣) .

رابعاً : الثقافي :

إضطرت جيل الهزيمة من الزوايا إلى تجريد أنفسهم للعلم والتعليم ، بعد أن رجع فائض الإهتمام بالشؤون السياسية والعسكرية فترجوها شطر العلم وبدافع من الغيرة على الثقافة الإسلامية فقد تمسكوا بها وبرعوا فيها ونشروها في غرب إفريقيا كما ازدهرت المخاطر التي كان لها دورها في مقاومة الاستعمار عسكرياً وثقافياً .

خامساً : السياسية :

لقد تطور المجتمع في هذا الصراع إلى درجة من التنظيم شبه المركزي ، تتمثل في بروز هيكل سياسي جديد كإطار تتم داخله الهيمنة السياسية في القبائل الحسانية على العناصر الأخرى ، وهكذا تجسدت سيطرة بني حسان في منطقة القبلة في بروز وحدات سياسية عرفت بالإمارات فظهرت إمارة الترازو والبراكنة ، وغيرها... (٤) .

علاقة القادرية بالقبائل والإمارات :

كانت الطريقة القادرية تخضع بجانبها الروحي والسياسي إلى الشيخ محمد فاضل دون منازع في موريتانيا في منطقة الحوض ، وبعد وفاته ١٨٦٧ م، ظل مريدوا الطريقة للقادرية في إزدياد مطرد ، وظل مجالها الجغرافي في إتساع دون تحرشات كبيرة من القبائل والمجموعات المجاورة ثم تسربت من منطقة الحوض في الشرق إلى الجنوب الغربي في موريتانيا وإلى الشمال .
وتتمثل السلطات الزمنية في موريتانيا في القبائل وأمراء الإمارات (١).

علاقة القادرية بالقبائل :

أما عن صلة القادرية بالقبائل ، لقد أملت طبيعة نشأة الطريقة القادرية وبحثها عن الأنصار وحرصها على عدم خلق نزاعات مع مجموعات قبلية بعض أفرادها منطوون تحت لواء الطريقة القادرية ، وقد كان شيوخ القادرية يعملون على نسج علاقات قبلية رصينة تمكنهم من التوقيع أولاً ثم الحماية (٢)
لقد كانت أغلب القبائل تربط صلتها بالقادرية على أساس زوحي إما لإحترامها للمشرفاء والأسر الدينية أو لمبايعة قائدها لأحد شيوخ هذه الطريقة ، وسمت العلاقة بين بعض شيوخ القادرية وبعض القبائل إلى حد التآلف الروحي كما حدث مع قبيلة تكانت التي كان للشيخ محمد فاضل يشيد بعلاقته بها ويقول :
" إن لكل ولي أنصار وأنصارى تكانت " (٣) .

وخلاصة القول ، أن الشيخ محمد فاضل بمجهوده الخاص وبالعلاقة أبناؤه ومواقفهم الاجتماعية والروحية استطاع أن يشكل حرماً آمناً يأوى إليه المفزوعون من أى مكان مما جعل قبائل الزوايا تؤمه لتحتفى به من بطش حسان وتجمع المصادر على أن أبناؤه ومقتميه للمجموعات الأخرى كانوا يقومون بهذا العمل حتى أصبح هذا العمل عرفاً في الطريقة لكسبها مهانة أغلب القبائل ومع هذا لم تكن العلاقة القادرية بكافة القبائل ودية فقد كانت هناك بعض التحرشات التي لقيها الشيخ سعد أبيه من الجنوب الغربي الموريتاني في إمارة الترارزة (٤) .

وغير ذلك من هذه التحرشات ، وعموماً سجل القاديون بحيازتهم للنسب الشريف نقاطاً من السلم الهرمي الإجتماعي مكاناً عالياً كان سبباً في جذب الأنصار إليهم وجعل للقبائل تنظر إليهم بعين الإجلال مما وفر لهم سلطة روحية .

١- انظر الخريطة رقم (٥) بالملحق.

٢ - محمد فاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

٣ - تكانت إحدى قبائل الزوايا التي أجمعت بين السيف والقلم ، لها نفوذ إقتصادي وعلمي مهم وهي منتشرة في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية ، وخاصة منطقة العصابة

٤ - الداه ولد الشيخ سعد أبيه : جمع وتحقيق رسائل الشيخ سعد أبيه ، كلية الآداب ، جامعة أنواكشوط ، ١٩٩٠ ، ص ٢٣ .

علاقة الطريقة القادرية بالإمارات :

العلاقة مع إمارة الحوض :

كان القادريون موضع تقدير إمارة أولاد مبارك وسلطينها وجاء بروز الطريقة القادرية في الحوض مترامناً مع فترة تراجع إمارة أولاد مبارك ودخولها في صراعات داخلية وخارجية أذنت بزوالها وبروز إمارة مشظوف الذين رغبوا في ربط علاقات مبركة مع الطريقة القادرية وبعد إنتصار أمير مشظوف أحمد محمود ، عمل على التقرب من الشيخ محمد فاضل ، إذ كان يهدى إليهم ولم تشهد العلاقة بين الطريقة القادرية وإمارتي الحوض (مبارك ومشظوف) أى تأثير أو تحرش أحد الطرفين بالآخر خلافاً لشهده مع قبائل أخرى .

العلاقة مع إمارات الجنوب (التراززة - البراكنة) :

إنتمت علاقة القادرية بإمارة البراكنة بالاحترام المتبادل والإعتراف الرسمي وهو ما تم تجسيده واقعياً بالإقبال على الشيخ محمد المأمون ابن الشيخ محمد فاضل ، وقد تعرض الشيخ سعد أبيه لبعض التحرشات والمضايقات في منطقة التراززة كما سبق ذكره ولا سيما بعض الزوايا الذين حاولوا وأد الطريقة القادرية عن طريق زرع الفتن بين الأمير التراززي والشيخ سعد أبيه وذلك عندما بنى الشيخ سعد أبيه مسجده وداره في منطقة قم أوتيل .

فأوعز الوشاة إلى الأمير بأن هدف هذا التقري هو تأمين الفرنسيين وإمدادهم أثناء توغلهم في المنطقة . وقد حصر الشيخ دواقعه في ثلاث نقاط :-

- ١ - إعتبار أن الأرض هناك لا تصلح للحرث .
 - ٢ - الموقع الإستراتيجي لهذه المنطقة على ملتقى الطرق التجارية والصحراوية .
 - ٣ - لعل الله يقري به ضيفاً أو جوعاناً .
- لم تقتنع هذه الدوافع للطرف الآخر وخاصة مع إزدياد هدايا الفرنسيين للشيخ سعد أبيه أكثر من هداياهم لغيره والذين نظروا إلى هذه الهبات الكثيرة على أنها مقابل خدمات أو معلومات سيقدمها الفرنسيين مساعدة منه لهم على التوغل والتغلب على خصومهم بالسياسة أو المدفع .
- ولأن الفرنسيين مسخرون له من الله تعالى من غير حول لهم ولا قوة ، يقول :

(ثم أن الله تعالى لم يزل يسخر النصارى عاماً بعد عاماً وشهر أبعد شهراً)

وأن مودتهم له دون غيره إنما تعبير عن كثافة إيمانهم مقارنة بالآخرين مستندلاً بالآية الكريمة :

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) المائدة آية ٨٤ .

وقد تطورت هذه الأحداث إلى حد عقد مناظرات بين الفقهاء والشيخ سعد أبيه إنتهت بإعتراف الفقهاء وبصواب مذهب الشيخ سعد أبيه ونزول الأمير سيد ولد أبيه محمد الحبيب على حكمهم ، وإعذار الشيخ سعد أبيه وقد كانت تحرشات الأمير التوروي السابقة وتهديداته المنكرة تركت أثراً سلبياً في نفس الشيخ سعد أبيه ، وأثرت على مواقفه منه . ولكن بموت الأمير فتحت صفحة أخرى من العلاقات بين الشيخ والأمراء التالين وحدثت تطورات إلى حد أن بعضهم كان بجلة ويهدى الية بنفائس ممتلكات مما جعل الشيخ يسعى لتحسين علاقته بالإمارات الأخرى من ناحية الشمال .

علاقة القادرية بإمارة أدرار :

بدأت هذه العلاقة منذ وجود الشيخ محمد فاضل ولد عبيدي في المنطقة مستقلاً عن شيخه التقليدي عام ١٨٤٦ م ، وظل تأثيره يتنامى على الإمارة وعلى القرار الأميري نفسه وحاول الشيخ سعد أبيه تدعيم دور الشيخ محمد فاضل ولد عبيدي ، ولقيت هذه المحاولة ترحيباً من أمراء أدرار ، والذين ظلت علاقتهم به تتدعم حتى كان الوسيط بينهم وبين السلطات الفرنسية ، وأشرف على توقيع معاهد سلام بينهم (١) . وتوطدت علاقة أمراء أدرار بالطريقة القادرية مع ضغط التدخل الفرنسي وإتجاه المقاومة إلى الشمال رغبة إلى الشيخ ماء العينين الذي كان منذ قدومه الأول إلى أدرار عام ١٨٥٦ م ، وزيارته لابن عمه محمد فاضل ولد محمد ، وقد لقي قبولا من طرف السلطة الأميرية جعلت دوره في الإمارة يزداد بشكل مطرد ، وقد تدعمت هذه العلاقة بين الإمارة والطريقة القادرية مع الدور الذي منحه السلطات المغربية للشيخ ماء العينين وما وفرت له من خطوات أكثر من نظرائه من الزعامات الدينية والسياسية (٢) . لقد دفقت أساليب ممارسة الفئات السائدة في المجتمع الموريتاني (بنى حسان) ، لسلطتها من المجموعات التابعة قاعدة تتطلع إلى البديل كما أن الفئات السائدة نفسها ، نظراً لصراعاتها الداخلية وإحتكار قسط محدد منها كعائدات السيادة جعل القسط الآخر يرغب في أي مؤسسة جديدة قد توفر له السيادة المطلوبة . هذا التطلع إلى البديل كان العامل الخفي وراء تقبل الأهالي للطرق الصوفية وحضور مشايخها في كافة الإمارات الموريتانية غير أن غالب هذه الطرق لم تغلح في تقديم بديل ملموس لقاعدتها الطامحة إلى الأمل .

ومن هنا ، تمكنت الطريقة القادرية من إختراق الوسط الحساني مفككة التخصص التقليدي معلنة أن العبادة والعلم ليسا حكراً على فئة معينة لما أصبح الحساني فيها يطمح إلى التمشيخ ، إذ أن التخصص والإستغلال ليسا حرفة وظيفية تحدد موقعا إجتماعيا بعينه ، ونجحت إلى حد ما في تحليل سدى لحمة القبيلة والإطار بين الزاوي والحساني وذلك بتجاوزهما في إطار أوسع وأشمل حتى من الجنس والعرق .

١- الجواب المحتوم - مخطوط بالملحق

٢- محمد فاضل - الطريقة القادرية - مرجع سابق ص ١٩٨

ومع هذا فقد عجزت الطريقة القادرية عن خلق خطاب إجتماعي جديد يدعو إلى تغيير المؤسسة الإجتماعية ولعل عدم بروز هذا الخطاب يرجع إلى إستفادة أفراد القادرية من مكاسب التراثية التقليدية ، تلك التراثية التي أدخلت عليها الطريقة القادرية مرونة خاصة في مدونة الأحوال الشخصية من خلال الإنفتاح في الزواج من المريدين ومن خلال فرضها للمريدين مهما كانت إنتماءاتهم على تقديم الخلاف للشيخ بغض النظر عن مواقعهم الإجتماعية السابقة كما نجحت في إرتباط مريديها بها أكثر من إرتباطهم بأطهرهم التقليدية .

وهكذا إستطاعت الطريقة القادرية أن تجد لنفسها مكانة في التاريخ الموريتاني تخرج بها عن التعميم الذي يربط للتصوف تاريخياً بالسلبية والعجز عن ممارسة العقل التاريخي فجعلت من نفسها عاملاً مؤثراً فيه حيوية ثقافية ودور سياسى وحركة إقتصادية وإن كانت بحجم غير كثيف .

رابعاً : علاقة الطريقة القادرية بالقوى الخرجية (في إفريقيا) :

لقد انتشر الوجود القادري في المجال الموريتاني والمغرب وفي دول افريقيا السوداء وحظي بمحاولات لتحديد مكانة ما ذهب اليه الفرنسي (بول ماري) (١) ، عندما قال :

(من الاطلسي الي البحر المتوسط وحتى تمبكتو الي جنوب المغرب فنهري غينيا الشعوب تحترم اسم الشيخ محمد فاضل ان لم يكن الكل يتبعه ولطريقته انتشار متسارع مع ابنائه في افريقيا الانجليزية والبرتغالية) ولقد استطاعت القدرات التي وفرها الشيخ محمد فاضل خاصة وشيوخ القادرية عامة لابنائهم واتباعهم أن تجتذب عددا من التيجانيين والشانليين والناصرين الي طريقته حتى اصبحت الطريقة القادرية من اوسع الطرق الصوفية انتشارا داخل التراب الموريتاني وخارجه .

ولقد كان انتشارهم علي كل تراب السنغال :

في الشمال :

ولما بلغ الشيخ محمد فاضل (١٢٢٨هـ - ١٨١٩م) من العمر عشر سنين حفظ القرآن وقضى بعلمه القرآني بالسفر علي عادة اهل التصوف فسافر الي تشيت ثم الي شنقيط وبعد فترة استقل واصبح شخصية دينية في الشمال الموريتاني حيث اقام علاقات طيبة مع السلطات المحلية ومع سلاطين المغرب والتي سوف ينميها ويقويها الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل .

١ - بول ماري ، هو أحد الإداريين الفرنسيين ، وهو من رواد المدرسة الفرنسية الإستعمارية ، شغل منصب رئيس مصلحة الشؤون الإسلامية بمستعمرة السنغال ، نشر ثلاثة كتب تتضمن نتائج عمله في الإستخبارات بالمنطقة .

في الجنوب الغربي والشرقي :

لقد كان لوجود الشيخ سعد ابيه في منطقة الحوض الغربي الموريتاني فاعلية واثراً ، فقد استطاع ان يغزو باوراده ومريديه منطقة السنغال ومن بين الشخصيات الأكثر حضوراً والتي شكلت حاضرة مؤثرة تدين له بالولاء ابن اخيه الشيخ المحفوظ بن الشيخ الطالب الذي امره والده بالذهاب الي عمه الشيخ سعد ابيه فامتثل وخدم عمه عشرة أعوام وبعد ذلك رجع الي الحوض .

ويري ابنه محمد شمس الدين انه يعد تحرش (اهل الغيب) به في الحوض أمره والده بالتوجه الي بلاد السودان وبعد تطواف بين ارض موريتانيا ومالي والسنغال وناميبيا وغينيا كوناكري وغينيا بيساو وقفل ثانياً الي الشيخ سعد ابيه الذي اصدر اليه الامر بالرجوع حيث اراد رب العباد وهو ما حنده محمد شمس الدين بقوله (وهو حقيقة هذه الارض ، التي اصبحت بالنسبة له فيما بعد ارضاً له يجب بناءه داعياً الي تأسيس دولتها وبناءها) .

كما لعب الشيخ المحفوظ دوراً هاماً في كل من ناميبيا الإنجليزية وغينيا البرتغالية وكانت له تأثيرات علي السود المسلمين والسودانيين المتعلقين بالتصوف .

علي الحدود مع مالي :

اما علي الحدود مع جمهورية مالي فقد تمكن الشيخ سيد الخير محمد فاضل من جمع كثير من الانتصار مشكلاً ظهيرا للطريقة استوجب من السلطات الفرنسية التعامل معه في بداية تغلغلها كممثل علي القادرية الفاضلية وقام هذا الشيخ بتقديم خدمات هامة الي كوبولاني خاصة في شمال تمبكتو كما استفاد كوبولاني من خدمات الشيخ سيد الامين في رحلة الي اروان عام ١٨٩٩م بوصفه وجيهاً روحياً له بالغ التأثير علي تلك المنطقة ومن اشهر اقطاب الطريقة القادرية والذي له دوره الظاهر في العلاقات القادرية الخارجية هو الشيخ ماء العينين الذي وثق صلاته مع سلاطين المغرب كما كانت له علاقات مع اسبانيا (١) .

فمن علاقاته بسلاطين المغرب والتي بدأت عندما كان سنة الثامنة والعشرين وقد خرج لرحلة الحج ١٨٥٨م من الحوض فمر بشنقيط وبادرار الي اصويرة فمراكش ومن هنا سوف تبرز علاقاته الطيبة مع ملوك المغرب حيث ولي العهد سيد محمد بن عبد الرحمن فلاقاه وكرمته ثم في مكناس التي دخلها في شهر رمضان من نفس السنة فتلقاه مولاي عبد الرحمن ملك المغرب بكل إجلال (٢)

ولم تنقطع الصلات والزيارات من الشيخ ماء العينين الي مراكش فمن بين الزيارات التي زار فيها مراكش زيارته عام ١٣٠٤ هـ حيث تلقاه الملك المغربي بالاجلال وحين جالسه الشيخ قال له (اني زرت جدك مولاي عبد الرحمن فجعلني ابنا له ثم زرت اباك بعد ذلك فجعلني اخا له) فقال له مولاي الحسن (وانا لجعلك ابا) (١) .

لقد كانت علاقة الشيخ ماء العينين بملوك المغرب طيبة شملت اكثر من مجال حتى ان مولاي الحسن جعله عام ١٨٨٤م ممثلا له في المخزن في الجنوب الصحراوي ومساعدة لا غنى عنه في تنسيق الاتصال بين المخزن وقبائل شنقيط وادرار كما كان يقوم بين الحين والآخر بزيارة لمراكش وقاس يلتقي فيها بالسلطان ليقيم زكاة القبائل ويتزود بالمؤن والمال والسلاح في فترة الحرب ، وقد عمل الشيخ ماء العينين علي تامين الطرق التجارية الموصلة بين المغرب والسنغال ولم تكن الروابط بين الشيخ ماء العينين وملوك المغرب مادية فحسب وانما كانت هناك وشائج روحية فقد كان رجال الدولة يتغربون ويسعون لاستقطاب خاطرة رجاء بركة دعواته حيث كانت الدولة تفرح بمقدمه (٢) .

ولقد كان هدف الشيخ ماء العينين من توجهه الي فاس هو انقاذ العاصمة وتحرير البلاد من قبضة الفرنسيين المتزايد وفك الحصار عن السلطان وكان رائد الشيخ في ذلك الإخلاص للبيعة الشرعية التي في عنقه لسلطان البلاد المولي عبد العزيز فلما طلب المولي عبد العزيز من الشيخ العودة واتخاذ الموقف الذي يراه مناسبا قال الشيخ :

(الحمد لله الذي كانت المبادرة منه ولم تكن مني)

وتعني هذه الكلمة من بين ما تعني ان فسخ البيعة جاء من السلطان نفسه ولم تكن منه وكان ذلك مما اتاح للشيخ مبايعة اخيه السلطان عبد الحفيظ الذي ارسل الي الشيخ يستقدمه الي مراكش لتزكية بيعة علمائها وسكانها . وهكذا بدأت علاقة حميمة جديدة بين الشيخ والسلطان افضت إلى إجازة السلطان له في التصرف في جميع كتبه واستعماله لما فيها وهو ثقافي لم يسبقه اليه سلطان لخر مما يوحي بمنزلة كل منهما عند الآخر ، هذه الحركة في العرش المغربي وموقف الشيخ منها كان مصدر عدة تفسيرات :

- ١- راي يفسر تصرفات الشيخ بمحض الاخلاص للعرش وينفي كل تهمة تتعارض وهذا المبدأ .
- ٢- راي يري ان الشيخ انقلب علي العرش وأعلن نفسه سلطاناً دافعه الي ذلك البحث عن حقوقه الشريفة تحفزها قاعدته البشرية المتنامية وقد تبني هذا الرأي الساسة الفرنسيون الذين فسروا كافة تصرفات الشيخ بالطمع السياسي والتخطيط للمستقبل الواعد رفاهيا .

١- الهبة ولد سعد ابية الشيخ ماء العينين مرجع سابق ص ٢٢
١- محمد قاضل : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ، ص ١٩٩ .

٣- فريق اخر يري ان الشيخ ماء العيينين ادرك ان تغيير الحكم في المغرب من شأنه ان يحرر المغرب ويحرر موريتانيا وان تخلي عبد الحفيظ عن المبادئ التي وصل بها إلى العرش ينادى بها كان كافيا لتنصيب الشيخ نفسه سلطانا واتجاهه الي فاس في يونيو ١٩١٠م التي كاد ان يدخلها لولا تدخل الفرنسيين الا ان موت الشيخ المفاجئ في اكتوبر من نفس السنة اعاققت نسبيا مسيرته لولا ان ابنه الشيخ احمد الهيبة قام بتجديد طموحات سلفه فاحتل سوس وواصل حتى احتل مراكش واسر للقنصل الفرنسي بها عام ١٩١٢م وتابع مسيرته حتى توفي في ٢٣ يونيو ١٩١٩م ، وابتداء من هذا التاريخ سيبدأ التبار العام المعارض للتدخل الفرنسي في الذبول وستترام رسائل الموالاتة للفرنسيين خاصة من ابناء الشيخ ماء العيينين نفسه .

الا ان الضغط الفرنسي وتخلي العرش عن المواجهة مع الفرنسيين وبالتالي تخليه عن الفاضليين الذين ظلوا متمسكين بموقفهم المجاهد كلها عوامل اثرت سلبيا علي امكانيات الفاضليين بصفة حرجة وللوقوف اكثر علي اسباب نشاط العلاقة بين العرش والفاضلية يطالعنا ريان اساسيان :

١- مناصري الشيخ وكتبه مناقبه لا يترددون في الاشادة بالعلاقة بين الشيخ والعرش واستطرد مراحلها والتثنية بالهدايا والساليب الاجلال التي كان الشيخ موضعها لها . كما لا يترددون في اعزاء هذه العلاقة الي ما حياه الله به من القبول في الأرض والنصرة والتمكين والتصرف الباطني .

٢- رأى مناهضي الشيخ خاصة من الفرنسيين الذين يحاولون بسط هيمنتهم علي الاراضي المغربية والموريتانية والذين شكل لهم للشيخ ماء العيينين مصدر ازعاج هؤلاء رأوا لاقبال السلاطين عليه سببا اخر راجع الي السياسة المغربية العامة في المدن البعيدة وعن المراكز خاصة في المناطق الصحراوية القاحلة .

وبناء علي هذه المناهضة ومبررات اخري لم يتردد هذا الفرع من الفاضلية في اتخاذ موقف للتعامل مع الفرنسيين فجاءت اول اتفاقية بين الشيخ سعد ابيه و الفرنسيين توضح مجالات اهتمام كل واحد منهم ونقاط السيادة التي لا يقبل التيل منها :

١- ان يؤمن للشيخ سعد ابيه كل من وصل بلدا هو فيه من بني حسان ما دام لم يقع الحرب بينهم وبينه والهدف من هذا العنصر هو توفير الامان وهو الهدف نفسه الذي برر الكثير من الفقهاء تعاملهم مع الفرنسيين .

٢- لا يصد الفرنسيون أحداً عن الجهر بالذكر وقد علمنا مركزية الذكر عند هذه الطريقة .

٣- ألا يؤذى من في ارض الفرنسيين من تلاميذ الشيخ مما يوحي انه كان بصر علي احترام اطاره الروحي الفوق قبلي والفوق اماراتي كي يشعر الاخر بقااعليته .

وتطبيقا لهذه الاتفاقية لخلص الشيخ سعد ابيه في القيام بما تمليه الاتفاقية :

فقام بالوساطة بين الفرنسيين وادرار لعقد اتفاقية هدنة بينهما، كما قام بإنفاذ

المستكشف سولايه (soleiller) ، ورفاقه بعد ما كانوا من الموت بمكان علي يد

احد القبائل الموريتانية وفي نفس المسعي اطلق سراح فابير (faber) واستضافه

في مخيمه كما رافقه شخصيا مهندس الهيمنة الفرنسيه على موريتانيا وأرسل معه

مرات عديده بعض أبنائه وقد حذا حذوه في هذا الدور أخوة الشيخ سيد المين

والشيخ سيد الخير بن الشيخ محمد فاضل على التخوم المالية والمناطق الشرقية الموريتاني كما قام ابن أخيه الشيخ المحفوظ ولد ابيه بإنقاذ بعض الفرنسيين من السودان الذين كانوا ينوون قتلهم مستغلا وزنه الكبير الذي حظى به خاصة في دولتي مالي والسنغال ، وكذلك كاص ماصة وغينيا بيساو وجامبيا ، مما أثار حفيظة الوجود الاستعماري في هذه المناطق على أن تتوحي الحذر منه هذا عن علاقة الطريقة القادرية بالدول الأفريقية (١) .

علاقة القادرية بالقوى الخارجية الأوربية :

لعب الشيخ ماء العينين دورا حساسا مستفيدا من التغيرات السياسية الأوربية فمن هذه التغيرات الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا ، ومؤتمر الجزيرة الذي كان له أثر على الأوضاع في موريتانيا .

وقد كان الاتفاق الودي (٢) بين إنجلترا وفرنسا قد وصل صداه الي الصحراء فتطلع الشيخ ماء العينين الي شعور الحسد الذي نشأ عند القوي الأوربية الأخرى وخاصة ألمانيا وإسبانيا

وكان الشيخ ماء العينين يراقب بمرارة جهود فرنسا للاستقرار في المغرب وما يترتب على ذلك ، ففي مراكش أصبح معرضا لخطر فقدان نفوذه ، وفي موريتانيا كان وصول كوبولاني إلى أدرار معناه وصول نفوذ الشيخ سيديا باب إلى هذه البلاد ، وبعد مقتل كوبولاني عام ١٩٠٥م بدأ الشيخ ماء العينين يتحرك علانية حيث استطاع بمهارة ان يحتفظ بعلاقات طيبة مع السلطات الإسبانية التي اغضت عينها عن اعمال تهريب الاسلحة حيث لم يكن لديها وسيلة لمنعها . لما عن مؤتمر الجزيرة (٣) عام ١٩٠٦م والذي كان من قراراته التي طبقت : ضرورة استدعاء المغرب للمولي ادريس ، ابن عم السلطان ونائبه في أدرار في موريتانيا بدعوي انه يعمل علي مهاجمة النفوذ الفرنسي في هذا الاقليم ايضا ضرورة توقف المخزن عن مد ماء العينين بالسلح ، وكان الشيخ ماء العينين قد حضر إلى المغرب من موريتانيا وأخذ في إثارة الأهالي للجهاد ضد الفرنسيين بعد أن شرح أخطاره على المغرب للجفوي ، وطالب المغاربة بضرورة البذل والتضحية .

فكانت ردود فعل مؤتمر الجزيرة حركات العنف في الاوساط الوطنية وتشابكت الاحداث تماما في المغرب و موريتانيا مع اتساع حركة الشيخ ماء العينين التي اصبحت تهدف الي عاملين هما :

١- محمد فاضل - الطريقة الفاضلية مرجع سابق ص ٢٠٥

٢- الاتفاق الودي عقد بين إنجلترا وفرنسا بعد حروب طويلة عسكرية ودبلوماسية دارت بينهما وكانت مضمون هذا الاتفاق ان تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر على أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في المغرب مع مراعاة مصالح البلدين في مصر والمغرب
٣- دعت اليه ألمانيا لتقف ضد احتلال فرنسا للمغرب ولكن ألمانيا لم تستطع منع فرنسا من احتلال المغرب .

- ١- تخلص مراكش من الضغط الاجنبي من جهة .
 - ٢- ايقاف التوغل الفرنسي في موريتانيا من جهة اخرى .
- وكانت اولي ردود الفعل في موريتانيا تفجر الحركات المعادية للزحف الفرنسي في صورة قتال عنيف تولى قيادته في مراحله الاولى مولاي إدريس العائد من المغرب كما كان من نتائج هذا المؤتمر تخلي المانيا عن المغرب واذا كانت معظم قرارات هذا المؤتمر تؤثر بصورة غير مباشرة علي الوضع في موريتانيا فان قرارات منع تهريب الاسلحة بالذات سيكون لها اثر مباشر عليه فقد كان من بين قرارات المؤتمر توزيع مسؤولية مكافحة تهريب الاسلحة بين فرنسا واسبانيا (١) .
- وعن علاقات القادريّة الخارجية بالاسبان فان الاسبان كانوا يدفعون مرتبا شهريا للإغدف شقيق الهيبة بن الشيخ ماء العينيين وقد جاء تقرير جاد ان (٢) حاكم الحكومة العامة بدلاكار في ١٩١٨/١٢/٢٩م ذكر القنصل الالمانى برويستر (proobstor) أنه قد وعد اهل الشيخ ماء العينيين بمليون فرنك وقد اخذ الاسبان هذا المبلغ علي اساس انهم سبق ودفعوا منه ٤٠٠,٠٠٠ فرنك في المرتبات الشهرية المنوه عنها والباقي احتجزوه لانفسهم.
- اما عن التغيرات السياسية الداخلية في اطار تغيير المواقع في السلطة المغربية في مراكش ووصول احمد بن موسى الي الوزارة الذي اكثر علي الشيخ ماء العينيين من الهبات والمساعدات الكثيرة ولكن هذه العلاقة قد اخذت بعدا حقيقيا في اطار الهدف المشترك من المحاولات الاوربية لاحتلال المنطقة فقد شعر الشيخ ماء العينيين بهذا الخطر الجديد في الوقت الذي لا يمكن ان يكون بدون رد فعل ولم تكن المبادرات الاسلامية كي تتحاشي الخطر لتستطيع ان تحدث بغاوة ولم تكن الروابط الجيدة من طرف الشيخ ماء العينيين والسلطة الشريفة بدون فوائد حيث توطدت مع مولاي الحسن في عام ١٨٩٠م ثم مع خليفته عبد العزيز مساعدا من وزيره الاول ابي احمد قد تمت باستقبالات كبرى .
- ولقد تعززت هذه العلاقة خصوصا تحت راية الطموحات السياسية اما من طرف الزاوية العينية او السلطة المغربية فالغزو هو الذي عمل علي تعزيزها وهذا لا يعنى أنها كانت غير قائمة فهذه العلاقة شملت الكثير من المجالات وتعززت من كل طرف الي ان توفي الشيخ ماء العينيين عام ١٩١٠م واستمرت العلاقة المرسومة مع احفاده الي هذا اليوم.

١ - الهيبة ولد سعد ابيه : مرجع سابق ، ص ٢٤ .
٢- عين مفوضا لفرنسا في موريتانيا سنة ١٩١٦ ولم يكن غريبا عن المنطقة فقد كان سنة ١٩٠٨ قائدا لدائرة الترارزه (سعد خليل ص ٥٠٠).

الفصل الثالث

الدور الثقافي للطريقة القادرية ودورها في المقاومة

أولاً : المحاضر في مورتانيا .

ثانياً : الصلة بين القادرية والمحاضر .

ثالثاً : النظام التعليمي الصوفي في مواجهة النظام التعليمي الفرنسي .

رابعاً : الشيخ ماء العينيين ودوره في المجال الثقافي والروحي وأثره على المقاومة .

لقد كان التعليم الاسلامي في موريتانيا نقطة اجتذاب لجميع مسلمي غرب افريقيا حيث تدهور التعليم العربي الاسلامي بشكل ملحوظ في جميع المستعمرات الفرنسية الاخرى ولذا كان كثير من المسلمين في غرب افريقيا يقدون الي شنقيط وبو تلميت التي برزت كمراكز للثقافة الاسلامية العربية لتلقي العلوم فيها (١) ، وكان الزوايا هم رواد الثقافة في موريتانيا يعيشون قبيل قدوم الاستعمار في تيارات تنقسم الشعور العام حول الوضعية للبلاد (٢)

ولم يقدر مجتمع من المجتمعات الثقافة في ظل الدولة وفي غيابها كما كان الشناقطة يقدرونها فلقد كان العلم لهم وطنا ونسبا وحسبا لا بالعرق ولا بالسلالة فبلورت بنية المجتمع الشنقيطي ونسجت خيوطه فشعر الهاشميون والاميون والصنهاجيون والفوتيون وقد اخذوا الكتاب بقوة واووا من المعرفة الي ركن شديد حيث كانوا اولاد ام حنون تولى بينهم الثقافة هذا وقد شهدت بلاد شنقيط منذ القرن العاشر الهجري نهضة ثقافية شاملة وانتشرت المحاضر بوصفها الركيزة الاساسية لمنبع هذه الثقافة ومغذية لهذا التراث الثقافي الزاخر (٣) .

وقد دخلت عدة طرق صوفية بلاد شنقيط والتحم الصوفية بالعلم في رحاب المحاضر وكانت الزوايا الصوفية التي في البلاد سندا للمحاضر في تدريس علوم القرآن والحديث والفقه المالكي اصولا وقواعد ومن ابرز الطرق الصوفية التي استقطبت الناس في موريتانيا الطريقة القادرية والطريقة التجانية وغيرهما من الطرق الصوفية الاقل انتشارا واستقطابا للاتباع .

وعندما بدا الاوربيون الزحف الاستعماري الكاسح علي المعمورة كانت ركيزتهم الاساسية لهذا الاكتساح هو ثقافتهم التي حاولوا بها تبديد ومسح ثقافات الشعوب الاولى وكان الطريق امامهم سالكا في كثير من الاحوال وخاصة في بلاد افريقيا السوداء ذات التكوين الثقافي الضحل والشعور الوطني الخافت عكس الموريتانيين

١ - نصر السيد نصر : مرجع سابق ، ص ٥٢ .

٢ - الهيبة ولد سعد ابيه : مرجع سابق ، ص ١٢ .

٣ - فاطمة بنت الامام - المقاومة الموريتانية - مرجع سابق ص ١ .

الذين شهدوا خبراء ومخططوا الاستعمار انفسهم انهم كانوا الصوت النشاز الصارخ في جدران البنيان الاستعماري (١) .

وكاد يجمع المؤرخون علي ان الاستعمار الفرنسي كان متميزا بطابعه الثقافي وكان اهتمامه بالانتماء الثقافي والحضارية للشعوب التي يخطط لغزوها وقد كان للمحاضر دور اساسي في مقاومة الاستعمار ورفضه لدرجة التغيب الكلي لاي خيار غير الرفض والمقاومة ، وتحصين المجتمع ضد الثقافة الاستعمارية ولئن انقسم علماء موريتانيا في المقاومة المسلحة فقد اوجبها البعض وعمل بها ولم يوجبها البعض ولم يعملوا به الا انهم اتفقوا علي رفض هذا الغازي ثقافيا فلم تستميلهم اغراءاته ولم يكن ضعفهم المادي وتقوئه العسكري عليهم بل ووقوعهم تحت السيطرة يمانع من لفظه شكلاً ومضموناً ومحاربته فكرياً وسلوكياً واستهجانته عقيدة وأخلاقاً وبتعالى عليه إلى حد الإستقذار (٢) .

واذا كانت المقاومة المسلحة لم تفلح في صد المستعمر عن احتلال موريتانيا فان المقاومة الثقافية اقلحت في صدره الي حد كبير فشككت بذلك اده صمود امام المسخ الثقافي والحضاري المصاحب للاستعمار .

لقد امتدت فترة الإستعمار الفرنسي المباشر لموريتانيا حتى سنة ١٩٦٠ ، حاول المستعمر خلال هذه الفترة أن يعمق جذور حضارته كعاداته في البلاد التي احتلها لكنه وجد هذه الأرض التي قصدها قد تعمقت فيها جذور الحضارة الإسلامية .

١ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ٧٠ .

٢ - عثمان ولد الشيخ ابو المعالي : الفكر الأصولي عند علماء شنقيط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الفقه وأصوله ، كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٩٨ ، ص ص ٩٨ - ٩٩ .

٣- فاطمة بنت الامام - المقاومة للموريتانية - مرجع سابق ص ٢٧ .

ان فرنسا لم تتغلغل في البلاد الا بصعوبة شديدة ولم توفق في نشر لغتها في البلاد مثل جارتها السنغال وغرب افريقيا كله حيث يمكن القول بان هذه المنطقة كانت اقل مناطق غرب افريقيا تائرا بالثقافة الفرنسية رغم محاولاتها فرض التعليم الفرنسي علي السكان بشتي الطرق ولكنهم تمسكوا بالتعليم بالمحاضر وظهرت معارضة واضحة من جانب السكان الذين راو في المدارس الفرنسية تهديدا خطيرا لشخصيتهم العربية الاسلامية ، وان المقاومة الثقافية التي قام بها العلماء والتي اشرنا اليها من قبل كان لها تاثيرا قوي في تحصين الجسم الموريتاني ضد الغرباء ولغتهم وحضارتهم (١) .

١ - عثمان ولد الشيخ ابو المعالي : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

أولا :المحاضر في موريتانيا:

تعد المحاضر الموريتانية مؤسسات للتعليم الاسلامي في الجمهورية الاسلامية الموريتانية تمتد جذورها التاريخية إلى نحو ألف عام ، وقد مرت هذه المحاضر بظروف حرجة في تاريخها الطويل ولا سيما في الفترة ما بين الغزو الفرنسي لموريتانيا عام ١٩٠٣ واستقلالها عام ١٩٦٠ ، وما واكب ذلك من قيام الغزاة المستعمرين من محاولات شتى لفرنسه الموريتانيين وبلادهم ، تارة بالترغيب وتارة بالترهيب ، واضطرار علماء المحاضر إلى اعلان الجهاد للذود عن عقيدتهم ودفاعا عن لغة الكتاب المستبين ، وهما معا يشكلان قوام كيانهم وجوهر شخصيتهم .

ونظام التعليم الحديث الذي أنشأه الفرنسيون ابان حكمهم للبلاد لتخريج اعداد من الموظفين ليستعينوا بهم في إدارة حكمهم البلاد ، والذي شهد تطورا كبيرا من ناحيتي الكم والكيف في عهد الاستقلال ، وهو في الجوهر ، نظام مختلط ، ويهتم أساسا بالعلوم النظرية والتطبيقية واللغة الفرنسية كلغة أجنبية أساسية يمثل من وجهة نظر طائفة من المنظرين والمخططين أكثر تلبية لخطط التنمية الاقتصادية للدولة كما يمثل تحديا كبيرا للنظام المحاضر الذي يعمل للشكاك ولا سيما المتغربون أو المتفرجون منهم على الاقلال من شأنه كقوة سياسية واجتماعية واقتصادية في تقدم البلاد ودعم خططها التنموية هذا بالإضافة إلى ما ترتب على زحف الجفاف واتساع رقعته في البلاد عاما بعد عام ولا سيما في السنوات الأخيرة من اضطرار كثير من المحاضر إلى أن تهجر مواطنها الاولى في نزي الصحاري أو تقليص اعدادها بشكل ملحوظ (١) .

ولقد استهدف هذا الفصل أن تتبع نشأة المحاضر الموريتانية وتطورها وما جابهت من تحديات مع التأكيد على الاستعمار الفرنسي وصراعها المرير معه واعلائها الجهاد عليه وحصول البلاد على استقلالها ، وما تركه ذلك كله من آثار تربوية في المجتمع الموريتاني .

وتحقيقاً للهدف المذكور فقد وضع ذلك الهدف في صورة تساؤلات كالآتي :-

١) ما الظروف التي أدت إلى نشأة المحاضر الموريتانية وكيف تطورت تاريخياً ؟

٢) كيف نقارن المحاضر الموريتانية بمؤسسات التعليم الاسلامي في بقية البلدان الاسلامية ؟

٣) ماذا كان موقف المحاضر الموريتانية من الاستعمار الفرنسي وما نتاجه ؟

٤) ما الآثار التربوية للمحاضر في المجتمع الموريتاني ؟

٥) ما التحديات التي تواجه المحاضر الموريتانية حالياً وما النتائج لذلك التحدي ؟

ولقد اعتمدت الدراسة في بعض منها على منهج البحث التاريخي ، من حيث تتبعها لنشأة المحاضر وتطورها وتحليلها الكمي والكيفي لمصادر المعلومات ،

تعريف المحاضرة :

اشتق هذا الاسم من مكان إلقاء المحاضرة وجاء في تاج العروس : ويقال للمقيمين على الماء حاضر وجمعة حضور وهو ضد المسافر وكذلك يقال للمقيم شاهد وحاضر وفلان حاضر بموقع كذا أي يقيم به ، ويقال على الماء حاضر ، وهؤلاء حضار إذا حضروا المياه ومحاضر ، قال لبيد :
فالواديان وكل مغني منهم وعلي المياة محاضر وخيام (١)
وقيل انها مشتقة من الحظيرة (الزريبة) وهي ما يحظر به علي المال من شجر وغيره (٢) .

وورد في لسان العرب : المحضر عند العرب المرجع إلي اعداد المياة والمنتج : الذاهب في طلب الكلاً ، وكل منتج مبدي وجمع المبدي مباد وهو البدو والبادية أيضا : الذين يتباعدون عن أعداد المياة ذاهبين في النجع إلي مساقط الغيث ومنابت الكلاً والحاضرون الذين يرجعون إلي المحاضر في القيط وينزلون علي الماء ولا يفارقونه إلي أن يقع ربيع بالأرض يملأ الغدران فينتجعونه (٣) ، أما المحاضر اصطلاحاً : فهي مؤسسة تعليمية عالية يقودها عالم في فن واحد أو عدة فنون يسهر عليها وعلى طلابها اخلاقياً وادبياً ومادياً حسبة منه لوجه الله تعالى ومن حيث المقارنة بالمؤسسات التعليمية الحديثة فإن المحاضرة هي مدرسة بمستوي المرحلة الثانوية أو العالية في الأوساط البدوية الموريتانية ، والمحاضر تتكون من ثلاث أصناف :

١ - مرتضي الزبيدي : تاج العروس المجلد ٣ ، بيروت ١٣٨٦هـ - ص ١٤٨ .

٢ - حيمد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

٣- ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الاول ، القاهرة عام ١٩٨٠ ، ص ٣٧ .

الصنف الأول :

المحاضر القرآنية ومهمتها تحفيظ القرآن الكريم للأطفال وتنتهي بأجازة متصلة السند.

الصنف الثاني :

المحاضر بمعناها الحقيقي وتتكون في العادة من العالم الأستاذ الذي يكون قد وقف نشاطه على التدريس وحوله يلتفت الطلبة الذين يدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والمنطق ٠٠٠ ويبدأ الانتساب إلي هذا النوع من سن التكليف ولغاية سن الأربعين ، وبعد هذه الفترة علي طول خمسة وعشرين عاما يصبح الطالب عالما أو شيخ محضرة .

الصنف الثالث :

المحاضر الأسرية حيث لا يوجد حي من قبائل الزوايا إلا ويوجد من انتصب للتدريس وحتى في قبائل حسان فلا بد من " المرابط " للتدريس وهناك محاضر للنساء من هذا النوع تلتحق بها الفتيات بعد أن يكن ناهزن سن البلوغ . وبالنسبة للنوع الأول فإنه وجد منذ بداية الإسلام وأصبحت له مدارس متخصصة مثل الكتاب الذي شاع في الأقطار الإسلامية الأخرى . وفي العادة تتولي النساء التعليم في هذه المرحلة للبنين والبنات ما دامت أعمارهم قبل سبع سنين ، وبعد هذه السن يدفع البنون إلي الرجال والبنات إلي النساء . وعادة تكون مساكن المحضرة عبارة عن مجموعة من الخيام والعرش يسكنها طلاب جاءوا من جهات مختلفة .

والمحاضر إما أن تكون في البوادي أو المدن ، ومحاضر البوادي أكثر شيوعا من محاضر المدن ، وكلاهما معترف به رسميا ومسجل لدى وزارة الشؤون الإسلامية التي أنشئت أساسا لهذا الغرض .

وكانت المحاضر عند بداية دخول الاستعمار الفرنسي البلاد سنة ١٩٠٥ م ثمانمائة محضرة خمسة وأربعون منها علي مستوى أكبر الجامعات الإسلامية وتمثل مؤسسة تفردت بها موريتانيا استطاعت أن تجد وحدة الفكر واللغة والدين بين أفراد الشعب الموريتاني الذي يتكون من أجناس مختلفة (١) .

ومن حيث الاصطلاح هناك جملة تعريفات منها ان المحضرة هي المدرسة الاولى التي عرفت موريتانيا والتي تعود البذرة الاولى لها الي دولة المرابطين في

بداية القرن الحادي عشر الميلادي لقد اطلق لفظ المحظرة علي كل جهاز تعليمي يشمل لوازم المدرسة بحيث لا تخرج من نطاق اللغة العربية والدين الاسلامي (١). ولا زال هناك خلاف حول اشتقاق الكلمة ، هل هي مشتقة من الحضور أو الحضرة ، أو هو اسم مكان لمجموعة من الحظائر يحيط بها الطلاب مساكنهم ، وهي اسم مكان من الحظر الذي هو التجريم ، إذ يحظر أن يؤتي في مساحتها تصرف يحظره الشرع . وأن الظاء فيها أصلية وتكون مشتقة من محل الحظائر لأن الطلاب يحيطون مساكنهم بحظائر تحفظها ، وسبب نطقها بالطاء هو أن اللهجة الحسانية تبدل الضاد ظاء ، وقد عرفتها وزارة الشؤون الإسلامية بالطاء التعريف التالي (المحظرة) هي المؤسسة التي جعلت مشعل الحضارة الإسلامية والثقافة العربية منذ تسعة قرون ونيف ، وما زالت تتابع رسالتها .

وعلي كل حال فإن المحاضر في عرف الموريتانيين تطلق علي أية قرية أو حي من الأحياء البدوية يقدم فيه أحد الرجال المشهورين بالعلم أو بحفظ القرآن استعداداً لتعليم العلم أو لتحقيق القرآن لا فرق في ذلك بين الأحياء البدوية المتنقلة علي مدار السنة أو تلك التي تنتقل ببطء بين بئر وبئر والتي تقيم في الأرياف أو القرى .

ونستنتج من التعريفات السابقة أن المحظرة أما مشتقة من لقاء المحاضرة أو الحظيرة التي تحيط بها ، وأنها عبارة عن وجود شخص مؤهل نصب نفسه لتدريس العلم ابتغاء وجه الله . أما الباحث فيري أن اسم المحظرة مرادف كلمة المدرسة ، والدليل علي ذلك أن الشعراء الموريتانيين يعبرون عن المحظرة بالمدرسة .

نشأة المحاضر :

جاءت المحظرة كفكرة الي موريتانيا مع بداية الفتح الاسلامي الذي كان بقيادة حبيب بن عقبة بن نافع القهري وابنه عبد الرحمن وذلك حوالي عام ١١٦هـ . الا ان البداية الفعلية للتعليم المحظري يعود فضله في ذلك إلى دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري حيث مثلت محظرة عبد الله بن ياسين (٢) الرباط الروحي للزعامة السياسية وحافظت علي مكاسب الفتح الاسلامي في المنطقة الا ان الإزدهار الحقيقي سيكون في القرن التاسع عشر (٣) ، ولعل الصلة القوية بين نشوء المحظرة ودولة المرابطين يظهر من خلال تسمية شيخها بالمرابط حتي اليوم .

والمحظرة مؤسسة من مؤسسات التربية العربية الاسلامية الاصيلة تحمل بعض خصائص وسمات النظام التربوي الذي نشأ في احضان مدن الثغور وحواضر الخلافة والثقافة ولكنها تتميز بسمات هي فيها أبين وأبرز أو هي خالصة لها دون غيرها من المؤسسات التربوية العتيقة .

١- حميد بن محمد علي :مرجع سابق ،ص ٢٣.

٢- لمزيد من التفاصيل عن عبد الله بن ياسين ودوره ، أنظر ، عبد الله عبد الرزاق : عبد الله بن ياسين ودوره في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ، إتحاد المؤرخين العرب ، نوفمبر ٢٠٠٢ .

٣- فاطمة بنت الامام - مرجع سابق ص ٤١

وتسمى بالمدارس القرآنية والتي انتشرت في البلاد آنذاك والتي تختص بتعليم القرآن الكريم وخاصة في مدينة (أودغست) الموريتانية مع نهاية القرن الثاني للهجرة ، وأقدم من أرخ للتعليم في " أودغست " وغانة البكري الذي حدد لنا بالضبط تلك الفترة بقوله " وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة غزا عبد الله ابن ياسين أودغست ٠٠٠ إلي أن قال : " وبها جامع ومساجد كثيرة أهلة في جميعها المعلمون للقرآن ٠

والمحاضر أول ما عرفت في القرن السادس الهجري ، بينما المدارس القرآنية جاءت إلي البلاد الموريتانية مع الفتح الاسلامي وتعود نشأة المحاضر 'إلي المحظرة الأم ، التي أسسها عبد الله ابن ياسين والتي كانت نواة الدولة المرابطة والشيء الفريد هو نشأتها في البادية ثم انتقلت إلي المدن ٠

وفي العصابة كانت محاضر لمتونة وفي القبلة محاضر الصغراء والكحلأ ولداب لحسن " وايدا وعلي " وتشمش " وفي ضفة النهر كانت محاضر " سليمان بال " والمامي لي ولي عبد القادر كن الذين قاموا بنهضة علمية ٠

وهكذا نلاحظ أن المحاضر ما عرفت بهذا الاسم الا في القرن السادس الهجري وأن كانت النشأة تعود إلي نهاية القرن الخامس ويمكن تحديد الزمان والمكان لهذه النشأة وذلك كالتالي : -

- ١- محظرة عبد الله بن ياسين الأم وتأسست سنة ٤٥١هـ في مكان يسمى " تيدرة " قرب العاصمة الموريتانية انواكشوط .
 - ٢- محظرة الامام الحضرمي بازوكي قرب مدينة اطار ، وتأسست سنة ٤٨٩ هـ ٠
 - ٣- محظرة تشيت : أسسها الشريف الإدريسي عبد المؤمن في تشيب سنة ٤٣٦هـ .
 - ٤- محظرة ودان أسسها الحاج عثمان جد قبيلة ايدو لحاج سنة ٥٤٤ هـ .
 - ٥- محظرة أيل كن المتوفي سنة ٦٦٣ هـ "في تندكسم " ٠
 - ٥- محظرة شنقيط التي تأسست سنة ٦٦٠ هـ ٠
 - ٦- محظرة ولالة تأسست في القرن الثامن الهجري علي يد يحيي الكامل جد لمحاجيب ثم بعد هذه التواريخ بدأت المحاضر تنتشر في طول البلاد وعرضها منتقلة من البادية إلي المدينة من أجل الاستقرار حتى قيل أن العلم والثقافة حضريان ، ولكن المحاضر أثبتت عكس هذه القضية حيث نشأت أساسا في البادية (١)
- أهداف المحاضر :

بعد عبد الله بن ياسين وقنوم العلماء المدرسين أمثال الإمام الحضرمي والحاج عثمان وتكوين المجتمع الاسلامي الجديد ، كان لابد أن تبرز المحظرة التي تلائم طبيعة الصحراء بغية ترسيخ العقيدة والتمكين لها ونشر الإسلام بين الطوائف والشعوب التي لم يبلغها بعد ٠ وكذلك ترسيخة في المسلمين الجدد نظرا لبعدهم عن مراكز التوجيه الاسلامي ، وقد وصل رجال المحاضر إلي مختلف شعوب القارة الافريقية داعين إلي الاسلام ، مما جعل هزم الشعوب تتحصن من الذوبان في ثقافة المستعمر .

وقامت المحظرة بجهود خارقة في هذا المجال حيث دخل رجالها الأدغال الإفريقية مبشرين بالاسلام وحاملين مشعل الحضارة الإسلامية . كما وصل رجالها إلى آسيا ، أما أهدافها اليوم فهي تهدف إلى تكوين شباب قادر علي النهوض بالوطن في إطار ديني ، وعلي المحظرة أن تعلم الشباب طريقة العيش في ظروف الحياة الجديدة ، وأن تكون جيلا محافظا علي الاسلام ومواكبا للعلم والتطور .
وأهم أهداف المحظرة :

هو طبع القيم الإسلامية والأخلاقية بصفة نهائية غير قابلة للإزالة في أذهان الشباب ، وتكوين الأجيال وإعدادهم ثقافيا وروحيا للمستقبل ، ونشر الإسلام في كل الطبقات الشعبية وصون التراث الأصلي، ومن أجل التربية لان التربية والجهاد لا يفترقان (١)

كما تعلم الطالب كيف يعيش في المستقبل ، وكيف يتعامل مع مجتمعة ، وكيف يواجه الحياة . وبالتالي فإن هدف المحظرة هو هدف المرابطين وهو التعليم ثم الإصلاح ثم الرباط لتربية جيل قادر علي حمل الدعوة ثم الجهاد ثم الإلتزام بالتعاليم الإسلامية .

وهذا ما جعل المحاضر تقض مضاجع الاستعمار الصليبي في كل مكان .
تطور المحاضر عبر التاريخ (٢) :

قبل الدخول في مراحل التطور لايد من الإشارة إلى بعض العوامل التي ساهمت في تطور المحاضر ومن أهمها : نشأة المدن الثقافية والعلمية وهي :

١- شنقيط : وهي المدينة التي سميت بها البلاد وقد بنيت سنة ٦٦٠ هـ وكان بها احد عشر مسجدا ومعناها عيون الخيل بالبربرية (٣) ، وعاش في هذه المدينة كثير من العلماء مثل الشيخ بن حمني وسيد بن اسيدات الذي كان له تسعة مجالس دراسية في اليوم الواحد ومنها اتجة دعاء الإسلام إلى الجنوب والشرق وكان الحجاج يتجمعون فيها وينطلقون منها سنويا .

٢- ولاته : وتأسست في القرن السابع الهجري علي يد الفقيه يحيى الكامل .

٣- تشيت : وقد أسسها الشريف عبد المؤمن بن صالح جد شرفاء تشيت سنة ٥٤٤هـ-٣.

٤- ودان : وقد أسسها " ايد ولحاج " سنة ٥٣٥ هـ وتذكر المصادر أنه كان يمكن حصر أربعين دارا متتالية في هذه المدينة يوجد في كل منهما محظرة (٤) .

١- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٤٧١ .

٢- انظر الخريطة رقم (٦) بالملحق .

٣- احمد بن الامين : مرجع سابق ، ص ٤٢٢ .

٤ - محمد عبد الفتاح ابراهيم : أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠٤ .

علاقة المحاضر بالمعاهد الدينية الأخرى :

لقد كانت مدينتا جنة وتبكتو " مراكز دينية وعلمية من أهم مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، وأصبحت "تبكتو" مع بداية القرن الثاني عشر مركزا للدراسات الإسلامية يؤمها الطلاب للتحقق في الدين ، وكانت مدينة " ولالة " تمدها بالعلماء (١) أما علاقة المحاضر بالأزهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين فقد كانت قوية في الوقت الذي نجد فيه المحاضر تتحدي هذه الجامعات ، فالشيخ محمد المامي نظم مختصر خليل في عشرة آلاف بيت وقال بأن المصريين والتونسين يقصد الأزهر والزيتونة لا يستطيعون مثل هذا الإنجاز وكان التحدي لجامع القرويين أكثر بكثير من ذلك حسب قول العلامة محمد عثمان بن اغشمت المجلسي .

لقد كان العلماء الموريتانيون يمرون بهذه الجوامع وهم في طريقهم إلى الحج عادة وقل من درس منهم فيها ومن الذين تعلموا فيها العلامة المجاهد محمد الأمين ادارمي الذي درس في تونس ست سنوات ، كما مر بتونس محمد يحيى الولاتي في طريقة إلى الحج وجرت بينه وبين علماء مشاحنات حول إثبات رؤية الهلال بالتلغراف ، " وضمن له بعض أغنيائهم مؤنثة ما دام حيا أن سكن المدينة المنورة ليعمرها بعلمه الجم (٢) .

وبالنسبة للأزهر فقد مر به كثير من العلماء في طريقهم إلى الحج وناظروا علماءه وأظهروا تفوقهم عليهم مثل عالم الرياضيات والفقيه زين العابدين بن الفغ الأمين الذي التقى بعلي الأجهوري وراجعة في بعض المسائل . وراجع الحاج احسن بن آعبد العلامة الخرشي شارح خليل في أربعين مسألة ، وكذلك تلميذة الشريف حماد الله فقد راجع هو الآخر الخرشي في أربعين مسألة .

وبالنسبة لعلاقة المحاضر مع جامع القرويين فهي صلة قوية وقد أخرجتها لأهميتها ، حيث كانت علاقة متبادلة فقل أن يحج عالم إلا وإنتهز الفرصة ومر بفاس حتى أصبح المثل الشعبي شاسعا وهو " لكري في الرأس ماه افاس ولاه في مكناس " يعني أن من أراد القراءة فسيتعلم ولو لم يذهب إلى فاس أو مكناس .

وهكذا كانت العلاقة بين المحاضر وهذه الجوامع علاقة أخذ وعطاء وفي بعض الأحيان علاقة تحد من طرف المحاضر .

١- أنظر الخريطة رقم (٧) بالملحق .

١- محمد الصوفي : مرجع سابق ، ص ٤٨ .

الفرق بين المحاضر و الجوامع أو المعاهد بصفة عامة :

الشيء الفريد في المحاضر هو نشأتها في البادية وكونها نوعا من التعليم لا يمكن أن يسمى - كما يقول الفرنسيون - إلا بالجامعات ، وهي مراكز للتعريب بقدر ما كانت مراكز للتعليم لحملها رسالة الإسلام واللغة العربية وقضائها على الأمية (١).

وكون نظام حلقات المساجد امتداداً لطريقة التحديث ، حيث كان المحدث يملئ والناس يسمعون ويكتبون ، بينما نشأت المحظرة في الخيمة المتنقلة تبعا لحياة البدو المرحل أيام المرابطين . ومما تتميز به وجودها في البادية حيث طالب العلم يترك المدينة ويذهب إلي البادية لطالب العلم وكونها كتلة فوق القبيلة تمثل إدارة الأمة ولا يستطيع أحد أن يحارب أي محضرة منها وكونها تمثل التكافل الاجتماعي حيث كل شيء فيها مجاني وأن الشيخ فيها يدرس ماشيا وراكبا ويعمل في حاجة كالمسقى من البئر أو عند رعي حيوانه وكان الأستاذ يدرس في النهار ، وفي الليل يؤلف الكتب في ضوء النار ، كمثل علي ذلك ، فقد كان محمد بن محمد سالم يرعى إبله ويجمع الحطب ويكتب عليه ليلا وبهذه الطريقة ألف كتابة الريان في تفسير القرآن في أربعة مجلدات ، والنهر الجاري علي صبيح البخاري كذلك ، واللامع شرح خليل ، كذلك أي كل منهما أربعة مجلدات كل مجلد يقع في سبعمئة ورقة من الحجم الكبير .

ومما تتميز به المحاضر أن عمداها يعملون بكسب أيديهم حتى أن القادم إذا رأي عميد المحظرة ينكره لمظهره كعامل . والتواضع أيضا ظاهرة غريبة في عمدا المحاضر ومنهم من يخدم نفسه وضيوفة ولا يقبل من طلبة أن يخدموا أحدا نظرا لكونهم طلاب ، علم جاعوا من أجل هذا الغرض فقط .

ومن أهم مميزات المحاضر أن عميدها يدرس كل فن وإذا درس في إحدى المؤسسات الحكومية فهو مثال لأستاذ الألب والحديث والأصول .

والفرق بين المحظرة وغيرها أنه في حلق المساجد يلقي الدرس جملة علي الطلاب وفي المحظرة كل طالب علي حدة يقرأ حسب مستواه العقلي والعمرى ، ومن حيث المدرسون فاستاذ الجامعة متخصص يدرس مادة واحدة وأستاذ المحضرة موسوعة يدرس كل مادة . ومن جهة أخرى فدراسة الحلقات في المسجد طول الوقت فهو لا يمل من التدريس . كما أن نظام المسجد يقوم على ربط الطلاب مع بعضهم مع بعض لأن الأستاذ لا يكرر بينما أستاذ المحضرة يعيد للطلاب الدرس متى طلب منه ذلك .

كما أن الأستاذ الجامعي والمدرس بالمسجد كل منهما يحضر الدرس بينما أستاذ المحظرة لا يحضر (٢).

١- الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٢٨٤

٢ - محمد الصوفى : مرجع سابق ، ص ٥٤ .

الرحلات :

من العوامل التي ساعدت في تطور المحاضر الرحلات التي قام بها العلماء الموريتانيون ، إما لطلب العلم أو الحج أو الجهاد ، ويعود تاريخ الرحلة الموريتانية إلى بداية القرن الخامس الهجري ، حي كانت الرحلة الأولى الميمونة التي قام بها الأمير إبراهيم بن يحيى الكدالي الذي رحل إلى الحج وأثناء عودته مر بتونس وحضر دروس أبي عمران الفاسي وسأله هذا الأخير ما يمنعك من التعلم فقال ياسيدي إن بلادي قوم عمهم الجهل فهلا بعثت معي من يعلمهم القرآن والسنة وعند ذلك كتب أبو عمران إلى تلميذه وجاج أن يعث مع هذا الأمير الصالح من يعلم له ببلدة (١) .

وفى القرن العاشر كانت رحلة سيدي أمر الملقب بالشيخ ، حيث صحب الإمام المغيلي والسيوطي وأثناء عودته مر بالشام وأخذ عنه أهلها العلم هناك ثم توالى الرحلات .

المكتبات :

من العوامل التي ساعدت، كذلك في، تطور المحاضر وجود مكتبات ضخمة اقتناها الرحالة وجلبوها إلى موريتانيا ، كما ساعدت المكتبات في حركة التأليف التي غدت شرايين العلم والمعرفة ، حيث كان لا بد لعديد المحاضرة كأستاذ موسوعي أن يؤلف لطلابه المراجع التي يحتاجون إليها في شتى أنواع المعرفة وقد ضربنا مثلا سابقا بالعلامة محمد بن محمد سالم الذي ألف علي ضوء النار أهم مراجع التفسير والحديث والفقه (٢) ، ومن أهم المكتبات مكتبة تشيت ويعود تاريخها إلى سنة ٥٣٦ هـ أي تاريخ تأسيس هذه المدينة ، وفيها أهم الكتب .

ومكتبة زلاته التي أنشئت في القرن السابع الهجري وبلغت قمته في مطلع القرن الثالث عشر الهجري علي يد العلامة سيدي محمد الكبير أحد علماء أسرة حبت الذي اقتنى الكتب من المغرب ومصر والحجاز .

وعند مجيء الاستعمار قام العقيد "مودات" Moudat الفرنسي بإحصائها فوجد فيها سبعمائة مرجع وفي أبي تلميت مكتبة أهل الشيخ سيدي وهي من أكبر المكتبات . وفي المخرخرة كانت مكتبة محمد بن الهاشمي التي تضم نواذر المخطوطات وكانت تزيد علي ١٠٠ مخطوط ، وكذلك مكتبة محمد قال بن امباركي التي أهداها له سلطان المغرب سيدي محمد بن مولاي سليمان .

١ - ابن أبي زرع : مرجع سابق ، ص ٩ .
٢ - محمد الصوفى : مرجع سابق ، ص ٥٦ .

كما كانت الكتب تأتي لموريتانيا عن طريق التجارة مثل رجل أندلسي جاء بديوان المتنبي بخط مزركش و اشتراه من عنده الفلاحي بعبد كما كانت الكتب تستورد من طرف الحجاج والتجار ، ومن أهم المكتبات علي الإطلاق مكتبة الشيخ ماء العينين التي تضم جميع الكتب وأنواع الخط وأنها جمعت بين مؤلفات المشاركة والمغاربة ، ويصف كيف أحرقها الفرنسيون ، وأنه رأي منها بعد حرقها كتب متناثرة تبلغ أربعة آلاف كتاب . ولقد كانت محنة المكتبات في عهد الاستعمار الفرنسي عسبية لما تعرضت له من الحرق والنهب والسرقة ، فيوجد منها الآن كتب بالمعهد الفرنسي لافريقيا السوداء بداكار . لأن الاستعمار الفرنسي كان استعمارا صليبييا حاقدا .

تطور المحاضر:

لقد مرت المحاضر في تطورها بثلاث مراحل : الأولى قبل المرابطين وهي نشأة المدرسة التي ذكرناها من قبل . والثانية من بداية عصر المرابطين والثالثة من عهد ناصر الدين إلي قدوم المستعمر الفرنسي (١) .

وبما أن المرابطين هم الذين أنشأوا هذه المحاضر التي تعتبر من إنجازاتهم الخالدة فلا بد أن نمر بهذا العصر الزاهر لنعرف من هم المرابطون ؟ يطلق هذا الاسم علي سلالة المرابطين أي سكان الرباطات الذين رابطو في سبيل الله للجهاد أولا ثم للعبادات والاعتكاف بعد ذلك . وكانت الرباطات مقامة في النخور والحدود وأصبحت مع الزمان عبارة عن زوايا أو مدن ، فالمرابطون عبارة عن سكان الزوايا ومن هذا الاسم اشتق المرابط . وهذا الاسم ليس بدعا بل هو مشتق من الآية الكريمة : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " . الانفال آية ٦٠ .

إذا فالرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعدادا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين فهو يجمع بين الصفتين الدينية والحربية .

ويسمي من سكة مرابط . وقد بني واجاج بن زلو اللمطي السوسي بالسوس دارا سماها دار المرابطين كان بناها لطلبة العلم ومن بينهم عبد الله بن ياسين ، وليس من الغريب أن يكون ابن ياسين سمي مكان رباطه فيما بعد بهذا الدار تيمنا بها . وقد تركزت حركة المرابطين علي دعائمين هما رجل الدولة ورجل الدعوة ، فرجل الدولة يحيى بن إبراهيم الزعيم الورع المطاع في قومه ، ورجل الدعوة عبد الله بن ياسين المؤهل بالعلم والخلق .

١ - مجلة العربي الكويتية : العدد ٣٦٣ ، فبراير ١٩٨٩ ، ص ١٩٢ .

أما الرجل الثاني للدولة فهو أبو بكر بن عامر ومن ثكائة أنه آخر فتح امبراطورية غانا ست سنوات أما الرجل الثالث لهذه الدولة فهو يوسف بن تاشفين الذى يقول ابن خلكان : " كان يوسف تاشفين مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم ويحكمهم ويعمل بأرائهم ولما بلغ الامام الغزالي عدلة رحل إليه من بغداد ولما وصل الاسكندرية وصلته وفاة يوسف وعندها رجع " (١) .

وفي عهده أصبحت الأندلس جزءا من دولة المرابطين بعد إزالة ملوك الطوائف بفتوي العلماء الفقهاء وأهل الشوري كالغزالي والطراطوشي ، ولم يكتف المرابطون بالتحول الاسمي للإسلام لبث العقيدة الصحيحة ، ولا زالت آثارهم الفكرية مقرررة في المحاضر الموريتانية ، وأخيرا يكفي دولة المرابطين شرفا عداء المستشرقين لها . إذ يقول بركلمان بأنه عهد " سادت موجة عارمة من التعصب للسنة ١٠٠٠ (٢)

حرب شريفة وازدهار المحاضر :

بعد سقوط دولة المرابطين أصبحت موريتانيا شبه فوضى ، حيث لا يوجد هناك حاكم شرعي تخضع له للبلاد ويقم العدل فيها ويحكم بالشريعة الإسلامية وعظم علي الموريتانيين عدم وجود دولة إسلامية مع أنهم يعرفون أن قيام الدولة الإسلامية ضرورة وتجب بالاجماع وخاصة بعد انقطاعهم عن دولة الخلافة مما جعلهم يقيمون دولة في الجنوب الموريتاني علي هدي الكتاب والسنة مطابقة للعهد الراشدي بإمامة ناصر الدين أبو بكر بن أبيهم الذي أقام مجتمعا يشبه المجتمع الإسلامي الأول وكان جهازه الإداري بكاملة مستمد من التعاليم الإسلامية .

وبما أن الحالة السياسية والفكرية لأي أمة مرتبطتان ، فلا بد أن نقف قليلا مع ناصر الدين ، فقد ولد ناصر الدين في بيئة علمية ، وذلك أن قبيلته " تشمش " قد سكنوا منطقة " ايكدي " بالجنوب الموريتاني في بداية القرن الثامن الهجري ، وما أن كان القرن العاشر الهجري حتى أصبحوا مجتمعا مستقرا منكبنا علي تحصيل العلم ونشرة . وكان فيه خمسة جوامع وهذا المكان يعرف با (المسدة) جمع مسجد باللهجة الحسانية . وكانت " تشمش " لا تسمح لأحد من أبنائها بمغادرة ايكدي الا إذا كان عالما أو علي الأقل انتهى من دراسة خليل .

وفي هذه البيئة ولد الامام ناصر الدين . ولما رأي الناس ما به من العلم والأهلية بابعوة كلهم . وفي ذلك يقول محمد اليدالي :

" اعلم رحمك الله أن أكبر آيات ناصر الدين وكراماته إقبال الناس إليه من كل وجه بدويهم وحضرهم وعريتهم وعجمهم . . .

١- ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٧ ، القاهرة ١٣٦٧هـ ، ص ١٢٥ .

٢- محمد الامين الصوفى - مرجع سابق ص ٦٧

وفور بيعته " من طرف أهل الحل والعقد من الزوايا وعرفاء الناس وأجلة العلماء ٠٠٠ " شكل مجلسا للشوري من العلماء " وأصبح لا يقضي أمرا دون مشورة العلماء " ٠ ثم بدأ علمه وكان أول خطوة قام بها إرسال الجيوش إلي غرب أفريقيا لفتحها وتخليصها من الوثنية ، حيث كانت الحدود الجنوبية لموريتانيا هي حدود الاسلام (١) وفي الداخل قام بجباية الزكاة وإلزام الناس بالجماعة وأحييت السنة في البلاد كلها .

وقد كان ناصر الدين رجلا فريدا يقوم بجميع المهام ، فهو واعظ ومحدث ويوميا يقوم بإعطاء درس من صحيح البخاري ، يروي الحديث ويشرحه ٠٠ وكان يوصي المجاهدين بأن يحملوا معهم ألواحهم ويقول في إحدى خطبة " من ركب قرسة فليجعل لوحه بينة وبين سرجة فان الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الاخرة . " لكن هذا العهد الزاهر لم يدم طويلا بسبب الحرب المعروفة بـ شريبه " التي دامت ثلاثين سنة ، وسببها أن قبائل حسان أرتكبت ثلاث جرائم : منع الزكاة ، والبغي والحراية ولم يبق أمام ناصر الدين إلا أن يتصرف ويخرج الزكاة قهرا من مانعها كما فعل أبو بكر الصديق ، وأن ييث الأمن والعدل والنظام وقبل دخوله الحرب أعلن عن برنامج دولته محذرا بني حسان من الحرب ومناشدا لهم بأن يسلموا الزكاة ويخضعوا لأحكام الشريعة وجاء في هذا التحذير علي لسان رسولية : الأمين بن الفاضل ومحمد بن باب أحمد :

" اتركونا نحيا السنة ونقيم حدود الله ونخدم العلم ونعبد الله ونعمر لكم البلاد ونعدل فيها " .

ثم قامت الحرب ودامت ثلاثين سنة وتولي الامام ناصر الدين قيادتها إلي أن استشهد في السنة الثانية من الحرب بعد أن فتحت جيوشه التي أرسلت لغرب أفريقيا ، السنغال " وفوته " وفي ذلك يقول المختار بن جنك :

وظل الأمراء من بعده علي نسقه في الفتح ونشر العلم بل أصبح الجيش يتناوب علي القتال نصفه يخوض المعركة يوما وليلة والنصف الثاني يعكف علي دراسة الحديث النبوي الشريف يوما وليلة ثم انتهت هذه الحرب سنة ١٠٨٥ هـ بهزيمة الدولة الفتية وانهزم الزوايا عسكريا وذلك بسبب اصطدام الإمام ناصر الدين بجهتين هما : فرنسا في السنغال وغرب أفريقيا وبني حسان داخل موريتانيا (١) فكان علي الامام ناصر الدين عندما بدأت الحرب في الداخل ضد بني حسان بسبب منع الزكاة والبغي والحراية أن يوقف الجيوش التي في غرب أفريقيا أو يرجعها ليستعين بها في الجبهة الداخلية .

١- القلقشندي : صبح الاعشي ، القاهرة ١٣٣٧هـ ، ص ٢٨٤ .

ومن المعلوم أن السبب المباشر في هزيمة الزوايا أن بني حسان كانت تزودهم فرنسا بالسلح الناري والمؤنة بينما كان الزوايا يخوضون المعارك بالسلح الأبيض وفي إحدى وثائق دلكار : أن أحد الفرنسيين كتب إلي فرنسا بأن في موريتانيا حرب بين جهة إسلامية وأخرى معادية للإسلام وأن من مصلحة فرنسا أن تزود المعادين بكل وسائل ، وأن فرنسا بدأت تبحث عن أقرب مكان تبني فيه مدينة تظل من خلالها تمد بني حسان بكل ما يحتاجون إليه ، وكان ذلك هو سبب بناء مدينة سان لويس " السنغالية بوصفها أقرب نقطة من موريتانيا ولوقوعها علي المحيط الأطلسي عند مصب نهر السنغال .

ومن الثابت بالتواتر أن المحاضر بشكلها الحالي عرفت منذ القرن العاشر الهجري فقد كانت محظرة سيد الغالي المتوفي سنة ١٠٤٥ هـ كبيرة تضم عشرين كوخا في المكان المعروف اليوم با " التكاثن " .

ومن نهاية الحرب التي قادها الإمام ناصر الدين توطد الإسلام وخاصة في غرب أفريقيا وأصبحت المحاضر تستقبل أبناء أفريقيا وأنت جهود الإمام ناصر الدين أكلها ، حيث لعبت المحاضر دورها في الإعداد للتجارب الجهادية من مقاومة للإستعمار عسكريا وثقافيا (٢) .

ومن الغريب أن وسائط كثيرة قدمت في موريتانيا السنوا وكتابات تجعل سبب ازدهار المحاضر ونشر العلم هو أن الزوايا لما هزموا في حرب (شريبه) انكبوا علي طلب العلم وهي فكرة مأخوذة من " ابول مارتى " أحد الجواسيس الفرنسيين ، أخذوها كمسلمة وللأسف لم يحصوها وهي مردودة لعدة أسباب منها أن " ابول مارتى " حديث وكان اهتمامه بدراسة قبيلة كنته . ومنها ان العلم منتشر في قبائل لم تشارك في هذه الحرب بل وبعيدة منها جغرافيا مثل " تجكانت ومسوفة " . فلقد كان العلم منتشرا قبل ناصر الدين وليس ناصر الدين إلا وليد مجتمع معين خلد الكتاب والشعراء صفتة .

الازدهار الحقيقي للمحاضر :

بدأت هذه الفترة من عهد الإمام ناصر الدين إلي ق. ٢٠ م ممثلة في وجود الأنواع التالية من المحاضر :

(١) وجد محاضرة بشيخ واحد يدرس كل فن وهو ما يعرف بالمرابط (كدم) أي أن الشيخ يقول للطالب قدم أي نص تريد قراءته ، فأنا مستعد لتدريسه لك . مثالة محظرة يحظية بن عبد الودود .

(٢) وجود محظرة يدعي لها علماء متخصصون كل واحد منهم يدرس فنا واحدا فقط ، مع سعتة وقدرتة علي تدريس الفنون الأخرى ، وظهر هذا النوع في محظرة الكحلاء والصفراء ، وحضرة أهل محمد محمود بن بية ومحضرة أهل الشيوخ سيديا .

١ - سعد خليل : مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ٣٨٦ .

٢ - محمد احمد حبيب الله : مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(٣) وجود محاضر متخصصة لفن واحد فقط ، مثل محاضرة محمد حيد المسومي المتخصصة في القرآن الكريم ، حيث لا يدرس الطالب إلا القرآن فقط ، ومحاضرة أحمد بن اداد التي تدرس لطالبها النحو فقط .
ومحاضرة الناجي بن محمود الفقهية واللغوية والتي تتعلم فيها النساء . ومحاضرة الشيخ ماء العينين الحربية التي تعد للجهاد في سبيل الله (١)
مظاهر ازدهار المحاضر :
ويظهر ذلك في وجود :

- (١) الآف المخطوطات وبالمحقق بعض من أهمها . .
- (٢) وجود حياة عقلية غدت الفكر الإسلامي في موريتانيا .
وتمثلت في المدارس التالية : (٢)
أولا : مدرسة القرآن الكريم التي اعتنت بالقراءة و التفسير :
ثانيا : مدرسة الحديث :

وفي مجال الحديث هناك النهر الجاري علي صحيح البخاري لمحمد بن محمد سالم وشرح البخاري لمحمد الخضر بن ما يابي .
ثالثا : المدرسة الأصولية :

بزعامة محمد يحيى بن سليمة السابق وباب بن الشيخ سيدي والشيخ محمد المامى العلامة المجتهد الذي يري أن فتح باب الاجتهاد مفتوح وأن الاجتهاد واجب وبما أن الفقه وخاصة المالكي منفي وفقهاء المدن تكلموا عن مشاكلهم فلا بد من إيجاد فقه يخدم البادية ، مما جعله يؤلف كتابا سماه كتاب البادية .
رابعا : المدرسة السلفية :

ومن أقطابها محمد بن حبيب الله الملقب لمجيدري بن حبل . ومن المعلوم ان منهج السلف الصالح في الإيمان بالمتشابه ظل هو السائد في عصر المرابطين حتى جاء المهدي بن تومرت ، وفرض الأشعرية ، وكانوا قبل ذلك علي مذهب أهل الظاهر في منع التأويل (٣) . وظل هناك أنصار لكل من المدرستين .
ومن أقطاب هذه المدرسة المأمون اليعقوبي ، الذي يقول مخاطبا العلامة المختار بن بون الأعرى بأنها خليط من المنطق اليوناني .
خامسا : المدرسة الأشعرية :

ومن أقطابها العلامة المختار بن بون أخذها عن شيخته العالمية خديجة بنت محمد العاقل التي لها شرح مهم علي عقيدة محمد بن يوسف السنوسي والمسمي بأم البراهين .

سادسا : المدرسة الفقهية :

فقد ألفت في الفقه ما لم يؤلف في غيره . وذلك نظرا لأهمية هذه المدرسة وكثرة تشعبها وكثرة ما خاضت فيه ونظرا لأن الفقه وليد البيئة كثرت المؤلفات في هذه البيئة .

١ - الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٢٨٧ .
٢ - محمد الصوفى : مرجع سابق ، ص ٧٤ .
٣ - القلقشندي : مرجع سابق ، ص ١٩١ .

سابعاً : مدرسة المييرة النبوية :

ومن أهم أقطابها العلامة محمد فال بن متالي ، وأحمد البدوي صاحب نظم عمود النسب والغزوات والبعوث ، وحمد فال بن أحمد بن العاقل الملق ببيها والبشير بن امباركي صاحب الأنظام الكثيرة في السيرة النبوية . فلقد نظم المهاجرين إلي الحبشة وأهل بدر ونظم أنساب الأنصار .

ثامناً : مدرسة التصوف :

لقد انتشر التصوف في موريتانيا مثل سائر الأقطار الإسلامية لكن الطرق الصوفية تعرضت لعدة محاكمات واتهمت بعدة اتهامات ، فقد حوكت الطريقة القادرية وكان المتهم هو العلامة الشيخ سعد أبيه وكان ذلك في العقد الثامن من القرن ١٣ هـ كما حوكت الطريقة الصديقية وكان المتهم الشيخ محمد عبد الحي وأخوه الشريف وكان ذلك سنة ١٣٣٦ هـ . إيمل بن آفا كما حوكت الطريقة الشاذلية وكان المتهم أعلن آفا وحوكت الطريقة التيجانية وكان المتهم هو محمد فال بن باب .

تاسعاً : المدرسة الفحوية :

ومن أقطابها المختار بن بون والحسن بن زين ومحض بابيه بن أعبيد وقال صاحب الوسيط فيه لما اصلى لشيخة بن بون وما ظنك بمن كان يصلح لابن بون وهو من هو (١) .

عاشراً : المدرسة الإصلاحية :

وهي من أهم المدارس حيث اتجه كثير من العلماء إلي الإصلاح وذلك بتغيير المنكرات والبدع والكلام عن أشنع هذه الظواهر كظاهرة التيمم بين الأصحاء حيث أصبح كثير من الأفراد يتيممون لا لعذر ، وفشت هذه الظاهرة وما تزال ويلاحظها الزائر اليوم في موريتانيا . كما اتجهت هذه المدرسة إلي اصلاح التصوف وكان من بين المصلحين بها العلامة الشيخ التراد بن العباس بن الشيخ الحضرمي ، وهذه أهم المدارس علي الاطلاق ولذا أخرها الباحث ومن أهم أقطابها الشيخ محمد المامي الفقيه والسياسي المحنك .

١- لقد اتهم المختار بن بون محمد المجيدري بالبدعة عندما دعا هذا الأخير الي التمسك بكتاب السنة وكان المختار بن بون يري بان طريقة التقليد هي الافضل وهذا من الغريب جدا لان المسلم به ان يتبع الكتاب والسنة ، أنظر ، احمد بن الأمين : الوسيط ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ .

أثر المحاضر في المجتمع الموريتاني :

لقد وضعت المحاضر بصماتها علي المجتمع الموريتاني ويتجلى ذلك في التطبيع الإجتماعي ، حيث جعلت عادات وتقاليد هذا الشعب إسلامية صرفه وخاصة في السلوك والملبس والمأكل والمشرب (١) ، وإذا كانت أهداف الاستعمار الفرنسي هي نسخ الشخصية وخلق شخصية أخرى تحاكي المستعمر ، فإن الشيء الذي يستحق أن يذكر هو أن الاستعمار وخاصة الفرنسي الذي لم يمر ببلد إلا وترك عليه طابعه باستثناء المجتمع الموريتاني .

وهذا ما شهد به الحاكم الفرنسي لموريتانيا المسمى لغرية في أحد تقاريره عن المحاضر وجاء في هذا التقرير السري رقم ٢٦٨ - ١٥٥٠ بتاريخ ١٩٤٤/١٢/٢٦ ما يلي :-

إن مشكلة التعليم التي وجدت منذ اليوم الأول للإحتلال ظهرت جد مستعصية وفي الوقت الذي وجدنا فيه أنفسنا بالنسبة لبقية المستعمرات في مواجهة بلاد نكرة وسكان متعطشين لتقليدنا وجدنا أن المقاومة الإسلامية في موريتانيا ضد نمو تأثيرنا عن طريق التربية الفرنسية قد ظهرت قوية شديدة إن البيطان المسلمين منذ قرون والذين ما زال عندهم أقوى من الدول الأخرى ، أكثر من ذلك فإن موريتانيا كانت منطقة تمثل فيها الثقافة أعلى مراقي المجد وعلي ذلك تبرهن مدارس عديدة ، ومكتبات مهمة من بينها مكتبة شنقيط التي ما زالت مكتبتها تملك ٧٠٠ مجلد . كما أدت خدمات جليلة ليس في موريتانيا فقط بل فيما حولها وساهمت في كسر العزلة عن البلاد المحيطة بها بإنشاءها المراكز التعليمية التي كانت محطات تجارية وعلمية تنافس كل المراكز العلمية في العالم الإسلامي (٢) .

ومن أهم آثار المحاضر علي المجتمع الموريتاني اختصاص النساء بالتعليم في مرحلة الكتاب ووجود عالمات مذهب وشاعرات ، وهذه الظاهرة ليست غريبة عند من يعرف هذا المجتمع . وفي أحد التقارير الاستعمارية عن محطرة أطار المتفرعة من محطرة الشيخ ماء العينين العالم الحسن بن مختار النش اليعقوبي يقوم بالتدريس في هذه المحطرة وتساعدة في مهمة التدريس زوجته .

هذا وقد تميزت النساء الموريتانيات بتدريس الطفل في مرحلة الكتاب للقرآن الكريم وتربيته علي الولاء للدين وسيرة الرسول صلي الله عليه وسلم . قبل أن يبلغ سن دراسة القرآن الكريم ، كما يقمن أيضا بأنواع التربية الأخرى وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي الأثر الذي تركته هذه المحاضر علي المجتمع الموريتاني (٣) .

١- سعد خليل : مرجع سابق ص ٤٧٧ .

٢ - مجلة العربي الكويتية : العدد ٣٦٣ ، فبراير ١٩٨٩ ، ص ١٨٣ .

٣ - محمد الصوفي : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

مراحل تطور المحاضر :

مرت المحاضر بثلاث مراحل :-

الأولى : منذ دخول الإسلام حتى عصر المرابطين ، والمرحلة الثانية : من عصر المرابطين حتى عصر الإمام ناصر الدين ، وأن المحاضر استقرت وانتشرت في هذه المرحلة وعرفت بهذا الاسم والمرحلة الثالثة : وتبدأ من عصر ناصر الدين إلي مرحلة الإزدهار التي أخذت فيها المحاضر شكلها الحالي .
وهذه الصفحات تهتم بالتعرف علي وضع المحاضر في عهد الاستعمار الفرنسي وكيف تحولت هذه المحاضر من مرحلة التحدي إلي مرحلة الدفاع تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الصليبي ، وعن حقيقة هذا الإستعمار ، وحاله البلاد قبل دخوله وكيفية دخوله إليها ، وعن الخطة التي انتهجتها المحاضر لمواجهة الاستعمار وأهم المحاضر في ذلك العصر .

وفي القرن الثامن الهجري دخلت قبائل بني حسان إلي موريتانيا بعد أن أجليت من شمال إفريقيا ، وهي قبائل من عرب المعقل تنتمي إلي بني هلال وبني سليم اللتين كانتا في الجزيرة العربية ، وعندما ضيقت عليهما الدولة العباسية الخناق بسبب غاراتهما على نجد العراق والشام اتجهوا إلي شمال أفريقيا في العهد الفاطمي سنة ٤٤١هـ ، ومنذ ذلك الوقت أصبح بنو حسان يهتمون بشؤون السلطة والزوايا بنشر العلم

وقد قسم بنو حسان البلاد علي شكل إمارات من أهمها :

- إمارة أولاد أمبارك في الحوض ، وعاصمتها النعمة .
- إمارة الشرائيت في تكانت ، وعاصمتها المجرية .
- إمارة أولاد يحيى بن عثمان في آدرار ، وعاصمتها ألاك .
- إمارة الترارزة في الترارزة ، وعاصمتها المذرذرة (١) .

المواجهة بين المحاضر والاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا خارج موريتانيا :

وبعد سقوط دولة ناصر الدين السابقة توقف الفتح الإسلامي في غرب أفريقيا وعند ذلك نشطت المحاضر في إرسال رجالها إلي الأدغال الإفريقية حاملين رسالة الإسلام ثم أصدرت فرنسا سنة ١٨٥٧ م أمر بمراقبة المرابطين في غرب إفريقيا ومتابعة قدراتهم التعليمية ومحاولة استقطابهم في نفس الوقت حيث جاء في الخطة

المرسومة للسيطرة على غرب أفريقيا الفرنسية بشكل البول Peulls والتكفور Toucouleurs والولوف Ouloffs نخبة ثقافية ومحاربة ، ستكون مسرورة باهتمام الحكومات المحلية بعقيدة الأسلام ، لتباشر تربية أولادهم علي الشعور بالإحترام لفرنسا ، ولتساهم مع المرابطين علي تربية الشباب دون التطرق إلي تقاليد عريقة ، لكي نوجه دعما باتجاه تطور النفوذ الفرنسي ،

١- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٢٧ .

فإذا لم نلتزم هذا الأسلوب سيظل المسلمون يربون أولادهم خارج نفوذنا وإذا تركناهم ستحافظ المدارس القرآنية بأساليبها المعتادة علي صفتها الدينية غير أن إلغاء المدارس القرآنية يشكل خطرا ، وبقاءها علي ما هي يشكل تهورا ، وإذا اخترنا لها البقاء فلماذا • لا نساهم في تحسينها بقدر الأمكان ؟ إن أول وسيلة تخطر إلي البال هي الحاق مرابط تم اختياره من قبل الإدارة الفرنسية فهو من ناحية يتعلم لغتنا ومن ناحية ثانية يطمئن الأهالي علي نوعية دراستنا ونفوذها المعنوي •

ومن أهم أسباب المواجهة بين المحاضر والاستعمار الفرنسي الصليبي في غرب إفريقيا أن المحاضر لم ترسل رجالها إلي الأدغال الأفريقية فحسب بل استقبلت خيرة الطلاب المسلمين ودرسوا فيها ولما تخرجوا أو عادوا إلي بلادهم قام كل منهم بثورة إسلامية

كان هذا السيل الجارف من خريجي المحاضر يقض مضاجع فرنسا الصليبية التي تريد نشر المسيحية فضلا عن إيجاد الأسواق ولذا قررت فرنسا أن تحاصر الإسلام وتوقف مد المحاضر خارج حدودها (١) يمكن تلخيص أهم نتائج الدراسة علي النحو الآتي :

(١) أن نظام المحاضر يعد ظاهرة موريتانية خالصة ، ذلك أنها نشأت وتطورت كمحصلة لعوامل دينية ، وجغرافية ، وتاريخية وسياسية مجتمعة • وقد وردت الاشارات إليها وإلي أهميتها فيما أورده الرحالة الاندلسي ابن جبير في أسفار رحلاته

(٢) أن المحاضر الموريتانية لم تنشأ مثل بقية مؤسسات التعليم الاسلامي ، كالمدارس ، والبيمارستانات ، والمراصد الفلكية ، والزوايا ، والخانقاه في المدن والحوضر ، ولا في الثغور - كالربط - ولكنها نشأت في كنف القبائل في البوادي والقفار •

(٣) أن المحاضر الموريتانية ، بحكم نشأتها وتطورها ، وعلي نحو مغاير تماما لمؤسسات التعليم الاسلامي المعروفة لا تنقيد بحدود المكان ، إذ أنها مؤسسات متنقلة تنتقل مع القبيلة حيثما ارتحلت في طلبها للماء والمرعي وأماكنها الخيام وطلابها أبناء القبيلة ، ذكورا وإناثا ، وأساتذتها علماء القبيلة أنفسهم ، الا ما شذ ونذر •

(٤) أن المحاضر في تنظيمها وأساليب التعليم فيها تتصف بالمرونة المتناهية لظروف الصحراء وأحوالها وما فيها من صعاب وشظف عيش • فعالم واحد وطالب واحد يكونان مدرسة ، أو محظرة •

وقد يلقي الدرس - لا سيما بين الرجال - والاثنتان راجلان أو ركبان .

(١) أن المحاضر أفلحت بشكل لاقت للنظر حقا في نشر التعليم ، من تحفيظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وتعريف بأصول الدين وبالقراءة والكتابة ، بين بدو رحل ، وتلك ظاهرة فريدة . ومن ثم فإن الموريتانيين ، وهم أكثر المجتمعات التي تغلب فيها صفة البداوة ، بعدا عن الأمية وجهلا بقواعد الدين وأحكامه .

(١) إن المحاضر لم تكتف بأن نشرت التعليم وأصول الدين بين جل أفرادها من الرجال والنساء ، وذلك من أعظم آثارها التربوية لا جرم ، ولكنها جعلت من الموريتانيين قوة متماسكة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية واعلاء كلمة الله والمحافظة علي شخصية بلادهم ، ومقارعة الاستعمار الفرنسي دون هواده وتلك نعمة عظيمة واثر تربوي باهر آخر للمحاضر في المجتمع الموريتاني .

(٢) أن المحاضر كانت المصدر الرئيسي في بناء الدولة الحديثة ، ولا سيما عهد الاستقلال ، وفي مدنها بالرجال في شتي القطاعات .

(٣) أن نظام التعليم الحديث في البلاد يعد بحق أكبر تحد أو منافس للمحاضر الموريتانية والتقاليد العريقة - كما أن زحف الجفاف وانتشار رقعة يمتل خطرا حقيقيا يهدد مصير المحاضر .

ولقد خلصت هذه الدراسة إلي المقترحات الآتية :

(١) أن نظام المحاضر اثبت جديته وفاعليته تربويا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا علي مدي قرون عديدة ، لذا فإن من الضروري جدا المحافظة علي هذا النظام وتطويره علي نحو يجعله قادر علي أداء مهامه وفقا لمتغيرات العصر الحاضر وهذا يتطلب من الدولة أن تدعم جهودها وما خصصته للمحاضر من ميزانية مستقلة ليستطيع أداء تلك المهام ببسر وسهولة .

(٢) أن تشجع الدولة ابتعاث خريجي المحاضر في البلاد الإسلامية ليتخصصوا في فروع المعرفة الإسلامية والحديثة حتى يمكن الاستفادة من خبراتهم تماما كما استفادت الدولة الحديثة ابان تأسيسها وما تزال من خريجي المحاضر في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

(٣) أن تنشأ دراسات مختلفة سواء داخل البلاد أو خارجها لجمع ما رفدت المحاضر الموريتانية التي تنتظر التصنيف والتبويب لتكشف للعالم أجمع كيف أن مجتمعا بدويا عاني من شظف عيش لأحقاب من الزمن استطاع أن يقدم للانسانية روائع فقهية وأدبية وغيرها .

(٤) أن تجري دراسات مقارنة لنظام المحاضر مع بقية أنظمة التعليم الاسلامي في الماضي والحاضر وما يمكن أن تسفر عنه مثل هذه الدراسات في الماضي والحاضر وما يمكن أن تسفر عنه مثل هذه الدراسات المقارنة من نقل للتجارب بين الشعوب الاسلامية والاستفادة منها علميا في اصلاح نظمها التعليمية .

وقد رافق التعليم دخول الاسلام موريتانيا علي يد حبيب بن عقبة بن نافع . وكان أول معلم عرفته موريتانيا هو عبد الله بن ياسين الذي أرسله عالم السوس واجاج بن زلو اللمطي إلي شنقيط سنة ٤٣٠ هجرى ليعلم الناس أصول دينهم . وبعد ذلك انتشرت العلوم الاسلامية مثل القرآن وعلومه من قراءات وتفسير الحديث النبوي الشريف والفقه . . . وخاصة في قبائل الزوايا مثل قبيلة " مدلس " وتاجكات .

وكان هذا من أهم الأسباب في نشاط المحاضر . أما التعليم النظامي الحديث فهو تعميم مختلط لأنه موروث عن الاستعمار الفرنسي وهو تعليم متعدد التخصصات ، حيث توجد ست شهادات ثانوية بتخصص الطالب فيها من البداية وهي : الدراسات الاسلامية ، والأدبية ، والرياضات ، والعلوم الطبيعية والفنية والزراعية .

ثانيا : الصلة بين القادرية والمحاضر :

إذا كان الدور الذي لعبته المحظرة رائدا فقد ساهمت إلى جانبها الزوايا التي يمكن اعتبارها إحدى تجليات هذه المحظرة في إطارها وشكلها الديني المقاومة للاستعمار لأن هذه الزوايا ظهرت في تشكيلات الطرق الصوفية التي دخلت بلاد شنقيط والتحم التصوف بالعلم في رحاب المحظرة ، وكانت الزوايا الصوفية في البلاد سندا للمحاضر في تدريس علوم القرآن والحديث والفقه المالكي وقواعد العقائد والسيرة النبوية والتاريخ وعلوم اللغة وغيرها (١) .

ولابد من الإشارة إلى الارتباط العضوي والتاريخي بين المحاضر كمؤسسات علمية تربوية والحركة المرابطية كأعظم حركة جهادية يعود إليها الفضل في تمكين الإسلام في موريتانيا وبقية دول غرب أفريقيا ، لقد نشأت المحاضر ابتداء في أحضان الزوايا أو ما أطلق عليه اسم الرباط ولم يكن الرباط صومعة للتعبد أو النفسك أو مدرسة لتعليم أولئك الذين انضموا فيما بعد لأصحابها فقط وإنما كان إلى جانب ذلك مهدا لإعداد المجاهدين في سبيل الله كما أثبتت الأحداث فيما بعد (٢) .

فكانت الطرق الصوفية رغم اختلاف أروادها ونظمها الخاصة تسعى نحو غاية واحدة هي الوصول بالنفس الإنسانية إلى درجة الكمال وكان التعليم الصوفي أحد الوسائل لتحقيق هذه الغاية وكان خير عون لذلك للمحاضر البدوية في موريتانيا (٣) .

لقد أثرت الحركة الصوفية في حركة العلم والمعرفة في البلاد فقد كان مشايخ الطرق الصوفية علماء تضلعوا من معارف المحظرة قبل التصدي للمشيخة والدعوة إلى الله ، وكانوا يرفضون تربية التمريد ما لم يكن قد أخذ بنصيب وافر من علوم الشريعة واللغة ، وقد أثري هؤلاء المشايخ المحظرة بأنفسهم ، لقد كانت جميع هذه الطرق روافد للتعليم المحظري ، ذلك أنها تفاعلت مع المحظرة تفاعلا حيا تمت فيها ونمتها ، كما شجعت حركة الأخذ والعطاء فساعدت المحظرة في النمو والإنتشار ، لقد مكنت الطرق الصوفية للمحظرة بما يسرت لها من أسباب الحماية ، فللعالم من حيث هو نصيب من الهيبة والاعتبار في المجتمع الموريتاني والمجتمعات المجاورة.

١ - محمد الصوفي بن محمد الأمين : المحاضر واثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ، رسالة ماجستير غير مشورة ، جامعة محمد بن سعود بالرياض ، عام ١٤٠٦هـ ، ص ١٤٤.

٢ - مجلة الامة القطرية : عدد ٦٠ ، السنة الخامسة ، ص ٥٣.

٣ - شوقي الجمل : الحضارة الاسلامية العربية في غرب افريقيا ، مجلة المناهل ، عدد ٧ ، نوفمبر ١٩٧٦م ، ص ١٤٥.

ولكن نصيب العالم من التقدير إذا صار شيخ طريقة صوفية أو مقدمها يتضاعف بشكل مذهل ، لقد استطاعت الطرق الصوفية والمحظرة من خلالها أن تخرق كل الحواجز وتمد الجسور بين قبائل شتي وأجناس وأراض مختلفة وأن تنظم قسوي بشرية لا تستطيع القبيلة تنظيمها ، وكانت بمثابة أحزاب سياسية قوية يسودها الانضباط والطاعة والمحبة (١) .

وقد تمت المحاضر والطرق الصوفية تيارا مناهضا للاستعمار الفرنسي وحولت المحاضر والطرق الصوفية الشعب الموريتاني من مجموعة من الرعاة إلي شعب يملك تقاليد ثقافية عميقة الجذور ودعاة وسط الصحراء وعند التخوم لحمل رسالة الاسلام وبسبب هذا الدور الثقافي للزوايا عامة . والطريقة القادرية خاصة - فقد اعتمد المستعمر الفرنسي في بداية حضرة علي أقطاب الصوفية من الزوايا ليتمكن من احتلال البلاد بأقل التكاليف إلا أن باتى الحاكم الفرنسي الجديد في موريتانيا منذ سنة ١٩١٤ اعتمد علي قبائل حسان وعمل علي استبعاد الزوايا ، وكان القصد من وراء ذلك القضاء علي العناصر الثقافية الاصلية التي بد أنها يعتبر الملجأ الاخير للمقاومة (٢) .

وكان من أشهر وأكثر وأوسع المحاضر التي انتشرت في التراب الموريتاني هي المحاضر القادرية ، والتي منها محظرة (أو حضرة) الشيخ محمد فاضل في منطقة الحوض ومحظرة أو مدرسة الشيخ ماء العينين في آدرار ومنطقة شمال موريتانيا ومحظرة الشيخ سعد أبيية وكذلك محظرة الشيخ سيديا ياب في منطقة الجنوب والجنوب الغربي الموريتاني وكذلك محظرة الشيخ التراد بن العباس في منطقة الحوض الشرقي ، وقد شكلت المحاضر التي أقامها أقطاب القادرية الاوعية التي يتلقي فيها أبناء الطريقة خاصة والشعب الموريتاني عامة علومهم ومعارفهم (٣) .

ولقد استطاع أقطاب القادرية نظرا لموقفهم الاجتماعي وبراعتهم الذهنية وخوارقهم - حسب مريدتهم - أن يؤسسوا هذه المجموعة الكبيرة من المحاضر في كل أنحاء التراب الموريتاني ، وأن يجمعوا في هذه المحاضر مجموعة من العلماء ذوي الاختصاصات العلمية المتعددة ، والذين التقوا حولهم بدوافع مختلفة منها الهروب من بطش الآخر والطمع في اللوال والمبايعة للروحية ووجود فضاء جديد قد يحقق فيه المرء ما عجز عن تحقيقه في فضاءات أخرى وحصول الشيوخ علي فائض انتاجي واعالتهم فيه الطلاب للقائمين علي تكوينهم (٤) .

١- فهمي هويدي : مجلة العربي الكويتية ، استطلاع ، العدد ٢٩٣ ، ابريل ١٩٨٣ ، ص ١١٠ .

٢- محمد الهادي : مرجع سابق ، ص ٢٢٠ .

٣- حيمد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ١٩ .

وقد لعب للتصوف في المجتمع الموريتاني في أدوارا مشابهة لتلك التي لعبها في المغرب حيث أنه - أي التصوف - قدم عن طريق الشمال ، فقد لعب دورا بارزا في نشر الاسلام في أفريقيا الغربية بالطرق السلمية كالانقاع والاستقامة في الدين لما كان للقادرية دور معلوم في مواجهه الاطماع الاستعمارية في المنطقة عن طريق توحيد صف الامارات في اجتماع تتدوجه التصالحي الذي أشرف الشيخ سيديا الكبير لتأمين ظهر امارة الزرزة في حالة حربها مع الفرنسيين ، أما علي المستوي الاجتماعي فقد استطاعت القادرية أن تخترق كل الحواجز وتمتد الجسور بين قبائل شتي وأجناس وأعراق مختلفة وأن تنظم قوى بشرية لم تستطع القبيلة تنظيمها فكانت بمثابة أحزاب سياسية - مع بقية الطرق - قوية يسودها الانضباط والطاعة والمحبة ولقد بدأت طلائع القادرية الأولى تلج بلاد البيضان في القرن العاشر الهجري - ال ١٦م الآن اتساعها ولنتشارها لم يظهر الا في نهاية القرن ال ١٨ مع ظهور الشيخ سيد المختار الكنتي المتوفي سنة ١٨٢١م .

ومن ثم عمت القادرية جميع انحاء البلاد وتشعبت وكثر مريدوها وارتبطت ارتباطا وثيقا بالمحظرة حتي أصبح التصوف عامة والقادرية خاصة من المقررات التعليمية في الكثير من المحاضر كما كان حضورها - القادرية - فعالا في الانتاج الثقافي في البلاد خاصة في القرن ال ١٩ فكان أشياخها فقهاء بارزون وأصحاب محاضر كبيرة كما كان انتاجها للفكرى والفقهى والأنبي عم البلاد سواء عن طريق مؤلفاتها أو عن طريق محظريهم الكثيرة الانتشار (١) .

كما كان علي رأس أقطاب القادرية الشيخ محمد فاضل الذي استطاع من خلال العوامل التي سبق ذكرها وبفضل جو الأمن الذي توفرة القداسة الروحية للشيخ علي انتعاش محظرة التي كان يدرس فيها شخصا وبوجه الاسانذة نظرا لعزازه علمة الكبسي والوهبي حتى بلغ مبلغ الاجتهاد لقد تضافرت مجموعة من العوامل التي كان لها الدور الاساسي في خلق نواة هذا العطاء الثقافي والعلمي من خلال تشكيل محظرة الشيخ محمد فاضل ومحاضر أبنائه من بعده وحسب توجيهه لهم (٢) . فقد استطاع الشيخ محمد فاضل أن يرسل ابنة الشيخ ماء العين إلى الشمال الموريتاني (٣) .

١- محمد الامين - السلطة والفقهاء - مرجع سابق ص ٧٦/٧٥

٢- محمد فاضل بن محمد الخطاب : الطريقة الفاضلية ، مرجع سابق ص ٩٧

٣- الهيبة ولدسعد اييه : الشيخ ماء العينين : مرجع سابق ، ص ٢٥ .

كما أرسل إبنه الشيخ سعد أبيه إلى الجنوب الغربي ويستقر إبنه الشيخ محمد تقي الله بمنطقة ولاته غير بعيد عنه علي ملتقي طرق القوافل القادمة من الغرب إلى السودان الغربي ، إذا توحى هذه المناطق التي أرسل إليها الابناء الثلاثة بعدم العفوية في إختيار مناطق استقرارهم وتسمح بتفسير هذا التوزيع الجغرافي علي أنه كان بدافع إيصال خطاب الطريقة للصوفي وتثبيت مدرستها في كافة المجال الموريتاني أو خارجه وتأسيس آرائها وعلومها ونشرها خاصة و أن كل واحد من الابناء أمام محظرة ليعلموا الناس دينهم ابتغاء الدار الآخرة وليس بدافع آخر ، وقد كان للشيخ محمد فاضل مؤلفات قيمة أسست للجانب الصوفي للطريقة وبيئت مجالات إهتمام الطريق ، وقد تعددت المحاضر القادرية بعد وفاة الشيخ محمد فاضل بتعدد بنيه وأحفاده وإن تفاوتت بشكل ما بين أحجامها وعطاءاتها ولعل من أهم هذه المحاضر المتأخرة زمنيا تلك التي أسسها الشيخ التراد بن العباس بعد استقراره في منطقة اكوينيت في الفترة (١٩٣٣/١٩٤٥) (١) بـتخرج منها علماء ما يزال بعضهم حيا متشعباً بأراء المدرسة الترادية .

لقد ازدهرت هذه المؤسسات وازدهر معها العطاء الثقافي في موريتانيا حتى ظهر من بين أهلها فطاحلة غلماء وأدباء لا يقلون شأنًا عن مشايخ التتوير في المشرق العربي (٢) .

وقد قدم هؤلاء العلماء القادريين مجموعة غير يسيرة من التأليف والمصنفات التي تتم عن سعة اطلاع أصحابها كما كانت هذه المؤسسات هي الاوعية العلمية التي اضطلعت برسالة التعليم في موريتانيا ، وكانت مؤلفات شيوخ الطريقة تتضمن الموضوعات المثارة مرحليا ويتطلبها وضع الطريقة الزماني والمكاني وهذه المؤلفات وفرت المرجعية الفكرية والاطار النظري للطريقة وممارساته وعلاقاتها البيئية كما وفرت المستند الشرعي الذي يبرر ويقتن علاقاتها بالآخر ، وقد وضعت المحاضر التي أقامها أقطاب القادرية الاسس التي اعتمدت عليها الطريقة القادرية خاصة محظرة الشيخ سيدنا ياب الذي مكنته مستواة التعليمي المحظري وثقافته الموسوعة أن يلعب هذا الدور العلمي والثقافي علي أكمل وجه ولقد أولي الشيخ سيدباباب محظرة والتي عرفت ازدهارا عظيما في عهد الشيخ سيدبا الكبير وابنه محمد غناية خاصة وساهم مساهمة فعالة في جعلها تستمر في بث اشعاعها الثقافي والتعليمي بوصفها واحدة من أشهر محاضر القادرية في بلاد شنقيط.

١ - محمد فاضل بن محمد الخطاب : الشيخ التراد ، مرجع سابق ص ٣٢.

٢ - الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٣ .

فلجأ إلي اتباع طريقة شبه محدثة في التدريس بمحظرة مثل لقاء الدروس حسب جدول زمني محدد ومرسوم وجعل الدروس تشمل جوانب مختلفة من العلوم كالتدريس المنطق إلي جانب الأدب والفقه والمعارف الشرعية الأخرى كما كان يفقد اجتماعات دورية مع الاساتذة والوجهاء ليتدارس معهم المشاكل المطروحة وأخذ يجلب الكتب النادرة من المغرب والسنغال مما جعل مكتبة المحظرة تأخذ نفساً جديداً مع قائمة الكتب النادرة والنفيسة التي جلبها لها ووفرت لطلاب محظرة فرصة الاطلاع علي بعض نفائس الكتب التي سمعوا بها الا أنه لم يكن بمقدورهم الحصول عليها لعلائها وبعدهم عن أماكن توفرها، وقد استعاد من اقتنائه لتلك الكتب ليس فقط بما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدب بل أنه تمكن من خلالها من الاطلاع علي أحوال العالم في ذلك الوقت السياسية والاجتماعية والثقافية (١) .

كما استطاع الشيخ سيديا بفضل جهوده هذه أن يجعل من محظرة محط انظار التلاميذ من أصول شيء أكبر قسم يأتي من تجمعة القبلي (أولاد انشاييت و أولاد ابيري) فضلاً عن التلاميذ الذين يأتون من التراززة والبراكنة والعصابة وإبرار وتكانيت . بل أن صيت محظرة تجاوز حدود بلاده شنتيط إلي الاقطار المجاورة وغير المجاورة ومن أهم الاقطار التي كان التلاميذ يقدرون فيها بكثرة علي محظرة الشيخ سيدي السنغال وغينيا ومالي وغيرها ، ولم يكن يحدث مثل هذا الاقبال لولا ما يلقي في هذه المحظرة من دروس علي مستوي علمي رفيع ولولا ما تلقى من اهتمام ورعاية من القائمين عليها وخاصة شيخها الشيخ سيديا ياب ولم يقتصر دور الشيخ سيدياباب علي التدريس والاشراف علي نمو وازدهار محظرة بل امتد إلي الاسهام في إثراء الساحة الثقافية بالتحقيق والتأليف وحتى الاجتهاد الذي مال إليه وهو في العشرين من عمرة أو لجأ وهو في تلك السنة المبكرة إلي الرجوع إلي منابع الاصلية للشرع (الكتاب والسنة) والتعمق في دراستها... والإبتعاد عما سواهما وقد ألف الشيخ في العلوم الشرعية وخاصة الفقه كما ألف في التاريخ وغيره من العلوم الأخرى (٢) .

أما عن محظرة الشيخ ماء العينين فإنه بعد أن قضى المرحلة الأولى في تحصيل العلوم وتلقى التربية الروحية على يد والده وقد أذن له شيخه ووالده بالرحيل إلي منطقة جديدة بعيداً عن منطقة والده دخل الشيخ في المرحلة الثانية وهي مرحلة العطاء العلمي والروحي وتمثل مرحلة العطاء العلمي وتظهر في كثرة تأليفه العلمية وما تتلمذ عليه من الجموع الغفيرة من البشر بمدرسة باسمارة حيث أصبحت كعبة للطلاب وسوق العلم والأدب رائحة حتى فاق عدد تلاميذ عشرة آلاف .

١ - حماد ولد مولاي : تحقيق مخطوط ، رسالتين ، ص ٧-٩ .

٢ - محمد فاضل : مرجع سابق ، ص ١١٠ .

وكان لأسماره مميزات خاصة في قلب الصحراء الغربية حيث كانت رباطاً روحياً وفكرياً تنتشر فيه المعارف الدينية واللغوية ومركزاً للجهاد ونظراً لما لمحظرة الشيخ ماء العينين من مكانه عظيمة في موريتانيا أطلق عليها اسم مدرسة ، وانطلاقاً من حرص الشيخ علي الهوية العربية والدين الإسلامي باعتبار الوحدة العقائدية التي يلتفت حولها المسلمون فجر الشيخ فكرة الجهاد ، ومثلت اسمارة الوجهة الأكثر نصاعة وأوضح وأكثر أهمية من حيث أنها خرجت مريدتها علي فكرة كراهية الاستعمار الأجنبي وكما كانت اسمارة جامعة علمية ومكتبة كان لها إشعاعها الرائدة في هذه الصحراء المترامية الأطراف ورغم وقوعها تحت قبضة الاستعمار سنة ١٩١٠ وفقدتها بذلك الكثير من ذخائرها العلمية وكنوزها الدينية غير أن ذلك لم يفقدها قوتها الثقافية وإشعاعها الديني بل أصبحت تشع به على الكثير من المناطق الشمالية التي إستقطبت الكثير من الزعماء في رفع الإشعاع الثقافي ضد الغزو الفكري الإستعماري .

أما عن مؤلفات الشيخ ماء العينين فقد اهتمت بالجانب الفقهي واللغوي كما اهتمت بالتأسيس لأصول الطريقة ومبادئها وكان له في التصوف مباحث هامة ، ومن أقطاب القادرية الذين أسهموا في الحياة الثقافية والعلمية في موريتانيا الشيخ التراد بن العباس الذي عاش في منطقة الحوض يتلقى تعليمية في محظرة عمه الشيخ سعد أبيه ثم جاءت مرحلة العطاء مبكرة في حياة الشيخ التراد وكان لطبيعة المجتمع الموريتاني الترحالية وطبيعة التعليم فيه والمطبوعة بسمات الظعن جعلت الشيخ المحظري بلقى دروساً ماثياً مسرعاً مرة ومرة جالساً في بيته ومرة في المسجد ولا يعرف تاريخ ولا مكان محدد لبداية مرحلة العطاء العلمي لمحظرة الشيخ التراد والذي يبدو أنه بدأ منذ مغادرة محظرة خاله محمد المختار ولد أحمد إلا أن هذا العطاء لم يصبح مركزاً وبشكل فعال إلا مع مرحلة الاستقرار والتي انتهت بالإقامة في منطقة أفوننية سنة ١٩٣٣ (١) .

وقد أسس الشيخ التراد محظرة حيث تضافرت عوامل جديدة كان لها دور أساسي في تشكيل هذه المحظرة إذا استطاع الشيخ التراد في ترحالاته حيازة بعض العلماء الأجلاء إلى جانبه فضلاً عن الكتب التي استطاع الشيخ جمعها وعامل الاستقرار الذي يعتبر ذا أهمية قصوى في تنمية المعارف وتطويرها هذا فضلاً عن التحسن الاقتصادي الناجم عن إنشاء سد أفوننية يضاف إلى كل ما سبق الأهمية القصوى التي أولاهها الشيخ للعلم والمتعلمين (٢) . محبياً ذلك وداعياً بتقريب العلماء وإثارة العلم بالحديث والمال وتشجيعهم علي توجيههم بالإضافة إلى نفقة اللا معوضة علي طلبة العلم لتصدق به مرة أخرى رؤية الخليل النحوي التي يقول عنها (وغالباً ما يتفق شيخ المحظرة بدوية كانت أو حضرية من ثروته الخاصة أن وجدت في أعالي الطلبة ، يتفق عليهم بسخاء دون أن يطلب علي بره جزاء وذلك من كمال استاذية (٣) .

١-٢- محمد فاضل : الشيخ التراد مرجع سابق ، ص ٢١-٢٢ .

٣ - الخليل النحوي : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

أما مؤلفات الشيخ التراد للمتأخرة زمنيا فقد اعتنت بالدفاع عن الطريقة نظريا بتفقيتها من الشوائب التي لحقتها محاولا ربطها بالاصول في نزعة لا تخلو من نزعة سلفية ، وهذه المؤلفات المؤسسة والمدافعة وفرت المرجعية الفكرية والاطار النظري بهذه الطريقة وممارساتها وعلاقتها بمن حولها كما وفرت المستند الشرعي الذي يبرر ويفتن علاقاتها بالآخرين ، ولم يتوقف نشاط الطريقة القادرية علي تلقين الأوراد بل تخطت ذلك إلي اعتبار التعليم عملا أساسيا في دائرة نشاطهم وصارت زواياهم ومحاضرتهم ومدارسهم بمثابة مراكز للصلاة والذكر جنبا إلي جنب مع الدراسة والتعليم وأصبحت مصدرا للفتوي والتعليم تعقد فيها جلسات القضاء المحلي ولعبت دورا هاما في نشر العقيدة الاسلامية وتنقيتها من البدع والشوائب التي امتزجت بها (١) .

ولقد كان للموقع الاجتماعي الذي نبأه أئمة القادرية في موريتانيا ومحاولة منهم لتأصيل هذه المكانة عمل شيوخ القادرية علي خلق منظومة ثقافية وفكرية وعلمية ، وعلي الرغم من حداثة تأسيس هذا المجتمع فإن مجهود رجال القادرية كان واضحا وظاهرا ومؤثرا في المجتمع الموريتاني ، فعلى المستوى الفكري تبنت القادرية خلق مؤسسة دينية ثقافية تعمل علي نشر العلم المتداول محليا حتى خرجت مجموعة متعلمة ومعلمة علي مستوي العلوم الظاهرة ، ولقد تضافرت مجموعه من العوامل كان لها الدور الأساسي في خلق نواة هذا العطاء الثقافي من خلال تشكيل ما عرف بحضرة الشيخ محمد فاضل ، ويطلق الموريتانيون علي المدارس الاهلية المتخصصة في تعليم القراءة والكتابة والعلوم الظاهرية اسم محطرة كما يطلقون علي المؤسسات الصوفية اسم زوايا ، بينما اختصت مدارس الشيخ محمد فاضل في وكرها الأصلي بالحوض (علي الأقل) بإسم الحضرة وهو مصطلح ذو دلالة روحية وهو يعنى الحضرة إذا كان الشيخ ومن ينوب عنه قائما عليها ، وهذه التأليف والمصنفات تضم مادة ثقافية وتاريخية شاهد إلي حد ما في اعطاء صورة للمساحة الفكرية الموريتانية وتداخل الازمة الثقافية والسياسية بها خلال القرن ال ١٩ والنصف الاول من القرن العشرين .(٢)

١ - محمد فاضل - الطريقة الفاضلية - مرجع سابق ص ٩٨

٢ - عودة عبد الرحمن - مرجع سابق ص ٣١٩ .

ثالثا: النظام التعليمي الصوفي القادري :-

تتمحور عملية التربية الصوفية عند الشيخ ماء العينين علي أربعة أطراف (أ) الداء وتجسده ، رباعية (النفس والهوي والشيطان والدنيا) (ب) ويمثلة المريد (ج) ويمثلة الشيخ وهو بمثابة الطبيب الذي يقوم علي عملية التربية . (د) المادة الدينية النقية من كل الشوائب التي لحقت النصوص عن طريق التأويل أو الدس (١) ، ولتفصيل العلاقة بين هذه الأطراف الاربعة جاء علم التصوف كفن متخصص يرتب قوانين هذه العلاقة وتفاعلاتها ، لأنه علم به صلاح القلوب وبه تهذيبها وبه إنكشاف الحجب عنها ، ومن هذا المنطلق حاولت الطريقة القادرية خلق نسق فكري خاص بها يحدد ويضبط آليات هذه العلاقة ليقوم بدور التصوف لانتشال المرء من كثرة الاهواء ورعونات النفس إلي صفاء للمشاهدة وضياء الحق حسب ما يري أقطاب الطريقة لتحقيق هذا الهدف التهديبي (٢) .

وللطريقة القادرية آداب وضعها إقطابها والتي يجب علي المريد أن يتخلق بها ، يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثل به ونهى يجتنبه ، وقدر يرضى به (٣) .

وكان لهذه الطريقة أنماط من السلوك تحكم عملية تربيتها لمريدها طابع هذه الأنماط الجبرية والإلزامية حتى أصبحت شعارا لها تعرف به ، يغبطها عليه المتعاطفون معها لاتفاقهم وإياها في أرجحيته وربما قدسية المصادر التي تستوحي منها شرعية ممارساتها ويأخذ عليها المتمسكون بظاهر الخطاب الشرعي من الفقهاء الذين يعتبرون أن سن آداب ما والالتزام بها وإضفاء صفة الواجب واللازمة عليها وهو بمثابة إبتداع في الشرع غير مبرر ، وردا علي هذا الاعتراض كان الشيخ محمد فاضل يري أن الشروط والآداب في طريقة إنما هي التزامات مما يلزم أصلا ، إلا أنه لما كان أهل الدنيا ضبطوا أمر دنياهم ورتبوا فيها لانفسهم أمورا مكملة لأغراضهم ، وضبط أهل الآخرة أحوالهم في وجهتهم إلي الله تعالى من جهه الآداب لها علي جهه اللزوم ، وجاراه إينه الشيخ ماء العينين في هذا الرأي حيث يقول :-

١- الشيخ ماء العينين : نعت البدايات وتوصيف النهايات ، الرباط عام ١٤٠٢ هـ ، ص ص ٣-٢٥ .

٢- الشيخ عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٦ .

٣ - - الشيخ ماء العينين : نعت البدايات وتوصيف النهايات ، مرجع سابق ، ص ٢٥

" إن كل ما يروي من الشروط والآداب إنما هو علي وجه الكمال لا علي وجه اللزوم ، ومن إستدام ذكر الله لا بد من نجاحه إلا إنه مع الشروط والآداب أسرع نجاحا وجملّة ما تهدف إليه هذه الشروط والآداب هو أن يكبح جماح طموحات النفس وكسر شهوتها وميولاتها المخالفة للشرع وفق عملية يتعارف عليها أهل التصوف بتسميات عديدة من بينها جهاد النفس أو عملية التربية أو السلوك وغيرها"

جهاد النفس :

تعتبر القادرية أن جهاد النفس هو لب عملية التربية الصوفية وهو ما تسميه أحيانا بالسير على الصراط المستقيم أو المنهج النبوي من أجل تحقيق الكمالات والوصول إلى الغاية العليا والهدف الأسمى.

ومن أهم أمراض النفس حسب منظومة مطية المجد للشيخ محمد فاضل:

- ١- النفس موطن الشهوات وكهف الظلمات وحتى يخرج المريد من هذا الوضع عليه قرع باب التوبة بالإنكار والطاعات .
- ٢ - من عوائق الترقى التسويف والإصرار على الذنوب والغفلة والتواني في التوبة وعلاج هذه الأمراض بالذكر جهرا.
- ٣ - التظاهر بالخشوع والعبادة من غير أن يكون ذلك في السريرة .
- ٤ - الإفتخار بالعلم ومباهاة النفس به من أجل الرياسة والتكبر على الأفراد ونيل الفوقية عليهم والعلاج يكون بتذكير النفس بأن ما وصلت إليه هو منة من الجليل وعلى النفس الشكر لة بالتواضع .
- ٥ - كثرة الكلام من أجل إظهار الفضل أو الرفعة أو القدرات الذهنية المادية والعلاج يكون بزجر النفس وتذكيرها بالحساب في الآخرة والحض على كثرة الصمت.
- ٦- استحسان النفس لكل ما تقوم به من أعمال واستهجانها للأعمال والآراء المخالفة لها ، وذلك لجهلها بالعاقبة ولو علمت أنها مستورة عن الجميع والعلاج زجر النفس وإتهامها بأن ما تشعر به هو من الشيطان لأن من كرمت عليه نفسه هان عليه دينة وقل يقينة . (١) .
- ٧ - الشبع الذي يعتبر السبب الرئيسي للكسل وعنه ينجم كل داء وكلما يشنع وتترقي النفس في هذه الحالة بالجوع الذي يورث علو الهمة واستعدادها بالطاعة وتذكيرها بالافتقار إلي خالقها والرغبة والرغبة إليه وكانت هذه الآداب القادرية التي وضعها أقطاب الطريقة القادرية علي جهة اللزوم .

١ - محمد فاضل : الطريقة القاضلية مرجع سابق ، ص ٢٤ .

وغير ذلك من أمراض النفوس مثل كثرة اتباع الهوى والتطلع في الطاعة والرجبات الشخصية وكثرة الذنوب والانتعاس في اللذات والمخالفات مما يجر القسوة للقلب والجهل والغبوة ، وكذلك الاهتمام بالرزق وهو مضمون سلفا وأيضا إظهار الطاعات للناس كي يخشوا المرء نظرا لعبادته كما أن من أمراض النفوس الرغبة في الراحة والدعة كما أن انسحاب الصالحات من أعمالها والهروب من الشرع إلي الدعاء و الاحوال .

هذه نماذج من أمراض النفوس التي اعتني بها الشيخ محمد فاضل بإبرازها ومحاولة إيجاد حلول وأدوية ناجحة لها مع أن أمراض النفس عنده لا تقف عند حد يمكن معه حصرها لأنها تتعدد بقدر ودرجة تلبس الفرد بالمخالفات كما تتعدد حيل الشيطان ومكائده الموصوفة في القرآن الكريم . وبصفة عامة يمكن علاج هذه الأمراض باتباع الآداب والألزامات التي تنظر الطريقة لها كالخلة بعيدا عن الناس والجلوس للذكر علي هيئة تقتضي الخضوع والذل لله وإغماض العينين في الذكر والسهرة والصوم وغيرها وهي رياضة قل من سلم منها حتى أن مؤسس الطريقة الفاضلية القادرية ذكر مالاقاءة في رياضاته الروحية في التعب والشدة ، وهذه المجاهدة بشروطها الإلزامية واجبة علي سالك الطريقة وهذه المجاهدة شروطها الإلزامية واجبة علي سالك الطريق الذي يفلح غالبا معها بسرعة خاصة إذا أقبل علي شيخ قادر علي تربيته متممة بسمات القوم المنشودة في الشيخ المربي وهي حديث الفقرة القادمة .

خصائص الشيخ عند القادرية :

تتطلق الطريق القادرية من مسلمة مفادها أن هذه الأمة انفتحت خلفا عن سلف أن أول ما يجب علي المريد بعد انتباهه من الغفلة أن يعمد إلي شيخ ناصح عليم بعيوب النفس وأغراضها كي ينقذ من دنس الشهوات ورعونات الاهواء ويكشف له عن أمراضه النفسية ويصف له علاجها بما يناسبها من آداب وتربية القوم ويرى الشيخ عثمان بن فودي ، أن للشيخ المربي خمسة شروط هي الأول علم صحيح مأخوذ من الكتاب السنه والثاني ذوق صحيح والثالث همة عالية والرابع حاله مرضية موافقة للكتاب والسنة علي حسب ما عليه مشايخ الطريقة بتلك البصيرة النافذة والخامس بصيرة نافذة يتستل بظواهر الأشياء علي بواطنها بتلك البصيرة (١)

١ - عثمان بن فودي : كتاب أصول الولاية ، نيجيريا ، ص ٩ .

وشيوخ الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني يرى أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم علي أصول صحيحة من التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل (١) .

ومن مهام الشيخ الأساسية إيقاظ روح المريد من الغفلة وكشف الجانب الروحي للكامن في نفس المريد ومثالب النفس وتقاثلها من منطلق حديث (من عرف نفسه عرف ربه) قيل حديث وقيل للإمام علي بن أبي طالب والأخذ بأيديهم في السير علي طريقة الله خطوة خطوة للوصول إلي المعرفة (الصوفية) .

ونظرا لأهمية علاقة الشيخ بالمريد في الطريقة فقد تم تقنين عدد من القواعد الأساسية التي تحكم هذه العلاقة منها وجوب تعظيم المريد لشيخه واحترامة وتوقيره في حضرة وغاية وتقديمه علي غيره وعدم الالتجاء لغيره من الصالحين وألا يجلس وشيخه واقف ولا ينام في حضرة الا باذنه الا في محل الضرورات ولا يكثر من الكلام بحضرة ولا يمشي أمامة ولا يعترض عليه في شيء قعلة معه أو مع غيره ولا يتجسس عليه وغير ذلك من الآداب ، ومن القواعد التي أجمع عليها أهل الطريقة والتي تعتبر دستوراً للمريدين تتمثل في الطاعة التامة والتسليم الكامل للشيخ في كافة الأمور الدينية والدنيوية . كما أن علاقة الشيخ بالمريد بعلاقة ذات طبيعة خاصة لا يعرف أبعادها إلا من عاشها ، ومن ثم يتضح أن تنشئة المريد في الطريق الصوفي لا تعتمد أساساً علي الدراسة والعلم وهذا ما جعل الصوفية في موريتانيا - وفي غيرها - يقولون هذه العبارة (الشيخ يربي المريد بالحال لا بالمقال) (٢) .

ويحدد القادرية مفهوم الشيخ بأنه شخص حدثت نقلة في تكوينه الذهني وانعكست علي تصرفاته العضوية سواء حصل ذلك عن طريق عناية باطنية وهو ما يسمونه بال جذب الألهي أو عبر الترقى بواسطة السلوك والتربية أي ما يسمونه بال جذب بالسلوك وخاتمة هذا الجذب الالهى أو السلوكي هو أن يكتسب المرء القدرة علي ضبط الحالة وتربيتها وفق مسطرة التقويم الشرعي النصي منه خاصة ، ويبرز في معرفة أمراض النفوس وأدويتها بحيث يتخرج حازماً في اكتشاف تلبسات الأهواء وإستراتيجيات الشيطان للمريد .

١- القشيري : مرجع سابق ، ص ٣ .

٢- منال عبد المنعم جاد : مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

حتى يصبح سلوكه وتعاليمه أو ربما حتى مجرد بيعته ولو عن ظهور غيب يعلمك بمقاله وينهضك بحالة وهو الذي إذا طليت همته سبقت، لا من إذا دعوتها أدركت ولحقت وهو الذي يحفظ المريد بكلاعة ويرحية من العناء بعناية ، ويلزم ذلك حسبما رأينا سابقا عند إقبالة علي عالم الآخرة وتنكبه للدنيا أن يعتمد إلى شيخ خصائصه كالسابقة فيبايعه علي ما بايع عليه الصحابة الرسول المعظم صلي الله عليه وسلم وتعتبر الطريقة القادرية أن هذه البيعة واجبة في الطريق وسبيل الشيوخ في البيعة هي سبيل الصحابة لأنهم حسب رأيهم ورائهم وانطلاقا من هذه الوراثة تلزم الطريقة القادرية المريد بمجموعة من الآداب والالتزامات الشرعية وتفرض عليه استجابة غير مشروطة للقائد الروحي لكي يتمكن الشيخ من ترفيته وإنتشاله والنظام التعليمي القادري يحث المريدين علي السير في المنهج الإسلامي المستقيم وإصلاح قلوبهم بالتقوي والطاعة لله ولرسوله في حياتهم وسلوكهم أمثال الأوامر واجتتاب النواهي وإصلاح القلوب حقيقة بإبتعادها عن كل ما يشينها حتى تنقى مما فيه من القاذورات التي تبعداها عن ربها من المحرمات والمنكرات التي نهى الشرع عنها .

ولقد لعبت تعاليم المدرسة القادرية دورا كبيرا في ربط حركة التصوف في موريتانيا بنظيرتها في العالم الإسلامي بعد أن كانت مرتبطة بالبيئة المحلية وموقوفة عليها كما أسهمت مؤلفات أقطاب القادرية في جذب المريدين نحو العلم مما أدي إلي إتساع مداركهم وأشتهر ذلك في نقل التصوف من الجانب الروحي إلي الجانب الفكري وصارت أفكار رجال القادرية في موريتانيا مزيجا من أفكار العلماء ورجال التصوف ولا يقل الاثر الاجتماعي الذي أحدثته تعاليم المدرسة القادرية في موريتانيا أهمية عن أثره السياسي والفكري .

ولقد ظهر أن تعاليم المدرسة القادرية قد أثرت تأثيرا ملموسا علي العديد من الطرق الصوفية الأخرى في موريتانيا ، كما أسهمت التعاليم القادرية في دخول التصوف في السودان الغربي في طور جديد يبيث روح التجديد والإصلاح فيها بعد أن كانت تعاني من الركود والتفكك ، وقد ظهرت نتيجة لتلك التعاليم التجديدية فروع للقادرية ذات قيادات مركزية وراثية وأدي حصر الزعامة في أسر مؤسس هذه الطرق إلي إحفاظها بمكانتها وتماسكها خلال العصور المختلفة حتى الاستقلال (١).

إلا أن أمر المربي غالبا ما يلتبس علي غير ذوي الاختصاص ولا سيما عند الجمهور ، فكلمة شيخ مثلا تستخدم عند الأهالي مرادفة لكلمة ولي كما تختلط بمصطلح الشريف أو غيرها من الكلمات الدالة علي القيمة المضافة ذاتيا أو إسقاطيا علي فرد .

١- أبو بكر القادري : مرجع سابق ، ص ٢٩٣ .

شروط الشيخ:

لا يشترط في الشيخ أن يكون صاحب كشف بالطريقة القادرية لا ترى في الكشف شروطا لأن يكون الشخص شيئا كما أن الطريقة القادرية ترى أن الشيخ - نسباً - لا يمكن أن يصبح تلقائياً مريباً بمجرد حوزة نسبة الانتساب إلى ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ويتضح ذلك من إجابة الشيخ المحفوظ علي هذه المسألة لما سئل ، هل يجوز للشيخ أن يشيخ من غير إذن ولا أهليه أم لا ؟ فأجاب إن ذلك لا يجوز ولا يصح ولا معنى له في الاقتداء إنما يكون بواصل يصلح للتأديب قد فرغ من تأديب نفسه وتهذيبها علي يد طبيب ماهر بالقلوب والنفوس والأرواح فالبيعة لا ينبغي أن تأخذ إلا علي كامل في نقسة مكمل لغيره (١) .

المريد :

ومعني المريد عند القادرية هو لفظ يعني الاقتداء بشيخ صوفي بغية الترقى في السلوك وجهاد النفس للتحقق بمقامات العارفين وهو ما يعرف بمنهج المريد الصادق

آداب المريد:

وللمريد عند القادرية آداب مع شيخة تلزمه بها وهي مجموعة من الآداب منها أن يصحب شيخة بالاحترام والتعظيم ويتابعة في المنشط والمكره ويكشف له عما يعرض له في سيرة إلي ربه أو يحظر في ضميرة وباله ولا يعصي له أمراً .

ومن آداب الطريقة القادرية التي يجب علي المريد أن يتخلق بها كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني :- أنه لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثل به ونهي يجتنبه وقدر يرضي به ، وعلي المريد الصادق أن يحرص علي التواصي بالخير والصبر عند البلاء والغني عن الخلق والعمل بجدة للتقرب الي الله عز وجل والتسليم لأمر الله وأن يعيش بين الخوف والرجاء وأن يرضي بما قسمه الله تعالى له ومن الصفات التي يأمر بها الشيخ عبد القادر مريديه أن يتصفوا بها أن لا يحلف بالله عز وجل صادقاً ولا كاذباً عامداً ولا ساهياً وأن يتجنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً وأن لا يخلف الوعد وأن يتجنب أن يكون لعاناً وأن يتجنب الدعا علي أحد من الخلق وأن لا يقطع الشهادة علي أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق وأن يتجنب النظر الي المعاصي وكيف عنها جوارحه وأن يقطع طمعه من الادميين وأن يكون متواضعاً وأن يكون بالخلق جميعاً رحيماً وكان من آخر وصاياه لأحد تلاميذه (عليك بتقوي الله عز وجل ولا تخف سوي الله ولا ترج أحداً سوي الله وكل الحوائج الي الله عز وجل ولا تعتمد الا عليه واطلبها جميعاً منه تعالى ولا تتكل علي أحد غير المولي سبحانه وتعالى) (٢) .

١ - عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

٢ - محمد فاضل : مرجع سابق ، ص ١١٩ .

والمدرسة القادرية في موريتانيا كسائر المدارس الصوفية التجديدية التي حملت لواء الإصلاح الديني خلال القرن التاسع عشر نادت بضرورة تنمية الدين وتطهيره مما علق به من شوائب وبدع وخرافات ، وقد ضمنت تعاليم تلك المدرسة في معظمها كتب رائدها الأول الشيخ محمد فاضل وأبنائه وعلي رأسهم الشيخ ماء العينين وأساس تعاليم المدرسة القادرية كما يتضح في كتب أقطابها هو اتباع الكتاب والسنة مع التحذير عن الاهتداء بغير هديها والاشتغال بغيرها .

النظام التعليمي المحظري :

لقد استطاعت الطريقة القادرية من خلال عملها الاجتماعي والتعليمي وبدعم من قدرات مؤسسيها الشيخ محمد فاضل الوهبة والكسيبة أن تخلق إطاراً جديداً يشكل بديلاً أفضل أسسته نظرياً من خلال عطائها الثقافي .

وقد حددت من خلال هذا العطاء الثقافي خصائص المريد (التلميذ) والشيخ (المعلم) وعلاقتها البيئية ساعية إلى صقل الشرع من الدخن الذي أصابه .

واحييت من الدين ما رأته غافياً ومركزة من خلاله علي ممارسات أسست لها نصياً حتى أصبحت نظراً لانفرادها بها تشكل أهم خصائصها المميزة التي سمحت لها بالانتشار حتى أقاصي الحدود الموريتانية ولتتسرب عبر هذه الجبود إلي البلدان المجاورة كما أسهمت القادرية في النشاط التعليمي في مجتمعهم وشاركوا بجهد كبير في تعليم الصبيان في الزوايا بالإضافة إلى دورهم في تدريس العلم في المساجد كما كان لهم مؤلفاتهم العديدة في مختلف فنون العلم العقلي والتي طبع منها العديد والباقي لا يزال مخطوطاً ، وقد استفاد من هذه المؤلفات شرائح واسعة من الشعب الموريتاني وغيره من شعوب غرب أفريقيا الذين جاءوا إلي هذه المحاضر والزوايا لينهلوا من تلك العلوم ويتعلموا علي أيدي هؤلاء الشيوخ القادرية (١) .

ولعبت هذه الزوايا والمحاضر القادرية دوراً ثقافياً وإجتماعياً هاماً في تاريخ موريتانيا ويتضح مما سلف ذكره أن بعض الطرق المنبثقة عن القادرية لعبت دوراً بارزاً في المحيط السياسي خلال فترة حكم الإمارات والدارس للطريقة القادرية يري ان هذه الطريقة القائمة علي التربية والتكوين والإرشاد خالية من كل بدع أو طقوس غير شرعية وان وصايا أقطابها تحض علي اتباع الكتاب والسنة وعدم الانحراف عنهما وان غايتهم هي تربية المريدين علي السير في المنهاج الاسلامي المستقيم واصلاح قلوبهم بالتقوي والطاعة لله ورسوله في حياتهم .

١ - حسين سيد عبد الله - المتصوفة في المغرب الأقصى ص ١٣٣ .

السياسة التعليمية الفرنسية في موريتانيا :

في واقع الأمر لا يمكننا أن نفصل بين السياسة الاستعمارية في مجال التعليم والسياسة الاستعمارية المتعلقة بتنظيم المستعمرة الفرنسية لموريتانيا ذلك أن السياسة التعليمية الفرنسية هي أساسا أداة للهيمنة الثقافية علي الشعوب و لإحلال القيم الفرنسية والحضارة الفرنسية محل قيمها وحضارتها ، ومن هذا المنطق فإن للتعليم الفرنسي في موريتانيا يشكل ضرورة عملية بالنسبة للفرنسيين لا لانه وسيلة لاستلاب السكان ثقافيا فحسب بل لانه يساهم في تكوين عمال الإدارة الاستعمارية الناشئة مثل وكلاء إداريين - معلمين مترجمين - (إلخ) وهو ما يبدو جليا من خلال أهداف السياسة الفرنسية من التعليم ، وقد بذلت السلطات الفرنسية في موريتانيا جهودا جبارة من أجل إنشاء مدارس منذ بداية الاحتلال وكانت وقتها لا تتحصل إلا علي النذر اليسير من أبناء الموريتانيين وذلك بسبب العراقل الكثيرة والتي منها كما هو معلوم

١- معارضة العلماء للتعليم الفرنسي .

٢ - انتشار المحاضر القرآنية .

٣- اعتبار كل التعليم الأجنبي مخالفا للشرع الإسلامي ، قائلين إن الفرنسيين يعلمون عقيدتهم التلاميذ الذين يدخلون مدارسهم (١) .

٤- شخصية الفرد الموريتاني : والتي تتميز بطبيعتها التقليدية التي تغلب عليها البداوة وتسيطر عليها البراءة وتطغى عليها النزعة الدينية المتشددة .

٥- صعوبة الاستقرار في البلاد :- وذلك نتيجة لكثرة كثرانها وأقطارها وصحاريها فهي تية ومضلة لمن لا يعرفها .

٦- صعوبة المواصلات ، والتي تكاد أن تنعدم فهذا الطابع المتحرك المتنقل الجارى وراء الماء والكلام منع من وجود المدارس العصرية لأنها تقتضي أول ما تقتضي الاستقرار والسكون (٢).

١

١- 52 . op .cit . sselmou ould Mohamed el hady .

٢- حمدين محمد علي - مرجع سابق ص ٤٧ .

لذلك وجدت الإدارة الفرنسية نفسها مرغمة أمام هذه الظروف والعراقيل التي لا تيسر تجاوب الأهالي مع التعليم الفرنسي إلى غلق هذه المدارس، ولما تم لفرنسا احتلال موريتانيا سنة ١٩٣٤ فتحت المدارس الفرنسية أبوابها من جديد بعد أن زودتها السلطة الفرنسية بمعلمين أفارقة علي أمل أن يتجاوب السكان معهم ، وقد اقتصررت علي السود فقط ، ولذلك قررت فرنسا إرسال عدة لطفال من أبناء رؤساء القبائل إلى كل مدرسة فرنسية ثم ازداد عدد التلاميذ في السنوات اللاحقة وخاصة أيام الاستقلال وما بعدها .

أهداف السياسة الفرنسية من التعليم :

إن هيمنة النظام الاستعماري في المجال السياسي والإداري والاقتصادي تتطلب منه العمل علي تكوين طبقة من الأطر المحليين لاستخدامهم في الأغراض الاستعمارية العامة ، وهذه الطبقة المكونة تكويناً أيديولوجياً ، استعماريّاً في المدارس الفرنسية سترتبط بالجهاز الاستعماري أكثر من غيرها وستدين له بالولاء التام (١) ، كما أنه يمكن القول بأن سياسة فرنسا التعليمية قد حاولت بشكل واضح للقضاء علي الهياكل الثقافية التقليدية (٢) .

وبما أن سياسة التعليم عموماً في نظر الإدارة الاستعمارية قد تؤدي إلى تشجيع الوعي السياسي لدي الشعوب المستعمرة فقد كان ينبغي استخدامها لتحقيق أغراضها الاستعمارية ، التي تهدف أول ما تهدف إلى طمس الهوية الثقافية لهذه الشعوب ، مقابل إظهار عظمة أوربا وثقافتها وفي هذه السياق بالذات كانت أهداف السياسة التعليمية الفرنسية تتمحور أساساً حول ثلاث نقاط أساسية هي :-

(١) التمددين :

يعتبر تمددين للشعوب هو الهدف الأول بالنسبة للاستعمار علي اعتبار أن أفريقيا تشمل الشعوب المتوحشة وينبغي تمدينها ، وعلي الرغم من طبيعة هذه الأهداف فإن السياسة الاستعمارية في مجال التعليم كانت سلبية إلى حد ما علي الشعوب المستعمرة حيث عملت علي تحطيم القيم الأفريقية التقليدية (٣) .

١- محمد الراطي : مرجع سابق ، ص ص ٨٥-٨٦ .

٢- حيمد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

٣- محمد الراطي : مرجع سابق ، نفس الصفحة .

وفى هذا الخصوص ورد في تعميم الحاكم العام بريفية (Brevie) " بواسطة المدرسة يمكننا أن نجر الأفريقي إلى تقبل إرشاداتنا وأن يهتدي يهديننا ، إنها حضارتنا التي تحثني إلى الأمام نحو حضارته وتنكيف معها لدعم مجهوداته وبالتالي دفعة إلى طريق التقدم الاقتصادي والاجتماعي بطريقة بطيئة ، ولكن بالتأكيد ستتغير عقلية كما أن فكره سيتحرر من أعباء سلاسل العبودية وماضي الخوف والتشاؤم ، كما سيتلقى تأثير هنا ومنهاتها ٠٠٠ فيدخل في مستوى حضارته الخاصة (١) .

وعلى ذلك الأساس ، فقد اتجه تعليم التاريخ والجغرافيا إلى البرهنة على أن فرنسا أمه غنية ، وقوية وقادرة على أن تصون هيبتها ، وفي نفس الوقت عظيمة لنبل أفكارها ولم تكن ابدا قد تراجمت في السابق عن تقديم توضيحات مادية وبشرية لتحرير الشعوب المغلوب على أمرها أو من أجل استغلال فوائد الحضارة بالنسبة للشعوب المتوحشة وذلك بواسطة توفير الأمن .

(ب) التفرقة (أو الفرقة) :

ويعتبر هذا الهدف وسيلة لتحقيق الهدف الأول الذي هو التمدن ، ويتعلق الأمر هنا بوضع اللغة الفرنسية كلغة وحيدة وإجبارية في المدارس الاستعمارية ، فهي اللغة الرسمية للتعليم كما هو واضح من خلال مرسوم ١٠ مايو ١٩٢٤م ، هذا المرسوم الذي يمنع المعلمين القائمين على التدريس من الكلام مع تلاميذهم باللهجات المحلية وفي هذا المعنى كتب دشايش يقول " إذا كان التعليم الاستعماري يبذل كل جهد ليعلمك أن تفكر وأن تحس بكل ما هو فرنسي ، ذلك أنه قبل كل شيء يفرض عليك أن تتكلم الفرنسية وهو ما يشكل مذهباً وطريقه ثابتة للمستعمر الفرنسي خلافاً للطريقة الإنجليزية والبلجيكية من أفريقيا فلغته هي اللغة الوحيدة الإجبارية بالنسبة للتعليم الرسمي وذلك بداية من السنة الأولى من المدرسة الابتدائية (

٢)

٢ - ١

CIRCULAIRES BREVIE 1933. VOIR F.(DECHASSEY)

MAURITANIE 1900. 1975 ,OP ,CIT .P.106.-107

وهذا الإنتشار بالنسبة للفرنسة حسب رأي (بريفي هو ضرورة عملية ، حيث أن القوانين والتشريعات منشورة بالفرنسية كما أن سياسة المشاركة التي تبنتها الإدارة تعطي للأفريقي حق المشاركة في الجمعيات الفرنسية شريطة أن يتكلم الفرنسية ، فاللغة الفرنسية إذن هي قاعدة التعليم وكل الدروس مقدمة بها .

ج- الانتقاء :

وهنا نتوصل إلى الهدف الثالث بالنسبة لسياسة التعليم الاستعماري الفرنسي بأفريقيا الغربية الفرنسية الذي هو انتقاء بعض الأطراف وتكوينهم حسب حاجات الحياة الإدارية والاقتصادية للبلاد المستعمرة ، وهذا ما يفسر الأهمية الاقتصادية والسياسية للمدرسة الاستعمارية ، التي لاحظها وزير المستعمرات ألبرت سار إليه (Albert sarrauit) بقوله أن تثقيف الأهالي هو ضمان لواجبنا لكن هذا الواجب يتناسب بصفة متزايدة مع فوائدها الإدارية والعسكرية والسياسية الأكثر بديهية ، فالتثقيف إذن يهدف أولا علي مستوى النتائج إلي التحسين من قيمة الانتاج الاستعماري ، وذلك مضاعفة لنوعية الكفاء في صفوف مجموع العمال من الأهالي ، ثم مضاعفة القدرات بشكل عام ، علاوة علي ذلك للوصول إلي انتقاء من بين الجماهير العاملة النخب المتعاونة القابلة لخدمة الأهداف الاستعمارية كوكلاء تقنيين – مراقبين مسيري إدارة إلخ . وهو ما من شأنه أن يساهم في تعويض النقص العددي للأوروبيين في الوقت الذي يلبي فيه الطلب المتزايد من طرف المؤسسات الزراعية الصناعية والتجارية الاستعمارية . (١) .

ومن الجدير بالذكر أن الفرنسيين قد أعدوا كل الوسائل محاولين إدماج تعليمهم داخل المحاضر ، فنادوا بإنشاء مدارس عربية فرنسية محاولين بذلك التلبس علي الناس والتتليس متزعين بأن المدارس الجديدة تجمع القرآن إلي جانب اللغة الفرنسية وبذلك يكون أقرب إلي الروح الإسلامية.

A , Sarrauit : LA MISE EN VALEUR DES COLONIES , -1
FRANCAISES PAYOT , 1932, P 95

ولم تتغلغل فرنسا ثقافيا في موريتانيا إلا بصعوبة شديدة وبذلك لم توفق في أن تتشر لغتها في موريتانيا بحيث يمكن القول أن هذه المنطقة كانت أقل مناطق غرب أفريقيا تأثرا بالثقافة الفرنسية ، ولقد حاولت فرض التعليم الفرنسي علي السكان وأغرثهم بشئ الطرق ، ولكنهم تمسكوا بالتعليم في المحاضر التقليدية ، وظهرت معارضة واضحة من جانب الموريتانيين الذين رأوا في المدارس الفرنسية تهديدا خطيرا لشخصيتهم العربية والإسلامية - وهم محقون في ذلك - حيث أن للموريتانيين تقاليد عريقة في التعليم ، وقد كان التعليم في موريتانيا نقطة اجتذاب لجميع المستعمرات الفرنسية الأخرى ولذلك كان بعض المسلمين يفرون إلي شنقيط ويونليميت التي برزت كمراكز للثقافة الإسلامية العربية لتلقي العلوم فيها خاصة بعد أن تأسس فيها معهدا إسلاميا كان يعد قبلة للمسلمين في أفريقيا السوداء ولقد لجأت السلطات الفرنسية إلي إغراء المدارس التقليدية بإحخال اللغة الفرنسية في برامجها (١) .

ولقد كتب وليام يونتي في تقريره السنوي لعام ١٩١١م " مهما كان الحال فلن يكون هناك مجال لتشجيع المدارس الفرنسية وتعلم اللغة الفرنسية لما ينجم عن ذلك من دعم نفوذ الفئة المرابطين فإن العكس هو الصحيح " كما يقول يونتي " إن بناء المدرسة التي تدرس حصص من العربية والتربية الإسلامية إلي جانب اللغة الفرنسية هو هدف سياسي قبل كل شيء وعليه فإنها تخاطب قوما يختلفون كل الاختلاف عن شعوب غرب أفريقيا كلها ، وذلك يرجع إلي عوامل تاريخية وعرقية فإن مجنبا - مجد فرنسا - يجب أن يحل محل خصوصية هؤلاء الاجتماعية ولكن بصورة تدريجية (٢).

ومن جهة أخرى فإنه صدر مرسوم محلي صادر بتاريخ ١٩٠٦/٦/٢٠ والذي تقرر فيه منح منح سنوية قدرها ٣٠٠ فرنك لكل شيخ محظرة يخصص ساعتين في اليوم لتعليم اللغة الفرنسية ، غير أن هذا القرار بقي معلقا بدون تنفيذ ، وذلك لأن شيوخ المحاضر كانوا يترفعون بأنفسهم عن مثل هذا الإغراء ، فلم يتقدم أي منهم بطلب للاستفادة من هذا المبلغ ولم تقف الممارسات الاستعمارية والمحاولات الغربية عند هذا الحد وإنما حاولت الاستعانة بأراء الخبراء التربويين في الدول العربية المجاورة كتونس والجزائر وكذلك القاهرة .

١- نصر الدين نصر : مرجع سابق ، ص ٥٢.

٢- محمد الهادي ولد الطالب : مرجع سابق ، ص ٢٢١

لقد حاولت فرنسا إنشاء مؤسسة تعليمية لتكوين نوع خاص من أبناء الزوايا لتحارب المحاذير عن كُتب وتتمكن من السيطرة عليها ، فعندما فشل الفرنسيون في إحكام قبضتهم علي رؤساء المحاذير بادروا إلي إيفاد مدرسين من الجزائر وتونس يتقنون اللغة العربية ولكنهم إلي جانب ذلك يجيدون اللغة الفرنسية ويشرحون بمبادئ المستعمر فكانوا يقدمون المعرفة في شكل علم غير سليم وبات واضحاً أنهم كانوا يقدمون معلومات ثقافية ظاهرها ما فيه الفائدة كتوعية الناس وفتح أذهانهم على الحياة الجديدة وتمكينهم من أسلوب يعيشون به المجتمع ، ولتوضيح هذه الفكرة نقول أن المستعمر أسند مهمة التدريس إلي مسلمين جزائريين وزود التلاميذ بالمال عند افتتاح المدارس ووفر لهم المطاعم المدرسية والملابس طيلة العام ، وارتضت الحكومة الفرنسية هذه الخطة فأسندت إدارة المدارس إلي الجزائريين مع مراعاة أن يكون المدير من العلماء التقليديين لأنه هو الأجدى وقلاً بدأ الجزائريون يصلون إلي البلاد وكان أول مدير اشتغل منهم هو (مكى الجنيدى) الذي أسندت إليه إدارة مدرسة أبى تلميت وعندما استلم إدارتها كانت حصصها الدراسية ٢٥ حصة منها ١٢ حصة للعربية والباقي للفرنسية ، وكان أول عمل قام به هو تغيير البرامج حيث أدخل المواد التي كانت تدرس في المحاذير ليجنب إليهم السكان والدوافع التي أدت إلي هذا للتعبير هو الحرص علي جذب أنظار الطلبة ولفت انتباههم وشدهم إلي الدروس الجديدة التي تجمع العربية إلي جانب الدروس الفرنسية ، وفي نفس الوقت عمل على تخفيض العربية وتقليص حصصها إلي ٩ ساعات فقط من الوقت المحدد سلفاً ولما نجحت هذه الخطة وآتت أكلها استقدمت فرنسا جزائرياً آخر هو مصطفى بن عيس سنة ١٩٣٨ (١) .

وهكذا توالي المد الأجنبي المتظاهر بالإسلام فازداد إيفاد الجزائريين علي البلاد وكادت المحظرة تخضع لهذا المخطط ، إلا أن العلماء واجهوا هذه الخطط بكل عنف ورفض مجاهدين بألسنتهم . إن الاستعمار الفرنسي بمحاربة اللغة العربية كان يدرك أنها العامل الموحد والمحرر ولأنها السلاح الفكري الفعال في ميدان الصراع بين الشعب والاستعمار ، بين الأصالة وعملية المسخ الاستعمارية عمل على القضاء علي اللغة العربية والشخصية الوطنية .

١-حيمد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ٣٣.

وأصدرت عدة قوانين تطالب بأن يقتصر التعليم علي حفظ القرآن وعدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلي التحرير واستبعاد دراسة التاريخ الإسلامي العربي والتاريخ الوطني المحلي وجغرافية البلاد وكان الغرض من هذا القانون هو غلق الأبواب أمام الأجيال حتى لا يتعلموا لغتهم وتاريخهم وتاريخ بلادهم و أمتهم وحتى لا تكون ثقافتهم التي تؤدي إلي نهضتهم وتحريرهم (١)

غير أن الفرنسيين حاولوا تكييف التدريس مع ظاهرة التنقل والامتناع فأخذوا يطاردون أهل البدو في حلهم وترحالهم فاتحين لهم المدارس حيث ما حلوا وأينما انتقلوا لذلك ردوا عبارات من قبيل " إذا لم تذهب إلي المدرسة فالمدرسة ذاهبه إليك " وفعلًا طبقت هذه الطريقة في خمسينيات القرن العشرين وقد أعطت نتائج قيمة . وأقد كان اهتمام فرنسا بإقامة مدارس استعمارية في كل المراكز الإدارية ، وكان الهدف من ورائه أن هذه المدارس ستعمل علي خلق إدارة من الأهالي قادرة علي تأدية كل المهام التي تحتاجها الإدارة الاستعمارية ، كما أنها في نفس الوقت تضمن ولاء النخبة المتعلمة المتكلمة لفرنسا وللحضارة الفرنسية . وقد انتهجت هذه المدارس مناهج المستعمر وسارت علي نمطه بالرغم من سماح الإدارة الفرنسية بإقامة مدارس علي النمط التقليدي بين دروس العربية إلي جانب التعليم الفرنسي وتعتبر هذه السياسة (الاستيعاب) وهي سياسة الفرنسية الاجتماعية هي النمو الطبيعي والامتداد الأوحـد لـتمسـك فرنسا بسياسة الحكم المباشر (٢) .

و بالرغم من كل الصعوبات التي واجهت المستعمر في نشر ثقافته الاستعمارية فقد تحايل واتخذ لنفسه حلوًا ملائمة مكنته من التغلغل داخل الأراضي الموريتانية نذكر منها :-

الترهيب : وتمثل أساسا في إرغام المجتمع البدوي علي أن يقدم أبناءه إلي المدارس عبر شيخ القبيلة الذي يفرض عليه أن يقدم في كل سنة أبناء من قبيلته أو يبلغ عن رفضهم وعندئذ فإن القبيلة معرضة لجملة من العقوبات من بينها الغرامات المالية والحبس أحيانا ، وبهذه الطريقة كاد التعليم أن يصبح إجباريا صارما لا مساومة فيه و قد احتال شيوخ القبائل علي أوامر المستعمر بأن

١- عبد المالك خلف التميمي : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

٢- حمدي الطاهري : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

أرسلوا إلى المدارس الفرنسية أولاد العبيد من الزنوج ولم يرسلوا أبناءهم فكان أغلب الذين يعملون في هذه المدارس من الطبقة المسحوقة في المجتمع ، لأن الطبقات الأخرى كانت ترتفع بنفسها عن مثل هذه الدراسة .

الترغيب : إلى جانب عامل الترهيب اعتمدت فرنسا من أجل القضاء علي الصعوبات التي تتعرض لها المدارس الفرنسية في موريتانيا اعتمدت علي عدة اغراءات مادية ومعنوية ، فالاغراءات المادية تمثلت أساسا في المنح والطب والتزويد باللباس والمسكن إلى غير ذلك .

وأما المعنوية فكانت تتمثل في الهدايا التي يقدمها الوالي الفرنسي إلى شيوخ القبائل .

ولقد مارست السلطات الفرنسية كل الضغوط لاجبار الأهالي وشيوخ القبائل علي تقديم الأبناء إلى المدارس فكثيرا ما انتدبت حرس الدوائر لمهمة الاكتتاب حيث يقوم الحرس بإجبار الأهالي مباشرة لتقديم الأبناء بصفته قسرية إلى المدرسة وردا علي هذه الإجراءات عمد السكان إلى إخفاء الأبناء في الجبال وفي المخابي وقد كان رؤساء القبائل باعتبارهم متعاونين مع الإدارة الفرنسية يغالطون هذه الأخيرة بتقديم أطفال من الطبقات الدنيا بدلا من أطفال الطبقات العليا ، وقد استخدم السكان الرشوة للإقلاص من قبضة المدرسة حيث كان الآباء يشتررون من المعلم ساعات الدراسة النظامية ليصرفها أبناءهم عند مدرسة القرآن أو شيخ المحاضر .

وقد كان هروب التلاميذ وكثرة الغياب وإهمال الدروس وعدم مواكبتها عوائق أساسية بالنسبة للمدرسة الاستعمارية التي كانت تلجأ في الغالب إلى عمليات الطرد بعد رسوب التلاميذ لعدة سنوات وهذه العوائق هي المسئولة عن ضعف نسبة التدريس بالبلاد الموريتانية خلال الفترة الاستعمارية وفشل السياسة الفرنسية في المجال التربوي التي كانت تسعى إلى خلق جيل مثقف بالثقافة الفرنسية يدين بالولاء التام لفرنسا وحضارتها ونظمها علي الرغم من أن هذه الأخيرة نجحت في توفير الإطار الملائم لذلك (وهو الدراسة) التي أفرزت عقلية جديدة ونمط عيش جديد ووظائف جديدة فالزوايا أنفسهم الذين ناصبوا العداء أصبحوا يعترفون ضمنا بأنها أصبحت هي الوسيلة الوحيدة للعيش وذلك في ظل الظروف الاستعمارية الجديدة التي تطلبت تسييس الموارد الاقتصادية للبلاد بما في ذلك فرض الضريبة وتعميم التبادلات النقدية وإشاعة العمل بالراتب وخلق

الوظائف البيروقراطية الجديدة التي يستفيد منها خريجو المدارس بالدرجة الأولى وهو ما كان له بالغ الأثر على التعليم المحظري الذي يشكل مظهر الثقافة العربية الإسلامية الأصلية (١).

رابعاً: الشيخ ماء العينين ودوره في المجال الثقافي والروحي وأثره على المقاومة :

لقد كان الشيخ ماء العينين متنوع المعارف متعدد المجالات التي شملها عطاؤه من أجل ذلك سارت بذكره الركبان في كل مكان حل به ونزل في طول البلاد وعرضها فطبقت شهرته الافاق وسمع بذكره الداني والقاصي ، و الشيخ ماء العينين هو الابن الثاني عشر للشيخ محمد فاضل ولم يولد لوالده المتعدد الزوجات في ذلك العام غيره من الأولاد الذكور فكانت ولادته خيراً وبركة على أهالي الحى الذي ولد فيه كما كان من كراماته موافقة شهر ولادته للشهر الذي ولد فيه والده فلما بلغ من العمر ثمانى وعشرون سنة توجه الي الحج فقصد في طريقه الي الحج مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب في مكناس عام ١٢٧٤ هـ فأحسن وفادته وأكرم مقدمه وبسط عليه من اريد به التبجيل والاحترام ما لم يفعل له احد من رعيته او غيرها قبله (٢) .

ومن هنا سوف تبرز علاقته الطيبة مع ملوك المغرب وثناء عودته من الحج توجه الي مصر ومكث بها خمسة اشهر ثم ركب الي طنجة فدخلها في شعبان ١٢٧٦ هـ ثم مر الي مكناس حيث مولاي عبد الرحمن السلطان فأحسن وفادته وأكرم مقدمه وقد كانت الصلة بين الشيخ ماء العينين والاسرة المالكة في المغرب قوية حيث يعتبرونه ممثلاً لهم في الصحراء الواقعة جنوب المغرب (٣).

وفي هذه السنة استحكمت وشائج الإخلاص والمحبة بينه وبين ملوك البلاد ومن هنا تكونت قبيلة الشيخ ماء العينين في الساقية الحمراء ، وهو تجمع نشأ من أجل الحفاظ علي الحدود . لقد كان انتقال الشيخ ماء العينين للساقية الحمراء والاستقرار بها يعني انتشار طريقته واستقرارها ونجح في اقامة علاقات قوية مع البلاد وقضي علي الاضطرابات القائمة ، ولقد تمكن بماله ونفوذه ان يحقق الامن في ربوع المنطقة ويعمل علي تامين الطرق التجارية للموصلة بين المغرب والسنغال ومنذ ١٨٩٠م ومولاي الحسن يقابله بالمغرب ثم بعده السلطان عبد العزيز باحترام فائق عند مقدمه عليهم.

١ - محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

٢ - شبيها ماء العينين : قبائل الصحراء المغربية أصولها ، جهادها ، ثقافتها ، الرباط ١٩٩٨ ، ص ١٤٢ .

٣ - الهيبه ولد سعد ابية مرجع سابق ص ٢٠ .

علاقة الشيخ ماء العينين بسلطين المغرب:

لقد كانت الصلة بين الشيخ ماء العينين والأسرة الحاكمة في المغرب قوية وكان يقوم بتقديم خدمات مباشرة للأسرة العلوية في المغرب بإذلا كل ما يستطيع من مقاومة ضد الإستعمار الأوربي في الجنوب. (١)

وبعد مقتل كوبولاتي والذي إتهمت فرنسا الشيخ ماء العينين بأنه المحرض على قتله ، صممت فرنسا على إحتلال موريتانيا وتعقب عدوها الشيخ ماء العينين حتى يقتلوه أو يقضوا عليه . (٢)

ولقد اتسعت حركة الشيخ ماء العينين فظهرت ردود فعل عنيفة في الاوساط الوطنية وتشابكت الاحداث تماما في المغرب و موريتانيا ومع اتساع حركة الشيخ ماء العينين الوطنية والتي اصبحت تهدف الي غرضين هما :
تخليص مراكز من الضغط الاجنبي من جهة ، و إيقاف التوغل الفرنسي في موريتانيا من جهة أخرى وكانت اولي ردود الفعل في موريتانيا تفجر الحركات المعادية للإحتلال الفرنسي في صورة قتال عنيف تولى قيادته في المرحلة الأولى مولاي إدريس الذي وصل إلى أدرار في يوليو ١٩٠٦ مع الشيخ ماء العينين إلى المغرب (٣) .

لقد، تأكدت فرنسا ان الشيخ ماء العينين يبدو حجر عثرة امامهم فكان مؤتمر الجزيرة والذي كان من بين قراراته منع تهريب الأسلحة ، والذي سيكون له أثر مباشر على الوضع العسكري والسياسي للشيخ ماء العينين (٤) .

وإذا كنا قد تعجلنا في الحديث عن العلاقات السياسية فإن هناك علاقات أخرى روحية بين الشيخ ماء العينين وسلطين المغرب ، ولم تكن الروابط بين الشيخ وملوك المغرب مادية فحسب وإنما كانت هناك وشائج روحية ، فقد كان رجال الدولة يتقربون ويسعون لإستقطاب خاطره رجاء بركة دعواته (٥) .

وما نال هذه المنزلة الا لكونه سلك طريق السلف الصالح في ممارسات الطاعات ومحاربة البدع وتطبيقه للسنة ونشره لعلوم الاسلام (٦) .

١ - علال الفاسي : التصوف الإسلامي في المغرب ، الرباط ١٩٩٨ ، ص ١٢١

٢ - عبد الله عبد الرازق : أضواء على الطرق الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

٣ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٣٣٨ .

٤ - جلال يحيى : المغرب العربي الحديث والمعاصر ، الإسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٣٦٣ .

٥ - الهية ولد سعد أبيه ، الشيخ ماء العينين ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

٦ - شينها ماء العينين : قبائل الصحراء الغربية ، ص ١٤٠

ومن اجل ذلك كان الشيخ ماء العينيين نافذ البصيرة بوصفه فقيها ومرشدا روحيا وقائدا دينيا وعلي هذا الاساس اسند اليه الشعب المغربي في العام الاخير من حياته قيادة الجهاد فاجتمع لديه جيش من تلاميذه ومن رجاله ومن قبائل الرقيبات واولاد وليم وأبي السباع وسائر قبائل المسود ، وزحف نحو فاس لانقاذها وكادت ثورته تعم المغرب كله لولا ان حشد الفرنسيين قواتهم وتغلبوا عليه ثم مرض فعاد الي مدينة (تيزينيت) ومات بها عام ١٩١٠م وان كانت الصلات بين سلاطين المغرب وقبيلة الشيخ ماء العينيين لم تنقطع بوفاته (١) .

مكانته العلمية ورويته الصوفية:

مكانته العلمية :

واذا كان الشيخ ماء العينيين قد حقق نجاحا في المجال السياسي فان جهوده في المجال العلمي والادبي لا تقل اهمية عن هذه المجالات السياسية (٢) . ولقد كان الشيخ متعدد المواهب متنوع المعارف ولذلك تعددت المجالات التي شملها عطائه فكان عالما معلما ولقد مر بمرحلتين للعلم كعادة من سبقوه من العلماء :

المرحلة الاولى :

مرحلة التحصيل : وتكون هذه عادة علي ايدي علماء ذوي بصيرة بالمعارف التي يريد الطالب البدء بها .

مرحلة النظر والتبصر وهذه المرحلة تعتمد علي النظر في الكتب ومحاورة العلماء والمتتبع لحياة الشيخ يجد انه بداها بالاخذ من شيوخ بلده وذلك بعد ان نال من المعارف حظا كبيرا ولم يمكث الا فترة وجيزة حتي فاق اساتذته حفظا واتقانا وهجوما على المعاني الغامضة .

المرحلة الثانية :

فبعد ان اصبح مؤهلا لمرتبة الشيخ خرج الي الصحراء عام ١٨٥٣م حيث نوي الاقامة حسب ارشاد والده حيث اقام مدرسة علمية شملت كافة العلوم وتعلمذ علي يديه عدد كبير من ساكني الصحراء ، ولقد اشرف بنفسه علي تسييرها وسير عملها كما باشر تدريس بعض المواد مفرغا بعض الاساتذة لتدريس المواد الاخرى اما عن عطائه في مجال التأليف فحدث ولا حرج فهو سيوطي زمانه لكثرة تأليف وتنوع موضوعاتها وتعدد اساليبها (٣) .

-
- ١- خاطمة محجوب : الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ، ج ٤٤ ، ص ٢٩٠ .
 - ٢- عبد الله عبد الرزاق - اضواء على الطرق الصوفية - مرجع سابق ص ١٣٥ .
 - ٣- عثمان ولد الشيخ ابو المعالي مرجع سابق ص ٢٢٥

ولقد وصل عدد التأليف في مختلف العلوم وغيرها أكثر من ٣١٤ مؤلف ما بين مطبوع ومخطوط لم يطبع (١).

لقد حرص الشيخ علي أن يربط في مدرسته بين الجانب العلمي النظري والجانب التطبيقي محاولاً أن يبرز للعيان صورة من مدارس السلف الأولى من أجل ذلك أم مدرسته بأسمارة الجمع الغفير من البشر حيث أصبحت كعبة الطلاب وسوق العلم والادب رائجة حتى فاق عدد تلاميذه العشرة الآف.

ولقد صارت اسمارة ذاتعة الصيت وأصبحت مركزاً هاماً لدراسات القرآن واتسمت بالشمولية وعدم التجزئة للتعاليم الإسلامية وقد تجلّى ذلك في جانبها الدعوي وكان من خطابه (الكلام عن الأحوال والأرزاق ومطالبة النفوس بالتخلي والتخلي فانه مع ذلك شمل حمل السلاح حين كان حمله لقتال الكفار وأظهار عزة الإسلام).

ولم تكن مدرسة الشيخ العلمية مبنوثة الصلة بالجانب التطبيقي بل كانت تعطي المثال الحي دائماً لتطبيق ما تدعو إليه وقد تجلّى ذلك في الاتفاق إذ معلوم أن أجره عظيم ولقد قام الشيخ في هذا المجال بأمر عظيم وجهد حسيماً. ووصفه صاحب كتاب الوسيط :

(لقد اجتمعت بهذا الشيخ حين خروجي من مدينة شنقيط الي مراكش في توجهي إلى الحجاز ورأيت منه ما حيرني لأني لا أقدر من معه في وادي اسماره من الساقية الحمراء بعشره الآف شخص ما بين أرملة ومزمن وصحيح البنية وكل أصناف البشر وكل هؤلاء في ارغد العيش) (٢).

أما عن مكانته في التأليف وأثاره العلمية فقد ألف كتباً كثيرة خاصة في التصوف وكان له في استعمال الحديث واللغة والمسير وله معرفة ما يسمى (علم خواص الاسماء والجدول والذوات والافاق وسر الحروف) (٣) ، وهذا ليس جديد حيث أن قبيلته موصوفة بهذه الصفة فان الناس يلقبونها بالأشياخ ، ولقد ساعدت هذه المؤلفات علي انتشار الطريقة القادرية في فاس ومراكش وموريتانيا وساعدت أيضاً علي ذبوع شهرته بين العلماء لدرجة انهم أطلقوا عليه لقب قطب.

رؤيته الصوفية :

يقول الطالب اخيار بن الشيخ ماء العينين انه ألف ماييزيد علي المائة هذا دون المراسلات والفتاوى ، ولقد وصف الشيخ ماء العينين التصوف بأنه من افضل العلوم واجملها واجلها لانه علم به صلاح القلوب وتهذيبها من العيوب وانكشاف الحجب عنها لمشاهدة الغيوب (٤).

ولقد كان الشيخ محمد فاضل والد الشيخ ماء العينين ومربيه الروحي قد جعل لنفسه الحق في التلقين لسائر الأوراد ومسيرة قواعد الشيوخ السابقين وعلي هذه السنة الحسنة سار اولاده جميعاً من بعده وعلي رأسهم الشيخ ماء العينين .

١ - عبد الله عبد الرزاق : أضواء على الطرق للصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

٢ - احمد الأمين الشنقيطي : مرجع سابق ، ص ٢٤٨

٣ - فاطمة محجوب : مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

٤ - الشيخ ماء العينين : نعت البدايات وتوصيف النهايات ، مرجع سابق ، ص ٧ .

ولقد استفاد الشيخ ماء العيينين من هذه السابقة في توحيد القبائل وجمعها من حوله حتى الف في ذلك كتابا سماه (إفاة الراوى فى أنى مؤاى) ، وهكذا كان يقول فى كل منظومته " إنى مؤاى لكل الطرق " (١) .

ولقد كان الشيخ ماء العيينين يعطى ويؤنن بالكثير من الاوراد الصوفية لكل راغب فى الدخول فى طريق القوم وقد اخى جميع الطرق رغم اختلاف الاوراد والمناهج وفى هذا دلالة على أنه وصل إلى درجة من العلم جعلته يوفق بينها دون مراعاة إختلافات الرؤى التى سادت البلاد إبان ظهور الطرق الصوفية وتعدد أقطابها (٢) .

ونتيجة لعلمه فقد اسس الشيخ ماء العيينين عدة زوايا فى مراكش وفاس واصويره اضافة الى زاويتيه الرئيسيتين فى اسماره فى الصحراء واطار بادرار (٣) .

دور الشيخ ماء العيينين فى المقاومة الثقافية:

تمتاز موريتانيا بكونها لم تعرف الانحطاط الذى عرفه المشرق العربى بعد انهيار الدولة العباسية واجتياح التتار والمغول لبغداد عاصمتها بل على العكس من ذلك ظلت بلاد شنقيط تمد المشرق العربى والعالم الاسلامى بهجابهة علمائها الافذاذ . ومع دخول الفرنسيين الغزاة الى ارض موريتانيا وجدوا امامهم مقاومة ثقافية صلبة متمثلة فى المحاضر وتعاليمها وقناوى علمائها المناهضة للاستعمار (٤) .

وقد كان للشيخ ماء العيينين دور بارز فى المقاومة العسكرية التى سبق الحديث عنها وصاحب مقاومة ثقافية كان لها السبق والاثر الكبير فى حمل لواء الجهاد المسلح وتحصين الامة ثقافيا وروحيا حيث تنلمذ على يديه عدد كبير من التلاميذ الذين صاروا جنودا له (٥)

ولقد كانت حركة الشيخ ماء العيينين اكثر وعيا باهمية التحصين العلمى للاجيال وشكلت لذلك مؤسسات علمية وروحية قامت بهذا الدور على اكمل وجه (الزوايا - المدارس الجامعية الكبيرة باسمارة) وعملت هذا المؤسسات على ملء ساحات الجهاد بالمجاهدين المعدين نفسيا وروحيا وجسديا وعقليا وعلميا مكونة من المريدين الذين شكلوا جيشا له خصوصيته الدينية ، ويصف المؤرخون والكتاب مدرسة اسمار قبائها آخر مركز حضارى تم بنائه فى العصر العلوى قبل الحماية ، ولاسمارة مميزات خاصة منها انها فى قلب الصحراء الغربية فى منطقة الساقية الحمراء وكان لتأسيسها اسباب عديدة منها لتكون رباطا فكريا وروحيا تنتشر منه المعارف الدينية واللغوية ولتكون مركزا للجهاد ضد الاحتلال الاجنبى لموريتانيا ٤ ولتكون نقطة فصل بين الشمال والجنوب من اجل حفظ الحدود (٦) .

١ - علال الفاسى : مرجع سابق ، ص ١١٨ .

٢ - الهيبه ولد سعد ابيه : الشيخ ماء العيينين ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

٣ - الخليل النحوى : مرجع سابق ، ص ٢٨١ .

٤ - فاطمة بنت الامام : مرجع سابق ، ص ١٩ .

٥ - فاطمة محجوب - الموسوعة الذهبية مرجع سابق ص ٢٨٩ .

٦ - شبيهناء ماء العيينين : مرجع سابق ، ص ٤٦ .

ولقد فجر صاحبها وراندها الفكري فكرة الجهاد انطلاقاً من الحرص على الهوية والدين الاسلامي باعتبار الوحدة العقائدية التي يلتف حولها المسلمون وقد مثلت اسمارة الوجه الأكثر نضاعة وأوضح وأكبر أهمية طبعت مريدها على فكرة كراهية الإستعمار الأجنبي .

وهو ما يعترف به الفرنسيون أنفسهم وقد كانت اسمارة جامعة علمية ومكتبة كبيرة كانت لها اشعاعاتها الرائدة في هذه الصحراء المترامية الاطراف وعلي الرغم من وقوعها تحت الاستعمار وفقدت بذلك الكثير من زخايرها العلمية وكنوزها الدينية غير ان ذلك لم يفدها قوتها الثقافية واشعاعها الديني بل اصبحت تنبع به علي الكثير من المناطق الشمالية التي استقطبت الكثير من الازعماء الذين عملوا في رفع الاشعاع الثقافي ضد الغزو الفكري الاستعماري (١) .

ولقد كان الجهاد هاجس الشيخ ماء العينين يسكنه في الحل والترحال لايهدا عن التفكير فيه والتهيب له لحظة واحدة (٢) .

ولقد اتخذ الشيخ ماء العينين منهجا جديدا في مدينته التي اسسها في اسمارة لم تعرفه زوايا العصر وكان لها عدة محاور :

١- محور العقيدة :

لم تكن رسالة مدرسة اسمارة ميسورة المسالك فقد واجهتها الكثير من المصاعب والعقبات التي تمثلت في الصراعات القبلية ومال الناس الي التناحر بدلا من التحاور ولم يكن الشيخ ماء العينين يجهل هذه المصاعب لنكاته ونباهته ومنجهه ولانه ابن البيئة التي نشا بين لخصائنها فعزم اولا علي اصلاح الخلافات بين القبائل المتناحرة واستبدال الفرقة بالوحدة في الدين والوطن والمذهب واحيا ما كان قد اندثر من اتصال بالقرآن والسنة حتى اذا اقبل للناس عليه من كل حذب اخذ يلقتهم دينهم قرآنا وتفسيرا وحديثا ومعرفة ولان التصوف عنده استجلاء لعظمة الله فيما خلق اذ عمل في البدلية علي مواصلة تلقين المريدين الطريقة القادرية الفاضلية ثم اخذت تنطور لتصبح منطبعة بطابعة الشخصى المورث عن والده ولقد كان السعي من وراء ذلك لهدم ما بنى في نفس الانسان الموريتاني من بنيان فاسد وحطام دنوي فاني وتصور للحياة ناقص التغيير وتشكيلها من جديد حسب المنظور الاسلامي وتبعا لتصور الفقه المالكي في التشبث بالوحدة الفكرية (٣) .

١- الهيبية ولد سعد ابوه : مرجع سابق ، ص ٤٦ .

٢- احمد بن الامين الشنقيطي : مرجع سابق ، ص ٢٨٢ .

٣- مجلة العالم الاسلامي : عام ١٩١٥-١٩١٦ ، ص ١٤٣

٢- محور الوحدة الوطنية :

لقد اقام الشيخ ماء العينين بناء مدرسته علي اساس الوحدة الوطنية وصارفا اتباعه عن الوقوع فيما وقع فيه بعض ابناء الطرق الصوفية الاخرى لان الوطن القوي الموحد يكسب للفرد قوة ومنعة ويمنعه من ذل القبيلة العمياء ثم ان الوطن ارض الاسلام والدفاع عنه دفاع عن الاسلام ومن هنا فان منظور الوحدة الوطنية عند مدرسة اسمارة منظور اسلامي لا يفرق بين السياسة في الحياة والحياة الكريمة في وسط يسوده مفهوم قوي قويوم للسياسة كما ان هذه المدرسة تعكس مدي انتمائها لأرض موريتانيا المجاهدة التي عرفت بتصديها للطامعين وحرصها علي الاسلام. ولتحقيق ذلك نهج الشيخ ماء العينين منهج والده الشيخ محمد فاضل الذي كان من حكمته وسياسته الذكية ان جعل طريقته مركزا لجميع الطرق الصوفية الاخرى حيث جعل لنفسه حق تلقين سائر الارواد ومسيرة قواعد المشايخ السابقين وعلي سنته وطريقته سار اولاده من بعده وعلي راسهم الشيخ ماء العينين الذي عمل علي توحيد القبائل وجمعها من حوله محترما لجميع نزعتها للصوفية حتى الف في ذلك كتابا اسماه {افادة الراوي في اني مؤاخي} وهكذا اصبح كل من يكون في منظومته ان مؤاخي لجميع الطرق الصوفية وصفة الموحد الديني صبغت عليه كذلك صبغة الموحد السياسي الذي جمع اطراف القبائل الصحراوية للكفاح من اجل التحرير والتوحيد وصارت صفة المؤاخي المنتزعة من سير التاريخ المغربي والموريتاني بمثابة زعيم الوحدة في التعبير الحديث(١) .

وبذلك استطاعت مدرسة اسمارة توحيد القلوب اولاً ثم تقضي علي التنافر السائد بين المواطنين ثانياً ثم توحيد القبائل ثالثاً لتجعل من اسمارة جبهة مترابطة البنين موحدة الشعور مطمئنة في خوضها معركة التحرير ، فتميزت عن الحركات المعاصرة لها بابتعادها عن الخنوع للأجنبي أو الإتزواء بين أعمدة زواياها تردد أوراداً فقط كما تميزت عن سابقتها بانها قلعة صامدة بها جيش صامد صابر ينقضوناسودا علي الطامعين من مستعمري الغرب اذا اعطيت لهم اشارة البدء فالمدرسة قوة خلفية لجيش الدولة وردف له. وهكذا نجد كتابات الشيخ ماء العينيين ومحاولاته التوفيق بين الطرق الصوفية لها دورها في وجه الاطماع الاستعمارية كما ساعدت كتاباته وشعبيته علي ازدياد شهرته فصار ابرز شخصية في اواخر القرن التاسع عشر في مراكش ويظل الشيخ ماء العينيين شخصية لها مكانتها العلمية حتي بعد وفاته سواء في المغرب او في موريتانيا (٢) .

١ - علال الفاسي : مرجع سابق ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

٢ - احمد بن امين الشنقيطي : مرجع سابق ، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

الفصل الرابع

القادرية والإدارة الفرنسية منذ عام ١٩٣٤م - ١٩٦٠م

أولاً : الإدارة الفرنسية في موريتانيا .

ثانياً: السياسة الفرنسية في موريتانيا وموقف الطريقة القادرية منها .

ثالثاً : الطريقة القادرية والحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار الفرنسي حتى الاستقلال .

أولا : الإدارة الفرنسية في موريتانيا :

حولت فرنسا موريتانيا من محمية إلى مستعمرة سنة ١٩٢٠ ، وذلك بعد أن صدر مرسوم ١٢/٤ / ١٩٢٠م من طرف الحكومة الفرنسية ذلك أن تقدم الاحتلال الذي تم تحقيقه في هذه الأراضي وما تم إحرازه من توسع في هذا المجال يشكلان السببين الحقيقيين لهذا التغيير الذي يتمثل في إنشاء إدارة محلية وبهذا المرسوم أصبحت موريتانيا مستعمرة تمتلك استقلاليتها الإدارية والمالية فهي مدارة من طرف الحاكم الموريتاني ويخضع هذا الأخير إلى سلطة الحاكم العام لأفريقيا الغربية (١) ، ولقد وضع كوبولاني أسسا لنظام إداري وأصله خلفاءه من بعده وقسمت البلاد بموجبه إلى عدة مناطق كمراكز يشرف علي كل منها مقيم فرنسي :

١- الترارة/ بتلميت . ٢- البراكنة/ الاك . ٣- تكانت والمجرية / تجكجة .

العصابة/ كيفة . ٤ - امبود سيليبابي . ٥- ادرار/ اطار شنقيط .

٦- إضافة إلى اكجولت التي كانت تربط بين جنوب غرب وشمال غرب البلاد أما مركز افديرك وبيرام اكرين فلم تظهر قبل عام ١٩٣٨م وفي عام ١٩٤٤م الحق الحوضين بموريتانيا فيما بعد بعجد فصلهما عن السودان الفرنسي (٢).

ومنذ عام ١٩٤٤م وزعت فرنسا مستعمرة موريتانيا إلى ١١ دائرة وقد استمر هذا التنظيم قائما حتى عام ١٩٦٠م تاريخ استقلال البلاد ولقد كان هذا التنظيم الإداري يتطلب إيجاد جهاز إداري مركزي فرنسي وكذلك جهاز محلي يتم فرز من الأهالي وفق المعايير المحددة من طرف الإدارة الفرنسية بما يتفق مع هذه المصلحة الاستعمارية العامة (٣) .

١- محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٨١.

٢Ilselmou ould Mohamed el hadyop.cit. p 157

٣- محمد الراظي : موريتانيا عبر العصور - مرجع سابق ، ص ٨٢.

وكانت فرنسا أبداً نسبياً من بريطانيا في إخال التغييرات التي تلائم روح العصر الجديدة كما خلفتها الحرب العالمية الثانية ، وفيما يخص موريتانيا فإنها بالإضافة إلى ذلك لم تتأثر كثيراً بالحرب بالدرجة التي تأثرت بها السنغال ، أما المجتمع الموريتاني فكان ما يزال يخلع بالكاد رؤساءه التقليديين ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة البحث عن زعامة سياسية (١).

والناظر إلى النظام الفرنسي في موريتانيا خاصة وغرب أفريقيا عامة يجد أن هذا النظام قد قام على أساس تحطيم الزعامات القومية وانتزع منها كل سلطة ونفوذ وبالتالي عمل هذا النظام على رسم السياسة من قبل الفرنسيين بمفردهم وشغل الفرنسيون جميع الوظائف بل وتولوا تنفيذ كل أوامر الحكومة وبالتالي صار الجيش عماد الوجود الفرنسي في أفريقيا فلم يتوقف النظام الفرنسي عند حد الإدارة المباشرة وحرمان الوطنيين من ممارسة أعباء الحكم في بلادهم بل تعدي الأمر إلى درجة انتهاج سياسة الاستيعاب أي صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق فرض ثقافة الفرنسيين ولغتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية على الأفريقيين ولذا نجد أن للنظم الفرنسية قد فشلت في خلق زعماء وطنيين يدينون لها بالولاء واضطرت فرنسا إلى الاعتراف باستقلال هذه الدول الأفريقية عام ١٩٦٠م لتواجه مشكلات عديدة من جراء هذه السياسة الفرنسية التي حاولت طوال عهدها الاستعماري القضاء الكامل على التقاليد والثقافة الأفريقية المحلية ولقد كان الجهاز الإداري الاستعماري في موريتانيا يتشكل من ادارتين استعماريتين فرنسيتين ومن رؤساء محليين أصبحوا متعاونين مع السلطة الاستعمارية هذا بالإضافة إلى الموظفين المحليين الذين تم تكوينهم في المدارس الاستعمارية (مثل المحصلين الماليين وكلاء البريد وغيرهم) ويخضع الجهاز الإداري للسلم الإداري على أن أهم ميزة للتأثير السياسي الاستعماري هو اعتماده على الضعف العسكري الذي أدى إلى تحطيم وتقجير بعض الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التقليدية نتيجة مقتل أو هجرة عدد كبير من الزعماء وأحيانا عائلات أو قبائل بأكملها . ولتحكم السلطة التقليدية عهد المستعمر إلى عزل بعض الزعماء وتنصيب آخرين لم يكن بإمكانهم يوماً ما الوصول إلى الزعامات بحكم المعايير الاجتماعية التقليدية ، مثال على ذلك أن المستعمر الفرنسي قضى على إمارتي ادو عيش وادرار بل أن أمير ادرار نصب محله لجنة مكونة من تسعة أشخاص أربعة من حسان وخمسة من الزوايا فأصبحت مهمة الزعماء والأمراء التقليديين محصورة في تعميم قرارات الإدارة الفرنسية ومساعدتها في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن .

كما أن هؤلاء الزعماء كان يتم تعيينهم من طرف الإدارة الفرنسية وللحد من نفوذهم لم تكن القبيلة هي الوحدة الإدارية إلا من الناحية الشكلية فالقخذ كان هو الوحدة الرئيسية ويتمتع ضمناً باستقلال مطلق عن باقي أفخاذ القبيلة فلم تكن المجموعة التابعة لامارة ما أي علاقة بنظامها إلا عن طريق الإدارة الفرنسية وحتى القضاء رغم بقاء شكله القديم وتنظيمه

وتخصيص رواتب للمشرفين عليه فإنه لم يكن مستقلاً عن هذه الإدارة الاستعمارية (٢)

١- نصر السيد نصر :مرجع سابق ، ص ٥٦ .
٢ - عبد الله عبد الرزاق : تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر ، ص . ص ٩٥،٩٤ .

وكان غرب أفريقيا الفرنسية قد انقسم إلى ثمانية مناطق إدارية وكانت تحكم منذ عام ١٩٠٠م علي أساس أنها اتحاد فيدرالي مركزي حيث كانت كل الخدمات الكبرى تحت رقابة الحاكم العام وحده وهو صاحب الحق في إصدار القرارات وكان هو صاحب التحكم في الميزانية وكان هو صاحب السلطة في زيادة القروض وفرض رسوم أو ضرائب جديدة علي الصادات وهو الذي يعيد توزيع المسؤوليات في المستعمرات (١) .

وبينما كانت السياسة التقليدية تتدهور كانت تتكون طبقة بيروقراطية (مترجمون - معلمون - ممرضون - محصلو ضرائب) خارجة من قلب الطبقات النبيلة ولكتها ورثت مهامها في إطار جديد وقد تميزت هذه الفترة بوقوع تطورات هامة أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية أهمها :- تغير ميزان القوى علي المستوى الدولي وظهور العملاقين ثم ظهور للحركات والأحزاب السياسية في أفريقيا واسيا وغير ذلك من الظروف السياسية التي أثرت علي علاقة الدول الأوروبية بمستعمراتها ، فصدر دستور ١٩٤٦ م في فرنسا والذي ينص في ديباجته علي أن فرنسا ستقود الشعوب المستعمرة إلى الحرية وتعطي للرعايا الأفارقة صفة للمواطن وبالتالي حق التمثيل والانتخاب .

لقد اعتقد الفرنسيون أن اعظم منة ومنحة يقدمونها للأفارقة في المستعمرات هي ثقافة ولغة فرنسا ونظمها ومبادئها وقيمها ، وقد بني هذا الاعتقاد علي أساس أن ماضي الثورة الفرنسية وما حققته تلك الثورة يفرض علي فرنسا أن تقوم بهذا الدور علي أن المهم هو ذلك الأيمان الفلسفي العميق الذي لنتاب السياسة الفرنسية بعد الثورة وأصبح أداة للتوسع الفرنسي الاستعماري ونهب وغزو أراضي أخرى في أفريقيا والتبرير الذي يقدمه مؤيدو السياسة الفرنسية الاستعمارية انه يجب علي أهالي المستعمرات معرفة مآثر ومحاسن النظم الفرنسية وإن كل تقدم ورقي يصيبهم لن يأتي أو يتحقق إلا عن طريق الثقافة واللغة الفرنسية والمستويات الروحية والحياتية التي غرسها الثورة الفرنسية وحملت فرنسا رسالتها إلى العالم لجمع ولعل هذا هو ما دعا كثيرين من الدارسين إلى تسمية هذه الظاهرة الفرنسية باسم الاستعمار الثقافي النفساني (٢) .

١ - عبد الله عبد الرازق ابراهيم : تاريخ غرب أفريقيا الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٩٦ .

Isselmouould Mohamed el hady op cit. p . 158

(٢)

حمدي الطاهري : أفريقيا بين الاستعمار والإستقلال ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ص ١٧٩ - ١٨٠ .

وفي عام ١٩٥٢م ظهر اقتراح يشير إلى توحيد الصحراء من الناحية الإدارية في الجمعية الوطنية للفرنسية وذلك بأن تكون وحدة إدارية ذات صفة مستقلة تسمى أفريقيا الصحراوية الفرنسية تخضع لسلطة مندوب عام وبموجب هذا التنظيم تنقسم الصحراء إلى مناطق تتمتع بالحكم المحلي ويمثلها مجلس تشريعي تضم مندوبين من كل من موريتانيا والسودان وفرنسا والنيجر وتشاد وثمانية ممثلين عن الصحراء الجزائرية .^١ للتنظيم الموضوعات التي تهم الجزائر والمغرب و موريتانيا .

كانت موضوعات اتفاق بير موغرين (١) ، تهدف إلى تنسيق الوضع الذي نشأ عن امتداد قيادة التخوم المغربية الجزائرية إلى المنطقة الشمالية من موريتانيا باعتبار أن هذه القيادة تتلقى تعليماتها من المقيم العام في المغرب بموجب مرسوم أغسطس ١٩٣٣م ومن ثم أصبح الوضع غريبا في إدارة شمال موريتانيا فبينما هو يتبع إداريا سانت لويس فإنه من الناحية العسكرية والسياسية يتبع بطريق غير مباشر المقيم العام الفرنسي في المغرب ولا بد أن يترك ذلك أثره السيئ على الإدارة في شمال موريتانيا وكان من أهم البنود تقسيم مسؤولية الإشراف على القبائل الكبرى حيث اعترف الاتفاق بأنه من المستحيل تطبيق الحدود السياسية المقررة على قبائل الصحراء التي تتجول للرعي في مساحات كبيرة جدا تحكمها الظروف الجوية إلا أن الاتفاق قسم مسؤولية السيطرة على قبائل الرقيبات بحيث تشرف السلطات الإدارية بالجزائر من تندوف على رقيبات القواسم (رقيبات الشرق) الذين يعتمدون على المراعي الممتدة داخل نطاق سلطة قيادة التخوم الجزائرية المغربية بينما ترك الاتفاق لموريتانيا الإشراف على رقيبات الساحل الذين كانت لهم مفاوضات وعلاقات منذ مدة طويلة مع السلطات الموريتانية.

١ - اتفاق على برنامج يطبق على ثلاث مراحل بين المسؤولين الفرنسيين في كل جنوب الجزائر وجنوب المغرب وشمال موريتانيا وكان ذلك سنة ١٩٣٤ وهذا من ضمن اسباب احتلال فرنسا لموريتانيا حتى تربط مستعمراتها بالمستعمر في الجنوب وقد وضع هذا الاتفاق الكولونيل ترانكي بعد تعيينه قائدا جديدا للتخوم الجزائرية المغربية الموريتانية .

السياسة الإدارية الداخلية :

ركز اتفاق (بير موغرين) علي أهمية توحيد القواعد الأساسية علي كل من موريتانيا والتخوم الجزائرية المغربية حتى تؤكد للمواطنين وحدة الإجراءات الفرنسية، وحتى تحقق ذلك لابد وان تستند إلى الآتي :

- أن تكون الضرائب متفقة مع التقاليد الموريتانية بمعنى أن تكون ذات صبغة سياسية أكثر منها مادية وان تتناسب مع موارد القبائل أو بحد ادني ١% من قيمة القطعان ومن الممكن السماح بإعفاء بعض الشخصيات ممن لهم نفوذ ممن يؤدون خدمات للسلطات الفرنسية .
- إقامة نظام للعدالة يستند علي التقاليد الموريتانية علي أن يحل تدريجيا محل النظام القائم الذي كان سببا في اختلال النظام

وكان من شروط اتفاق بير موغرين عدم السماح لأي شخص أو بعثة بالتجول بالجمال أو السيارات أو حتى بالطائرات ما لم يحصل مسبقا علي تصريح من المقيم العام الفرنسي في الرباط وحاكم عام الجزائر وحاكم عام أفريقيا الغربية الفرنسية علي أن يقوم كل من قائد التخوم الجزائرية المغربية وقائد دائرة أدرار باتخاذ التدابير التي تكفل تنفيذ ذلك .

وبهذه الاتفاقية التي ربطت بين جنوب المغرب وجنوب غرب الجزائر وشمال موريتانيا وجدت مشكلة الأمن التي طالما أفلقت الفرنسيين حلها الأخير فبعد القضاء نهائيا علي بلاد السبييه وتطويق آخر معاقل القبائل غير المسالمة في شمال موريتانيا تطويقا محكما والسيطرة علي مناطق رعي قبائل البدو وبالتالي علي موارد رزقهم وتحقيق الحلم الذي طالما سعت إليه فرنسا بان يسود السلام من شواطئ السنغال جنوبا إلى المغرب شمالا وهذه الشبكة الكبيرة من الطرق تعتمد علي قواعد قوية تضم كل منها مواقع حصينة ووحدات سيارات وتنتشر فيما بينها مراكز لمجموعات الهجانة ومستودعات للتأمين وارض لهبوط طائرات الإغاثة وكل هذه المواقع والمراكز تجاور الآبار ، المورد للوحيد للمياه في الصحراء كما ترتبط مع بعضها بشبكة من الاتصالات اللاسلكية لسرعة تداول المعلومات ومن الطبيعي أن يكون لهذا التنظيم آثار بعيدة المدى في جميع المجالات.

١- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٥٨٢.

- أصبح تجول القبائل في الصحراء لا يتم إلا بعد موافقة أقرب قائد وحدة هجانة وبعد إجراء حصر لخيامه وقطعانه وسلاحه .
- أصبح للسلطات الفرنسية قيادات وطنية تعتمد علي رؤساء مختارين من الموالين لهم يوصلون أوامر الإدارة ويسهرون علي تنفيذها علاوة علي عملهم كوسطاء ومصادر المعلومات .
- تمكنت الإدارة الفرنسية من التعرف النقيق علي المناطق التي كانت مجهولة لمدة طويلة وكان كل يوم يزيدهم معرفة اعمق ومن ثم سهولة السيطرة علي الأرض والسكان .
- أصبح احتلال البلاد قهوليا وكاملا وأصبح للتجول فيها متيسرا ومأمونا .
- اطمأنت السلطات الفرنسية بعد سيطرتها علي قبائل الرقيبات ومناطق رعيهم اطمأنت علي عدم اعتدائهم حيث عملت علي تثبيت شملهم بتقسيم مسؤولية الإشراف عليهم كما ورد في اتفاق بيزر موغرين فمع التطور المستمر في ممارسة إدارة فعالة في البلاد أخذ الرقيبات يعدلون أوضاعهم بما يتفق مع التقسيم المذكور وزوال خطرهم نهائيا .
- والحق أن العوامل التي أدت إلى معاناة الموريتانيين ترجع إلى أسباب ثلاثة :
- الأزمة الاقتصادية - التخطيط الإداري - الوضع العسكري .
- و الأزمة الاقتصادية هي التي أظهرت عيوب الإدارة وهي التي تسببت في كثير من الظروف العسكرية المؤثرة ولذلك يمكن اعتبارها العامل الأساسي . لأن الإدارة الفرنسية في موريتانيا بحكم وجودها لفترة طويلة في ظل الهيمنة السنغالية قد اتبعت نفس المبادئ التي اتخذت كقاعدة لتنظيم السنغال ولم تتفعل بالتجربة الجزائرية التي أنشأت في الصحراء الجنوبية نظاما يختلف في جوهره عن نظام المناطق الشمالية مما يسر له مرونة مستقلة عن النظام المركزي الشمالي ولذلك فإن الإدارة المركزية في موريتانيا حتى وإن كانت قد نظمت علي قواعد ممتازة إلا أنها لم تكن لتنظم إلا في ظل استقرار غير موجود وبموارد لم تتوفر وبوسائل لا توجد عند البدو .

ومن ثم فقد اصطدمت بصعوبات لا تخول لها هذه العوامل أن تتغلب عليها كما أنها
استنزفت مصاريف باهظة لا يمكن لميزانية فقيرة أن تتحملها ووضعت أهدافا مثالية لم يتيسر
إدراكها لعدم وجود التربة المناسبة (١) .

علي أنه من أوضح أخطاء الإدارة الفرنسية في موريتانيا أنها لم تحترم النظام
الاجتماعي القائم في البلاد . أما عن الوضع العسكري فإن جذوره تمتد إلى عام ١٩١٧م
حين شكلت قيادة الأقاليم الصحراوية بموجب القرار الوزاري الصادر في ١٩١٧/١/١٢م
وكان هذا القرار قد اقتطع جزءا من الأرض الموريتانية وجعله خاضعا عسكريا للقيادة
الجديدة بينما ظل تابعا إداريا لسانت لويس حيث خلق هذا الوضع مع مرور الزمن مشكلة
معقدة فمع تطور الأحداث عسكريا وسياسيا في المنطقة الشمالية التي تقع في نطاق القيادة
المذكورة فرضت الظروف إيجاد قائد عسكري لقوات هذه المنطقة وصارت موريتانيا بذلك
تعاني من ازدواج الإدارة فوجود قائد عسكري وحاكم مدني يدينان لتابعين مختلفين عرقل
اتخاذ القرارات السريعة وتسبب في تردد قادة الدوائر الشمالية فيما بين رئاستين لا يوجد
بينهما تنسيق فعلي وسار مبررا للتهرب من تنفيذ التعليمات ليس فقط بالنسبة إلى الجهاز
الإداري وإنما أيضا بالنسبة للقبائل وأهم من ذلك كله أنه صرف الإدارة عن أعمال الإصلاح
الواجبة فلم يكن من السهل علي الإدارة الفرنسية في موريتانيا القيام بمشروعات إصلاحية في
الإقليم لشمالى بينما هو يخضع تماما لقيود عسكرية وقواعد تنظيمية لا يتيسر معها تنفيذ مثل
هذه المشروعات ووقع عجب ذلك بالطبع علي الموريتانيين الذين تحملوا هجمات رجال
المقاومة وإهمال الإدارة وقيود قيادة الأقاليم الصحراوية

وخلاصة القول أن الأزمة الاقتصادية قد كشفت عن عيوب الإدارة الفرنسية في
موريتانيا التي زاد من تفاقمها وخاصة بعد أن تم احتلال البلاد احتلالا شاملا منذ عام ١٩٣٤م
وقد حاولت الإدارة الفرنسية إصلاح الحالة الاقتصادية باعتبارها أساس كل عوامل المعاناة
وحتى في هذه المعاناة تعثرت جهود الفرنسيين وصار علي الإدارة الفرنسية في موريتانيا أن
تداوم العمل علي النهوض بالإقليم الشمالى والتخفيف من معاناة الموريتانيين الذين الحقنهم هذه
الإدارة باسم السلام والأمن والحرية والمساواة (٢) .

ثانياً : السلسلة الفرنسية في موريتانيا من سنة ١٩٣٤ / ١٩٦٠ :

وضع الحاكم الفرنسي باتي قواعد الإدارة الفرنسية في موريتانيا وقد ميز في سياسته بين منطقتين مختلفتين :

الأراضي المجاورة للنهر في الجنوب وهي الإقليم الزراعي المزدهم بالسكان المستقرين المسالمين ، وهي إمارتا الترازرة والبراكنه ، وكان في الشمال إمارت تكانت وأدرار التي يؤمهما ويقطنهما قبائل رحل خاضعة بشكل ما ، وقد احتفظ باتي للمناطق الجنوبية بنظامها الإداري المباشر ، كما أنه رأي أن تخضع المناطق الشمالية لنظام أشبه بنظام المحميات ، أساسه الاعتماد على المحاربين والرؤساء التقليديين ويتمشي بقدر الامكان مع طبائع البدو وعاداتهم وتقاليدهم (١) علي أن تزود هذه المناطق بجيش خليط من البدو والزنوج والسنغاليين وذلك حتى لا تحتاج فرنسا إلى إقامة مراكز عسكرية كثيرة في الشمال (٢) .

لقد أقامت فرنسا مشروع إنشاء دولة البيضان وكانت تهدف من وراء هذا المشروع إلى أهداف استراتيجية بعيدة المدى ، وكان من بين هذه الأهداف خلق منطقة عازلة تفصل الفضاء العربي عن امتداده الحضاري والاستراتيجي (أفريقيا المسلمة) وبالتالي إيقاف المد الثقافي الديني الذي اضطلع به الدعاة والعلماء الموريتانيون منذ حقب بعيدة وإلى جانب الهم الثقافي يتعين ذكره الدوافع الاقتصادية التي لاحت بواورها منذ الصراعات الأوروبية علي الشواطئ الموريتانية مروراً بازدهار تجارة الصمغ وانتهاء باكتشاف مناجم الحديد الغنية في شمال البلاد وتأسيس شركة ميفرما Miferma لاستغلالها ولقد كانت موريتانيا خلال فترة الاستعمار تدار من السنغال حيث دلكار عاصمة أفريقيا الغربية وسانت لويس عاصمة موريتانيا التي لم تحدد منزلتها السياسية إلا غداة الإصلاحات الدستورية الفرنسية التي تلت الحرب العالمية الثانية وكان من بينها مشروع الجزائر ديجول الرامي إلي إعادة ترتيب علاقات فرنسا بمستعمراتها (٣) .

١- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ص ٤٥٧ - .

٢- نصر السيد نصر : مرجع سابق ، ص ٥٠ .

١ - السيد ولد إياه : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

ولم يمض زمن طويل بعد استكمال السيطرة الفرنسية علي موريتانيا حتى بدأت المرحلة الجديدة في تطور المستعمرات نحو الحكم الذاتي والتي تواكب للحرب العالمية الثانية ومن ثم فإن مرحلة الحكم الفرنسي المباشر لموريتانيا لم يكن لها من الأثر إلا بما يتناسب مع قصر مدتها ، إذا لم يلبث أن أعقبتها مرحلة الحكم المحلي منذ عام ١٩٤٦ والتي تطورت بسرعة إلي الاستقلال الذاتي بموجب القانون الإطارى عام ١٩٥٦ ثم إلي الاستقلال الكامل عام ١٩٦٠ (١) .

ولقد كان لاحتلال فرنسا لموريتانيا آخر حلقة في سلسلة للتوسع الفرنسي في غرب أفريقيا رغم أنها أقرب إلي الشاطئ الشمالى للقارة ، وبذا تكون موريتانيا هي آخر مستعمرة تنظمها الإمبراطورية الفرنسية الشاسعة في أفريقيا . ولقد سعت السلطات الفرنسية لوضع اليد علي مشايخ القادرية ومحاولاتها تشجيع البقري - الاستقرار لضبط الحالة المدينة . وقد وضعت فرنسا أسس نظام إداري قسمت البلاد بموجبة إلي عدة مناطق كمراكز يشرف علي كل منها مقيم فرنسي (الترارزه / بتلميت) (البراكنة / الاك) (تكانت والمجرية / تحكمة) (العصابة / كيفة لمبود سيليبابي) (آدارار / اطار وشنقيط) أما مراكز اقديرك وبرام اكرين فلم تظهر قبل سنة ١٩٣٨ وفي سنة ١٩٤٤ ألحق الحوضين بموريتانيا بعد فصلها عن السودان الغربي . ومنذ عام ١٩٤٤ وزعت فرنسا مستعمرة موريتانيا إلي ١١ دائرة وقد استمر هذا التنظيم قائماً حتى ١٩٦٠ وهو تاريخ استقلال البلاد وقد كان هذا التنظيم الإدارى يتطلب إيجاد جهاز إدارى مركزى فرنسى وكذا جهاز محلى يتم إقراره من الأهالى وفق المعايير المحددة من طرف الإدارة الفرنسية بما يتفق مع خدمة المصلحة الاستعمارية العامة (٢) .

لقد كان الاستعمار الفرنسي يتمتع بتنظيم نقيق ولدية كواادر مقتدرة ومدرية وذات خبرة طويلة في أعمال الاستعمار ومن أنواع للتدريب التي يستخدها أنه يعلم لغة البلد التي يعمل فيها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها (٣) .

١ - سعد خليل مرجع سابق ص ٤٥٥

٢- محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

٣- مجلة الأمة : ثروة عن الإسلام في أفريقيا عدد ٦ ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٦٧ .

وفي عام ١٩٣٦ أصدر الحاكم العام لأفريقيا العربية الفرنسية قرارات في شهري أغسطس وسبتمبر لتنظيم الحكم في كل أفريقيا العربية الفرنسية حيث يوضح القرار أن للفخذ هو الوحدة الإدارية الأساسية وبعده القبلية ثم الإمارة ثم بعد ذلك الإدارة الفرنسية التي أصبحت السلطة كلها في يدها وتهدف فرنسا من وراء هذا التنظيم الإداري إلى إخضاع للزعماء التقليديين لسياساتهم الاستعمارية كما تهدف من وراء ذلك إلى بث الخلاف بين السكان وتسمى هذه السياسة سياسة الإشراك.

وقد سبقت هذه السياسة سياسة الاستيعاب فعند مجيء الغزاة إلى موريتانيا حاولوا عدم الاعتماد على الطبقات التي تشكل حجر عثرة في وجوههم فاعتمدوا على طبقة الزوايا ، إلا أن هذه السياسة لم تنم إلا فترات الحملات العسكرية ، وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة قبائل حسان وانضمامها إلى صفوف المقاومة في الشمال والحقيقة أن هجرة حسان هذه كانت فرنسا ترغب فيها لأنها قد تساعدهم في تركيز سلطتها ، وعندما ركز الفرنسيون سلطتهم واستقرت الأحوال السياسية عادت إلى قبائل حسان واعتمدت عليها وبهذه الصورة تم اعتماد سياسة الإشراك التي تتمثل في الاعتماد على النظام الهرمي التقليدي .

لكن هذا الاعتماد بقي سطحيًا لأن كل السلطة كانت بين الفرنسيين أما الزعماء التقليديين فلا دور لهم سوى تنفيذ ما يصدر إليهم من أوامر في معظمها تهدف إلى إرهاب للمواطنين بالضرائب وغيرها من وسائل الظلم الأخرى (١) .

وكانت فرنسا تهدف من وراء هذه السياسة - الإشراك - أن تحقق نجاحًا أكثر وفائدة أعظم وعبر هذه السياسة يتم لفرنسا التمكن الكامل في المجتمع والتحكم البالغ في أجوره وقضاياه ، فبواسطتها - سياسة الإشراك - تمت المحافظة على الهياكل التقليدية ويمكن للمستعمر من تدارك الموقف ، فبدأت الإدارة الفرنسية تعمل على تقديم الطبقات المهضومة في المجتمع وحاولت دعمها بكل ما أوتيت من قوة فأعادت الاعتبار للسلطة الفكرية في المجتمع رافعة بذلك قيمتها في المجتمع مدعمة وجودها بمنحها السلطان الكافي ، وقدمت إدارة المستعمر من وراء ذلك إلى الاستناد على حسان والاعتماد عليها إذ هم تربة خصبة خلاف السلطة المرابطة التي تعتبر عائقًا ضد توجيهات المستعمر ومقترحاته ، وقد أصدرت فرنسا قرارات تعين الأمراء ورؤساء القبائل والقضاة .

١ - محمد سالم بلغريو : مرجع سابق ، ص ٥١ .

وقد استفاد الجميع من المرتبات التي منحتها الإدارة الفرنسية كما أصبحت تتمتع بامتيازات مادية ومعنوية وتطويرية وغيرها من العلاقات بين رؤساء المجتمع وإدارة الاستعمار وقد رافق هذا التنظيم السياسي والاجتماعي فعل أيديولوجي يعتمد أساسا علي المدرسة الحديثة ونظامها التربوي (١) ، وسياسة الإشراف كانت أيضا نتيجة لتطور الأحوال في أوروبا عامة وفرنسا خاصة واضطراب الظروف الدولية في النصف الثاني من القرن ال ١٩ حيث بدأت تظهر السياسة الاستعمارية الفرنسية الجديدة (سياسة المشاركة أو الارتباط) (٢) .

تطور سياسة فرنسا في موريتانيا بعد الحرب العالمية الثانية:

كانت فرنسا أيضا أبدا نسبيا من بريطانيا في إدخال التغيرات التي تلائم روح العصر الجديدة ، كما خلفتها الحرب العالمية الثانية ، فلم تتأثر كثيرا بالحرب حيث كان المجتمع الموريتاني لا يزال يخلع بالكاد رؤساء التقليديين ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة البحث عن زعامة سياسية (٣) ، وعلى الرغم من أن التاريخ السياسي القريب لموريتانيا يتصل اتصالا وثيقا بالتحويلات الدولية والإقليمية التي طالت المنطقة الشمالية الأفريقية إلا إنه يتميز بسمات عديدة لعل من أبرزها ديناميكية نشوء الكيان السياسي الموريتاني في طريقة تحكمها جملة من المحددات المتباينة ويكتنفها العديد من الأحداث المتلاحقة والاحتمالات المتعددة جعلت تطور هذا الكيان وبناءه مرهون بمؤشرات وضع داخلي متقجر وإدارة استعمارية متردة وحركة استقطاب إقليمي مزدوج (٤) .

وكانت السنغال المجاورة لموريتانيا وهي مستعمرة فرنسية تسبق دول غرب أفريقيا إلي الاشتراك في أجهزة الدولة الفرنسية حيث مثل في مجلس النواب الفرنسي بعض السنغاليين في البرلمان الفرنسي ، وقد ظلت الفكرة المسيطرة علي مخططي سياسة الاستعمار الفرنسي هي أنه إذا أريد لنظام الحكم أن يتغير وتخفف قبضة الإدارة المباشرة فإن ذلك يكون عن طريق إشراك المستعمرات في أجهزة الدولة الفرنسية .

- ١ - حميد محمد علي : مرجع سابق ، ص ٥٦ - ٥٨ .
- ٢ - حمدي الطاهري : مرجع سابق ، ص ١٨٢ .
- ٣ - نصر الدين نصر : مرجع سابق ، ص ٥٦ .
- ٤ - السيد ولداباه و آخرون موريتانيا : مرجع سابق ، ص ٩١ .

بالتالى رفع نظام الاحتكار (احتكار نواب فى البرلمان الفرنسى كان مقصورا على السنغاليين فقط) عن مستعمرات أفريقيا العربية الفرنسية وقد ضمن ذلك فى تصريح برازافيل سنة ١٩٤٤ الذى أصدره الجنرال ديغول (١)، وقد أبرز مؤتمر برازافيل موضعين هامين سيكونان محور الحياة السياسية لأفريقيا الغربية والفرنسية وجميع أقطار ما وراء البحار وهما محاولة التوسع فى تطبيق نظام الدائرة الانتخابية الموحدة والعمل على إدخال النظام الفيدرالي والاستقلال الذاتى ، ويعتبر مؤتمر برازافيل نقطة تحول جوهريّة فى السياسة الاستعمارية الفرنسية ، فقد كان الهدف الذى سعى إليه هو تحقيق التقدم بالنسبة للفرد والمجتمع الإفريقي (٢) .

لقد نصّ تصريح برازافيل على اللامركزية وتكوين جمعيات تشريعية ومشاركة الوطنيين فيها كما نصّ على تطوير نظام الإدارة وإخضاع الأفريقيين بإعداد مترابطة فى الوظائف الحكومية ، وقد تشكلت هذه الأجهزة طبقا لدستور الجمهورية الرابعة الصادر سنة ١٩٤٥ حيث أعلنت أنها تسعى حثيثا لقيادة الشعوب التابعة لها نحو حريتها فى إدارة نفسها بنفسها وممارسة شئونها بصورة ديمقراطية وإنها تجنبنا لأي نظام استعماري قائم على العنف تضمن لكل شخص ممارسة الوظائف العامة وتأسيسا لهذا المشروع أنشأت الإدارة الاستعمارية نظام الاتحاد الفرنسى الذى يشمل الجمهورية الفرنسية بولاياتها ومقاطعاتها وأقاليمها فى ما وراء البحار بالإضافة إلى المناطق المحمية والمستعمرة (٣) .

ولقد مرت تنظيم الحياة السياسية فى موريتانيا بعد دخول الاستعمار بأربع مراحل عرفتها كل المستعمرات الفرنسية فى ذلك العهد هي :-

- ١ - سياسة الأجناس .
 - ٢ - سياسة الإدماج .
 - ٣ - سياسة الإشراف .
 - ٤ - مرحلة بناء النظم الحديثة .
- لقد كانت هناك اتجاهات ثلاثة فى السياسة الاستعمارية أمام واضعي دستور ١٩٤٦م

لتحديد طبيعة العلاقة بين فرنسا ومستعمراتها وهي :-

الإخضاع الإدماج الاستقلال الذاتى .

١ -

نصر الدين نصر : مرجع سابق ، ص ٥٦ .

٢ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٦١٣ .

٣ - السيد ولد أباه وآخرون : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

- الإخضاع (assuiettissement) :

يعرف باسم الميثاق الاستعماري (le pacte colonial) أو نظم المنع والتحرير (le systeme de leexclusif) إذ يحرم علي المستعمرة أن تتعامل إلا مع الدولة الأصل وقد تعرض هذا النظام لانتقادات كثيرة فلطفت فرنسا من حدة سياسة الإخضاع وسارت علي نهج مخفف مع مستعمراتها وفي عام ١٩٢٦م قررت عصبة الأمم إلغاء احتكار تجارة المستعمرات وهو الأساس الاقتصادي الذي يقوم عليه نظام الإخضاع وقد وقعت فرنسا هذا القرار في عام ١٩٣١م وبذلك تحول نظام الإخضاع إلى ما يسمى بسياسة المركزية المباشرة أو الإدارة المباشرة (la politipue de pure centralization) الذي يحتفظ بالجانب السياسي في نظام الإخضاع دون جانيه الاقتصادي (١) .

بمعني أن كل شؤون المستعمرة تدار بواسطة السلطات المركزية أو مندوبيها المباشرين بدون تدخل السكان المحليين كما في سياسة الإخضاع. إلا انه من الناحية الاقتصادية فان سياسة الإدارة المباشرة تعترف بان المستعمرة بوصفها جماعة قائمة بذاتها لها مصالحها الخاصة المتميزة عن مصالح دولة الأصل ولكنها تعهد إلى الموظفين المركزيين دون غيرهم بتمثيل هذه المصالح . وبهذا الفصل بين الجانب الاقتصادي والسياسي اصبح الاستعمار ذا هدف مزدوج والأساس السياسي لنظام الإخضاع هو المركزية الصارمة التي يحتفظ فيها بكل السلطة في أيدي الموظفين الإداريين الفرنسيين الذين يخضعون للتبعية التدريجية الإدارية وقد فقد هذا النظام أنصاره بعد الحرب العالمية الثانية ورفضه مؤتمر برازافيل عام ١٩٤٤م ولاغرابة بعد ذلك في أن ينصرف عنه واضع الدستور .

ويعتضي هذا النظام لا تكون في المستعمرات أية مرافق خاصة بها وإنما مجرد فروع من المصالح العامة في الدولة وبدلاً من تجميعها في يد وزير واحد لشئون المستعمرات فإنها تكون مقسمة فيما بين الوزراء المختلفين كل فيما يخصه .

- سياسة الإلماج (assimilation) :

وتقوم علي التماثل بين المستعمرة ودولة الأصل في نظام الحكم والتسوية بينهما ويرتكز علي فكرة أن إقليم ما وراء البحار ليس إلا امتداداً لدولة الأصل فيجب إذن أن يوضع تحت نفس النظام أو نظام مقارب له ما أمكن ذلك .

١ - محمد محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٢١

وان سكان الدولة في الجانب الآخر من البحر يجب إلا تكون حقوقهم وضماناتهم أقل من حقوق وضمانات أولئك الذين يعيشون في الجزء الأقدم من الدولة .

وترتب علي هذه السياسة نتائج إدارية واقتصادية ودستورية وتشريعية ونظرية الإدماج نظرية فرنسية قديمة ومحبة إليهم حتى أنه يطلقون علي المستعمرات اسم فرنسا فيما وراء البحار وقد نشأت هذه النظرية عن اعتقادهم بأن الحضارة الفرنسية كنز وان فتح هذا الكنز لأهل المستعمرات هو أنبل ما يخطر علي قلب بشر وان علي الأهالي أن يتلاءموا مع العادات الفرنسية وان يتعلموا أن يفكروا كفرنسيين ويجب أن يعاد صهر الحياة المحلية علي هذا الأساس فهي تتضمن الهدم و إعادة البناء فهذه نظرية الإدماج هو التجنيس (١) .

ان نظام الإدماج وان كان يبدو مثاليا من الناحية الفلسفية إلا انه غير عملي فكيف يتأتى أن تكون للمستعمرة نفس القوانين ونفس الحاكم ونفس الإدارة مثل مقاطعات دولة الأصل سواء بسواء مع اختلاف البيئة والظروف والسكان . أي انه ليس هناك تماثل واقعي حتى ينعكس في صورة تماثل قانوني ومثل هذا النظام ينكر علي المستعمرة حقها في التطور الثقافي ويفرض عليها تطورا مصطنعا لا يلائمها إذ أن مجموعة القوانين التي تطبق في دولة الأصل والتي لا تلائم في ذاتها أية مستعمرة علي حدة قد شرعت مع ذلك لتطبق علي جميع المستعمرات .

وعلي السواء فالاندماجيون يضحون بتطور المستعمرة الطبيعي من اجل وحدة غير واقعية تشكرهم أما الأهالي فقد تسكرهم مؤقتا نشوة المساواة المطلقة فيدمرون بغير اكتراث كل ما هو حيوي في كياناتهم حيث يظهر لهم بعد فوات الأوان أن الإدماج قد مسخهم فلا هو إبقاءهم علي حالهم ولا حولهم إلى مواطنين فرنسيين وعلي هذا النحو تكون اكثر المذاهب الاستعمارية تحررا من حيث الشكل هي في الواقع أسوأها .

وعندما اكتشف الفرنسيون صعوبة استيعاب ملايين الأفارقة البدائيين الثقافة الفرنسية اتجهوا إلى تنقيف طبقة ممتازة صغيرة من الأهالي الذين قد يتعاونون مع الموظفين الفرنسيين في إدخال الثقافة الفرنسية إلى الجماهير ولكن هذه الصفوة من الأهالي تحولت إلى فئة قليلة ذات تأثير ضعيف أو عديمة التأثير علي الجماهير في المستعمرات (٢) .

١ - محمد محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

١ - حيمد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ٥٤ .

- سياسة الاستقلال الذاتي *leautonomie politique* :

وتتجسد في ترك سكان البلاد للثابة لدولة الأصل يحكمون أنفسهم بأنفسهم في شؤونهم المحلية فهو استقلال سياسي بالمعنى الصحيح ولكنه محدود في نطاق الاختصاصات الداخلية ويختلف بذلك عن الإدارة الذاتية المحلية أو اللامركزية الإدارية والتي تسمى أحيانا بالاستقلال الذاتي الإداري . وتحت ظل هذا النظام تقوم في المستعمرة حكومة ذاتية في الشؤون السياسية والاقتصادية . ويعتبر هذا التطور في نظر الفرنسيين فشلا تاما وغير مفهوم إطلاقا بالنسبة لهم حيث يعني نهاية الاستعمار .

وعندما بدأت فرنسا تنظم إمبراطوريتها كانت أمامها بوضوح التجربة البريطانية والتي تتجسد في التطور المتوازي وهي تخالف علي خط مستقيم النظام الفرنسي الذي لا يسمح بالتطور إلا في داخل الإطار الذي يرسمه الموظفون الإداريون بوزارة المستعمرات في باريس فهو تطور مصطنع وغير طبيعي ومرسوم مقننا وليس متروكا لجهته .

وسياسة الاستقلال الذاتي وإن لم تكن تطبيقا كاملا لمبدأ حق تقرير المصير إلا أنها تسير في اتجاهه . كانت الاتجاهات السابق شرحها أمام واضعي دستور عام ١٩٤٦م عند وضع القواعد التي تحدد العلاقة بين فرنسا وبلاد ما وراء البحار وقد رأينا أن نظرية الإخضاع قد رفضت لأنها أصبحت نظرية تاريخية لا تؤيدها التطورات الدولية وخاصة في ميثاق الأمم المتحدة . أما عن الإدماج فإنه مرفوض أيضا علي أساس أنه غير عملي أما نظرية سياسة الاستقلال الذاتي فلم ينظر إليها في فرنسا نظرة جدية وكانوا يرون فيها نظرية بريطانية غريبة عن الطابع الفرنسي

فالي أي اتجاه يتطور الدستور الجديد ؟

أن المنطق يقول أن الاستقلال الذاتي هو التطور الطبيعي التلقائي وحيث ظهر ذلك في توصيات مؤتمر برازيل الذي تضمن إعطاء المستعمرات حرية إدارية واقتصادية كبرى علي أساس نظم محلية ليشارك السكان في إدارة الشؤون - العامة . ولكن الفرنسيون يؤمنون بالإدماج مهما وجه إليه من نقد ومن ثم فالنظرية الجديدة يجب أن تكون مزيجا من الإدماج والاستقلال الذاتي وتلك هي نظرية الإشراك أو الاتجاه التي اخذ بها دستور سنة ١٩٤٦م والتي قام علي أساسها الاتحاد الفرنسي الذي ارتبط بعهد الجمهورية الرابعة والأصل في سياسة الإدماج أنها تعطي سكان الأقاليم حق الاشتراك في برلمان دولة الأصل ولا تهتم بإقامة

جميعيات نيابية محلية إلا في نطاق القانون الإداري ومن ناحية أخرى الأصل في - سياسة الاستقلال الذاتي - أنها تعطي سكان الأقاليم حق الاشتراك في برلماناتهم المحلية دون برلمان دولة الأصل أما سياسة الإنماج مع - سياسة الاستقلال الذاتي فتعطي سكان الإقليم حق الاشتراك في برلمان دولة الأصل وفي جمعياتهم التشريعية المحلية أي تمنحهم صفة مواطن مزدوجة كما في النظام الفيدرالي بينما لا تملك هذه الأقاليم حكومات مسنولة ولعل واضعي الدستور أرادوا بذلك إظهار احترامهم لمصالح المستعمرات مع الاحتفاظ بالوحدة السياسية مع دولة الأصل وهذا هو جوهر سياسة الإشراف ومن الطبيعي أن الاشتراك الذي أقره دستور ١٩٤٦م أو الاتحاد الفرنسي هو اشتراك غير متعادل تبقى فيه دولة الأصل هي صاحبة الكلمة العليا وهو بذلك يختلف عن الاتحادات غير الاستعمارية التي تعرفها النظرية الكلاسيكية والتي تقوم على قدم المساواة :

الواقع أن هذا التردد بين نظريتي الإنماج والاستقلال الذاتي قد رافق جميع مراحل وضع الدستور .

الاتحاد الفرنسي بعد سنة ١٩٤٤ وموقع موريتانيا فيها :

كان تعبير "الاتحاد الفرنسي" يشعر للوهلة الأولى بما قد يتضمنه من معنى المساواة والتعاون ، ولكن الواقع أنه تعبير مبتكر استحدثه واضعوا الدستور الفرنسي عام ١٩٤٦م ليحل محل الإمبراطورية الفرنسية التي كانت تشعر بالسيادة والقهر . إلا أن التطور الثقافي لسكان المستعمرات ووعود الحرية السياسية التي ترنيت على هذا التطور الثقافي هو ما حدا بالجمعية التأسيسية أن تعطي الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية دستوراً ذا مظهر اتحادي . ولكن الحقيقة أن التعبير كان في الألفاظ أكثر مما كان في المضمون . والواقع أن الاتحاد الفرنسي أن لم يغير من الصيغة القانونية للأنظمة فقد غير من روحها (١) .

وفيما يتعلق بمركز موريتانيا القانوني في الاتحاد الفرنسي فإنها أصبحت بموجب دستور ١٩٤٦ إحدى أقاليم ما وراء البحار المتممة للجمهورية الفرنسية وهي تشكل أحد أقاليم الاتحاد الداخلي وترتيبها على ذلك تكون ضمن جماعات القانون الإداري وليست وحدة منبثقة من القانون الدولي .

١- محمد محمد حسنين : مرجع سابق ، ص ٩ .

وبالرغم من ذلك لم تكن موريتانيا شأنها شأن باقي أقاليم ما وراء البحار مجرد أقسام إدارية كالمقاطعات الأوروبية أو مقاطعات ما وراء البحار وإنما كانت معتبرة مركزا لمصالح متميزة وشخصية قائمة بذاتها ولقد أكدت نصوص ونظم متعددة شخصيتها القانونية حيث أتاح الدستور لموريتانيا كما أتاح لباقي أقاليم ما وراء البحار لا مركزية أكثر ظهورا من اللامركزية في المقاطعات ولكنها لا ترقى إلى مستوى الاستقلال الذاتي وأخيرا فإن دستور ١٩٤٦م قد فتح المجال أمام موريتانيا وكل أقاليم ما وراء البحار لكي تنتقل أما إلى وضع المقاطعات أو إلى وضع الاستقلال الذاتي .

لقد شهدت أقاليم ما وراء البحار بعد ذلك تغيرات دستورية سريعة انتهت بها إلى الاستقلال السياسي التام كانت المرحلة الأولى منه عام ١٩٥٦م علي اثر صدور القانون الإداري الذي أقام برلمانات محلية في الأقاليم لها سلطة تشريعية أما المرحلة الثانية فتتمثل في دستور الجمهورية الخامسة عام ١٩٥٨م وقد انتهت هذه المرحلة بسرعة عندما عدل الدستور لتبدأ المرحلة الثالثة بظهور الجمهوريات كاملة السيادة عام ١٩٦٠م وهي مرحلة العمل .

وقد مرت معظمها بمرحل ثلاثة هي :-

المرحلة الأولى (من ١٩٤٦ - ١٩٥٠م) :

وفيها ظلت الأحزاب إما فروعاً من أحزاب فرنسية وإما حليفة لها مثل الحزب الاشتراكي السنغالي الذي كان تابعا للحزب الاشتراكي الفرنسي ، والتجمع الديمقراطي الأفريقي الذي كان حليفا للحزب الشيوعي الفرنسي.

المرحلة الثانية (١٩٥٠ - ١٩٥٦) :

في هذه المرحلة انتبهت الساسة الأفارقة إلي عدم جدوي عملهم السياسي ما دام في إطار أحزاب فرنسية لا يتمتعون فيها بوزن كبير و محاولة من رغبات الرأي العام الناشئ وبشعوره الوطني حاول بعض الزعماء التخلص من النفوذ السياسي الاستعماري ووضع برنامج وطني يرمي إلي تحقيق الاستقلال .

المرحلة الثالثة (١٩٥٦ - ١٩٦٠) :

وهي مرحلة العمل المستقل والانفصال النهائي عن التنظيمات الفرنسية وقد انتهت هذه المرحلة بإعلان استقلال موريتانيا وبلدان مستعمرات منطقة غرب أفريقيا الفرنسية و إعلان الحزب الواحد .

وقد سلكت الأحزاب السياسية في موريتانيا هذا الطريق نفسه فهي وليدة انتخابات سنة ١٦٤٦ ، وقبل ذلك لم يكن هناك وعي سياسي يذكر برغم رفض بعض رجال الدين الحازم التعامل مع الفرنسيين لكن العمل السياسي المنظم بالشكل الجديد لم يبدأ قبل انتخابات الجمعية الوطنية الفرنسية سنة ١٩٤٦ ، وقد رُشح لتمثيل موريتانيا عدة أشخاص معظمهم من الأجانب من بينهم أحمد بن حرمة (١) ، وقد اختصرت اللائحة النهائية علي ثلاثة مرشحين هم حرمة ورزك ، وسليمان حوب وعلي غرار باقي المستعمرات كان المرشحان الرئيسيان يمثلان أحزابا فرنسية فحرمة حزب الاتحاد الاشتراكي ورزك الاتحاد الفرنسي وكان الثالث مستقلا.

وبذلك تكون الحياة السياسية الجديدة التي حلت عمليا محل الشكل التقليدي ولدت تبعية ورغم ذلك فقد تمكن حرمة من وضع برنامج ينم عن وعي وطني فقد حاول أن يوطد العلاقات بين المغرب وموريتانيا للتخفيف من التبعية المطلقة لأفريقيا العربية الفرنسية وكان موقفه المؤيد للقيم الروحية والثقافة الأصلية للشعب الموريتاني يشكل شذوذا عن نظرائه من الفترة الاستعمارية الذين كان تكوينهم المدرسي مبني علي سلبهم من شخصيتهم الوطنية وقد فاز حرمة في هذه الانتخابات علي كل رازك وسليمان حوب وبدأ يمارس مهامه البرلمانية في إطار الاتحاد الاشتراكي الجمهوري .

وفي سنة ١٩٤٧ أسس حزب النقاھم الذي ضم كل معارضى النظامين الاستعماري والتقليدي المنادين بالقضاء علي العبودية والفوارق الاجتماعية الراغبين في الحصول علي الاستقلال الفوري خارجا عن إطار أفريقيا الغربية الفرنسية وكان حرمة في البرلمان الفرنسي مدافعا قويا عن مصالح سكان موريتانيا وخصما عنيدا للإدارة الفرنسية الاستعمارية فلما كانت الانتخابات سنة ١٩٥١ فشل في تحقيق الفوز وخرج من البرلمان وفي سنة ١٩٥٦

١ - احمد حرمة بن بابانا العلوي ولد سنة ١٩١٢ في أرض الترازاة قرب قرية المذرذرة جانب نهر الركيزة وتلقى علومه الابتدائية من فرنسية وعربية في المذرذرة وبوتليميت وسان لويس ويحمل شهادة دبلوم الكفاية التعليمية (أستاذ) للغة الفرنسية وكان يشغل منصب سفير المغرب في ليا بصفته مواطنا مغربيا وقد لجأ إلي المغرب بعد غضب فرنسا عليه وقد كان نائب بلادة في البرلمان الفرنسي لمدة خمس سنوات فأكسبه ذلك سياسية وزعامة شعبية وسبب

سقوطه مطالبة بتحرير فلسطين كما وقف ضده بعض قبائل حسان والزوايا الاعلى في السلم الاجتماعي منة وكراهية فرنسا لاحمد بن حرمة (سعد خليل - مرجع سابق ص ٦٣٠)

انفجر حزبه لتبثق منه رابطة الشباب الموريتاني التي حاول بعض أعضائها ضمها إلى حزب التجمع الذي أنشأه المختار ولد داد لكن الأغلبية رفضت ذلك مؤسسة حزب النهضة الوطنية والتي دعت إلى استفتاء سنة ١٩٥٨ وقد كانت هذه الحركة الوطنية لها علاقات وطيدة بالحركة الوطنية بالمغرب . كان هذا عن الاتجاهات التقدمية في السياسة الموريتانية أما عن الاتجاهات المحافظة والتي كانت تريد بقاء الوضع الراهن والمتدرج ببطء نحو الاستقلال في اتجاه الهياكل التقليدية والنظم الاستعمارية المزيفة ويمثلها الاتحاد التقدمي الموريتاني المؤسس سنة ١٩٤٧ للرد على هزيمة الإدارة الفرنسية وحليفها القوي التقليدية في انتخابات سنة ١٩٤٦ ، وقد نجح مرشح هذا الحزب سيدي المختار بن يحيى في انتخابات سنة ١٩٥١ وكانت تلك بداية تشتت القوى الوطنية التقدمية التي تواكب على اتجاهات قومية ناشئة أو لها النهضة التي ولدت رد فعل السود الزنوج ، فقام (صار حاوارا) الذي كان من بين أنصار حرمة يتأسس الكتلة الديمقراطية جورجول، وبعد ذلك اتحاد المنحدرين من منطقة النهر الذي أعلن عنه في دكار سنة ١٩٥٧ وظهر في سنة ١٩٥٩ حزبان هما :-

١- الاتحاد الوطني الموريتاني الذي يدعو إلى الانضمام إلى مالى وهو قسم من الفيدرالية الأفريقية الذى يهدف إلى توحيد كافة أجزاء أفريقيا الفرنسية

٢- وحزب الاتحاد الاشتراكي الإسلامي الموريتاني الذي يتكون من الوجهاء والأعيان المنحازين إلى فرنسا والمتمسكين بالنظم التقليدية .

ويمكن القول بصفة عامة بأن المعالم الرئيسية لتطور أساليب الحكم الفرنسي قد مرت بثلاث مراحل :

- المرحلة الأولى :

وهي الرابطة التي حلت محل نظام الإمبراطورية القديمة وهي ما أطلق عليه اسم الاتحاد الفرنسي union francaise وفي هذه المرحلة غيرت فرنسا النظام الاستعماري من حيث الشكل وبقي المضمون بغير تغيير يذكر وأول تغيير يعتد به هو ذلك الذي تم إثر تولي الحزب الاشتراكي الحكم عام ١٩٥٦ فقد أصدر ما يعرف باسم القانون الاطاري Loicadre

الذي عد نقطة انطلاق في تولي الشعوب المستعمرة مقاليد أمورها بنفسها وشكل هذا القانون منعطفا في سياسة الاستعمار الفرنسي وبموجب هذا القانون تأكدت السيادة الخارجية الفرنسية وذلك بالإبقاء على تمثيل المستعمرات في أجهزة الدولة كما قرر مؤتمر بامako منه ١٩٥٧ والذي ضم بعض أقاليم أفريقيا الغربية الفرنسية . والذي قرر ضرورة اعتراف فرنسا بحق تقرير المصير وتشكيل حكومة تحكم بحكم ذاتي في داكار عاصمة الاتحاد . ولم يكد ينعد ذلك المؤتمر حتى طالبت الصحف الفرنسية بالإسراع في إجراء الإصلاحات في أفريقيا الغربية الفرنسية خوفا من فتح جبهة أخرى شبيهة بحرب الجزائر وفعلا أصدرت حكومة جي مولية قانون الإصلاح الإداري في مارس سنة ١٩٥٧ وهي :

- المرحلة الثانية :

وفي هذا القانون والذي ينص على إجراء انتخابات في كل مقاطعة (١) وزيادة اختصاصات المجالس المحلية التي وصلت إلى درجة التشريع لكل شئونها الداخلية والتخفيف من قبضة الحاكم وزيادة في تمثيل الوطنيين في تلك المجالس وبالنسبة لموريتانيا زاد العدد من ٢٤ إلى ٣٤ وأصبح للوطنيين يشكلون الغالبية العظمى في المجلس كما تقرر أن يكون لكل إقليم مجلس تنفيذي هو بمثابة مجلس وزراء يرأسه حاكم الإقليم ويختار نائبة من بين الوطنيين بشرط أن يحوز على موافقة غالبية أعضاء المجلس المحلي ولذا اقتربت المستعمرات بعض الشيء من النظام النيابي إذ أصبح من الضروري أن يكون نائب رئيس المجلس التنفيذي من أصحاب الأغلبية المنتخبة وقد طبق هذا القانون على موريتانيا في عام ١٩٥٧ وهو الذي أتاح للمختار ولحداده أن يرقي إلى منصب رئيس المجلس في ٢٠/٥/١٩٥٧ علي أساس أن أنصاره نالوا الأغلبية في الانتخابات (٢) .

وقد تصادف تطبيق القانون الإداري مع بروز مشروع آخر كان من شأنه أن يربط موريتانيا بعجلة الاستعمار الفرنسي وهو مشروع التنظيم المشترك للأقاليم الصحراوية Organisation communedes Regions Saharienes وتعود فكرة هذا المشروع إلى قبل الحرب العالمية الأولى ولكن الحرب حالت دون تنفيذه وفي سنة ١٩٣٧ كتب

chazelas

١- محمد حنين : مرجع سابق ، ص ٣١٥ .

٢- انور زغول - مرجع سابق ص ٣٣

في تقرير أعده بخصوص المنظمة الصحراوية المقترح إنشاؤها قال : أن القهر العسكري لم يحقق الإخضاع المعنوي للشعب الموريتاني ، فالموريتانيون ظلوا يقاومون الانفتاح علي المجتمع الفرنسي .

ولذلك كان الاقتراح هو إنشاء منظمة تضم جميع المناطق الصحراوية الخاصة وتصر على أن يكون من شأنها اجتذاب الموريتانيين عن طريق السكان الآخرين مثل سكان الصحراء الجزائرية للتعاون في إطار مجموعة فرنسية كبيرة تسير علي الأسس التي وصفها ليوتي في المغرب وهي مراعاة العادات والتقاليد ونظم أولئك المواطنين (١) .

ولقد كان الهدف في السنوات العشر بعد الحرب وبعد انتخابات سنة ١٩٤٦ عدم النقاش في الاستقلال ولكن في طبيعة العلاقة الدستورية بين المناطق الأفريقية وفرنسا إلا أن قبضة فرنسا علي غرب أفريقيا ظلت قوية وبناءا علي طلب المستعمرات في المزيد من الإصلاحات بدأ منديس فرانس (Mendes France) في عام ١٩٥٤ في القيام ببعض الإصلاحات وأولها كان دستور جديد لتوجو حيث سمح لها بتشكيل مجلس حكومي لكن كل إصلاحات منديس فرانس لم تظهر إلي حيز الوجود إلا عام ١٩٥٦ وقد تجسدت هذه الإصلاحات في ملامح قانون جديد عرف باسم القانون الاطاري (Loicadre) والذي عرض بعد انتخابات ١٩٥٦ علي الجمعية الوطنية وصار (هو فـه بواتية) وزيرا مفوضا في حكومة شكلها جي مولية بعد الانتخابات وكان القانون الاطاري قد طبق في انتخابات مارس ١٩٥٧ في المجالس الإقليمية وأعطى قدرا من المسؤولية لحكومة المناطق التابعة لأفريقيا السوداء .

وكان القصد منه إعطاء جرعة مسكنة للأفارقة في عالم يتحقق فيه الاستقلال بسرعة بينما الوزير المسئول عن ما وراء البحار قد أعلن في حديث أمام الجمعية الوطنية في ٢١ مارس سنة ١٩٥٦ أن البريطانيين قد غيروا النظم السياسية الإدارية في مستعمراتهم وهذا قد زاد من قلق شعوب أفريقيا الفرنسية الغريبة والاستوائية ومع ذلك فإن القانون الاطاري كان مصمما للحفاظ علي العلاقة بين شعوب المناطق فيما وراء البحار وفرنسا الأم وعند تطبيق هذا القانون فإن زعماء أفريقيا السوداء عامة وموريتانيا خاصة لم يحتجوا علي فكرة هذا الاتحاد ولكن فقط كيفية تنفيذه ،

١ - نصر السيد نصر : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

ولم تدخل كلمة الاستقلال في المفردات السياسية العامة إلا في يونيو ١٩٥٨ عندما خاطب سيكوتوري المؤتمر الرابع للحزب الديمقراطي لغينيا في كوناكري حيث أعلن أن غينيا لن تتخلي عن استقلالها حتى ولو ربطت مصيرها مع فرنسا وهكذا دخل الاستقلال في المنافسة السياسية العامة بشكل واضح .

ولقد كان تولى دييجول السلطة في ١٣ مايو وإجراء استفتاء عام ١٩٥٨ بداية الانفصال التدريجي من المستعمرات عن فرنسا ، وفي خلال عامين انقسم هذا المجتمع الفرنسي الأفريقي . ولقد كان دييجول من رجال برازافيل ولمدة عقد من الزمان كان هو ورجاله يدركون رد الفعل تجاه هذه الإمبراطورية الاستعمارية وبالتالي فإنه وعد بدستور جديد يعيد النظر في علاقات فرنسا بمستعمراتها ووافقت الدول المستعمرة في غرب أفريقيا بما فيها موريتانيا علي البقاء داخل الجماعة الفرنسية عدا غينيا التي رفضت البقاء داخل الجماعة . وكان هذا بداية الانهيار والدمار للمجتمع الفرنسي (أي الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا) وإعلان اختفاء أفريقيا الفرنسية الغربية كوحدة سياسية كما أيد دستور دييجول بلقنة أفريقيا الفرنسية (١).

ومما يلفت النظر أنه بينما جاء الاستقلال الذاتي علي خطوتين بدأت بدستور الجمهورية الرابعة سنة ١٩٤٦ وانتهت بالقانون الاطاري فإن الاستقلال التام جاء كذلك علي خطوتين بدأت بدستور الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٨ وانتهت بتعديل ٤ يونيو سنة ١٩٦٠ وهو العام الذي ولدت فيه معظم الجمهوريات الأفريقية المستقلة ومن بينها موريتانيا وأصبح سنة ١٩٥٨ دستور الجمهورية الخامسة ساريا وبذلك انفض الاتحاد الفرنسي بعد حياة قلقة لم تكم أكثر من اثني عشر عاما وحل محله الجماعة الفرنسية فتغير بذلك شكل فرنسا من دولة موحدة بسيطة وهو الشكل الذي حافظت عليه منذ سنة ١٨٧٥ إلي دولة اتحادية مركبة (٢) .

١- عبد الله عبد الرازق إبراهيم : تاريخ غرب أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ١٨٤-١٨٥ .

٢- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٧١٦ .

ثالثاً: الطريقة الفلارية والحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار الفرنسي حتى الاستقلال

عندما صدر دستور عام ١٩٤٦م والذي بموجبه عملت فرنسا علي منح المستعمرات الفرنسية بعض الحريات التي تمكنها من إدارة شؤونها بنفسها ومن خلال ذلك أصبحت موريتانيا إقليماً سياسياً متميزاً ينتمي إلى اتحاد فيدرالي يدعي (أفريقيا الغربية الفرنسية) A.O.F يضم إلى جانبها كل من السنغال ومالي والنيجر وغينيا وساحل العاج وبنين وفولتا العليا ووفقاً للإصلاحات الجديدة أعطيت الأقاليم مجموعة من الامتيازات السياسية والدستورية و أصبحت تتمتع بهيكل تشريعية وتنفيذية تابعة للحاكم الذي تنتدبه الحكومة الفرنسية فتقرر إنشاء جمعية إقليمية منتخبة لها صلاحيات محددة لا تتجاوز تسيير الشؤون المحلية ، بيد أن التغيير الأساسي هو من دون شك إعطاء الأقاليم المستعمرة حق انتخاب ممثلين لها في البرلمان الفرنسي وهنا ظهرت الحركة الوطنية الموريتانية بصفة رسمية (١) .

وهكذا أفسح المجال لأول مرة أمام بروز الحركة الوطنية التي استطاعت بخطابها التعبوي وإمكاناتها المحدودة وانتظامها الهش أن تهزم المرشح الفرنسي رزاك الذي كانت تدعمه الإدارة الاستعمارية المشرفة علي الانتخابات (٢)

وقد تأسس في هذه الفترة حزب { الوفاق الوطني } الذي ترعاه النائب أحمد بن حرمة بن يابابا والذي عمل من خلال هذا الحزب علي تعبئة القطاعات الشعبية المؤيدة له ولحزبه (٣) ، وقد ارتبطت الحركة الوطنية برمزها المعروف حرمة (توفي عام ١٩٧٩) والذي انتخب في ١٠/١١/١٩٤٦م أول ممثل لموريتانيا في البرلمان الفرنسي ، حيث فاز حرمة علي المرشح الفرنسي بسبعة آلاف صوت ضد ثلاثة آلاف صوت للنائب الفرنسي رازاك بالرغم من المساندة الفرنسية ومعونة بعض العملاء الفرنسيين (٤) .

١- السيد ولد إياه وآخرون : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

٢- سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٦٠٥ .

٣- السيد ولد إياه وآخرون : مرجع سابق ، ص ٩٥ .

٤- محمد يوسف مقلد : مرجع سابق ، ص ١٦٤ .

وبالرجوع إلى البرنامج السياسي لهذا النائب الأول يتبين انه يتمحور حول مرتكزات
أساسية منها :

١- تاجيح روح المقاومة الوطنية تجاه الاستعمار بالاستناد إلى المرجعية الدينية واستثمار
تراث الجهاد الحربي والثقافي الذي اضطلع به أفراد البلاد وعلماؤها منذ الاحتلال
الفرنسي للبلاد وهكذا استطاع استمالة قطاع عريض من الوسط الديني الذي أفتى الكثير
من علمائه بوجوب مناصرته وتأييده دفاعا عن العقيدة .

٢- استخدام الورقة العربية والدعوة إلى ربط المستعمرات الموريتانية بالمحيط المغربي
والاهتمام بالقضايا القومية الكبرى وغير ذلك من الأسس . .

وفي مواجهة زعيم الحركة القومية ظهر تحالف سياسي مدعوم من الإدارة الفرنسية
لتأخذ اسم (الحزب التقدمي الموريتاني) الذي عقد مؤتمره التأسيسي في مدينة روصو في
فبراير عام ١٩٤٨م بحضور العديد من الزعامات التقليدية (١) .

هذا بالإضافة إلى اغلب أفراد سلك المترجمين الذين يشكلون طبقة محظية
باعتبارهم الوسطاء بين محتلي الدولة الفرنسية والسكان المحليين وقد كان مناصري حزب
الاتحاد التقدمي الموريتاني ينحدرون في أغليبيتهم من قبائل حسان وزواياها من أهل الطريقة
القادرية بالإضافة إلى الأمراء ورؤساء القبائل والوجهاء وكان من ضمن الأسباب الهامة
التي دعت إلى إنشاء حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني هو العمل علي مقاومة الفارس
الوحيد حرمة وفي الواقع كان حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني يشكل تحالفا ضد حرمة
اكثر مما يشكل حزبا سياسيا ولهذا فقد ضم الحزب بعض الفرنسيين الذين تولوا مناصب
قيادية وانضم إليهم القادة التقليديون بدافع مصالحهم الشخصية أو مناوأة حرمة بن بابانا ولم
يتبن حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني أي نظرية عقائدية ولا برنامج واضح وانما كانت
خطته تكتيكية علي المستوي الإقليمي منحصرة في مخاطبة نظام الخصم بواسطة المعارض
، وقد نجحت في ذلك حيث أصبح الاتحاد التقدمي الموريتاني فيما بعد يحتل غالبية المناصب
في الجمعيات الإقليمية بعد انتخاب زعيمه لموريتانيا في الجمعية التأسيسية الفرنسية (٢)

١- نصر السيد : مرجع سابق ، ص ٦٢.

٢- السيد ولد اباه وآخرون : مرجع سابق ، ص ٩٥.

وقد أعلن الحزب بوضوح المواجهة التامة مع النائب المنتخب كما أعلن تأييده الكامل للسلطة الاستعمارية (١) وعندما جرت لانتخابات ١٩٥١م التي واجهه فيها احمد بن حرمة زعيم الجبهة الوطنية المرشح المغرب من السلطات الفرنسية أظهرت هذه الانتخابات حرص الإدارة الاستعمارية علي قطع الطريقة أمام الحركة الوطنية التي بدأت تبرز في شكل تنظيمي جاد فعلت علي تزيف نتائج الاقتراع لكي تضمن نجاح مرشحها ، وعلي الرغم من هزيمة مرشح الحركة الوطنية إلا أن مداها ظل حيا بل زاد اتساعا نتيجة للأصدقاء الكبيرة لديناميكية الكفاح المسلح في بلدان المغرب العربي ضد الاسبان أولا وضد الفرنسيين ثانيا (٢)

وكذلك تأثير ثورة يوليو في مصر بعد ذلك وعزز ذلك لجوء حرمة إلى القاهرة عام ١٩٥٦م والتحاقه بقيادة حركة التحرير المغربية ليلتحق بالمغرب الأقصى بعد حصوله علي الاستقلال ويكون جيشا لتحرير البلاد .

١ - ابو بكر الجزائري و عبد القادر الجيلاني : مرجع سابق، ص ٣٩٩ .

٢- الحسن يورحلو الي : مرجع سابق ، ص ٣٧ .

الحركة الوطنية ودور رجال الطريقة القادرية حتى الاستقلال :

إن المتأمل في تاريخ القادرية في موريتانيا إذا ما قارن بين أوضاعها الاقتصادية والبشرية التي كانت عليها في القرن التاسع عشر والتي كانت عليها منذ العقد الثالث من القرن العشرين وماتلاه يلتبس العديد من الحقائق الدالة على بداية فقدانها لأهميتها في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد وكان الشعب الموريتاني ما يزال حتى قيام الحرب العالمية الثانية في سبيل البحث عن إطار سياسي يعمل من خلاله فالزعامات التقليدية المستمدة من أبناء المحاريين (حسان) قد تحطمت ولم يبق سوى الزعامات الدينية وقد رأينا معظم هذه الزعامات قد تعاونت مع الإدارة الفرنسية على أساس أنها قد تؤدي إلى الإصلاح وعلى نفس أسلوب الشيخ محمد عبده (لا بأس من أن يتعاون المسلمون مع حكام غير مسلمين طالما أنهم يتبعون قواعد العدل والإصلاح) ، على أن الطرق الصوفية لم تقدم شخصيات تسير في طريق المعارضة للحكم الفرنسي ، فقد رأينا الشيخ ماء العينين أثناء حرب المقاومة أما بعد انهيار المقاومة فقد ظهر الشيخ حماد الله وهو تيجاني الطريق كرائد لاتجاه صوفي جديد ولكن الأحداث لم تثبت أن دفعت به إلى التصادم مع الإدارة الفرنسية ولهذا اعتبر الكتاب الفرنسيون حركته حلقة هامة من حلقات المقاومة الوطنية (١) .

وعن علاقة القادرية خاصة - والتصوف - عامة في موريتانيا بالحركة الوطنية فإنه لم يكن هناك توافق ويرجع ذلك إلى المراحل الأولى لتكوين الحركة الوطنية وترجع المراحل الأولى لتكوين الحركة الوطنية إلى أواسط العشرينيات من القرن العشرين ، فقد برزت عوامل صارت توظف أفكار جديدة في بعض الأوساط الشبابية ، فمن جهة قام بعض دعاة الفكر السلفي بنشرون أفكاراً جديدة تدعو إلى ضرورة بعث إسلامي جديد يرتكز على أساس الكتاب والسنة دون البقاء في انحباس ما كان متشبثاً به كثير من الفقهاء ونحو ما ترك الأقدمون للمتأخرين مما يدعو إلى الخروج عن أقوالهم واجتهادهم وهكذا افتتحت أعين بعض الطلبة على فهم جديد لحقائق الدين ثم نشأت عن هذا الفهم الجديد آراء جديدة لم تكنف بانتقاد أقوال الفقهاء المتأخرين وإنما صارت إلى انتقاد توجيهات آراء وتعاليم بعض المتصوفة الذين رأوا فيها مخالقات أو إضافات وزيادات واعتبروها بدعا محدثة ما أنزل الله بها من سلطان (٢) .

١- نصر السيد : مرجع سابق ، ص ٦٢.

٢- أبو بكر الجزائري و عبد القادر الجيلاني : مرجع سابق ، ص ٣٩٨.

وهكذا صارت بعض الأفكار تتعارض وتتخلصم وأخذت لدى البعض شيئا من الحدة ولدي الكثيرين شيئا من الاعتدال ، وفي غمرة هذا الانتعاش برز عاملان أحدهما قيام البطل محمد عبد الكريم الخطابي بحركة المقاومة المسلحة ضد الأسبانيين أولا وضدهم وضد الفرنسيين ثانيا وكان لهذه الحركة دوي كبير في المشرق والمغرب وكان لها تجاوب كبير وعظيم مع نخبة صالحة من شباب المغرب ومن بعض مفكره القليلين وفي الوقت نفسه صارت تبرز شخصيات متصوفة أعلنت تخوفها ، أولا من حركة محمد عبد الكريم الخطابي التحريرية ولربما مقاومتها لها وفي هذه التفاعلات الفكرية صارت تبرز أفكار جديدة ونظرات متباينة و أحكام قد تكون مرتجلة وقد تكون سديدة ضد بعض الشخصيات التي كان يشم فيها المعارضة لثورة الخطابي وبالتالي عدم استنكار ما يقوم به الاستعمار وبالسير في ركابه ومساندته جهرا أو سرا . وبالإضافة إلى ذلك كله صار الاتصال بالثقافة الأجنبية وبالأخص الفرنسية والإطلاع علي الحركات الفكرية والتحريرية فيها ومطالعة ما يرد علي المغرب من المشرق العربي وخصوصا من مصر صار كل ذلك يفتح آفاقا جديدة سواء في المجال السياسي والفكري والتحرري أو في المجال الديني العقائدي التجديدي وجاءت أحداث ما يسمى بالظهير البربري في ١٦/٥/١٩٢٠م لتظهر المخططات الجهنمية التي كان يخطط لها دهاقنة الاستعمار الفرنسي والتي لم يصدر ذلك الظهير إلا لفتح المجال أمام الاستعماريين للقضاء علي الوحدة المغربية والعقيدة الإسلامية والعربية (١) .

وهذه العوامل مجتمعة هي التي كونت أو خلقت ما سمي بالفكر الوطني أو الحركة الوطنية الحديثة فهي حركة نشأت من فكر إسلامي سليم ومن فكر وطني متحرر يرمي إلى تحرير البلاد من الاستعمار الأجنبي كيفما كان نوعه سواء كان استعمارا عسكريا أو سياسيا أو استعمارا ثقافيا ودينيا أو استعماريا فكريا منقادا وتابعاً وبعبارة أوضح نشأت عن رفض أي استعمار للأرض أو أي استعمار للفكر أو أي تنكر أو تنازل عن العقيدة الإسلامية أو اللغة العربية أو الجذور العربية المعنزة بأصالتها سواء كانوا حسان عرب أو زوايا بربر وهم أيضا عرب فقد صهرهما الإسلام الحنيف فكانا شجرة واحدة تدين بدين واحد هو الإسلام بمبادئه الثابتة جميعها التي جاء بها القرآن الكريم ووضحتها السنة النبوية الشريفة فلا فرقة ولا عنصرية ولا تطاحن ولا تمايز وإنما هو شعب واحد هو الشعب الموريتاني المسلم ومن هنا فما يخططه الاستعمار للفرقة مرفوض رفضا

١-ابو بكر الجزائري و عبد القادر الجيلاني : مرجع سابق ، ص ٣٩٩.

قطعيًا وما يخططه للتطاحن والتمايز لا يلقي من الشعب الموريتاني إلا الاستنكار والرفض والمحاربة.

وبهذه الخطوط الرئيسية والمبادئ المتميزة واجهت الحركة الوطنية الجديدة الاستعمار والاستعماريين ومن كان في جانبهم من المنافقين والمتذبذبين الذين باعوا ذممهم للأجنبي فباعوا بالخسران المبين وبهذه المبادئ الثابتة استطاعت الحركة الوطنية أن توجه الشعب الموريتاني في بداية نهضته التوجيه السديد الرشيد فيلتف حولها الشعب الموريتاني بجميع عناصره زوايا وحسان ولحمة ومن كل الطرق قادية أو غيرها ولم يكن للحركة الوطنية في أول نشأتها برنامج مفصل في ميادين الإصلاح الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي أو الإداري أو الاقتصادي وإنما كانت حركة تحد للاستعمار ووقوف ضد مخططاته المختلفة وعمل للنهوض بالبلاد في مختلف النواحي التي تتطلب الإصلاح والتجديد. فالأحوال الأساسية التي نبئت عليها الحركة الوطنية هي الإسلام والعربية والوحدة والتمسك بلغة القرآن والإصلاحات التي تطلبها النهضة والتطور الضروريان لمسايرة تقدم العصر وتوضيح معالم الطريقة بالنسبة للإصلاحات التجديدية في مختلف الميادين الحيوية وإذا كان البعض من رجال الحركة الوطنية متشددًا فيما يتعلق ببعض ممارسات الطرق الصوفية فيما يدور من مجالسهم واجتماعاتهم وأنكارهم باعتبارها من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان .

فإن الكثرة من المنتمين للحركة الوطنية لم يكونوا يرون في ذلك من باس ما دامت تسير في المنهج الإسلامي السني كما أن المعتدلين في أفكارهم من رجال الحركة الوطنية كانوا يرون ضرورة الاتصال والامتزاج بالمنتمين للطوائف الصوفية وجلبهم إلى الحركة الوطنية حتى تنقوي بهم صفوف الحركة الوطنية وحتى لا تبقى اهتماماتهم مقتصرة على الانتساب للطائفة وتلاوة الأتكار دون اهتمام بالقضايا الوطنية التحريرية والداعية إلى النهوض بالبلاد والسير في الركب الحضاري ومقاومة الوجود الاستعماري وهو العائق الأساسي عن أي تقدم أو اتفاق . ولقد انضم إلى الحركة الوطنية لدى تأسيسها جماعات وأفراد كثيرون ومن مدن وجهات مختلفة وكانت منتسبة لبعض الطرق الصوفية ولم تكن الحركة الوطنية حركة قسرية تنبذ المنتمين للطوائف الصوفية بين صفوفها وإنما كانت تعمل جاهدة على انضمامها للجماعات والخلايا الوطنية مثل بقية المواطنين حتى تستفيد من طائفتها في المعارضة وفي الجهاد ضد الغزو الاستعماري .

وإذا كان هناك تنافر بين رواد الحركة الوطنية وبين أصحاب الطرق الصوفية فلم يكن هذا التنافر بين الحركة الوطنية وبين رجال التصوف الحقيقي السليم وانما كان بين الوطنيين وبين الذين استغلوا فكرة التصوف لنشر الأفكار الانهزامية التي تدعو إلى التواكل والذين ساروا في ركب الاستعمار الأجنبي يخدرون المواطنين بدعاوهم الباطلة (١) . التي ليست من الإسلام في شئ وربما كان هناك بعض الغلاة من السلطتين الذين لم يقبلوا مطلقا فتح الأبواب أمام الجماعات الطرقية دون تمييز بين الصالح والطالح ولكن الواقع أن رجال الحركة الوطنية لم ينبذوا مطلقا أى فرد كان فيه استعداد للمساعدة في مقاومة الغزو الأجنبي .

لقد وجد من بين الطوائف الصوفية من اقتصروا على عقد اجتماعات للذكر وقد يكون باللسان فقط دون أى تأثير على السلوك أما الاهتمامات بالقضايا العامة فلم يكن يلقى أى قسط من اهتماماتهم ويضاف إلى ذلك أن الطوائف المختلفة والمتعددة لم يكن فى الغالب بينها إنسجام ولا تعاون مع بعضها البعض بل ربما كان هناك نوع من النفور مع بعضها بعضا وبذلك فقدت كثيرا من الخواص التي كانت لدى مؤسسيها الصادقين الأولين فأصبحت فاقدة لروحها النضالية التي كانت لدى المؤسسين واصبح الاستسلام هو شروط القيادة الجهادية ولانهم لم يدركوا أن الصوفية التي تدعو إلى جهاد النفس و الهوى تدعو في الوقت نفسه إلى تقوية ما تسميه بالقوات التعبوية لمواجهة الأخطار التي تهدد العقيدة والدين والبلاد وبذلك فإنها كانت بحاجة إلى محرك قوى يدفع بها إلى إرتياد المعارك الجهادية المختلفة لتحافظ على حقيقتها الأولى ورسالتها الأساسية أن كل لقطاب الطريقة القادرية قاموا بواجب الإسلام وكافحوا الكفاح المرير الهجوم الاستعماري الفرنسي فى موريتانيا و أدوا واجبهم أحسن أداء وان كان بعضهم لم يقاومه عسكريا فانهم جميعا وقفوا صفا واحدا لصد هجومه الثقافي والفكري والاجتماعي ولكن تلك الشعلة التي كانت لديهم صارت تنطفئ رويدا رويدا بعد وفاتهم فخلف من بعدهم خلف صار الانتساب إلى الطرق الصوفية مجرد انتماء كأنه انتماء تشريفي تاريخي جغرافي فإذا فحصنا هذه الحالة فإننا نلاحظ هذا الضعف في الغالب اعني به الضعف النضالي الجهادي الذي كان لدى الأوليين السابقين .

١- ابو بكر القادري : مرجع سابق ، ص ٤٠٠ .

والحركة الوطنية بدورها والتي قامت أساسا على النضال ضد الاستعمار والتخلف الفكري وعلى بناء نهضة قوية صحيحة مبنية على الأسس التي ذكرناها صارت مع الأسف الشديد بعد الاستقلال تضعف حيويتها واهتمامها التربوي والتوجيهي وطغى عليها الجانب المادي في الحياة سائرة - شعرت أم لم تشعر - في النهج الذي سار عليه الغرب المسيحي حذوا النعل بالنعل وبذلك فقدت خصوصيتها ولأبد لها إذا أرادت أن تؤدي رسالتها أن تراجع نفسها وتقوم بنقد ذاتي سليم وصحيح لبرامجها وطرق سيرها حتى لا تجد نفسها فاقدة لهويتها ومصداقيتها وهنا يأتي دور المصلحين الصادقين الذين يعملون على إرجاع القطار إلى مساره سواء في المجال التربوي الصوفي أو في المجال السياسي الحياتي.

أن دور التصوف السني السليم دور خطير ولا بد من الاهتمام بتكوين المواطنين على أساسه وان الروحانيات الأناسية التي آتت بها الإسلام ووضحها القرآن هي التي يجب على الصادقين أن يبعثوها من مراقدها فلا نهضة ولا بناء بدون أخلاق والتصوف كما قال أبو الحسن النوي (ليس تصوفاً وعلوماً نظرية بل هو أخلاق أي أنه قاعدة ضرورية للحياة وقوة التصوف الإسلامي ليس في الانعزال المترفع المخزون الذي فيه يصبح المجذوب بل في الشوق الحارق إلى التضحية في سبيل إخوانه) (١)

ظلت موريتانيا تعيش في عزلة نسبية وتعاني من مشاكل خاصة بها مما انعكس على بط معدل تطورها عن باقي إقليم المنطقة نتيجة للمظاهر الآتية :-

- قلة تعداد السكان وانتشارهم على مساحة واسعة
- عدم تعمق الاستعمار الفرنسي في هذه المنطقة الصحراوية ومن ثم كانت موريتانيا هي الإقليم الوحيد الذي ظل تابعا لإدارة عسكرية ومع أنه لم يبق في موريتانيا بعد الحرب سوى دائرتين تحت الإدارة العسكرية إلا أن طول اعتماد العسكريين على الزعامات التقليدية ولا سيما الزعامات الدينية الذين تعاونوا منذ البداية مع الغزو الفرنسي قد دعم نفوذهم وعطل بالتالي تطور الإقليم (٢) .

١ عبد الرحمن بدوي - التصوف الاسلامي ص ٢٤
٢ - صلاح العقاد : الجمهوريات الأفريقية المنتمية للمجموعة الفرنسية ، اسكندرية ١٩٨٩ ص ١٨١.

لم تهتم الإدارة الفرنسية بنشر الثقافة أو النظم الاجتماعية الحديثة وإنما اكتفت باستغلال المعادن وهكذا جاء تطور الإقليم بطريقه وعفوية فرضتها احتكاكات العمل في المناجم الجديدة دون أن تحركه عوامل خارجية تدفعه باطراد في الطريق السليم

- مع أن سكان موريتانيا كلهم من المسلمين مما ينتفي معه أي صراعات عقائدية بين المسلمين وغير المسلمين كما كان قائما بين الأقاليم الأخرى فقد كانت بها صراعات أخرى لم تكن قد زالت بعد بين السود المستقرين والبدو الرحل وبين الزوايا والمحاربين ، وبعد الغزو الفرنسي وفرض السلام بالقوة انعكس هذا الصراع علي النواحي الاقتصادية فسرعان ما نمت ثروات السود المستقرين في الجنوب في حين زالت موارد البدو التي كانت تعتمد علي الإتاوات وغارات السطو. ولم يتناقص هذا الفارق الاقتصادي إلا بعد أن بدأ إنتاج الحديد في الشمال .

وخلاصة هذه المشاكل فان الحركة الوطنية في موريتانيا نتيجة لانزعاجها كانت من جهة أقل نضجا منها في معظم أقاليم غرب أفريقيا ومن جهة أخرى أقل تأثرا بالحركة الحزبية التي سادت هذه الأقاليم ، علي أن الإدارة الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن في اتصالها بالقبائل الموريتانية تسمح لمجالس الجماعة بمناقشة أي أمر تصدره بل تفرض عليهم سياسة معدة من قبل لتطبيقها ولم يكن ذلك متيسرا إلا عن طريق الرؤساء التقليديين ولذلك مارست الإدارة الفرنسية نوعا من الإدارة غير المباشرة عن طريق هؤلاء الرؤساء الذين لم يكونوا يتمتعون بالاستقرار حيث كانت الدسائس والمكائد والقتل شائعا للوصول إلى الرئاسة هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الإدارة الفرنسية لم تجد أي خطورة في خلع الرؤساء واستبدالهم حيث أن كلا منهم مشغول بمشاكله الخاصة مما سهل علي الإدارة الفرنسية التعامل معهم منفردين إضافة إلى ذلك ما تأثر به هؤلاء الرؤساء بسبب فقدهم امتيازاتهم السابقة بعد إلغاء السخرة وتقلص إتاوات الحماية وتحديد أماكن تنقل القبائل للرعي في محاولة لزيادة استقرارهم كل ذلك اثر بشدة علي مصادر دخل هؤلاء الرؤساء الذين قلت هيبتهم إلى جانب نقص مواردهم وبدوا كأنهم مسؤولين أمام المحتل الفرنسي عن تطبيق سياسة لم يشتركوا في وضعها ودون أن يكون لديهم سلطة لممارسة مهامهم .

وهذا سيكون له ثلاث نتائج لها أثرها على الحركة الوطنية في موريتانيا بعد الحرب :

١- ضعف النزعة القبلية نتيجة لضعف نفوذ الرؤساء وانصرافهم عن قبائلهم حتى أن بعضهم طالبت مدة إقامتهم بسانت لويس وفقدوا خلالها اتصالهم باتباعهم فأصبح من غير المقبول أن يقوم رئيس قبيلة من هذا المكان البعيد بإدارة مجتمع متجول مازال يعيش في الخيام أو أن يمر عليهم كل فترة زمنية و أحيانا بعربة لجمع الإتاوات ، وفقدت بذلك هذه الرئاسة مدلولها التقليدي الذي كان لها في الماضي .

٢- تفتت القبائل إلى عدد كبير من الأقسام الفرعية الصغيرة مما أصبح معه من الصعب على القائد الفرنسي في الدائرة ممارسة الحكم المباشر .

٣- هجرة الشباب بإعداد كبيرة ، أما بصفة مؤقتة أو مستديمة إلى مدن السنغال في محاولة للعمل والارتزاق وكان لهذه الظاهرة بالذات مغزى هام إذ هي تنطوى على شعور بالاستقلال والتحرر من قيود الرابطة القبلية (١) .

وعلى الرغم من أن شيوخ الطريقة القادرية خاصة والزوايا عامة كانوا أوفر دخلا من المحاربين بسبب مرونتهم وقدرتهم على التكيف بالأحوال الجارية ومع أن فرنسا كانت دائما تتبع سياسة محاباة الزوايا على حسان فقد تأثر نفوذهم كذلك بالحكم الفرنسي ولكن من زاوية أخرى فمئذ وعدهم الاحتلال الفرنسي باحترام زواياهم وحماية جماعاتهم وهم ينفردون بترعم النواحي التعليمية والدينية والقضائية ولكن فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية شهدت تغيرا ملموسا فمع أن المحاضر كانت ما تزال نشطة إلا أن الشباب أصبح أكثر ميلا لتلقي تعليمه في المدارس الفرنسية لأن ذلك يفتح أمامه باب الوظائف الإدارية ولقد صاحب هذا التراجع في التعليم الإسلامي تراجع مماثل في تطبيق الشريعة الإسلامية فقد وضعت الإدارة الفرنسية قوانين جديدة تتعلق بإلغاء الرق وتنمية التجارة وإنشاء جمعيات التسليف وغيرها مما قيد الأهالي بقوانين مغايرة للشريعة الإسلامية حتى أن دافعوا الإتاوات استندوا إلى هذه القوانين في تحرير أنفسهم من التزاماتهم التقليدية إزاء سادتهم وادي كل ذلك إلى نمو الروح الفردية وبالتالي ضعف التماسك القبلي .

١- السيد ولد إياه : مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

لم تهتم الإدارة الفرنسية بنشر الثقافة أو لتنظيم الاجتماعية الحديثة وإنما اكتفت باستغلال المعادن وهكذا جاء تطور الإقليم بطريقه وعفوية فرضتها احتكاكات العمل في المناجم الجديدة دون أن تحركه عوامل خارجية تنفعه باطراد في الطريق السليم

- مع أن سكان موريتانيا كلهم من المسلمين مما ينتقي معه أي صراعات عقائدية بين المسلمين وغير المسلمين كما كان قائما بين الأقاليم الأخرى فقد كانت بها صراعات أخرى لم تكن قد زالت بعد بين السود المستقرين والبدو الرحل وبين الزوايا والمحاربين ، وبعد الغزو الفرنسي وفرض السلام بالقوة انعكس هذا الصراع علي النواحي الاقتصادية فسرعان ما نمت ثروات السود المستقرين في الجنوب في حين زالت موارد البدو التي كانت تعتمد علي الإتاوات وغارات السطو. ولم يتناقص هذا الفارق الاقتصادي إلا بعد أن بدأ إنتاج الحديد في الشمال .

وخلاصة هذه المشاكل فإن الحركة الوطنية في موريتانيا نتيجة لانعزالها كانت من جهة أقل نضجا منها في معظم أقاليم غرب أفريقيا ومن جهة أخرى أقل تأثرا بالحركة الحزبية التي سادت هذه الأقاليم ، علي أن الإدارة الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن في اتصالها بالقبائل الموريتانية تسمح لمجالس الجماعة بمناقشة أي أمر تصدره بل تقرض عليهم سياسة معدة من قبل لتطبيقها ولم يكن ذلك متيسرا إلا عن طريق الرؤساء التقليديين ولذلك مارست الإدارة الفرنسية نوعا من الإدارة غير المباشرة عن طريق هؤلاء الرؤساء الذين لم يكونوا يتمتعون بالاستقرار حيث كانت الدسائس والمكائد بل والقتل شائعا للوصول إلى الرئاسة هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإدارة الفرنسية لم تجد أي خطورة في خلع الرؤساء واستبدالهم حيث أن كلا منهم مشغول بمشاكله الخاصة مما سهل علي الإدارة الفرنسية التعامل معهم منفردين إضافة إلى ذلك ما تأثر به هؤلاء الرؤساء بسبب فقدهم امتيازاتهم السابقة بعد إلغاء السخرة وتقلص إتاوات الحماية وتحديد أماكن تنقل القبائل للرعي في محاولة لزيادة استقرارهم كل ذلك أثر بشدة علي مصادر دخل هؤلاء الرؤساء الذين قلت هيبتهم إلى جانب نقص مواردهم وبدوا كأنهم مسؤولين أمام المحتل الفرنسي عن تطبيق سياسة لم يشتركوا في وضعها ودون أن يكون لديهم سلطة لممارسة مهامهم .

وهذا سيكون له ثلاث نتائج لها أثرها على الحركة الوطنية في موريتانيا بعد الحرب :

١- ضعف النزعة القبلية نتيجة لضعف نفوذ الرؤساء وانصرافهم عن قبائلهم حتى أن بعضهم طالبت مدة إقامتهم بسانت لويس وفقدوا خلالها اتصالهم باتباعهم فأصبح من غير المقبول أن يقوم رئيس قبيلة من هذا المكان البعيد بإدارة مجتمع متجول مازال يعيش في الخيام أو أن يمر عليهم كل فترة زمنية و أحيانا بعربة لجمع الإتاوات ، وفقدت بذلك هذه الرئاسة مدلولها التقليدي الذي كان لها في الماضي .

٢- تفتت القبائل إلى عدد كبير من الأقسام الفرعية الصغيرة مما أصبح معه من الصعب على القائد الفرنسي في الدائرة ممارسة الحكم المباشر .

٣- هجرة الشباب بإعداد كبيرة ، أما بصفة مؤقتة أو مستديمة إلى مدن السنغال في محاولة للعمل والارتزاق وكان لهذه الظاهرة بالذات مغزى هام إذ هي تنطوى على شعور بالاستقلال والتحرر من قيود الرابطة القبلية (١) .

وعلى الرغم من أن شيوخ الطريقة القادرية خاصة والزوايا عامة كانوا أوفر دخلا من المحاربين بسبب مرونتهم وقدرتهم على التكيف بالأحوال الجارية ومع أن فرنسا كانت دائما تتبع سياسة محاباة الزوايا على حسان فقد تأثر نفوذهم كذلك بالحكم الفرنسي ولكن من زاوية أخرى فمنذ عدهم الاحتلال الفرنسي باحترام زواياهم وحماية جماعاتهم وهم ينفردون بترعم النواحي التعليمية والدينية والقضائية ولكن فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية شهدت تغيرا ملموسا فمع أن المحاضر كانت ما تزال نشطة إلا أن الشباب أصبح أكثر ميلا لتلقي تعليمه في المدارس الفرنسية لأن ذلك يفتح أمامه باب الوظائف الإدارية ولقد صاحب هذا التراجع في التعليم الإسلامي تراجع مماثل في تطبيق الشريعة الإسلامية فقد وضعت الإدارة الفرنسية قوانين جديدة تتعلق بإلغاء الرق وتنمية التجارة وإنشاء جمعيات التسليف وغيرها مما قيد الأهالي بقوانين مغايرة للشريعة الإسلامية حتى أن دافعوا الإتاوات استندوا إلى هذه القوانين في تحرير أنفسهم من التزاماتهم التقليدية إزاء سادتهم وادي كل ذلك إلى نمو الروح الفردية وبالتالي ضعف التماسك القبلي .

١- السيد ولد اباه : مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

في النهاية :

لقد كان في إمكان الطرق الصوفية عامة و الطريقة القادرية خاصة أن تستغل تلك الأحداث العالمية الخارجية والداخلية المحلية وتوظيفها ضد السلطات الاستعمارية الفرنسية وتسائر بالتالي التيار العام الرافض للاستعمار إلا أنها ظلت غير مبالية بالواقع المتحول الذي لم تعد هي الطرف الوحيد الفاعل فيه مما ساهم في عزلتها خاصة بعدما وقف بعضها مرة أخرى إلى جانب السلطات الاستعمارية موقف المؤيد . و خلاصة القول أن مواقف بعض رجال القادرية وإن كانت لا تعكس بالضرورة وجهة نظر كل رجال القادرية ولا كل اتباع من جل الأحداث التي وجدت في البلاد أو من الحرب العالمية الأولى و الحرب العالمية الثانية أو من الحركة الوطنية فإنها تعبر بالدرجة الأولى عن مواقف بعض مشايخها الذين رغم الأضرار التي لحقتهم من جراء السياسة الاستعمارية ظلوا في انحيازهم للمستعمر و كنتيجة لذلك ولتطور العقليات من جراء التعليم أصبحوا عرضة للانتفاضات اللازمة وهو ما مكن خصومهم من تكثيف نشاطاتهم وتوسيع قاعدتهم تبعاً لوطنيتهم ونقمتهم على الاستعمار مقابل تقلص نفوذ مشايخ الطريقة القادرية خاصة والطرق الصوفية عامة وعدد اتباعهم لاتضح عدم مشاركتهم في الأحداث السياسية التي تمر بها البلاد ومواقفهم السابقة مع الاستعمار من الولاء له والتنسيق معه مما ساهم في ضعف الطريقة القادرية خاصة والطرق الأخرى عامة (١) .

١- التليلي العجيلي : مرجع سابق ، ص ص ٢٣٥-٢٤١.

الفصل الخامس

آثار الإستعمار الفرنسى فى موريتانيا

أولاً: الآثار السياسية .

ثانياً : الآثار الاقتصادية .

ثالثاً: الآثار الاجتماعية .

رابعاً : الآثار الثقافية .

أولاً : الآثار السياسية :

لقد كان للوضع السياسي لموريتانيا في علاقتها مع المستعمر الفرنسي قصة طويلة ولها ملابساتها ومتاعبها والتي أدت إلي ميلاد جمهورية لها على صغرها مكانتها وإمكاناتها تحت الشمس. والموريتانيون رغم قلة عددهم وضعف وسائلهم الدفاعية كانوا دائما أقوياء وكانوا (عظاما قاسيا) لم ينكسر تحت أضرار المستعمر القوية رغم التجارب العديدة على مر الأيام ،، فقد ظل عرب موريتانيا عصاة على فرنسا طيلة حكمها المباشر في كثير من الحالات ولذلك كانت تستثيهم في بعض قوانينها المعمول بها في مستعمراتها السوداء بعده أمور ، حيث كان لهم وضعهم الخاص .

إذ كانت فرنسا تعفيهم من الخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة على الأفريقيين السود ، وتسوسهم سياسة خاصة في التصرفات والاعطاءات ونحو ذلك ، وهذه السياسة فيها الكثير من اللين والمسايرة وكسب المودة فلما حان وقت المطالبة بالاستقلال السياسي كان لدي فرنسا الكثير من أسباب القبول وعدم استعمال القوة واتخاذ الحكمة علي غير عادة فرنسا - أساسا للبحث (١) .

ومنذ قدوم المستعمر الفرنسي لموريتانيا عمل على تثبيت أقدامه. ولتحقيق أغراضه الاستعمارية قسمت فرنسا موريتانيا إلي دوائر ومقاطعات وعلي الرغم من أن الحكام الفرنسيين كانوا يحترمون رؤساء القبائل والأمراء إلي حد ما فإنهم كانوا يعاملون السواد الأعظم من الشعب معاملة قاسية حيث كانت تفرض عليهم قوانين وقرارات تقيدهم وتحرمهم من حريتهم التي كانوا يتمتعون بها قبل قدوم الاستعمار، وكان يطلق علي هؤلاء الرؤساء والأمراء جماعة الوجهاء وكان القانون الاستعماري يخول حاكم المقاطعة سلطة مطلقة بأن يسجن أي شخص لمدة خمسة عشر يوما للتأديب ولحاكم الدائرة أن يسجن أيضا من يريد لمدة شهر فقط وقد كان محرما في القانون الاستعماري طيلة الحكم المباشر علي الأهالي ، تولي المناصب العليا كحاكم مثلا ، أو شغل الوظائف الهامة كمحامي وإنما اقتصر الأمر علي

١- مقلد : مرجع سابق ، ص ١٨٠.

الأهالي في شغل الوظائف الجانبية الأقل أهمية مثل الترجمة أو التمريض أو مساعدة معلم ولم يسمح أبدا للموريتانيين بتكوين لحزاب سياسية طيلة هذه الفترة ولا حتى الكلام في السياسة وذلك إلي أن جاءت الحرب العالمية الثانية .

حيث بدأت الأمور تتحول نحو الحكم الذاتي بعد أن منحت فرنسا شعوب المستعمرات حق الانتخاب (١) وقد حكمت فرنسا موريتانيا باعتبارها جزءا من السنغال كما وضع ذلك في المرسوم الجمهوري الذي صدر في عام ١٩٥٤ ونيط لحاكمها كيبولاني تنظيم المستعمرة وتعد الصعوبات التي واجهت فرنسا في محاولاتها السيطرة علي شمال البلاد كانت سببا في استمرار السلطة في أيدي العسكريين كما مارست فرنسا الإدارة غير المباشرة في بداية الامر عن طريق رؤساء الإمارات الكبيرة كالترارزة والبراكفة والدرار ، ويرجع الفضل لكيبولاني في وضع الأسس غير المباشرة إذ أنه لم يلغ نظام الإمارات بل علي العكس ثبت أمراء لم يكونوا موجودين من قبل كما حدث في تجانت ، إلا أنه علي الرغم من أن التاريخ السياسي القريب لموريتانيا وثيق الاتصال بالتحولات الدولية والإقليمية التي طالت المنطقة الشمالية والأفريقية إلا أنه يتميز بسمات عدة خصوصية لعل أبرزها :- ظهور الكيان السياسي الموريتاني في ظل ظروف تحكمها جملة من المحدودات المتباينة ويكتنفها العديد من الأحداث المتلاحقة والاحتمالات المتعددة جعلت تصور هذا الكيان وبناءه مرهونا بمؤثرات وضع دخلت متفجر وإرادة استعمارية متزدة وحركية استقطاب إقليمي مزدوج ولقد كان الغرض من المشروع الفرنسي لإنشاء دولة موريتانيا يتلخص في خلق منطقة عازلة تفصل القضاء العربي عن امتداده الحضاري والاستراتيجي (أفريقيا المسلمة) وبالتالي إيقاف المد الثقافي الديني الذي اضطاع به الدعاة والعلماء الشناقطة منذ أزمان بعيدة سابقة (٢) ، والملاحظ في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء خلعت السلطات الفعلية عن الأمراء .

١ - الحسن بورح والي : نظام الحزب الواحد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ص ٢٤ .
٢ - السيد ولد اباه : مرجع سابق ، ص ٩١ .

ولما أتى باتي (Patey) إلى موريتانيا حاكما لها وضع خطة جديدة تقوم علي أساس تقسيم البلاد إلى منطقتين : الأولى في الجنوب قرب نهر السنغال وقد إحتلوها وتدار بصورة مباشرة والثانية في الشمال وتدار بواسطة الرؤساء التقليديين علي أن يزودو بجيش خليط من البدو والزنوج السنغاليين وذلك حتى لا تحتاج فرنسا إلي إقامة مراكز عسكرية كثيرة في الشمال والواقع أن فرنسا لم تستطع أن تتخلص من الشيوخ المحليين واكتفت بتجريدتهم من سلطاتهم ولقد قصدت فرنسا من وجود أولئك الشيوخ والأمراء أن يكونوا بمثابة رؤساء إداريين مسئولين أمام الولاية الفرنسيين ، وإن كان كثير من هؤلاء أعلن تمرده علي هذا الوضع ولكن البعض الآخر ظل يتعاون مع الفرنسيين تعاوناً متشابهاً بما كان بين المستعمرين الفرنسيين وبعض الباشوات الكبار في المغرب (١) ، ولقد ظلت فرنسا تنتظر إلي موريتانيا علي أنها حلقة اتصال بين غرب أفريقيا والجزائر وازدادت أهميتها بعد اتفاق فرنسا مع إسبانيا علي تخطيط حدود مناطق النفوذ ووضع المغرب تحت الحماية الفرنسية . ولقد ظلت فرنسا مترددة في إلحاق موريتانيا بأي المستعمرات المجاورة وإن كانت الدلائل تشير إلي أنها تنضم إلي مجموعة غرب أفريقيا الفرنسية والتي تكونت سنة ١٩٠٤ ولا أدل علي ذلك من أن موريتانيا ظلت تدار من سانت لويس حتى سنة ١٩٥٨ ، وقد قسمت فرنسا موريتانيا إلي دوائر بعضها وطنية خالصة والبعض الآخر دوائر مختلطة أي يشترك الفرنسيون مع الوطنيين في إدارتها المحلية مثل إطار وكيهيدي وروسو وكان علي رأس كل دائرة حاكم إداري فرنسي ويعاون رؤساء الدوائر رؤساء المقاطعات و القري (٢) .

وقد مر الاحتلال الفرنسي لموريتانيا بعده مراحل :

منذ سنة ١٩٠٣ اعتبرت فرنسا موريتانيا إقليمياً عسكرياً يخضع للأحكام العرفية

حتى سنة ١٩٢٠م

ثم أصبحت موريتانيا تحت الانتداب الفرنسي من سنة ١٩٢٠ إلي سنة ١٩٤٦م.

ثم اعتبرت إقليماً فرنسياً من عام ١٩٤٦ إلي عام ١٩٥٨م.

١- مقلد : مرجع سابق ، ص ٢٤١.

٢- السيد نصر : مرجع سابق ، ص ٥٢.

ثم أصبحت موريتانيا ولاية فرنسية من عام ١٩٥٨م إلى عام ١٩٥٩م
ثم جمهورية إسلامية داخل نطاق الجامعة الفرنسية منذ سنة ١٩٥٩
ثم حصلت علي استقلالها سنة ١٩٦٠م (١) .

ولقد تطورت أساليب الحكم في المستعمرات الأوربية في العالم وإن كانت
فرنسا إبطا نسبيا من بريطانيا في إدخال التغيرات التي تلائم روح العصر الجديدة
التي خلفتها الحرب العالمية الثانية ، وفي موريتانيا فإن المجتمع الموريتاني كان لا
يزال يخلع بالكاد رؤساءه التقليديين ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة للبحث
عن زعامة سياسية ، وكانت الفكرة المسيطرة علي مخططي سياسة الاستعمار
الفرنسي هي أنه إذا أريد لنظام الحكم أن يتغير وتخفف قبضة الإدارة المباشرة فإن
ذلك يكون عن طريق إشراك المستعمرات في أجهزة الدول الفرنسية وقد ضمن ذلك
تصريح برل زافيل ١٩٤٤ الذي أصدره الجنرال ديغول الذي ينص علي اللامركزية
وتكوين جمعيات تشريعية ومشاركة الوطنيين فيها كما نص علي تطوير نظام
الإدارة وإخخال الأفريقيين بأعداد متزايدة في الوظائف الحكومية ، وقد أعلنت فرنسا
في ديباجة دستورها الصادر في عام ١٩٤٥ أنها تسعى حثيثا لقيادة الشعوب التابعة
لها نحو حريتها في إدارة نفسها بنفسها وممارسة شئونها بصورة ديمقراطية .
وقد مرت معالم تطور أساليب الحكم الفرنسي لموريتانيا بعدة مراحل
الأولي منها كانت الرابطة التي حلت محل نظام الإمبراطورية القديمة وهي ما أطلق
عليه اسم الاتحاد الفرنسي (Union Française) ،

وهذه المرحلة غيرت النظام الاستعماري من حيث الشكل لا من حيث المضمون
وأول تغير يعتد به هو ذلك الذي تم إثر تولي الحزب الاشتراكي الحكم في عام
١٩٥٦ فقد أصدر ما يعرف باسم القانون الاطاري Loicadre الذي عد نقطة
انطلاق في تولي الشعوب المستعمرة مقاليد امورها بنفسها وقد شكل هذا
القانون منعطفا في سياسة الاستعمار الفرنسي ، ثم أصدرت حكومة جي مولية
قانون الإصلاح الإداري في مارس ١٩٥٧ والذي كان ينص علي إجراء
انتخابات في كل مقاطعة (٢) .

١- محمد اسماعيل محمد وآخرون : قضية موريتانيا ، دار المعرفة القاهرة ، ص ٦٤ .

٢ - أنور زعلوك وآخرون : موريتانيا العربية ، للقاهرة عام ١٩٦٠ ، ص ٣٣ .

ولقد كان حضور الفرنسيين في شكل الاختراق الاستعماري في بداية القرن العشرين سببا في ازدياد قوة القبيلة في موريتانيا وتنامي سلطانها في النفوس لان السياسة الفرنسية إمتطتها وراحت عليها في أضعاف المجتمع و أحكام القبضة عليه وذلك بتعزيز كل قبيلة علي حدة فسخرت بذلك آليات الانتشار القبلي لحكم المجتمع بدون بالغ جهد ولا تكلفة ، ولقد ظلت سياسة التسيير السياسي للدولة وحتى بعد الاستقلال مرتبطة بتوظيف الأطر القبلية وأحداث التوازنات وغيرها (١) .

وفي النهاية :

- ١- أن طبيعة الحكم الاوتوقراطي في موريتانيا يجعل إشراك النخب السياسية (بما فيهم الفقهاء) يقع علي مبدأ الجلب أو ما يسمى التزكية التي تنطبق علي أهل الولاء اكثر من انطباقها علي أهل الكفاءة .
- ٢- أن الفقهاء من القادريين في اغلبهم واعون لعملهم السياسي فبذلوا جهدهم لإرساء دعائم القبيلة والمحافظة عليها هادفين إلى استمرار المصالح والحفاظ علي الأنفس والأموال في البلاد السائبة إضافة بالطبع إلى ما تمليه عليهم وضعيتهم الاجتماعية .
- ٣- أن الفقهاء عامة والقادرية خاصة رغم انهم استجابوا للسلطة السياسية المركزية وشعروا بما قامت به من ملء للفراغ الذي عهده من قبل إلا أن القائمين علي الدولة لم يشركوهم في القرار وممارسة السلطة بل ظل هناك تغيب مطلق لهم .

ثانيا : الآثار الاقتصادية :

لقد كانت الخصوصية التي تميز بها المجتمع الموريتاني التقليدي من حيث البساطة في العيش ومن حيث طبيعة الاعتماد علي المصادر التي يوفرها الاقتصاد الرعوي والزراعي هي المسؤولية عن تحقيق الاكتفاء الذاتي في فترة ما قبل الاستعمار ، هذا علي الرغم من أن المنطقة قد شاركت في التجارة الأطلسية منذ وقت مبكر (تجارة الصمغ مثلا) وذلك إلي جانب مشاركتها في التجارة الصحراوية .

ونتيجة لهذه المشاركة فقد كان السكان يعرفون منتجات البحر المتوسط وأوروبا وكذا منتجات المغاربة إلا أن التغلغل البضائعي كان أكثر انتظاما مع الفترة الاستعمارية

١ - السيد ولد اباه : مرجع سابق ، ص ٢٦٧ - ١٨٣

و مهما يكن من أمر فإن المواد الأوربية كانت تعرف رولجا كبيرا في موريتانيا بحكم إقبال الأهالى عليها ويمكن تفسير هذا الإقبال علي التجارة من طرف الموريتانيين باعتبار الوظيفة التجارية أصبحت الوسيلة الفعالة للثروة والمصدر الوحيد للنفوذ الأمر الذي يهيئ السكان للارتباط بالبضائع الأجنبية ويدعم في نفس الوقت ارتباط موريتانيا بمستعمرات فرنسا في غرب أفريقيا ، على إن ما تعانيه موريتانيا إلي الآن من تخلف اقتصادي له أثره علي حياة السكان لا يوجد بأى قطر آخر رغم كثرة مناجمها وصلاحية أراضيها لكل أعمال التشييد ورغم طول السواحل البحرية المحيطة بها وكثرة أنواع الأسماك ورغم كثرة حيوانات هذه المنطقة ، رغم كل هذه المواد الأولية للحياة وكثرتها بهذه الأراضي فإننا نجد سكانها يعيشون في فقر وبؤس وشقاء يخلل ضمير الإنسان (١)

فإن المتأمل للأوضاع الاقتصادية لموريتانيا عند حصولها علي الاستقلال سنة ١٩٦٠ لا يجد مؤسسة اقتصادية وطنية في جميع أطراف المنطقة كما لا يجد مصنعا واحدا يقوم بأى عمل للتصنيع فى البلاد سواء للمناجم الأرضية أو الأسماك ولا تجد طريقا واحدا معبدا ولا بنرا حفرتها فرنسا للرعى ولا استقرار عمراني اقتصادي للسكان بل بالعكس من ذلك فإن فرنسا أنقلت السكان بالضرائب المتزايدة وكثرة الغرامات المزورة حتى يظل عاله علي من لا يرحمهم ولا تعينهم علي حياتهم الضرورية (٢) .

ولقد كان من المشكلات التي قابلت القوات الفرنسية فى مراحل احتلالها لموريتانيا هي توفير المواد الاقتصادية والتي يصعب توافرها من الجنوب ونقلها إلي الشمال في الصحاري الشاسعة وهذه المشكلة هي التي دفعتهم إلي فرض سيطرتهم علي مساحات شاسعة من المراعي التي كان السكان يستغلونها لمواشيهم فكانت هذه السيطرة علي المراعي من أسباب الصدام مع المحتل كما أن الفرنسيين استقروا علي المواقع التي تربط بين طرق الصحراء ببعضها وعلي الوديان ومواطن توافر المياه التي كانت مصدرا أساسيا لمعاشهم كزراعة أو تجارة عن طريق استخدام الطرق

١- محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

٢ - مقلد : مرجع سابق ص ٢٩٢ .

التي تربط أنحاء موريتانيا ببعضها وكان لإصرار فرنسا علي السيطرة علي هذه المواقع من الدوافع التي أدت إلي استمرار الصدام مع المحتل الفرنسي حتى سنة ١٩٣٤ حيث ان المقاومة العسكرية بعد تلك السنة خمدت حتى سنة ١٩٦٠ م (١).

وبعد أن تمكنت السلطات الفرنسية من فرض الأمن والسيطرة علي جميع هذه المناطق سنة ١٩٣٤م وبدأ اهتمامها يتجه إلى الناحية الاقتصادية ومنذ سنة ١٩٣٤ اكتشف خام الحديد لأول مرة في منطقة زويرات ، وفي سنة ١٩٣٧ أعلنت فرنسا أن الواردات الموريتانية زادت من ١٩٧٥ و ١٩٧٩. فرنك سنة ١٩٣٤م إلي ٤٧٩ و ٦٩٩ فرنك سنة ١٩٣٥ ثم إلي ٣٥٣ و ٧٢٣ و ١ مليون فرنك سنة ١٩٣٨ هذا في الوقت الذي كانت فيه الصادرات قاصرة علي السعك المجفف والملح وصار علي الإدارة الفرنسية في موريتانيا أن تداوم العمل علي النهوض بالأقاليم والتخفيف من معاناة الموريتانيين الذين أرهقتهم هذه الإدارة باسم السلام والأمن و المساواة ولكن لم يمض سوى بضع سنوات بعد استكمال السيطرة علي موريتانيا حتى بدأت مرحلة جديدة من تطور المستعمرات الفرنسية اقترنت بالحرب العالمية الثانية وهي الاتجاه نحو الحكم الذاتي ، وقد كانت الضرائب تنقل كاهل السكان فعلي رأس كل مقاطعة حاكم فرنسي يدفع إليه كل شهر بالإبل للركوب والنوق للحليب كما يدفع إليه بعدد من الناس يشتغلون للبناء والخدمة المنزلية (٢).

وقد خلقت السياسة الجبائية الاستعمارية ظروفًا مواتية لقيام روابط اجتماعية واقتصادية جديدة مبنية علي النقد (التعامل بالنقد بدل المقايضة) بحكم الحاجة الماسة إلي هذا الأخير الذي أصبح ضرورة لا غني عنها ، وهو ما فرض علي سكان البلاد الدخول في علاقات تجارية مع مستعمرات الغرب الأفريقي وخاصة مع السنغال المجاورة وتتميز هذه الروابط أسبابا بطابعها التجاري والنقدي وعند البحث في العلاقات التجارية بين موريتانيا والبلدان الأخرى أثناء الفترة الاستعمارية وذلك الوقت كان يلاحظ الإقبال الكبير من طرف الأهالي علي عمليات البيع والشراء

١- محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

٢- الحسن بورح والي : مرجع سابق ، ص ٢٢ .

وهذا ما يوضح تزايد الحاجيات النقدية للسكان ولقد كانت المنتجات الحيوانية والزراعية تتعرض للتذبذب وعدم الثبات من ناحية الكم بسبب العوامل المناخية والبيئية وكان هذا التذبذب يجبر الأهالي في أغلب الأحيان علي استيراد الحبوب من الدول المجاورة وقد شاركت الدول للتجارية الاستعمارية في هذا التبادل وأقامت مشاركة فعالة وأقامت فروعاً لها في بعض المحطات من البلاد .

ولم يكن يستبعد أن تكون العملية التجارية في مجال الحبوب قد ساهمت في النقص الغذائي لدي السكان في موريتانيا بحيث عمقت حاجتهم للنقود أكثر فأكثر الأمر الذي تسبب في انتشار ظاهرة بيع الإنتاج قبل الحصاد نتيجة لاستدانة الفلاحين ، كما رسخت في البلاد مفهوم الفائض الربوي وهذا ما كان يحدث آثاراً سلبية خصوصاً في أوقات الضائقة ففي سنة ١٩٢٩ عجز معظم الفلاحين عن تسديد ضريبة العشور الخاصة بالمزارع وكان نتيجة اهتمام الدور التجارية الاستعمارية بالحبوب والحيوانات أن أقامت أسواقاً وساهمت هذه الأسواق في تدعيم مفهوم التجارة العصرية وتطوير الأسواق الداخلية وقد كانت الأسواق قائمة علي ممثلين من الدول التجارية الاستعمارية والتجار المحليين الذين يتولون تسويق البضائع في البلاد ، وقد ساهم الطرفان كل حسب موقعة في تزويد سكان البلاد بالمواد الاستهلاكية الضرورية كالقماش والشاي والسكر والأرز وغيرها حيث كان إقبال السكان عليها كبيراً وما كانت تلك المنتجات موجودة وتلك الكثرة قبل قدوم الاستعمار . وقد كانت المعاملات التجارية تقوم علي المقايضة إلي جانب المعاملات بالنقد كما كانت تتبني أسلوب البيع بالدين الذي يحقق أرباحاً مضاعفة . من أجل ذلك كانت هناك مقاومة اقتصادية ترفض التعامل التجاري مع الفرنسيين (١).

ولقد فرضت فرنسا علي الشعب الموريتاني كثيراً من الضرائب الباهظة والتي كان لها الوقع الكبير علي حياة السكان المعيشية وأثقلت كاهلهم ، ولم يستند الشعب الموريتاني من وراء هذه الضرائب التي يدفعونها شيئاً حتى أن أحد أقطاب القادرية

١- السيد ولد إياه :مرجع سابق ، ص ٨٥.

وهو عبد الله بن الشيخ سيديا عند زيارة وفد فرنسي له في محل إقامته خاطبهم قائلا "أن فرنسا يجب أن لا تنسى واجبها كشعب عظيم لا يقتصر علي جباية الضرائب بل أن ينشر بين رعاياها محاسن المدنية (١) .

كما أن السياسة الضريبية في موريتانيا قد أحدثت جملة من الانعكاسات علي المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، ومن ضمن هذه الانعكاسات أنها قد دعمت التباينات الاقتصادية بين السكان الذي تم إفقار الكثير منها نتيجة لارتفاع الضرائب وفي هذا السياق فإن تطور ميزانية المستعمرة خلال الفترة الاستعمارية يؤكد ذلك .

تطوير ميزانية المستعمرة :

وكانت ميزانية المستعمرة تشتمل علي مجموع الدخول والمصروفات خلال السنة ولم تغتا الدخول المتأتية من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ترتفع علي طول الفترة الاستعمارية ، ومع هذه الزيادة في الضرائب فإنها كانت أقل المصروفات حتى الثلاثينيات وذلك بسبب التكاليف الباهظة المتعلقة بالفرق العسكرية وقله الضرائب المتأتية من النشاطات التجارية من ناحية أخرى ولهذه الأسباب كانت الميزانية في عجز مستمر حيث لم تعط الدخل سوى ٥٠% من الاحتياجات ولذلك كان يتم تدعيمها من طرف الميزانية العامة لغرب أفريقيا (٢) .

وهذه الوضعية دفعت الإدارة للفرنسية إلي رفع نسبة الضرائب لتعويض هذا العجز خلال الثلاثينات وما بعدها . وقد وصلت الميزانية التي مرت من ١٨٦٦٨٠٠ فرنك إلي ٥٥٠٨٧٨٠٠ بين (١٩٤١ - ١٩٤٥) وهذا الارتفاع الفاحش في فرض الضرائب وجمعها بكل أساليب القمع والعنف والشدة يعطينا فكرة حول تأثير الضرائب علي السكان المحليين خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المعدل المتوسط الخاص بالنسبة للضرائب المباشرة قد مر من ٣ إلي ١١ بين (١٩١٤ - ١٩٢٤) قبل أن يصل إلي ٢٧ في سنة ١٩٤٥ وذلك بالنسبة للسكان الواحد وهو ما

١ - سعد خليل : مرجع سابق ، ص ٥٩١ .

١ - FRANCaIS (DECHASSEY) : op.cit 1900-197 ,OP. CIT, PP. 71-72

يؤكد أن التسيير الإداري للمستعمرة كان يعتمد في الأساس على مجهودات الموريتانيين ومساهماتهم الضريبية، هؤلاء الموريتانيون الذين كانوا يلجأون في الغالب في حالة عدم توافر الانتاج للبيع الى بيع سواعدهم للحصول على المبالغ الضرورية لتسديد مستحققاتهم الضريبية، وهذه للوضعية كانت مساعدة على تقفير السكان وخاصة المزارعين فيهم للذين تضرروا أكثر من غيرهم، حيث لم يعد بمقدورهم القيام بتخزين الغذاء اللازم ولا الاحتفاظ بالبذور اللازمة حتى موسم البذر نتيجة لهذه الظروف وأبدى الكثير منهم استعدادا لهجر ممارسة النشاطات الزراعية وهوما أدى إلي المساهمة في تحطيم الاقتصاد التقليدي مهينا في نفس الوقت للظروف المواتية لقيام روابط اجتماعية واقتصادية جديدة مبنية على النقد.

لقد كان المجتمع الموريتاني يعرف إنتاجا تجاريا متطورا قبل فترة الاستعمار ومع ذلك فإن الفترة الاستعمارية تتميز بميزة خاصة حيث أنها أفرزت نظاما جديدا يصبو إلي تحقيق نمو أفضل للعلاقات التجارية وتعميم المبادلات النقدية عكسا للنظام القديم والمبادلات النقدية تعتبر هي المسؤولة عن تحرير قوة العمل من العلاقات الاجتماعية غير التجارية وبالتالي وفر الأسس الموضوعية لتطوير الروابط التجارية النقدية وهي الروابط التي ستتظم في موريتانيا خلال فترة الاستعمار (١).

وخلاصة القول أن هذا النظام الجبائي الذي فرضته الإدارة الاستعمارية كانت الغاية الأساسية منه ضمان نجاح أعمالها الإدارية وعلاوة على هذا الهدف فقد أدى هذا النظام إلى تعميم المبادلات النقدية لأن عملية تسديد الضريبة كانت قد فتحت المجال لسكان موريتانيا للدخول في علاقات جديدة مع السنغال والمستعمرات الفرنسية الأخرى المجاورة تتميز أساسا بطابعها النقدي والتجاري.

٣- إفقار الإستعمار للطرق ومشايخها:

ما كان للمستعمر ليتمكن من تطويع الطرق الصوفية في موريتانيا والسيطرة عليها لو لم يبادر منذ دخوله للبلاد إلى انتهاج سياسة معينة تصل به إلى كل ذلك ففي نفس الوقت الذي كانت به بعض الطرق الصوفية تبذل كل ما في وسعها لكسب رضا القوى الاستعمارية المحنت للبلاد والسير في ركابها و التفاني في خدمة مصالحها كانت القوى الاستعمارية تعمل جاهدة في تضيق الخناق على الطرق لتجسيمها و اضعافها تدريجيا ليس بمراقبة مشايخها وتوظيفهم فحسب بل ضرب المقومات المادية لتلك الطرق باعتبار أن السند المالي أحد الركائز الأساسية التي يتوقف عليها استمرارها وعلى راس الطرق الطريقة القادرية .

لقد كان إفقار الطرق خيارا مبدئيا راهنت السياسة الاستعمارية الفرنسية على تحقيقها ليس فقط خشية تحويل الطرق لتلك الأموال المجمة لتمويل الأحزاب السياسية أو إثراء المشايخ مقابل إفقار أتباعه و إنما سعيا منها لوضع حد لقوة بعض الطرق الأدبية والمادية وسط واقع متحول يحمل في طياته الكثير من المفاجآت مما قد يؤدي في وقت ما إلى توظيف تلك القوة ضد المصالح الاستعمارية (١) . ووقاية لها من كل تلك الاحتمالات وغيرها عملت فرنسا على ضرب مصادر موارد الطرق المتمثلة أساسا في :-

أ- منع الزيارات :

حيث تتمثل هذه للزيارات (الهدايا والهيات) موردا هاما للطرق لذلك عمل المستعمر على إفقار السكان مما يجعلهم بالتالي عاجزين عن دفع الضرائب للمستعمر لذلك عمل على إخفاء الإعلان عن زيارات أقطاب الطرق الصوفية للبلاد لمريديهم ثم تعيين تلك الزيارات ثانيا كما راقب الاستعمار تنقلات المشايخ ولم يسمح لهم بالتنقل إلا بعد اخذ الإقرار عليهم بعدم جمع المال من الزيارات وبذلك تحكّمهم الإستعمار في مراجعة جمع المال من الزيارات ثم توجهت سياسة الاستعمار لضرب المورد الثاني وهو

١- التللي العجيلي : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

ب - ضرب الأحباس :

كان للطرق الصوفية أوقاف وأحباس عامة من قبل أمراء الإمارات يقطعونها لهم وحتى يتمكن المستعمر من أضعاف الموارد المالية للطرق الصوفية تدخل المستعمر في شأن هذه الأحباس من حيث إدارتها ونزعها من أيدي أقطاب التصوف والمشرفين على الزوايا والمؤسسات التعليمية ودور القيادة و أصدرت عدة قوانين تجيز للسكان شراء هذه الأحباس سواء كانت هذه الأحباس عامة أو خاصة (وهي أحباس على عائلات خاصة) .

وبتلك الوسائل وهذه القوانين أمكن للمستعمر السيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة والتي كان ريعها يعود على الطرق الصوفية تلك هي أهم ملامح السياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية من حيث انزعها لأراضي الأحباس ومنع الهدايا والهبات التي كانت تمنحها لبعضهم وكذلك ضرب بعضهم ببعض مما أدى إلى أضعاف شيوخ التصوف ماديا وأدبيا ليسهل السيطرة عليهم والتحكم فيهم الأمر الذي أدى بالكثير منهم إلى تدهور أوضاعهم المادية وحملهم على الإستدانة الأمر الذي ترتب عليه عجز المشايخ عن سداد هذه القروض ثم الالتجاء

إلى المستعمر المحتل والمتحكم في شئون البلاد للمساعدة لإيجاد صيغة لتسوية أوضاعهم وبهذا كله يتبين وسائل الاستعمار الفرنسي ونتائجه تجاه الطرق الصوفية بالبلاد والتي ضربت مقوماتها المادية وامتيازاتها الأدبية كحق الاحتفاء بالزوايا وغير ذلك وبهذا تكون

السياسة الاستعمارية قد ساهمت إلى حد كبير في فقدان الطرق الصوفية لأهميتها المادية والأدبية وبالتالي إلى إضعافها تلك السياسة التي اعتمدها المستعمر في التعامل مع الطرق الصوفية ومشايخها بقصد تطويعهم واحتوائهم وتوظيفهم حتى يستعين بهم عند الحاجة ولا يصدر عنهم ما يهدد مصالحهم (١).

١ -- التليبي العجيلي مرجع سابق ص ١٠٠ .

ثالثاً : الآثار الاجتماعية :

إن الاستعمار هو الاستعمار لا يكفي باحتلال الأرض واستعباد السكان بل يعمل على استبدال الشخصية التاريخية كلها للبلاد المحتلة بأسماء من عنده وأوضاع من صنعه ثم يجنسها شيئاً فشيئاً حتى تستحيل إلى حقيقة غير حقيقتها أو شخصية غير شخصيتها ، فإذا تم لها ذلك تستولي عليها استيلاء كاملاً أبدياً فتصبح وكأنها قطعة من أرضه لا يجد في أهلها من يجادل في مصيرها إلا أن عند بعض الأمم مناعة قوية ضد تلك الغايات الاستعمارية فمهما بذلت الدولة المستعمرة من المحاولات واتخذت من الوسائل فإنها ستظل مهما قويت وطغت وبغت عاجزة عن بلوغ غايتها ، و موريتانيا أصدق مثال على ذلك (١) . عاش شعب موريتانيا منذ الفتح الإسلامي إلى عهد قريب في قبائل شبة مستقلة ، وكانت مجتمعاتهم المحلية صغيرة الحجم تتمثل في الأحياء البدوية التي يتغير مكانها بحثاً وراء الكلال لرعي الإبل والماشية ، وفي القرى الزراعية المؤقتة والدائمة ولم يعرف الموريتانيون حياة الحضر إلا منذ عهد قريب وكانت الحياة القبطرية والنزعة القبلية تغلب سلوكهم الاجتماعي والسياسي ، وكانت القبائل الموريتانية دائمة النزاع فيما بينها ، وكان البدو يعتبرون الحرب هي المهنة الحقيقية للرجل وبلي الحرب مهنة الرعي وتربية الحيوانات وكانوا يحتقرون الاستقرار والعمل الزراعي (٢) .

وكانت تلك حقيقة الواقع الموريتاني الذي استمر لمئات السنين فإنه بعد دخول الاستعمار الفرنسي واستمراره حوالى ستين عاماً فقد شهد المجتمع الموريتاني تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية كبرى ، ويمكن تلخيص التغير الاجتماعي في عبارة واحدة فنقول إن موريتانيا قد انتقلت من مرحلة المجتمعات القبلية شبة المستقلة إلى مرحلة المجتمع الموريتاني المتكامل .

١-مقلد:مرجع سابق ،ص٢٠.

٢-عبد البارى عبد الرازق نجم : جمهورية موريتانيا الإسلامية ، بيروت عام ١٩٦٦ ، ص ٧٦.

وكان من أهم العوامل التي ساعدت علي تكوين المجتمع الموريتاني المتكامل اهتمام المستعمر الفرنسي بالثروات المعدنية للبلاد وإقامة مدن صناعية حول مناجم المعادن وكان لذلك أكبر الأثر في تغير وبناء المجتمع الموريتاني (١) .

والظاهرة التي تلفت النظر بحق هي التغيرات الكبرى التي حدثت في البناء الاجتماعي للسكان ، فإن التغيرات السكانية تبين أن غالبية الموريتانيين كانوا من البدو والرحل وقليل من السكان يعيشون علي الزراعة وأقل القليل كانوا يسكنون المدن ، وكان تواجد الاستعمار في موريتانيا أدى إلي أن يصبح المنظور القبلي لايعبر عن الواقع الاجتماعي الجديد اذ حدث اختلاط بين القبائل وحدثت هجرة داخلية هامة من البادية إلي القرى الزراعية وإلي المدن الحديثة ، وأصبحت المراكز الحضرية الجديدة تتكون من مواطنين ينتمون إلي قبائل مختلفة وضعفت الالتزامات والتنظيمات القبلية وظهرت أبنية اجتماعية جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كما أصبح المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث يعبر عن الواقع الاجتماعي الجديد بصورة أوضح من الإطار القبلي .

والمجتمع التقليدي هو لمجتمعات المحلية الصغيرة في الأحياء البدوية و القرى الزراعية وهي مجتمعات لا تزال تتمسك ببعض النظم القبلية ولكنها أيضا تكيفت مع التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى وأحدثت الكثير من التغيرات في بعض النظم القبلية والتي تمثل ثلاثة أرباع المجتمع الموريتاني ، وأما المجتمع الحديث فيتكون من سكان المراكز الحضرية الذين - في سبيل التكيف مع نظام الدولة الحديثة - تركوا الكثير من النظم القبلية التقليدية (٢) .

إلا أنه لا يجب النظر إلي المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث كواقعين اجتماعيين منفصلين أو متعارضين وإنما هما في الواقع في حالة تداخل وتشابك فإن سكان الحضر هم مهاجرون أتوا من البوادي والقرى الزراعية وقد حملوا معهم ثقافتهم التقليدية ولكنهم يضطرون لترك الكثير من عناصر ثقافة المدينة وفي ضوء

١-عصر السيد نصر مرجع سابق ص ٤٦٩ .

١ - المرجع السابق ص ٤٧

هذا الإطار أصبح المجتمع الموريتاني بعد دخول المستعمر الفرنسي ينقسم إلى قسمين أساسيين المجتمع التقليدي في البوادي و القرى الزراعية والمجتمع الحديث في المدن الموريتانية إلا أن هذا التقسيم البنائي والوظيفي للمجتمع الموريتاني لا يؤثر في الوحدة التكاملية للمجتمع الموريتاني ، ولقد كان للمجتمع الموريتاني ركائز قوية يقوم عليها ، والمقصود بالركائز هنا العوامل الاجتماعية الموحدة للشعب الموريتاني ، فإنه بالرغم من التقسيمات القبلية للسكان فإن هناك من الركائز القوية ما جمع القبائل في وحدة مجتمعة شاملة ، ولا أدل على فاعلية تلك الركائز من فشل المحاولات الاستعمارية المستمرة الخاصة بتحويل السكان عن الإسلام إلى المسيحية أو عن العربية إلى الفرنسية والخاصة بفصم الوحدة الوطنية و الانقسام إلى دويلات مستقلة لقد باءت تلك المحاولات الاستعمارية الفرنسية بالفشل في موريتانيا (١) .

وفي الحقيقة يرجع هذا الفشل في موريتانيا إلى وجود ركائز قوية يقوم عليها المجتمع الموريتاني ، وهي من القوة بحيث صمدت أمام دولة كبير مثل فرنسا التي احتلت موريتانيا أكثر من نصف قرن وأهم تلك الركائز الإسلام واللغة العربية والعادات والتقاليد المجتمعة .

أما عن الإسلام فإن جميع سكان موريتانيا يدينون بالإسلام ويتبعون المذهب المالكي وتخصصت قبائل الزوايا في دراسة العلوم الإسلامية وفي نشر الإسلام في المناطق الأفريقية المجاورة كما أن كثيراً من قبائل الزوايا قد تبنت أما الطريقة القادرية أو الطريقة التيجانية ولقد طبعت التقاليد المحلية والبيئة الموريتانية تلك الطرق بخصائص معينة مما جعل الطرق الصوفية الموريتانية تختلف عن الطرق البصوفية المشابهة التي ظهرت في مصر والعراق .

والأمر الذي لا شك فيه أن الإسلام هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الموريتاني ولا أدل على ذلك من الاسم الرسمي للدولة وهو الجمهورية الإسلامية الموريتانية وتعد الوحدة الدينية من أقوى ركائز وحدة المجتمع الإنساني

١ - مقلد مرجع سابق ص ١٩ .

اللغة العربية :

وهي اللغة الوطنية في موريتانيا وهي أداة التخاطب والكتابة والثقافة ويتكلم الموريتانيون اللغة العربية من خلال لهجة خاصة بهم تسمى اللهجة الحسانية ، وقد انتشرت اللغة العربية في موريتانيا منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، عندما انتشر حكم وسيطرة بني حسان العرب في البلاد وقد تعرضت اللغة العربية في موريتانيا لعائقين ، العائق الأول هو محاولات الاستعمار الفرنسي لفرنسة الموريتانيين عن طريق فرنسة التعليم في المدارس الرسمية التي أقاموها وكذلك عن طريق فرنسة الإدارة الحكومية ويتمثل العائق الثاني في وجود لغات شعبية غير مكتوبة تتكلم بها القبائل الزنجية في الجنوب إن السياسة الفرنسية الاجتماعية لم تنجح حيث تمسك الموريتانيون بدينهم الإسلامي ولم تستطع النشاطات التنصيرية أن تدخل عليهم ديناً آخر ولم تبني في موريتانيا كنيسة ولا صومعة طويلة فترة الاحتلال الفرنسي لموريتانيا. (١)

العادات والتقاليد :

من الواضح أن التنظيمات القبلية تختلف في ثقافتها ومن أهم عناصر الثقافة اللغة والعادات والتقاليد وتبين من البحث أن العلاقة بين اللغة العربية واللغات الشعبية في موريتانيا هي علاقة تكاملية أما فيما يتعلق بالوظيفة الانقسامية لاختلاف العادات والتقاليد القبلية فقد ضعفت لوجود مجموعة من العادات والتقاليد المجتمعة ترجع في معظمها إلى الثقافة العربية التي يحملها البيضان فبالإضافة إلى كون البيضان هم غالبية السكان (٨٠%) فهم حكام هذه البلاد وسادتها منذ مئات السنين وهم يحملون الثقافة العربية بقيمتها الحضارية العالية بمقارنتها بالثقافات القبلية البدائية ومن الخطأ المبين أن يفهم مما سبق أن الثقافة العربية في موريتانيا لم تتأثر بثقافات القبائل الزنجية لقد تأثرت الثقافة العربية فعلاً ولكن تأثيرها في ثقافات تلك القبائل أعظم وأقوى لقد كان من النتائج التي ترتبت على دخول الاستعمار ما نجم عنه من الأضرار المعنوية مثل تفتيت بنية المجتمع وإثارة نعرات الأحقاد بينه وهو ما سعى إليه المستعمر بالفعل والتشكيك في مكونات

١ - الحسن يورحو إلى: مرجع سابق، ص ٢٤.

إن سجل المقاومة في موريتانيا لم يقتصر على الجانب العسكري فقط بل شمل مختلف نواحي الحياة فقد كانت هناك مقاومة اجتماعية برفض الأهالي مختلف علاقات الزواج بينهم وبين الفرنسيين (١) .

وإذا كانت الأزمة الاقتصادية التي عرفت البلاد الموريتانية خلال الحرب العالمية الثانية قد أثرت في المستوى المعيشي للسكان فإنها كذلك قد أدت إلى مداسعافات اجتماعية وهو ما يبدو جليا من خلال تطور بعض العقليات الذي لوحظ خلال الأربعينيات في بعض الأوساط الاجتماعية .

تطور عقليات السكان في موريتانيا خلال الأربعينيات :

ونعني بتطور العقليات : ظهور بعض التوجهات الجديدة في الأوساط الاجتماعية مخالفة لطبيعة النظام التقليدي وانتشار ظاهرة العمل بالراتب وإقبال السكان على الوظائف العصرية إضافة إلى الاضطرابات الحاصلة من الوضع التقليدي المتمثلة في ممارسة حسان للزراعة وقطع العبيد علاقات تبعيتهم مع أسيادهم وعدم التزام طبقة الموالي بدفع مستحققاتهم التقليدية إزاء القبائل التي كانت تحميها في السابق وهجرة اليد العاملة من الريف إلى المدن وغيرها وهو ما سيشكل مظهرا من مظاهر التطور في أنماط معيشة هؤلاء السكان وقد جاء في أحد تقارير بعض حكام الدوائر الموريتانية ملاحظات توضح تطور عقليات الشباب في دائرته ، هؤلاء الشباب الذين يري حاكم الدائرة الفرنسي إن أكثرهم يقضى فترة الصيف في السنغال وذلك في سبيل الحصول على وظيفة في المدن والمراكز الكبرى وعند عودة هؤلاء إلى مواطنهم الأصلية فإنهم يبدون رغبتهم في التخلي عن عاداتهم التقليدية حيث لم يعودوا يخضعون لتأثير وجهاء القرية ولا لأوامر رؤسائهم التقليديين كما أنهم يرفضون نهائيا الالتزام بدفع مستحققاتهم الضريبة وهو ما يشكل في الواقع تطورا في العادات المحلية يستدعي إمعان النظر على حد تعبير حاكم الدائرة (٢) .

١ - السيد ولد اباه : مرجع سابق ، ص ٨٥ .

٢ - A.N.M serie E2/Dossier 111, Evolution des indigenes, dans
Rapport Guidimaghs pour 1939

وفى نفس السنة كتب حاكم دائرة آدرار يقول فى هذا الخصوص فى تقرير موجه إلى حاكم أقاليم موريتانيا ما نصه : " إن نظام المحاربين والاتباع ذوى الصبغة الإقطاعية محكوم عليه بالانقراض إن عاجلا أو آجلا ، والمسألة بالنسبة لنا هي مسألة وقت لأن أي تغير مفاجئ قد يؤدي إلى صراعات اجتماعية .

ومع ذلك فإننا نعتقد أن أي تطور اجتماعي بطيء ينبغي أن يقع في ظل هيمنتنا . ولكن في اتجاه مساواة في الحقوق بعيدة المدى بين القبائل وحتى بين الأفراد . وهذا التطور سيحصل بصفته فعلية أولا عن طريق ممارسة حسان للأنشطة الزراعية . وسيتدعم ثانيا بظهور عمال للراتب المأجورين من طرف الإدارة الفرنسية . مثل كوميات . وعمال الورشات العمومية الذين يستفيدون من خدمة الجهاز الاستعماري وفي هذا الإطار دائما - يقول حاكم دائرة آدرار - وصلت خلال هذه السنة أي سنة ١٩٣٩ فئات كثيرة من سكان الأرياف إلى إطار وذلك بحثا عن العمل بالراتب كما قطع الكثير من العبيد علاقاتهم مع أسيادهم وتحرروا من العبودية تلقائيا .

ولقد كان رؤساء القبائل يرون هذه الوضعية الجديدة منافية لمصالحهم على الرغم من اعترافهم بإيجابيات الطريقة الاستعمارية . التي قضت على عمليات النهب والسلب ووفرت الأمن والحماية للمواطنين على خد زعمهم وهنا يلاحظ أن حسان الذين كانوا يأنفون من ممارسة الزراعة أصبحوا بالفعل يتعاطون هذا النشاط بصفة متزايدة هذا في حين تميل طبقة الموالى إلى التحرر من هيمنة حسان بحكم أن هذه الفئة العسكرية من المجتمع لم تعد قادرة على توفير الحماية للفئات التابعة لها وهذا ما أدى إلى اختفاء ضريبة الحرمة التي كانت أصدق تعبير عن هذه الحماية وتقاديا لقيام تصادم بين الطرفين أي بين حسان واتباعها قامت الإدارة الفرنسية بتشجيع الفئات التابعة على شراء هذه الحرمة من حسان نهائيا وهو ما يعرف بالفداء.

وفي آدرار دائما فإن أزمة ١٩٤٣ قد أحدثت تحولا اجتماعيا كبيرا لاحظ الإداري الفرنسي المقيم بأطار الذي كتب يقول في تقريره السنوي إلى حاك

موريتانيا " لقد تأثرت الزوايا من وضعية الأزمة كما تأثرت الفئات الحسانية التي تم إفقارها وفقد بالتالي النظام الطبقي القديم حسان - الزوايا - الموالي جزءاً كبيراً من دلالته ، حيث لم تعد أهمية القبيلة ولا قيمتها تستند من هذا النظام ، وهو أمر يشير إلى الاختفاء التدريجي للتبعية الاجتماعية ، وظهور سلم اجتماعي جديد على أساس الثروة (١) .

وقد بدأت بوادر هذا التحول تظهر كذلك في جرجول قول سنة ١٩٤٤ ، وهو ما أرجعه المقيم الفرنسي في الدائرة في تقريره السنوي إلى تقبل الذهنية الموريتانية للمساواة وإلى طبيعة المناخ ونمط العيش المسؤولين عن أحداث عدم توازن ديمغرافي بين الموريتانيين البيضان الرحل الذين يمتارون بمعدل ولادة ضعيف وفئة الحراطين التي تمتاز بمعدل ولادة مرتفع ، وفي سياق الحديث عن طبيعة الوضعية الجديدة يشير حاكم الدائرة في تقريره السنوي لسنة ١٩٤٤ ، إلى أن الموريتاني بطبعة يفضل حياة الترحال وراء قطعان الماشية ، ويفضل كذلك أن يعيش في العزلة مع موالية الذين يستخدمهم في التنمية الحيوانية وهو ما يشكل النموذج المثالي لحياة البدوي وفي الغالب يتجمع كل الحراطين الذين ينتمون إلى القبيلة الواحدة أو العشيرة الواحدة ، في شكل تجمعات بشرية يطلق عليها محليا " أدواب " ويستقر هؤلاء عادة بالقرب من أراضيهم الزراعية أي الأراضي التابعة للقبيلة التي ينتمون إليها ويمارسون زراعة هذه الأراضي مقابل حقوق ثابتة تدفع لأصحاب الأرض وتقدر ب ١٠% مضافة على ما يدفعونه لتسديد مستحقاتهم الضريبية وما يتحملون في مشاركتهم في أعباء القبيلة ، وهؤلاء الحراطين لا يزالون يعترفون بالروابط القديمة التي تربطهم بأسيادهم الذين هم من وجهة نظرهم المدافعون عن حقوقهم وحمايتهم من الناحية الروحية ، ورغم ذلك يبدو من الواضح أن جميع الروابط بين مختلف الطبقات الاجتماعية قد بدأت في التلاشي ، لأن أكثرية هؤلاء الحراطين أصبحت تميل إلى التحرر من التبعية للأسياذ ولم يعد اعترافهم بالروابط التاريخية التي كانت تربطهم بهؤلاء الأسياذ أكثر من روابط صورية وأصبحوا في

الواقع يفضلون العيش بمعزل عن الأسباد . وفي البراكنة لم يعد الحراطين يرون من الضروري دفع الضرائب التقليدية إلى أسيادهم القدامى من البيطان الذين كانوا يوفرون لهم الحماية ولم تتدخل الإدارة الفرنسية لتسوية المشكلة لأن التدخل فيها - علي حد تعبير المقيم العام في البراكنة - قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة علي مستوي النظام الاقتصادي والاجتماعي المعتمد في البلاد الموريتانية ولذلك تركت هذه المسألة علي أن تتم تسويتها بصفة تقليدية انطلاقا من التقاليد المتعارف عليها (١) ، ومن جهة أخرى فقد تحول حسان تدريجيا إلى مزارعين في العديد من مناطق البلاد وأنكر علي وجه الخصوص أولاد السيد الذين أصبحوا يمتلكون أراضي زراعية بمحاذاة شمامة وكذلك أولاد احمد الذين أصبحوا يملكون أراضي مماثلة في شقار و اكريمي ثم أولاد نغماش الذين يمارسون نفس النشاط الزراعي في قيمي . ومن الملاحظ أن حسان والحراطين يمارسون النشاطات الزراعية في كل هذه المواقع جنبا إلى جنب علي حد سواء وقد شجعت الإدارة الفرنسية هذا التوجه نحو ممارسة الزراعة بالنسبة لحسان لأن الارتباط بهذا النشاط يربط الإنسان بأرضه ، وينسيه التعلق بالذهب والصلب وركوب المخاطر كما يقول المقيم الفرنسي في البراكنة (٢)

وقد صاحبت هذا التحول في نمط معيشة سكان البراكنة خلال سنة ١٩٤٤ ظاهرة نزوح السكان من الأرياف إلى المدن والتي لوحظت أساسا في صفوف السكان السود هؤلاء السكان الذين كانوا يهاجرون خلال فترات الأزمة باستمرار فمثلا في سنة ١٩٤٣ هاجر جمهور كبير من الحراطين والعبيد من البراكنة واستقر هذا الجمع بصفة نهائية في منطقة جرجول وهي ظاهرة لوحظت منذ العشرينيات ، ففي سنة ١٩٢٥ كتب المقيم العام بتجكجة رسالة إلى المقيم العام بدائرة كيفه يطلبه فيها على إرسال كل العبيد و الحراطين المتواجدين بصفة غير شرعية في امبوت وذلك إلى تكانت التي هي موطنهم الرسمي .

١- A.N.M serie E2/Dossier 107 Relations maures et H ara tines, dans Rapport Brakna 1943.

٢- A.N.M serie E2/Dossier 107, Evoution des populations

Maures dans Rapport B rakna 1944.

وقد وجهت رسائل مماثلة إلي حكام دوائر جرجول وغيرها بهذا الخصوص وقد كان لهجرة هذه اليد العاملة كبير الأثر علي تكاثر التي بقيت تعاني من نقص فادح في السواعد العاملة وهو ما انعكس علي المردودية الإنتاجية في مجال الزراعة علي مستوي الدائرة ففي سنة ١٩٣٥ كانت أغلبية سكان العصابة تشكو من كون اليد العاملة في الفلاحة تهجر الأراضي الزراعية الموجودة في الدائرة إلي الدوائر المجاورة وذلك لغرض ممارسة الزراعة بصفة سرية في أراضي تحوزها قبائل ومجموعات لا تربطهم بهم أية صلة وهذه الوضعية كانت مناسبة لقيام نزاعات حادة بين سكان هذه الدوائر التي يحاول كل طرف منهم الاحتفاظ بهذه اليد العاملة علي حساب الآخر .

والظاهر أن الأسباب الكامنة وراء هجرة هؤلاء المزارعين تتمثل علاوة علي تهريبهم من دفع الضريبة في رغبتهم في التخلص من الأسياذ .

وسعيا إلي وضع حد لهذه الهجرة غيز المشروعة قرر كل من حاكم دائرة جرجول قول والمقيم الفرنسي بكيفية فرض عقوبات علي شكل غرامات مالية علي كل المزارعين الذين يقنطون أراضي زراعية غير الأراضي التي تنتمي إلي مناطقهم الإدارية التي تم إحصاؤهم فيها (١) . ويمكن أن نفسر هذه الوضعية بالنظر إلي التزايد الملحوظ في أجور اليد العاملة وهو ما جعل الحراطين يهجرّون تلقائيا الأسياذ لأن هؤلاء الأخيرين لم يعد بمقدورهم توفير الوسائل الكافية لضمان ظروف حياة مواتية بالنسبة للحراطين الذين يرتبطون بهم وهو ما كان يدفع الحراطين إلي التواجد بكثافة عالية في ورشات الأعمال العمومية التابعة للإدارة حيث الأجور مرتفعة خلافا لما هو الحال في ممارستهم لأعمال أخرى في القطاع التقليدي كالزراعة وتربية الماشية مثلا .

-١-

A.N.M serie E2/Dossier 114 Compte Rendu de Tournée du
Commandant Cercle Assapa dans ta Region pe K iffa et Aft
out5F evrier 1935.

وهذه المسألة كانت لها انعكاسات على المردودية الإنتاجية في مجال الزراعة نتيجة لانعدام اليد العاملة وخاصة بالنسبة لملاك النخيل الذين شكوا المقيم الفرنسي بكيفية هذه الوضعية سنة ١٩٤٨ ولم تكن منطقة الحوضين بمعزل عن هذه التحولات حيث تمت عملية قطع علاقات التبعية بشكل بطيء نسبيا وذلك بالنسبة للعبيد .

وفي هذا الإطار فإن العبد يتحول بصفة إرادية إلى مزارع ويستقر إلى جانب أحد السدود الزراعية لممارسة الزراعة بصفة ثابتة ودائمة . وفي حالة ما إذا كان السيد يتحلى بشيء من المرونة مع هذا العبد بحيث يتجنب استخدام العنف ضده بعدم الأقدام على انتزاع زوجته أو أحد أبنائه لغرض حراسة مواشي السيد وفي حالة مساعدة هذا الأخير للعبد ببعض المواشي ينتفع بلبنها خلال السنة فإن الروابط بينهما قد لا تنقطع وبالمقابل يدفع العبد إلى سيدة كل سنة جزءا من نصابة في إنتاجه الزراعي ، وخلافا لهذه الصيغة حدثت مشاكل بمقاطعة تامشكط بين الأسياد وأتباعهم من العبيد والمتسبب الأول في هذه المشاكل ليس العبيد بل السادة ذلك أن هؤلاء الأخيرين يريدون

ممارسة نفس الحقوق التي كانوا يتمتعون بها على عبيدهم كما في السابق وبالتالي فإنه كثيرا ما يقدم أحدهم شكائته للمقيم الإداري بالمقاطعة بهذا الخصوص وغالبا ما لا تجد المسألة حلا نهائيا وبالتالي يقطع للعبد كل صلة له بالسيد (١) .

ونتيجة لهذه الوضعية بذل حاكم دائرة العيون دورا كبيرا في إقناع الأسياد بتحمل تضحيات كبيرة وذلك بالتخلي عن مطاردة عبيدهم حفاظا على اليد العاملة الضرورية للتنمية وللحيلولة دون هجرة المزارعين قامت الإدارة الفرنسية في الحوض الغربي بتطبيق سياسة غذائية تتمثل في مضاعفة الآبار والسدود ورغم كل

١ - محمد الراطي : مرجع سابق ، ص ١٨١ .

هذه الجهود الحثيثة من طرف الإدارة لمعالجة مشاكل العبيد والأسياد فإن ذلك لم يمنع الحراطيين من الهجرة نحو الجنوب بحثا عن الأراضي الصالحة للزراعة خاصة في المناطق الحدودية المتاخمة للسودان الفرنسي حيث سيقطعون الروابط الأخيرة التي تربطهم بالأسياد وهو ما أحدث انعكاسات خطيرة على مستوى دائرة العيون كما ذكر حاكم الدائرة فقد تم هجر الأراضي الصالحة للزراعة وتقلص بالتالي الإنتاج الزراعي مما أدى إلى ظهور نقص في الغذاء وهذه الظروف كانت مناسبة لقيام ردود فعل من طرف الأهالي الذين كانوا يحاولون بشتي الوسائل استرجاع عبيدهم من السودان (١) .

ولقد كانت هجرة العبيد تطرح مشكلة بالنسبة للإدارة الفرنسية منذ ١٩٤٥ ففي ١٠ يوليو من نفس السنة تعرض حاكم دائرة العيون في تقريره السنوي لهذه المسألة حيث أورد في التقرير مائنة : " إن قري مالي تأوي الكثير من الحراطيين المهاجرين الذين استقروا نهائيا هناك لمزاولة الأنشطة الزراعية ، بضاف إلى هؤلاء الحراطيين الذين هاجروا تلقائيا أعداد أخرى من العبيد ساهمت الإدارة الفرنسية في تحريرهم وأصبحوا يبحثون عن مصدر رزق جديد وفئات أخرى من العبيد غادرت أسيادها لأنهم عجزوا عن توفيرهم المصادر الضرورية للبقاء ، ولكي تواجه الإدارة الفرنسية هذه المشكلة ساعدت حسان أصحاب المكانة الاجتماعية الكبيرة إلى إعادة طبقات الحراطيين إليهم ليعملوا في الأعمال التقليدية كالزراعة والرعي أما بالنسبة للأسياد الذين لا يتمتعون بتأثير مماثل فإنهم يكتفون

A.N.M serie E2/Dossier 106, Emigrations de la Maied oeuvre
servile , dans Rapport 1cercle Aioun El attrouss pour
Jeannee1950.

بتنظيم زيارات دورية إلى عبيدهم وخاصة في فترات الحصاد للحصول على بعض الهدايا من طرفهم (١) .

وقد عبر رؤساء القبائل الموريتانية عن استيائهم إزاء القطيعة التي وقعت بين الأسياء والحراطين خاصة وإنهم يرون أن هؤلاء الآخرين يمثلون المصدر الوحيد للإنتاج وقد تم إحصاء هؤلاء الحراطين في القرى السودانية وهم يشكلون نسبة كبيرة من سكان هذه القرى وقد أعلن هؤلاء الأسياء عن استعدادهم الكامل للتنازل بالحراطين المذكورين والاستقرار معهم في حالة ما إذا كانت الإدارة الفرنسية عاجزة عن إعادتهم إلى أماكنهم الأصلية . وهذه المسألة بالذات كانت تشغل بال الحاكم العام لغرب إفريقيا الذي كتب في هذا الخصوص إلى حاكم موريتانيا مشاطرا إياه بخصوص إن الوقت غير مناسب لإجراء أي تغيير على العبادات البيطانية خاصة فيما يتعلق بعلاقة الأسياء بالحراطين وقد وقف من هذه القضية موقفا حياديا على اعتبار أن الإدارة لم تستطع حتى الساعة أن تأخذ موقفا بخصوصها لأن الظروف لم تعد مواتية بعد وأي عملية تستهدف تحرير العبيد بصفة مفاجئة ستؤدي حتما إلى قطيعة المجتمع البيطاني على حد قولهم هذا مع العلم أن عدد العبيد كان في تناقص كبير لأنهم كانوا في الغالب يفرون من أسيادهم نحو المدن وظاهرة ادوابة (٢) في الحوض التي شجعتها الإدارة الاستعمارية هي عبارة عن تجمع كبير من العبيد والحراطين الذين قطعوا علاقاتهم مع الأسياء وأصبحوا بالتالي يزاولون النشاطات الزراعية بصفة مستقلة .

Elkeihei (O. Mohamed El apd) Colonisaton francaise et
Mutations sociaux Mauritanie : cas de l'exclavage on milieu
maure 1900-1960 , memo rie maitrise en his toire, Nouakshott
1986,p . 58

٢ - ظاهرة ادباى عبارة عن تجمع كبير من العبيد والحراطين الذين قطعوا علاقاتهم بأسيادهم
أصبحوا يزاولون النشاط الزراعى بصفة مستقلة وقد شجعت فرنسا هذه الظاهرة (محمد
لراضى السياسة الاستعمارية ص ١٨٢)

البيضان الذين كانوا يهاجرون وقتها إلى السنغال وإلى مستعمرات أفريقيا الغربية الفرنسية الأخريات (١) .

هجرة السكان ومواطني العمل الموريتانيين :

إن أي انتقال للسكان من منطقة إلى أخرى ينجم عنه في الغالب تبدل في أنظمتهم الاقتصادية والاجتماعية وقد عرفت البلاد الموريتانية خلال الأربعينيات هجرات داخلية وهجرات خارجية . فعلى المستوى الداخلي : فإن ديناميكية الهجرات تتجه صوب أماكن تركيز الإدارة الفرنسية والمؤسسات العامة وحيث توجد المرافق الاجتماعية (الصحة والتعليم وكذا أماكن وجود فرص العمل) وهي مسألة طبيعية لأن الريفي يهاجر في الغالب إلى حيث توظف الأموال المستحصلة من الزراعة والثروة الحيوانية . ولذلك فإن هذه الهجرة تعتبر مسئولة عن أحداث اختلال توازن بين المناطق السكنية (المراكز الجانبية مرتقعة الكثافة ؛ المراكز الطاردة قليلة الكثافة) ومتركز هنا في بداية الأمر على الهجرات الخارجية لسكان موريتانيا خلال فترة الاستعمار وذلك نظرا لهذه الهجرات من أهمية في أنماط السكان المعيشية وتطوير أنظمتهم الاقتصادية والاجتماعية .

هجرة السكان ومواطني العمل الموريتانيين خارج البلاد :

كما رأينا من قبل فإن سنوات الجفاف التي عرفت البلاد الموريتانية خلال الأربعينات وخاصة سنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٢ - ١٩٤٣ - ١٩٤٤) قنفت بالكثير من اليد العاملة الموريتانية خارج البلاد وخاصة نحو السنغال الذي كان يحتضن القسم الأكبر من هؤلاء المهاجرين .

ويرجع بعض الباحثين في هذا المجال أن أسباب هذه الهجرة هي أسباب اقتصادية . على اعتبار أن هؤلاء المهاجرين هاجروا بدافع تحصيل مصادر رزق جديدة بعد فقدانهم لمصادر رزقهم ويتوزعون في ممارسة أنشطة اقتصادية محددة كتجارة الحوانيت مثلا وتجارة المواشي وقد أدت الهجرة إلى انتشار الموريتانيين في

١- محمد الراطي : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

وفى تكانت كان أغلب الأسياد يوافقون علي مبدأ تحرير كل الأولاد الذكور من أبناء خدمهم وذلك من أجل الحفاظ علي روابط متينة مستقبلية بين الخرطان والسيد، وفي حالة البلاد فقد تطورت وضعية العبيد والاتباع من تجاوزات الأسياد ، هذا في حين حافظت الإنشيري علي العبودية لأن موقعها كمخبا بالنسبة لقبائل الشمال التي حاربت الفرنسيين واعتماد حاكم الإنشيري الذي يري ذلك ضروريا أنه إذ لم تكن هناك موارد اقتصادية فإنه لا توجد ضرائب وبدون عبيد لا توجد تنمية حيوانية علي حد تعبيره ومهما يكن من أمر فإنه علي الرغم من مساعدة الظرفية الاستعمارية علي التحسن من وضعية العبيد فإن هؤلاء الآخرين بدورهم قد ساهموا في عملية تحرير أنفسهم مساهمة فعالة سواء كان ذلك بالطرق التقليدية المتعارف عليها أي بواسطة العتق أو سواء اتخذت تلك الحرية شكل هجرة العبد إلي أماكن بعيدة عن موطنه الأصلي وقطع علاقته مع أسياده وهذا الثلاثي في علاقات التبعية قد لاحظته بيزية (J.Peyrie) أحد الإداريين الفرنسيين والذي كان يشغل منصب حاكم موريتانيا وأرجحة إلي الإجراءات الإدارية الفرنسية التي تسببت في أحداث تغيرات في الظروف الحياتية للموريتانيين لأنها أقرت علي حد قوله الحرية الفردية للشخص أي (حرية التنقل ، حرية الملكية) ثم ضمان الأمن بالنسبة للأشخاص والممتلكات ، وهذا المناخ الجديد حسب جان بيري هو المسئول عن اتخاذ الأتباع كل الوسائل الضرورية للتحرر من هيمنة حماتهم التقليديين (Rachats Horama) ولما تخلي اتباع الزوايا عن دفع التزاماتهم تجاه حماتهم الروحانيين .

ولم يكن بوسع الزوايا وحسان مقاومة هذه الوضعية واتجه الكثير منهم إلي ممارسة بعض المهن التي كانوا يأنفونها في السابق مثل ممارسة بعض الزوايا لجني العلك ، واستغلال الملح للأغراض التجارية وكذا ممارسة حسان للأنشطة الزراعية . وقد حدث ذلك في وقت تكثفت فيه الهجرة (هجرة العبيد) من موريتانيا إلي السنغال وقطع علاقاتهم مع الأسياد واحتفاء البعض الآخر منهم بالمراكز الإدارية بالمستعمرة ولم تقتصر هذه الهجرة علي العبيد وحدهم بل شملت الموريتانيين

كل مناطق السنغال على وجه التقريب رغم أن التقديرات قبل الحرب العالمية الثانية ، كانت تحدد العدد الإجمالي للمهاجرين الموريتانيين المقيمين في السنغال بحوالي ١٤٥٠٠ ساكن وفي سنة ١٩٤٤ ارتفع هذا الرقم ليصل إلى ١٨ ألف ساكن وهو ما يعطي معدل نمو سنوي لهؤلاء المهاجرين يقدر ب : ٣٣ ألف ساكن أي ما يعطي معدل نمو سنوي يقدر ب : ٤١% . ومهما يكن من أمر فإن توزيع هؤلاء المهاجرين لم يكن متساويا رغم تكاثرهم في المناطق الاقتصادية الأكثر أهمية .

والملاحظة الأولى التي نخرج بها مما سبق تتمثل في أن حضور المهاجرين الموريتانيين كان كبيرا وأساسيا في السنغال سنة ١٩٤٣ حيث تمثل نسبة المقيمين نسبة ٦١ و ٢٧% من مجموع المهاجرين في الدوائر السنغالية وذلك نتيجة لكون هذه المنطقة تعتبر أساسا منطقة زراعية وتستقطب الكثير من الأيدي العاملة . إلى جانب ذلك نلاحظ التواجد الكبير للمهاجرين الموريتانيين في مدن اللوقا - بودور - داكار - كاولاخ حيث كانت تستقطب هي الأخرى خلال نفس الفترة أعدادا كبيرة من الموريتانيين بحكم إشتمالها على فرص للعمل وقد كان أكثرهم يزاول الأنشطة التجارية وتمثل نسبة هؤلاء المهاجرين في هذه المناطق سنة ١٩٤٣ ، ٤٢ و ٥٢% من العدد الإجمالي في السنغال .

علاوة على ذلك فإنه يمكن أن نقول أنه علي الرغم من تطور حركة الهجرة من موريتانيا إلى الخارج أثناء ١٩٦٢ حيث شملت كلا من الرأس الأخضر والنيجر . ففي سنة ١٩٦١ بلغ عدد المهاجرين الموريتانيين في مدينتي يسن سالوم (Sin) - Salloun وتيس (Thies) السنغاليين ١٧٠٠٠ مهاجرا وهو ما يقدر بنسبة ٥١% من العدد الإجمالي للمهاجرين خارج البلاد سنة ١٩٦١ ويرى بعض الباحثين أن تواجد الموريتانيين في هاتين المدينتين السنغاليتين سنة ١٩٦١ يمثل نسبة ٧٥% من مجموع المهاجرين بالسنغال وقد تم تصنيفهم إلى عبيد وحرطين هجروا أسيادهم وزوايا يتطلعون لتطوير ثرواتهم وكذلك فئات حسان التي فقدت مصادر معيشتها مع الاستعمار والتي تبحث عن فرص للعمل

ويقدر (Charle Toupet) عدد الموريتانيين المتواجدين بالعاصمة السنغالية سنة ١٩٥٥ ب ٤٥٧٤ ساكناً وهو ما يعطي نسبة ٢٦% من مجموع سكان دكاكرا علي حد قوله ومن أهم النشاطات الاقتصادية التي تتعاطاها هذه الجالية ، التجارة وخاصة تجارة المواشي وتجارة الحوانيت ولكن بشكل طفيف نسبيا ولا يستبعد أن تكون الدوافع الكامنة وراء هجرة الموريتانيين إلي الخارج وخاصة إلي السنغال دوافع اقتصادية حيث يسعي هؤلاء المهاجرين إلي الحصول علي مصادر جديدة للعيش بعد تلاشي وتدهور موارد الاقتصاد التقليدي والتهرب من الأعباء الإدارية الاستعمارية وكذا البحث عن ظروف الحياة الحضرية العصرية . ويميز (Toupet) (بين نوعين من الهجرة : - هجرة الموريتاني الأبيض الذي يبقّي محتفظا ببعض الروابط مع قبيلة الأصلية والذي غالبا ما تكون هجرته غير نهائية . وهجرة الموريتاني الاسود الذي يهاجر من أجل الاستقرار النهائي (١) هجرة الموريتاني الأسود :

ولا يتجاوز متوسط المحيط الاجتماعي الذي يقيم فيه . معدل الهجرة أكثر من سبعة أو ثمانية أشهر ، هذا في حين توجد هجرة ثلاثة أشهر وحسب (Gerome Pujos) فإن السنغال تستقطب الأكثرية الساحقة من العمال المهاجرين الموريتانيين وتجدر الملاحظة أن هذه الهجرة تخص أساسا الموريتانيين الشباب الذين تبلغ أعمارهم خمسا وعشرين سنة فما فوق ، وكذا الرجال الذين تبلغ أعمارهم ٥٠ سنة فما فوق . و تتعاطي هذه اليد العاملة نشاطات متعددة مثل الأعمال اليدوية في قطاع الزراعة وكذلك الأعمال اليدوية في قطاع الأشغال العمومية في المراكز الحضرية ويشغل البعض من هؤلاء المهاجرين كخدام للمنازل وفي الأعمال البسيطة الأخرى ويوجد بينهم من لا يحصل على شغل .

١- صالح بكتاش : الغزاع السنغالي الموريتاني بين المازق العرقي والمخرج الوطني الشعبي ، دار المستقبل العربي ، سنة ١٩٩٩ ، ص ٦٧ .

ويؤكد دشايشى أن هجرة البحث عن العمل هذه شملت كل طبقات المجتمع الموريتاني التقليدي ولم تتجاوز حدود أفريقيا الغربية قبل الاستقلال كما يري أنها كانت أكثر كثافة في السنغال وخاصة في داكار وتعود البداية الفعلية لهذه الهجرة إلى استعمار البلاد ولكنها عرفت بعض التطور بعد سنة ١٩٢٥ وقد أدت هذه الوضعية إلى هجرة الكثير من الأراضي المزروعة في البلاد حيث لم تعد مستخدمة من طرف ملاكها وذلك نتيجة للهجرة المتزايدة لليد العاملة نحو المراكز الحضرية بحثا عن العمل بالراتب الذي يوفر ظروف الحياة الريفية وقد تفاقمت هذه العملية أكثر من أي وقت مضى خلال الخمسينات أي مع بداية الاستغلال المنجمي للبلاد ونمو مراكزها الحضرية .

الخلاصة كان من النتائج الاجتماعية للاستعمار الفرنسي في موريتانيا والمتعلقة بتطوير الأوضاع الاجتماعية خلال فترة الاستعمار وجود بعض الظواهر مثل هجرة العبيد وقطع علاقة التبعية وتأثر الفئات الاجتماعية من الوضع الاستعماري الجديد كما تعرضت الحياة الاجتماعية إلى تغيير أنماط معيشة السكان وبالتالي تطوير عقليا تهم من خلال تصويرها لواقعهم المعيشي الجديد ولأنماط تفكيرهم وتحليلها للآزمات الاقتصادية .

الآثار الثقافية :

لقد وقفت الثقافة الموريتانية أمام الاستعمار الفرنسي حجر عثرة تجلت في جهاد القلم والسيف ضد كل مظاهر التعسف الفرنسي ووقفت الثقافة الموريتانية الإسلامية العربية بالمرصاد فشهرت السيف في وجهه وشحنت العلم محروسة الشعب داعية إلى مجاهدة المستعمر ومجاوبته وقد لعبت المحاضر الموريتانية في هذا السبيل دورا رائدا وذلك بمنعها مواالة الإدارة الفرنسية وأعراضها عن الاهتداء بهديها معرضة عن كل المغريات مفتية بحرمة ارتياد مدارس المستعمر والي جانب المحاضر لعبت الطرق الصوفية في موريتانيا عامة والقادرية بصفة خاصة أدوارا لا تقل عن سابقتها شأبا فواجهت المستعمر وباركته وظهر بذلك قطبي الرفض والقبول ، الرفض الذي مثله الشيخ ماء العينين والداعي إلى مقاطعة المستعمر مقاطعة كلية وسل السيف أمامه أما القبول فقد مثله الشيخ سيديا بابا والشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل ومهما يكن من أمر فان تأثير الفرنسيين علي ثقافة القوم كان طفيفا خفيفا ، وذلك أن المحاضر الموريتانية ظلت دوما حجرة عثر وسببا يهدد المصالح الاستعمارية ولو لم تتدخل المحاضر وأساليبها لذاب المجتمع الموريتاني في سموم المد الغربي وانتفت شخصيته وكيانه الحضاري (١) .

ويظهر لنا من خلال البحث والدراسة أن المؤسسة الاجتماعية الموريتانية ذات الطابع البدوي قد استطاعت أن توفر لنفسها طريقة للتدريس ذات نظام بديع قل نظيره وحتى بالنسبة للمجتمعات العربية المستقرة في قلب الحضارة البشرية منذ القدم فهو نظام تعليمي يقوم تحت الخيام وعلي ظهور العيس ، وبهذه الوسيلة استطاع الموريتانيون بناء شخصية ذات تكوين (مؤسس - ثقافي) ظل يتراكم

١- حميد بن محمد علي : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

عبر أجيال هذا الشعب إلى أن وصلوا إلى درجة تصدير أمتعتهم ومناهجهم إلى ابعاد النقاط في محيطهم الثقافي العربي والأفريقي ونظرا لهذا المستوى العالمي من النضج الثقافي المدعوم بالنزوع الديني الإسلامي فإنه لم يعد بوسع المرء أن يقارن بين مستوى هؤلاء البدو الصحراويين من القوة والبناء الثقافيّين مع بقية العالم والشعوب المجاورة كما نتج عن ذلك اتخاذ أساليب أكثر صرامة وعنفًا من طرف الاستعمار الفرنسي المجابهة هذه الوضعية غير القابلة للتجاوز بتلك السهولة التي تصورها في البداية (١) .

وترجع أساليب الصرامة الفرنسية للثقافة الموريتانية لما كان للموريتانيين من دور ثقافي بارز ليس في بلدهم فحسب بل في كل البلاد الأفريقية المحيطة بها ويرجع ذلك إلى العامل الجغرافي حيث كانت مدينة شنقيط بمثابة محطة كبيرة من محطات التجارة الصحراوية ومنها واليها تخرج وتعود قوافل الحجيج وقد أهلها هذا المركز التجاري والديني بأن تكون مركز إشعاع علمي وثقافي وهناك عامل بشري فالهجرات الصنهاجية ثم العربية أدت إلى اندفاع القبائل الشنقيطية نحو الجنوب حاملة لغتها وثقافتها وذلك يوضح بجلاء الدور الكبير الذي لعبه العلماء الشناقطة عامة ومشايخ الطرق الصوفية خاصة في إثراء الحركة العلمية والثقافية ولقد كان المجال الجغرافي الذي نشأت فيه الثقافة الشنقيطية في القرن التاسع عشر أكثر اتساعا من حدود موريتانيا كما أن الموقع الذي كانت تتمتع به بلاد شنقيط أهلها بأن تكون الجسر الذي أوصل الإسلام والثقافة العربية إلى الأقطار الأفريقية .

ولم تكن علاقة موريتانيا بالجنوب فقط بل كانت هناك علاقة متنامية في كل المجالات وعلي رأسها المجال الثقافي مع بلاد المغرب وبلاد المشرق الإسلامي وضعت أسسا متينة للتوصل الفكري بين علماء المنطقتين وكان للطرق الصوفية عامة والطريقة القادرية وفروعها بصفة خاصة القدح المعلي في نشر الإسلام والثقافة العربية في كل البقاع ولكل الأعمار وفي كل الأوعية الثقافية من مساجد

١ - فاطمة بنت الامام : مرجع سابق ، ص ٦٣ .

ومحاضر وغير ذلك من الأوعية الحاملة والناشرة للثقافة الإسلامية والعربية (١) .

ولقد أخذت المقاومة طابعاً ثقافياً برفض ثقافة المستعمر والتصدي للمدارس الاستعمارية فترة طويلة من الزمن وهذا الرفض يعكس درجة تنامي الوعي الوطني والاعتزاز بالوطن والأرض وهذا ما سيتجلى لاحقاً مع بداية أربعينيات القرن العشرين (٢) . لقد كانت فرنسا تهدف إلى فرض ثقافتها ولغتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية والسياسية علي الأفريقيين وكان القصد من ذلك كله هو القضاء علي الثقافات والتقاليد المحلية الوطنية وجعل تفكير سكان المستعمرات مطابقاً تماماً للنظم الفرنسية وحاولت فرنسا فرض هذا الغزو الثقافي علي سكان وشعوب تتفاوت في ثقافتها وتقاليدها المحلية وبالطبع أدت هذه السياسة الفرنسية إلى خلق تفرقة بين أبناء الشعب الواحد تفرقة نجمت عن القدرة علي الاستيعاب وعدم القدرة علي مجازاة الفرنسيين في ثقافتهم وعاداتهم وهذه من أبرز مساوئ هذا النظام الفرنسي الذي حرم الأفريقيين في المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا من ثمار هذا النظام الجديد وجعل استيعاب الحضارة الفرنسية شرطاً أساسياً للوصول إلى مستوى الفرنسيين في الحقوق والواجبات كما أن تشكيل النخبة وسيلة لخلق جماعة تستوعب التراث الفرنسي وتصبح الجسر الذي تعبر عليه الثقافة من أجل ذلك كانت الحرب بين هذه الثقافة والاستعمار الفرنسي الثقافي شرسة وعنيفة ، فقد منع المستعمر السكان من إنشاء المدارس الحرة داخل المدن الموريتانية للتعليم كما منع الاتصال بالخارج لابعادهم عن العلاقات الفكرية كما لم يسمح بأن يأتوا بأساتذة من الخارج خوفاً عليهم مما يسميه المستعمر (التسمم الروحي) أي بث روح الثقافة العربية الحية بين السكان كما يمنعونهم من الرجوع إلى أوطانهم خوفاً من أن تنتشر العدوى الحاملة لها والتي هي بث الرسالة العلمية واستثارة أفكار بني جلدته إذ يعدونه انه (المجرم) الوحيد الذي لا يمكن أن يسمح له بالدخول إلى الوطن الذي هو مسقط رأسه .

ولا يقتصر دفاعهم الدنيء هذا علي محاربة الثقافة الفكرية والقومية بل يتجاوزون ذلك إلى الطعن في العقيدة الإسلامية حيث يمنعون السكان من بناء

١- عودة عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ٣٩٠ .

٢- السيد ولد إبابة - موريتانيا الثقافة والسلطة والمجتمع مرجع سابق ص ٨٦

المساجد التي يؤدي فيها المسلم ما أمره الله به من شعائر دينية .

وقد حرمت فرنسا علي جميع أطراف البلاد إلا يكون هناك صحيفة واحدة معبرة عن إرادة الشعب كما لم تسمح فرنسا لأية صحيفة تدخل البلاد غير صحف فرنسا (١) . وعلي الرغم من الجهود الذاتية التي بذلتها الإدارة الفرنسية لإقامة تعليم فرنسي شامل علي كامل امتداد المستعمرة بموريتانيا فإنها لم تتمكن من بلوغ الأهداف المستوحاة وذلك بالنظر إلى ضعف نسبة التمدرس بالبلاد مقارنة مع أقاليم إفريقيا الغربية الفرنسية الأخرى فظاهرة هجرة التلاميذ للمدرسة قبل إكمال شهادة الدروس الابتدائية وعدم إقبال البنات علي المدارس وتعلق الأهالي بتعليم اللغة العربية وعلومها بعد إصرار الإدارة المذكورة علي تقليص حصص هذه الأخيرة في المقررات الدراسية تشكل في مجملها نماذج من المشاكل التي كان يواجهها التعليم الفرنسي بالبلاد الموريتانية هذا التعليم الذي لم يكن يحظى بقبول تام لدي المؤسسة الاجتماعية التي اعتبرته مظهرا من مظاهر الهيمنة الثقافية ووسيلة لطمس الهوية العربية الإسلامية للبلد الشيء الذي يتناقى مع خصوصية المجتمع (٢) .

لقد ترك الاستعمار الفرنسي تحلقا ثقافيا وعلميا في موريتانيا فلا نجد عند خروجه من البلاد مدرسة ثانوية واحدة كما أن المدارس إذا وجدت فإنما توجد لطبقة محظوظة فلا تسمح لأبناء البلاد بدخولها فهي حرام عليهم وإنما هي لكل من كان من أبناء عملاء الاستعمار وقد لا تتعدى طبقة المتقنين في البلاد ٤% من السكان لقد انفردت موريتانيا عن الأقطار الأخرى سواء في شمال أفريقيا أو في الأقطار الإسلامية في غرب أفريقيا بأن أبناءها قاوموا التعليم الفرنسي ، ويلاحظ أن رجال القادرية الذين تقبلوا التعاون مع فرنسا سياسيا إلا أنهم رفضوا التعاون معهم ثقافيا وتشبثوا بنظام التعليم التقليدي السائد عندهم لقد عمد الاستعمار إلى ذكر مدرسة بدلا من المحظرة إيمانا منه أن كلمة محظرة تذكر الشناقطة بماضيهم المجيد فقد حملت المحظرة لواء الحركة العلمية والثقافية إلى أرجاء البلاد فكان لهم في رحابها رهبانية علم وجهاد ثقافي كبير وعطاء ثرى .

١- يوسف مقلد : مرجع سابق ، ص . ص ٢٩١-٢٩٣ .

٢- محمد الراظي : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

أثر التعليم الاستعماري على الثقافة الإسلامية :

لقد خلفت هذه المدارس العصرية آثارا باقية في ثقافة القوم فصبغتها بالصبغة الفرنسية ولونتها باللون الأجنبي فنخرج من مدارسها طلبه موريتانيون مطبوعون علي التخلق بأخلاق الغرب والتأسي به قبدأ المجتمع يتفكك وأخذت العقليات تتغير والأخلاق الحميدة تنحط فاصبح الشباب يدخل أمام الشيوخ ويشرب قبلهم ويتكلمون قبل أن يؤذن لهم ويخاطبون الشيوخ بلغة الفرد ، ومما خلفه الاستعمار غرس ثقافته في أذهان الناس إذ بدأوا يتمسكون بها معتصمين بها معتبرين إياها كتابا مقدسا لا يجوز الخروج عليه أضف إلى ذلك أن المستعمر فكك البنية الثقافية للمجتمع وقتنتها فأخذت المحاضر تنقلص وتتخلص من أداء مهامها إذ اصبح المقبلون عليها يتناقصون وعنها يصدون ، ويرجع ذلك إلى هروب الشباب من الحياة التقليدية وانصرافهم نحو الحياة المعاصرة لهذا وراء الاغراءات المادية وإشباع الرغبات ، وبالجمله فان فرنسا نجحت في إرساء هيكلها الإدارية الثقافية وبسط نفوذها علي ثقافة القوم ومعارفهم والسيطرة علي نفوس الشباب وعقولهم وإذا كان قد وجد من بين الموريتانيين من لعب دورا بارزا ونشيطا في مساعدة الفرنسيين خلال حملاتهم الاستطلاعية وتعاون معهم إلى حد ما فان رفض ثقافة المستعمر و الانتفاض عنها كان شامل (١) .

فقد تمسك الموريتانيون بتعليمهم الأصلي تمسكا شديدا واعتبروه العروة الوثقى والحبلى غير المنفصم فيقدر ما انفتحت كشوف الأفريقية المجاورة علي الثقافة الفرنسية واحتفت بها بقدر ما ابتعدت المحاضر وانزوت علي نفسها مبتعدة عن كل إغراء وتشجيع من قبل المستعمر محافظة بذلك علي شخصيتها وكيانها ذلك إن الروح الإسلامية قد تغلغلت في نفوس القوم و ترسخت منذ عدة قرون فلم يستقرها المستعمر ولم يزعزعها

١ - حيمد بن محمد علي: مرجع سابق، ص ٢٦ .

و إنما بقيت صامدة في مواجهه صارمة معلنه عليه حربا شعواء وبذلك لم يتغلغل المستعمر في الأراضي الموريتانية إلا بصعوبة شديدة فكانت موريتانيا أقل مناطق غرب أفريقيا تأثرا بالمد الثقافي الفرنسي فظهرت معارضة ومحاربة واضحة من طرف أساتذة المحاضر الذين رأوا في المدارس الفرنسية تهديدا وطمسا للشخصية العربية الإسلامية ، لقد ظلت المحظرة الموريتانية بذلك تمثل العرقلة الأساسية لإنتشار هذا اللون من التعليم .

الخاتمة

لقد تعرضت هذه الدراسة لدور الطريقة القادرية فى موريتانيا خلال فترة الاحتلال الفرنسى للبلاد . وقد تمخضت هذه الدراسة عن بعض النتائج ، أهمها :-

- ١ - أسهمت ظروف موريتانيا الداخلية فى نمو حركة التصوف والقادرية خاصة داخل المجتمع فقد كان الشعور الدينى عميقا لدى السكان وكذلك حب التصوف الصحيح واهلة وكانت لهم مكانتهم عند العامة والخاصة .
- ٢ - ارتفعت مكانة أقطاب القادرية عند الحكام من حسان كذلك عند المستعمر الذى حسب لهم حسابهم وذلك لمكانتهم الشعبية
- ٣ - قام أقطاب القادرية بدور المعارضة لبعض السياسات والاحكام الجائرة للحكام وعمالهم كما إستغلوا علاقتهم للطبيعية بالسكان وتشفّعوا عندهم لافراد الشعب وعامتهم
- ٤ - شارك معظم أقطاب القادرية مشاركة ايجابية فى أهم أحداث موريتانيا خلال القرن العشرين عند قدوم الاحتلال وقبل قدومه سواء كانت هذه المشاركة حربية او سياسية او ثقافية وحملوا اللواء الاسلامى دفاعا عن دينهم وموطنهم .
- ٥ - انتشرت القادرية فى كل التراب الموريتانيا كما انضم الى الطريقة القادرية افراد انتسبوا الى معظم القبائل العربية وغيرها من القبائل .
- ٦ - شملت القادرية أفرادا من كل الطبقات الاجتماعية ومن مختلف الاعمار ومن الجنسين كما وجدت عائلات انطبعت تحت لواء القادرية .
- ٧ - اوضحت الدراسة الدور الإجتماعى للقادرية فى مجال الرعاية الاجتماعية والتكامل وأسهموا فى التخفيف عن الشعب فى الجماعات التى ألمت بالمجتمع ومن سعى فى مصالح الضعفاء .

٨ - كان القادرية دور في دفع المجتمع للتمسك بالقيم الإسلامية الأصيلة وإحياء التعاليم الإسلامية الصحيحة فقد كانوا القدوة لمريدهم وأتباعهم ..

٩ - إحتل الدين أهمية كبيرة في سلوك أقطاب القادرية وتجلى الروح الدينية عندهم في الاهتمام ببناء المساجد والزوايا التي إحتلت مكانة كبيرة عند المسلمين لما لها من أهمية دينية وثقافية .

١٠ - العلم عند القادرية عبادة تقربهم الى الله تعالى ولذلك ارتفعت مكانتهم في جميع فروع العلم من قراءات وعقائد وعلوم دينية وعربية وتصوف .

١١ - قام معظم اقطاب القادرية في موريتانيا بنظم الشعر في معاني التصوف وتعدد اغراضه وشملت اثبات مقامات التصوف وإظهار الحب الإلهي كما ضم شعرهم علوما عربية وإسلامية .

١٢ - أسهمت القادرية في النشاط التعليمي في مجتمعهم وشاركوا بجهد كبير في تعليم الصبيان في الزوايا والمكاتب بالإضافة إلى دورهم في تدريس العلم في الزوايا والمساجد وقصارى القول فأننا نامل ان تكون هذه الدراسة قد ألقت ضوءا على الدور السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى للطريقة القادرية في موريتانيا خلال فترة الاحتلال الفرنسى والفترة التي سبقت هذه الحقبة من تاريخ البلاد.

لقد انضح من خلال هذه الدراسة أن تعاليم القادرية قد أثرت تأثيراً ملموساً في العديد من الطرق الصوفية الأخرى في موريتانيا كما أسهمت تعاليم القادرية في دخول حركة التصوف في موريتانيا في طور جديد يبت روح التجديد والإصلاح فيها بعد أن كانت الطرق الصوفية تعاني من الركود والتغلب والضعف والجمود ، كما لعبت تعاليم المدرسة القادرية دوراً كبيراً في ربط حركة التصوف في موريتانيا بنظيرتها في العالم الإسلامى بعد ان كانت مرتبطة بالبيئة المحلية وموقوفة عليها كما أسهمت في مساعدة البقيلين نحو العلم مما أدى الى توسيع مداركهم وأسهم ذلك في نقل التصوف من الجانب الروحى الى الجانب الفكرى وصارت افكار اقطاب القادرية وتلاميذهم مزجاً من افكار العلماء ورجال التصوف التقليدى

ولا يقل الأثر الاجتماعى الذى أحدثته تعاليم المدارس القادرية فى موريتانيا أهمية عن الدور السياسى والفكرى فقد تحولت معظم قبائل السنغال ومالى وغيرها من الدول المحيطة بموريتانيا من الوثنية والمسيحية الى الاسلام الذى تختلف نظمة الاجتماعية عن سابقها فى العهدين الوثنى والمسيحى كما كانت تقلل حدة النزاع القبلى من أهم المظاهر الاجتماعية الجديدة التى اخلتها التعاليم القادرية .

على المجتمع الموريتانى الا انة كان من الواضح انشغال بعض شيوخ القادرية بالمسائل الدنيوية الأمر الذى أثر على فعاليتهم فى تصريف شئون الطريقة ونجم عن ذلك عدم التزام بعض الاتباع بالتعاليم وضعف درجة محافظتهم على تربية الانكار فى مناسباتها كالمولد النبوى وغيرها كما قلت هجرة الاتباع للمشايخ بقصد الزيارة والتبرك كما جرت العادة فى الماضى كما تأثرت القادرية خاصة والطرق الصوفية بوجه عام بانتشار التعليم وازدياد وسائل الاعلام التى تستقى جل مواردها من مصادر غربية وقد نجم عن ذلك انصراف الشباب الى المظاهر الدنيوية وقلت لذلك نسبة انضوائهم فى صفوف الطرق الامر الذى اضحى يهدد مستقبلها وهيبتها وغدت فى حاجة ماسة الى حركة اصلاح وتجديد لتستعيد مكانتها السابقة.

لقد خرج انسان ما بعد الاستقلال من معركة مع المستعمر منهكا مصابا بكثير من الاعياء حاملا الكثير من الجراثيم والمرض الاستعمارى ، وقد تجلت ابرز مظاهر ذلك فى تلك الحيرة التى اصابته وهو فى غمرة البحث عن أفضل سبيل يصل به إلى النهوض بأمته وكان لهذه الحيرة اثرها السلبى فى تمزيق رقعة الفكر فى البلاد فانقسم الناس الى مذاهب ومدارس فكرية لكل فلسفتها التى ترى من خلالها سبيل النهوض .

ان ائمة التصوف السلوكى كانوا اعظم المومنين توحيد الله وللصوف وهو اتجاه محمود لاغبار عليه من الناحية الشرعية لانه يمثل اجتهادا فى اتباع القران والسنة ياخذ النفوس بالعزائم غير ان ذلك لايمنعنا ان نسجل ان التصوف الذى تالق على عهود اقطابة وأئمة قد انحدر على يد الاتباع والمريدين حين انصرف هؤلاء عن

الله وابتعدوا عن سير علمائهم مما ادى بالكثير من المنتسبين الى التصوف فى العصور المتأخرة الى السقوط فى مستنقع الشعوذة والدجل والخمول .

ان التصوف الاسلامى بحاجة الى تنقية وتصفية وذلك لايتم الا بالرجوع الى المصادر الاصلية التى تلقن للناس دروس التوحيد والاخلاص فية وفى مقدمتها القرآن والسنة وما جاء على نهجها من مؤلفات الصالحين من علماء الامة وفى هذا المناخ النقى الصافى تنمو شخصية المسلم على مبادئ علمية وسلوكيات نافعة ومنهج تربوى ينمى الايجابيات وينقى السلبات ويخلص الامة من انقسامات المذاهب والطرق والطوائف التى فتكت بالماضى والحاضر ويؤلفها على طاعة الله وفعل الخير امرأ بمعروف ونهياً عن منكر كما يرقى بعقل المسلم وهمته الى مستوى القضايا الكبيرة والحيوية بعيدا عن الجزئيات والتفاصيل ورواسب التاريخ .

والخلاصة فإننا نجد أولئك الذين يتحاملون على الفكر الصوفى وعلى كل عناصر قطب القبول للاستعمار ربما لم يهتدوا الى قيمة الصراع الفكرى وضرورة التمكين لهذا الفكر كجنة وحصانة كما لم يهتدوا الى مخاطر المواجهة فى بعض الظروف التى تصبح فيها انتحار وتهورا يخرق بموجبة المستعمر سور الحصانة الفكرية كما غاب عن ذهن هؤلاء ضرورة مراعاة الظروف الزمنى واستحالة تجاوزة كل هذه الأمور جعلت قطب التأييد يحسب لها حسابها خلصت فيه الى ماخلصت . هذه الحركة فى اقطاب القادرية تنقلا من منطقة الحوض الى الجنوب المغربى الى بلاد السودان ووفرت لهم احتكاكا بشعوب مختلفة وخلقت لهم قسما من الثقافة المكتسبة تأثرا بالآخر وبرزت ملامح هذا الاحتكاك والتأثير لافى سلوك افرادهم فحسب وانما تجاوزت ذلك لتؤثر فى إطارهم النظرى .

لقد حاولت الطريقة القادرية ان تخلق لنفسها مرونة تجعل منها ملتقى لكل التيارات الفكرية والصوفية السابقة لها زمنيا والمعاصرة لها ويتجلى ذلك فى الانفتاح القادرى على كل مجالات الفكر التى تجدد ساحتهم الثقافية وذلك من خلال الدراسات الفقهاء القائمة على التسامح بما لا يخل بظاهر الشرع وكذلك مسائل العبادات والقادرية ترى ان المريد يكتفى ما قل من عبادة اذا ابتعد عن المحرمات وكانوا يتبرعون من صعوبة التربية ويرغبون الناس فى طريقته من خلال خفة الممارسات . اما اللغة

فرغم امكانتهم فى علوم اللغة خرج اقطاب القادرية عن المؤلف اللغوى الصعب الى التيسير .

وقد تلاقت عوامل عديدة افضت الى جعل كل قطب من اقطاب القادرية مركزا لنشر العلوم ومن بين هذه العوامل :-

- الحيازة الشخصية لعلوم الاقران
- الاحتكاك بين مريدى كل شيخ على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم الفكرية مما جعل زوايا ومجالس القادرية مدارس متعددة المشارب .
- الرخاء الاقتصادى بسبب الهدايا والتجارة والرعى والزراعة وتوزيع الشيخ هذه الهدايا الامر الذى جعل منها عاملا اساسيا فى استقطاب ذوى الكفاءات العلمية وماوى لطلاب العلم .
- بعث الابناء :- شكلت حركة الهجرة غدوا ورواحا بين مواطن استقرار الطريقة القادرية فى انحاء البلاد حركة علمية ملحوظة تمثلت فى اقتناء الكتب وحل الفتاوى وتبادل المعارف والافتتاح بين اطراف القادرية .
- المكتبات الشخصية اهتم اقطاب القادرية بجمع المكتبات وقراءة الكتب حتى أنه كان بحوزتهم أضخم المكتبات فى عصرهم .
- وبفضل هذه المكتبات وهولاء الاساتذة استطاع القادريون أن يبثوا خطابهم ويوسعوا إنتشاره ويؤثروا فى عقليات مجتمعهم الى درجة سمحت ببروز نساء بضاھين اترابهم من الرجال من حيث الثقافة وهو أمر كان نادرا فى المجتمع الموريتانى وبهذا التوجة الثقافى نجحت القادرية فى خلق خطاب اجتماعى يعبر عن خصوصيتها .

- تبين فيما مضى من صفحات هذا البحث والتي تضمنت فصولا من التاريخ الدينى والسياسى والثقافى لموريتانيا وذلك من خلال تحليلنا للطريقة القادرية ودورها ولتأثير السياسة الفرنسية على الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية للموريتانيين بين (١٩٠٠ & ١٩٦٠) وقد تطلب هذا البحث أن يبرز فى البداية التصوف وصلته بالقوى الاستعمارية قبل الاحتلال الفرنسى لموريتانيا كما تضمن نبذة عن السكان وروابطهم من خلال صلة القادرية بالسلطات المحلية مع الإشارة إلى

الروابط الاجتماعية والعلاقة فيما بينهم وفي هذا الصدد فقد اتضح بأن العلاقة التي تربط بين الفئات المسيطرة في المجتمع (حسان) والتي تحتكر العنف والسلطة السياسية ، والزوايا) والتي تخصصت في الشؤون الثقافية والدينية مع الفئات الأخرى التابعة هي علاقات هيمنة سياسية وعسكرية وقد رأينا أن هذه الفئات التابعة تستخدم من قبل حسان والزوايا علي حد سواء في كل الأمور الاقتصادية ولقد شاركت موريتانيا أكثر من غيرها من مجتمعات الغرب الأفريقي في التجارة الخارجية وذلك لما تحويه أراضيها من غابات منتجة للعلك (الصمغ) ولضمان استمرارية تبادل هذه المادة في المحطات النهرية .

- قامت معظم الشركات التجارية الأوروبية بإبرام بعض الاتفاقيات مع أمراء البلاد وبعض زعماء القبائل وهي الاتفاقيات التي كان يحصل بموجبها هؤلاء الآخرون علي إتاوات سنوية عند بداية كل موسم عرفت عند الفرنسيين باسم (Les Coutumes) أي الضرائب العرفية والتي تدفع علي شكل مواد مصنعة مثل قماش النيلة والبارود والأسلحة والرصاص والمصنوعات الزجاجية وكان ذلك ضمن علاقة فرنسا بموريتانيا قبل الاحتلال ومع النصف الثاني من القرن التاسع عشر تم التخلي عن دفع تلك الإتاوات من طرف هذه الشركات وتم تحديده بعد حرب فيدربر مع محمد الحبيب أمير الترارزة في سنة ١٨٥٨ م بقيمة ٣ % فقط من كميات العلك المبادلة وهو ما يعتبر تحولا في صميم السياسة الفرنسية تجاه موريتانيا خاصة وأن النوايا الاستعمارية لتلك السياسة كانت بارزة للعيان منذ تعيين فيدربر حاكما علي السنغال في سنة ١٨٥٢ م وذلك أن هذا الأخير قد سعي إلي التعرف بشكل جيد علي النواحي الجغرافية والبشرية والاقتصادية للبلاد من خلال أعمال البعثات الكشفية التي جابت مختلف أراضيها علي طول القرن التاسع عشر بداية من رحلة رينية كاييه (Rene Caille) سنة ١٨٢٤ وانتهاء برحلة فامييه (Famion) سنة ١٩١٠ م ولقد كانت هذه الرحلات والبعثات الكشفية رغم ما قد يلاحظ في أعمالها من نواقص قد مهدت لانتاج مشروع كويولاني الذي حظى بالموافقة من طرف الحكومة الفرنسية في السنوات الأولى من القرن العشرين والقاضي بإحتلال موريتانيا ووضع

أراضيها تحت الحماية الفرنسية • ولقد رأينا كيف كانت ردود أفعال الأهالي إزاء هذا الاحتلال حيث ناصبوا الفرنسيون العداء وقاوموا في أكثر من واقعة .

- وقد أشرنا ضمن هذه الدراسة إلي التباينات الواضحة في مواقف الطريق القادرية إزاء المستعمر والتي كانت تتفاوت بين التأييد والمعارضة فالمويدون كانوا مع مطلع القرن الماضي مسكونون بهم قيام الدولة في هذه الربوع باعتبار أن قيامها واجب شرعي حسبما تقرر في النصوص الشرعية ، واعتبارا لفائدتها المباشرة علي البلاد والعباد • فقد طبعت السبية سلوك ساكنيها وجبر غيابها من الأوقات (السلب والنهب والاقْتِئال والتلصص) ما تغني فيه المشاهدة عن البرهان وهي حالة تطاولت عهود عمرها وباعت محاولات تأسيس الدولة وخاصة من قبل الزوايا (بالفشل رغم أن جماعة الحل والعقد بقيت تسوس كبريات الأمور التي لا غني فيها عن الدولة، ولكنها - جماعة الحل والعقد - بقيت عاجزة عن أن ترقى رقي دولة إلي الشأور الذي تحقن فيه الدماء ، ويسيطر الأمن وتنتشر العاقية وكان هذا السبب بالذات من دوافع علماء البلد في قبول التعامل مع الفرنسيين.

ولكن هم الدولة ونشدان تنصيب الأمام لم يكن في مقدمة إهتمام جماعة الرفض وهذا الامر لم يقنعهم بأن يحل الفرنسيون محل الدولة في انتظار تأسيسها بل إن مصلحة الدين مقدمة علي الدنيا وإذا كانت آراء الفريقين قد اتسمت بشيء من الطرافة بل والحدة أحيانا لدرجة يستحيل معها في ذلك الوقت الالتفاف حول رؤية واحدة فإن مجريات سير حياة أصحاب الرأيين ما لبثت أن أفضت إلي نوع من التقارب في وجهات الرأي ففي حين أفضت هجرة أصحاب الرفض إلي البلدان التي حكمها الفرنسيون بل والانجليز ورأوا أوضاع البلاد الإسلامية التي حكمها هؤلاء الاقوام في المغرب ومصر والتقوا بعلماء هذه البلاد ونبهائها والساسة فيها وأهل الرأي وأمعنوا النظر في أحوالهم فما لبث هؤلاء أن ركنوا إلي النزوي وأخذ المسألة بشيء من التسامح والقبول بالرأي الآخر وإذا تعلق الأمر بقطبي القبول الشيخ سعد وأبيه والشيخ سيدي بابا فإن شأنهما في هذا الاتجاه لا يقل عن شأن أقطاب الرفض فقد ركن الشيخ سيدي بابا في أواخر حياته إلي بيعة وانقطع للعبادة والتأليف وأثرا إدارة ظهره للشأن العام بعد أن ذاع صيته وانتشر ذكره ومن يعمل النظر في دوافع موقفة من الأصل يجد اكراهات المصلحة العامة حاضرة فيه

• وقد صرح بأن بواعث هذا الموقف هي منع الحروب المفضية إلي القضاء علي السكان .

وهذا التعاون في المواقف المشار إليه كان له كبير الأثر علي وحدة وتماسك المقاومة • التي وإن كانت قد حققت بعض الانتصارات الجزئية في بادئ الأمر لم تتمكن من الاستمرارية نتيجة للتفوق العسكري والدبلوماسي الذي أحرزته الحكومة الفرنسية خصوصا بعد تعزيزها لوحدها العسكرية في البلاد وتنظيمها لحملة الجنرال جوررو علي أدرار أكبر معاقل المقاومة في سنة ١٩٠٩ • ولم تقف الحكومة الفرنسية عند هذا الحد بل ذهبت إلي أبعد من ذلك حيث فرضت الحظر علي توريد الاسلحة من المغرب إلي موريتانيا في إطار تطبيق سياستها الجديدة الدامية إلي محاصرة المقاومة الموريتانية وعزلها عن المخزن المغربي الذي كان يقدم لها الدعم والمساندة •

وقد نجحت بالفعل في ذلك بعد أن مارست ضغوطاتها السياسية والدبلوماسية علي هذا الأخير وهكذا فإن كل المجهودات التي بذلها الشيخ ماء العينين من أجل تأطير المقاومة ومواصلة الحرب المقدسة ضد الفرنسيين قد باءت بالفشل ولم تتمكن من الاستمرارية نتيجة الظروف التي أشرنا إليها • وهو أمر في اعتقادنا ساهم إلي حد كبير في شل فاعلية وتضامن القبائل الموريتانية المعادية للاستعمار خاصة بعد موت الشيخ ماء العينين حيث كانت بعض هذه القبائل مرغمة نتيجة لظروف الجفاف الذي اجتاح المنطقة وقتها علي النزوح نحو الجنوب الغربي للبلاد طلبا للانتاج وبالتالي الارتقاء في أحضان السلطة الفرنسية كما ألمحنا إلي ذلك ، وعلي الرغم من ذلك فقد واصلت بعض فلول المقاومة الذين لم يقبلوا الاستسلام كفاحها ضد المستعمر وإن كانت تلك الجماعات قد لجأت في نهاية المطاف إلي تبني خطة حرب العصابات والهجمات غير المنظمة والتي تستهدف إلحاق الأضرار بالأهداف الاستعمارية .

وقد اعتبر الباحث سنة ١٩٣٤ بمثابة النهاية الفعلية لهذا النشاط وذلك بعد هزيمة قبائل الرقيبات في معركة ماجك (Mijik) سنة ١٩٣٣ وهي الهزيمة التي أدت إلي استسلام امر بيه ربه ولد الشيخ ماء العينين مؤطر الجهاد آنذاك للسلطات الاسبانية في ١٧ أبريل سنة ١٩٣٤ ويمكن أن ننظر إلي هذا التاريخ من الناحية العلمية علي أنه يشكل البداية الفعلية لإستقرار الإدارة الفرنسية بالبلاد الموريتانية حيث ستكتمل أجهزتها .

الادارية وسيتم توحيد نظمها السياسية في المجال الاداري والثقافي والاقتصادي ، ففي المجال الإداري عملت الإدارة الاستعمارية علي اكمال تقسيماتها الإدارية التي بلغت في حدود سنة ١٩٤٤ ، ١١ دائرة cercles تشمل مختلف نواحي البلاد وتسهيل العملية الادارية وإدارة سكان المستعمرة بطريقة ناجحة قام الاستعمار بالاعتماد علي السلطة التقليدية معتبرا إياها حلقة وصل بينه وبين الاهالي . ولقد استفاد الزوايا إلي حد كبير من الخدمات التي تقدمها له هذه السلطة رغم أنه تم تجريدتها من نفوذها السياسي التقليدي ، لأن صلاحيتها من هذه الناحية محدودة وسلطاتها استشارية فقط مقارنة بسلطات الاداريين الفرنسيين الذين تعود إليهم الكلمة الفصل في كل الامور الادارية والسياسية وغيرها التي تهم سكان البلاد والابعد من ذلك هو ان فئة الزوايا وهي الفئة العاملة ،

في المجتمع والتي قادت مدرسة العداء اصبحت مع الاربعينات تعترف ضمنا بانها " اى مدرسة هي الوسيلة الوحيدة للعيش وهو ماكان له كبير الاثر على المحاضر التي تمثل مظهرها من مظاهر الثقافة التقليدية والاسلامية والتي تقلص عدد منتسبيها لصالح التعليم النظامي

الملاحق

الملحق الاول:

تقرير كوبولانى الموجه للحاكم العام الفرنسى بغرب افريقيا

الملحق الثانى:

- ١ - مخطوط للشيخ سعد أبيه بعنوان الجواب المحتوم.
- ٢ - مخطوط للشيخ سعد أبيه بعنوان النصيحة العامه والخاصه.
- ٣ - مخطوط للشيخ ماء العينين بعنوان هداية من حار فى امر النصارى.
- ٤ - رسائل للشيخ ماء العينين يدعوا فيها للجهاد.

- ١ - وثائق غير منشورة
- ٢ وثائق منشورة

مكتبة البحث

ثانياً: المصادر :

- ١- ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، القاهرة ١٣٦٨ .
- ٢- ابن منظور : لسان العرب مجلد ١ القاهرة ١٩٨٠ .
- ٣- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، القاهرة ١٩٨٧
- ٤ - أبو طالب المكي : قوت القلوب فى معالجة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد ، ج ٢ ، بيروت ١٩٩٧ .
- ٥ - أبو عبد الله ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩٧٥
- ٦- السهروردي : عوارف المعارف عل هامش الأحياء ، القاهرة ١٩٣٩
- ٧ - عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر من عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، بيروت ١٩٨٦
- ٨ - د الوهاب الشعرانى : الطبقات الكبرى (لوائح الانوار)
- ٩ - القشيري : الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٠ - القلقشندي : صبح الأعشى ، القاهرة ١٣٣٧ .

ثالثاً : المراجع :

- المراجع العربية :

- ١ - أبو المواهب عبد الوهاب أحمد بن علي الشعراني : الطبقات الكبرى ، المسماه بلواحق الأنوار في طبقات الأخيار ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ٢ - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : مدخل الى التصوف الاسلامي ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٣ - أبو بكر القادري : الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الاسلامية في أنحاء العالمين الآسيوي والإفريقي ، الدار البيضاء ١٩٩٩ .
- ٤ - أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق : قواعد التصوف ، تقديم ، محمد زهرى النجار ، القاهرة (د / ت) .
- ٥ - أبى الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي : تأييد الحقيقة العلية وتشبيد الطريقة الشاذلية ، القاهرة ١٩٣٤ .
- ٦ - أحمد الأمين : التوسيط في معجم بلاد شنقيط ، القاهرة (د / ت) .
- ٧ - أحمد الشنقيطي الخالدي : جامع الأصول للطرق الصوفية ، بيروت ١٩٩٧ .
- ٨ - أحمد حسين اليساوى : الإمام أبى العباس المرسى ، القاهرة ١٩٧٢ .
- ٩ - أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الجزء السادس
- ١٠ - أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، حسن إبراهيم حسن ، وآخرون ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ١١ - أزيد بية بن محمد محمود : للزوايا في بلاد شنقيط . أنولكشوط (د / ت)
- ١٢ - اسماعيل بن السيد محمد سعيد للقادري : الفيوضات الربانية في المآثر والأدوار القادرية ، القاهرة (د / ت) .
- ١٣ - التليلى العجيلي : الطرق للصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية ، منشورات كلية الاداب يمنية جامعة تونس ١٩٩٢
- ١٤ - الخليل النحوى : بلاد شنقيط . المنارة والرباط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جامعة الدول العربية ، تونس ١٩٨٢

- ١٥ - السيد ولد اياه : موريتانيا الثقافية والدولية والمجتمع ، سلسلة الثقافة القومية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، (د / ت) .
- ١٦ - المختار بن حامد ، حياة موريتانيا ، الجزء الثانى ، الحياة الثقافية ، الدار العربية للكتاب ١٩٩٠ .
- ١٧ - المختار ولد حامد : حياة موريتانيا ، منشورات معهد الدراسات الاقليمية بالرباط ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٩٤ .
- ١٨ - الهام محمد على ذهني : بحوث ، دراسات وثائقية فى التاريخ افريقيا الحديث القاهرة ١٩٩٩ م .
- ١٩ - انور الجندى : نقطة الفكر العربى فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٢٠ - انور الجندى : شبهات التغريب فى غزو الفكر الاسلامى ، المكتب الاسلامى دمشق ، بيروت ١٩٧٨ .
- ٢١ - أنور زغلول : موريتانيا عربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢٢ - جان شوفلى : التصوف والمتصوفة ، ترجمة ، عبد القادر نتين : افريقيا للشرق الرباط (د / ت) .
- ٢٣ - جودة محمد ابو اليزيد : أعلام الصوفية ، القاهرة ١٩٩٨ .
- ٢٤ - جلال يحيى : المغرب العربى الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الاولى ، الاسكندرية ١٩٨٢ .
- ٢٥ - حسن ابراهيم حسن : إنتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- حسن احمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢٦ - حمدانى شبيهناء ماء العينين : قبائل الصحراء المغربية اصولها ، جمادها ، ثقافتها ، المطبعة الملكية الرباط ١٩٩٨ .
- ٢٧ - خير الدين الزركلى : الأعلام ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ٢٨ - روبير جاكسون : الرجل القرأتى ، ترجمة ، أنور الجندى ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٢٩ - زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٣٠ - سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد احمد البدوى ، شيخ وطريقة ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣١ - شكيب أرسلان : حاضرم العالم الإسلامى ، ج ٢ ، ط ٤ ، بيروت ١٩٧٤ .

- ٣٢- شوقي الجمل تاريخ كشف إفريقيا وإستعمارها ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٣ - صالح بكتاش : النزاع السنغالي الموريتانى بين المازق العرقى والمخرج الوطنى الشعبى دار المستقبل العربى .
- ٣٤ - طه عبد الباقي سرور : التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ، القاهرة ١٩٨١ .
- ٣٥ - عبد الحفيظ فرغلى على القرنى : التصوف والحياة العصرية ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ٣٧ - عبد القادر الجيلانى : فتوح الغيب ، القاهرة ٦٥١ هجرية
- ٣٨ - عبد الحليم محمود : ابو مدين الغوث حياته ومعرجه الى الله ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٣٩ - ----- : ابو العباس المرسى ، القاهرة ١٩٦٩
- ٤٠ - ----- : عقيدة الأكابر ، القاهرة ١٩٩٢ .
- ٤١ - ----- : المدرسة الشاذلية وإمامها ابو الحسن الشاذلى ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٤٢ - عبد القادر الجيلانى : فتوح الغيب ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٤٣ - عبد الكريم العطار : تاريخ الطريقة للتيجانية فى البلاد المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
- ٤٤ - عبد المالك خلف التميمي : الإستهيطان الأجنبى فى الوطن العربى ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .
- ٤٥ - عبد الله عبد الرازق ابراهيم : اضواء على الطرق الصوفية فى القارة الافريقية القاهرة ١٩٨٩ .
- ٤٦ - عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الصوفية والمجتمع فى غرب افريقيا القاهرة ١٩٩٩ .
- ٤٧ - عبد الله صالح سانا : مدخل لقضايا المسلمين فى غرب افريقيا القارى العربى القاهرة (د / ت) .
- ٤٨ - عثمان السعيد الشرقاوى : للتصوف حكمه وأركانه وخصال اهل ، القاهرة (د ت).

- ٤٩- علال الفاسي :التصوف الاسلامى فى المغرب ، المغرب ، ١٩٩٨ .
- ٥٠ - على سالم عمار : ابو الحسن الشاذلى ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ٥١ - عيسى الصباغ : معالم تاريخ اورويا فى العصر الحديث ، دمشق ١٩٨٢ .
- ٥٢ - غيثى بن امم : إمارة أولاد يحيى بن عثمان ١٩٠٠ - ١٩٣٢ ، أنواكشوط ١٩٨٦
- ٥٣ - محمد اسماعيل محمد و عبد الخالق عامر : قضية موريتانيا ، القاهرة ١٩٦١ .
- ٥٤ - محمدالراظى بن صدقن : السياسة الإستعمارية الفرنسية فى موريتانيا ، وأثرها على الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية ١٩٠٠ - ١٩٦٠ ، بيروت ١٩٦٦ .
- ٥٥ - محمد الغزالى :خطب الشيخ محمد الغزالى ، الجزء الثانى ،القاهرة ١٩٨٨ .
- ٥٦ - محمد زكى ابراهيم : ابجدية التصوف الاسلامى يحفى ماله وفاعليته ، القاهرة ١٩٩٥ .
- ٥٧ - محمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة غابرها ، حاضرها او العرب البيض فى افريقيا السوداء ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٠ .
- ٥٨ - مرتضى الزبيدى : تاج العروس ، مجلد ٣ ، بيروت ١٣٨٦ هجرى .
- ٥٩ - مريم احمد الأمين : النظم السياسية والإدارية ، وأثرها على التركيبية التقليدية للمجتمع البيطانى ١٩٠٠ - ١٩٤٥ ، أنواكشوط ١٩٨٩ .
- ٦٠ - مصطفى عبد الرارزق : موجز دائرة المعارف الاسلامية ، مادة التصوف الجزء الثامن ،مركز الشارقة للابداع الفكرى . الامارات العربية ١٩٩٨ .
- ٦١ - منال عبد المنعم جاد الله : التصوف فى مصر والمغرب ، مطبعة منشأة المعارف (د / ت) .
- ٦٢ - نصر السيد نصر : الجمهورية الاسلامية الموريتانية ،دراسة مسحية شاملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٨ .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- 1- Abunvasrgamil : The tianyy asuforderinthe modernworld , Domlon 1971.
- 2 -Aclurvell Atravèrs : La Mauritanie occidentale Saint Leuis apart etienne vol partie generale et ecomeque editon lorozu , paris 1909.
- 3-Aliou , N Traore :Chikh Hamahou lph homme de foiet resistant¹ maison eve , Paris 1983
- 4- Amadou Ba : Les Regueibatts , Bulletin de renseignement , col N.IET 2 Paris 1926.
- 5- Chailley : Les grandes missions francaises en afrique occidentale , Dakar , Intitiations Africaines, IFIAN 1953 .
- 6- Demougeot , Antoine : Rene' Caillie' (1798 – 1838) , Paris , 1948 .
- 7- Deschamps , Hubert : L'Europe de'couvre l'Afrique . Afrique Occidentale (1794 – 1900) , Paris'1967
- ^ -Dechassey , Francis : Mauritaine , 1900 – 1075 , Paris 1984 .
- 9- Desire' , Vuillemin : Contribution a' l' histoire de la Mauritaine , 1900 – 1934 , Dakar 1962 .

- 10 - Garnier , Christine : La Mauritanie , Paris 1960 .
- 11- Gilier, Commandant : Pénétration cot en Mauritanie , Paris 1965
- 12- Gouraud , Général : Mauritanie (Adrar) , Souvenir d'un Africain , Paris 1927 .
- 13-Hiskett , M : the development of Islam in west Africa , London 1972 , P288.
- 14-Janral , Christine : Desert fertile un nouveau état La Mauritanie , Paris 1926.
- 15- Liagret , Christian : Naissance d'une nation La Mauritanie nationale Paris 1969 .
- 16- Louise , Frère Jean : Mauritanie 1903 – 1911 , Paris 1995 .
- 17- Paul Marty : Etudes sur Islam , Paris 1960 .

خامساً: الدوريات العربية :

شوقى الجمل : الحضارة الإسلامية العربية فى غرب أفريقيا ، مجلة المناهل ، عدد ٧ ، نوفمبر ١٩٧٦ .

فهمى هويدى : مجلة العربى للكويتية ، إستطلاع ، عدد ٢٩٣ ، إبريل ١٩٨٣ .

مجلة الأمة : ثروة عن الإسلام فى أفريقيا ، عدد ٦ ، ١٩٨٦ .

مجلة العربى للكويتية : عدد ٣٦٣ ، فبراير ١٩٨٩ .

سابعاً : الرسائل الجامعية :

١ - احمد فتوح احمد عابدين : الحواضر الاسلامية فى غرب افريقيا القرنين السادس عشر والسابع عشر (تاريخها السياسى والحضارى الاقتصادى) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨٩ .

٢ - احمد محمد حبيب الله : حركات الجهاد والاصلاح فى افريقيا الغربية من نهاية القرن الـ ١٧ وحتى بداية القرن الـ ١٩ ، انواكشوط ١٩٨٦-١٩٨٧ .

٢ - محمد للهادى ولد الطالب : المقاومة الموريتانية فى مواجهة الاستعمار ١٩٠٠-١٩٣٤ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٨٩ .

٣ - إجلال محمود رافت : صراع القوى الاساسية فى السنغال بعد الاستقلال ، والسياسة الفرنسية تجاه الصراع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهدا لبحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ١٩٧٨ .

٤ - الداه ولد الشيخ سعد ابية : جمع وتحقيق رسائل الشيخ سعد ابية ، رسالة كفاءة من المعهد العالى للدراسات والبحوث الاسلامية ، انواكشوط ١٩٩٨ .

٥ - الحسين يروح و الى : نظام الحزب الواحد فى موريتانيا ، رسالة ماجستير منشورة معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ١٩٧٩ .

- ٦ - الهببة ولد سعد ابيه : الشيخ ماء العينين ودوره فى مقاومة الاستعمار الفرنسى
انواكشوط (١٩٣٠-١٩١٠) ، موريتانيا ١٩٩٨ - ١٩٩٩ .
- ٧ - حماد ولد مولاي : رسالتان فى شان مسالمة التصارى فى بلد لايتعرضون فيه
للدين الاسلامى ، اداب انواكشوط ١٩٩٣ .
- ٨ - عادل على مصطفى : التحضر فى موريتانيا ، دراسة فى الانثروبولوجيا لمدينة
نواكشوط ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٥ .
- ٩ - عبد الله حسين بن حميد : نشأت الشعر العربى الفصيح فى بلاد شنقيط ، رسالة
ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب جامعة القاهرة ١٩٨٦ م .
- ١٠ - عودة عبد الرحمن الس الشوكى : الحياة والعلم والثقافة فى بلاد شنقيط فى القرن
ال ١٩ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد الدراسات الافريقية جامعة القاهرة
١٩٩٧ .
- ١١ - محمد الامين : دور الفقهاء والامراء فى امارة الترارزة خلال القرن التاسع
عشر الميلادى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة
١٩٨٠ .
- ١٢ - محمد الهادى ولد الطالب : المقاومة الموريتانية فى مواجهة الاستعمار ١٩٠٠-
١٩٣٤ رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٨٩ .
- ١٣ - محمد فاضل محمد الخطاب : الشيخ التراد ودوره الثقافى والسياسى فى منطقة
الحوض ، بحث لنيل درجة شهادة الإجازة ، كلية الاداب ، جامعة أنواكشوط موريتانيا
١٩٩٢/١٩٩١ .
- ١٤ - محمد فاضل محمد الخطاب : الطريقة الفاضلية ، نشأتها - طرحها - نشاطاتها
- رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الاداب والفنون والعلوم الانسانية ، تونس ٩٩
٢٠٠٢/ .
- ١٥ - مريم بنت احمد الامين : النظم السياسية والادارية الفرنسية ، رسالة كفاءة
انواكشوط ١٩٨٨/١٩٨٩ .
- ١٦ - محمد سالم بن بلفريو : المقاومة فى ادرار من ١٩٠٠ - ١٩٣٤ ، الاداب
والعلوم الانسانية ، انواكشوط ١٩٨٥ - ١٩٨٦ .

- ١٧ - محمد بن محمد علي : المواجهة الثقافية الموريتانية للاستعمار الفرنسي ١٩٣٦
- ١٩٥٠، بحث لنيل الكفاءة ، انواكشوط ١٩٨٨-١٩٨٩ .
- ١٨ - فاطمة بنت الامام : المقاومة الدينية من خلال المحاضر ، رسالة تخرج كلية
الاداب والعلوم الانسانية قسم التاريخ انواكشوط ١٩٨٩ - ١٩٩٠ .
- ١٩ - عثمان ولد الشيخ احمد ابو المعالي : الفكر الاصولي عند علماء شنقيط خلال
القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري ، جامعة السلطان محمد الخامس ، كلية
الاداب والعلوم الانسانية ، الرباط سنة ١٩٩٧/١٩٩٨ .

مخطوط بعنوان "الجواب المحتوم للمتنكر علينا في أمر الروم (النصارى)". للشيخ سعد أبيه
 بن الشيخ محمد فاضل ، وهو من أقطاب القادرية الذين أيدوا دخول المستعمر وفي هذا المخطوط
 يوضح الأساليب والأدلة التي استند عليها في موقفه المعلن للفرنسيين من الكتاب والسنة .



مناه حتى انما هي من اواء الاختلاف وقد رتبها في
 فاحاز الحق بغير فضل المزدود وبمحان خور المشهود
 انه لا يستحقه الكثير دون الصغير والرجحان والوضع البغيض
 تليق **الله** على ما افول وكيل وموحيه ونوع التوكيل في حق الانبياء
 وليس معهم غير من الاولياء وما من خلفه وبينهم فاربعة ولا فرق
 منهم بالادنام والتغير سبيلهم **الله** احل الله عليهم وسلم وخيل **الله**
 ابراهيم وكليم **الله** موسى وزوج **الله** عيسى ومعه **الله** ادم
 وغيرهم نوحا **الله** عليهم وسلم فقام النبي وهو في رضى الله
 عنه وارضا له بقولهم امرتهم والزينة **الله** الحشر يسرنا تسويح
 عليهما **الله** السلام والكرامة باللائمة من نبي المرسلين **الله** عليه
 وسلم وفيه من كبري باريعة اشياء ثلاثة منها عاينتها ووجدت بالقرية
الله الحشر الرابعة ارجوا **الله** ان تكون كذلك الاول فيهما النهر
 على الانحر وكما نرى نوع عليهما السلام على اعزابه **الله** فيله الهمة
 انما اكرم **الله** ما لا يقاوم الهول الانبياء **الله** اولئك امر **الله**
الله عليه وسلم بالبيع لغو المشى اليد لينة الاسراء وغيره
الله الثالث شهادة الطاع العلوي على ما اعكاز في كما شهد
 الامم واسما **الله** **الله** عليه وسلم تسويح
 بالتبليغ الرابعية التجمي ان شاء الله الذي نغويك فليست
 فيهم الف سنة الا تمسك بها ما شئ الله فافوخ من الكلى
 لم يشيخ من له النظم فاعبروا انهم من سراج الشمع فليست راتين
 والخدومة للامم لا يرمونهم في غياط التحكيم والهمة في طاعة الوفاء
 الوفاء للامم وقا الجبله علما على رأسك يعني الانام على كبري احيى ومضى
 كبري في الافواج **الله** والبضائع العكينة بعنق لا يملكها والكم في
 البلاد وانتيهم كل فكر باكر اية في الله **الله** علم ان اجمع اليه المعزايلا

[illegible]

304

[illegible]

قوله الآية من سار الى مكة الآية الاولى في سبب
 النزول وهو الاول جلاء قوم من اليهود الى قوم من المسلمين ليقتلوه مع
 دينهم وفعال رفاعة بن المنزور وعمر بن الخطاب وسعيد بن جبير
 اولئك الذين ساروا من المسلمين اجتمعوا بمؤلف اليهود واحضرهم
 يقتلهم عن طريق جنتهم هذه الآية الى ارفالهم فيلقتهم في
 ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ومن بعد الكلام
 فلما مضى الآية فليس من ولاية الله في شيء ومن لا يوجب
 الكفر في شيء من الاثام الكفر في شيء اعلم الله تعالى انك ايتت اخبر في
 من الاثام منها قوله تعالى لا تخشوا الله واطيعوا الله وان كنتم
 ايتت اخبر في شيء من الاثام واعلم ان يكون التوبيخ مواليا للكتاب كما يحتمل
 فلا تتركوا اوجها لغيره ان يكون رافعا لغيره ويتولا كجمله ومنه ان منعه من
 لا تتركوا في كل ما كان مذكورا في القرآن وتكويب الكفر كغيره والرضى بالامر
 كغيره فاستعمل ان يغير موضع ما مع كونه بهذه الصفة ارفال وقالوا في
 التماسه الجميلة في الرثيل بحسب الكلام مروي له غير ممنوع منه
 النفس الثالثة وهو كالتنوين في القميين الاول ليس هو موافق
 الكفار بمعنى الركون اليهم والمعونة والمكاشفة والنهضة اما بسبب الغاية
 وبسبب المحبة مع اعتقاد ان دينه باكل هذا الامر يوجب الكفر بالله منه
 محبة ان التورات بهذا المعنى قد ترجع الى استعسان كبريائه والرضى
 بدينه وذلك يوجب السلام فلاح ان معنى الآية لا تخشوا الله
 ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء وقال تعالى الذين
 يتفوا منهم تغتفر فقال الخازن في معنى الآية ان الله تعالى في
 التوبيخ من الاثام الكفر ومنه ان منعه من الاثام يكون الكفر
 عالني كذا في او يكون التوبيخ في قوم كذا في ايمنه فلهذا وقوله
 محبة في الايمان فاعلم نفسه ان التوبيخ منه وقال في التوبيخ

بما حوسر لا يخرط علم انا اي بشير نذر على انا الجاسوس وحقك ملك
 الاسير ونصته ولو خير منه من الكفر انه مستامى فاطلع على انه عين
 العرو ليعلم امانه وحقك صيد الامام يجمع الاسيراه وانما كان هكذا
 الاسير فاجل انا في الاسير حسنا وحقك قال اني بشير الاسير
 ويكون الامام فيه اني حسنا وحقك القتال والاسير فاق او صر
 الجاسوس والعباد انا او اني عليه ويا ليت ان يفعلا امر من الاو حيا ليد
 كتموا الضلعة فيه **وقال الشيخ خلد كالتف**
في الاسير يفتل او في او جزاء او جزية او ستر فانه قال
 يحذر الياف على قود في النظر اياها بما يحذر النظر الامام بالصلوة
 اللئيم انا اعلم ان الجاسوس وحقك حكم الاسير وعلما ان الاسير
 يجب الاكتم بالصلوة وكنت اراهم اراي والنظر تعفت ان الين على
 عذر الله اني متعبي اني اكتفى خيرا باحوال المسلمين وضعهم واختلاف
 كالمتمين وشدة حاجتهم الى السيف في ارض النكاري والتجارة وغيره
 وانه افضل من النحر اني بالمسلمون يترامون في ارض النكاري
 الغدوم الى بلادهم ويا مضيقا فيهم كما هو معلوم وارجو ان
 ان يفتلوا في الشمس ومعلوم ان النكاري لا يفتلوا ان كل من يفتل
 بلاد المسلمين يفتل في بلادهم حيث شاءوا ولا يفتل من البحر حينئذ
 فيكون من امر ابي الهادي ويحسبون فيهم بما شاءوا فقل او جزاء او جزية
 جارية ويزيدون فيهم الى ارضهم واممهم الكرمي ففتلوا فيهم
 في الدنيا عليه وتامينة ليسلم المسلمون من ضر النكرى ويكفي من احوال
 من في المسألة ان النكاري وفتل انكاري ففتل الناس في ارضهم فقل علينا
 من النكاري لعنهم **الاله** فاعلموا ان الغلام عليه لعنهم لم يفتل
 دامة من الامم وال وانه المبلغ ما يغني كثير من الناس ولا يتأخروا
 اليه في الكعاج البشة بل يفتلوا على انفسهم وعلى من شاءوا ان يفتلوا

ويترجعون بما ينزله وكثيرا من الناس الى بلع حيدر ثم افاض الله الحكمة من
 في بعض الاوقات بما ينكر عليه في ذلك ان ينزل حيا قنار ما وكما علمت
 حاله **وقال النبي صلى الله عليه وسلم** ان تطعموه
 من طعامكم اثم **وقال النبي صلى الله عليه وسلم** ان تطعموه اثم
 عليكم ان تطعموه اثم **وقال النبي صلى الله عليه وسلم** ان تطعموه اثم
 الله عز وجل ان يطعموه في البري ولو يغفر له ولو من ثم ان يطعموه
 وتغسلوا اليهم ان الله يحب المتكئين ان ما تحسنه
 فالعمل التواضع من اياته قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه
 وان كانت التواضع من اياته وفوقه لم تغل وتغسلوا اليهم
وقال ابو جعفر من يرباها لله ويغفر ما اراد الله به
 المتكئين من يرباها لله ويغفر ما اراد الله به
 ان ترقوا الله بغيره وتغفر لواله وايضا الصبيحة التي من فريضة و
 الاكرام من اهل البيت يجوز ان يكلم بها اكرام في عياله او عشيته ومن
 بالكرام بل عطله والصبيحة من العيال ما في عياله في عياله عياله
 قول خليل واكتفاء كذا ان ما تحسنه روي عن ابي الاصلاح في جمع الالكافيه
 قال ابو الغياص والاول احب الي فقال النبي صلى الله عليه وسلم
 يكبر في عياله واما ما روي من او عشيته ومن عياله بل عطله
وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خلاف في قولي ما لك يا نبيك النعت اليهم ان
 لم يكن نوابه عياله ويغفر له انما كان في عياله هذا **ما حصل**
ما في السماء وتغلبت به كنه اسم الله عز وجل مثل غيب
 انما في العيال بالكرام والصبيحة والغريب في العيال كغيره او صغره
 من الصبيحة بغير ما اخرى واو في علم بيتي الا التسليم **في البحر** البرزخ
 للشعر ان رضى الله عنه اخبرنا عن العبد انكم كل حبه وبعثه
 سواء كان مؤمنا او كافرا او غير انسان من سائر الجموع انك او غير ما حشيت

317

انما من اخياره الضمير الرجوع اليه في قوله **الذي** غايته الاشارة
 انه اقر فيها العكس لجلالة مقام الضمير في قوله **الذي** الاشارة اليه في قوله
الذي في قوله **الذي** او **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي**
 فكذلك قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي**
 مع انما يدرون صفة هذا لجلالة قدره على تقديره بزيادة قدره على اقل
 في غاية الخلق والخلق والصحوة واوضح نفسه وبصمها وناذرها عليها بالمثل
 المربك واتباع النور وعدم البهانة وانا الله وانا اليه راجعون كبره وقدره
 فالوا ان كان للتكثير تسعة وتسعون وجها وبصره وجه واحد فانه قد عرف
 لا يفتنه بالعلم الموثق للفتن وحك العظمة وعدم الجبران وغيره من احكامه
 القسمة والقسمة كبره من اجماعه اكرامه بغيره نعوذ بالله من
 سلاطينه انما يصاروا كثر نعم القلوب التي في الصدور والله خير
 تعالى اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وقال في موضع آخر
 وروح السليم لا يفرغ عليه الا بامر مني وماتت عليه النار وبذلك فلا بد من
 امتحان النظر فيه وتكليف عزله في هذه المسئلة التي يقع عنها الحق في المسئلة
الثالثة في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي**
 على انكار علمه انما الله الذي انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله
 وانك في جليلك انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله
 مع ما جملته لا يعلمه انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله
 اعلم ان الجمل ام وتكفي في نفسه للدين والدين والدين والدين والدين والدين
 صاحبها انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله انما الله
 ومما يستلزمه من منع منكرين له في الرتبة وانما الله انما الله انما الله
 يعلم ويظن كل صفة في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي**
 الى غير العلم من بواقي **انما** البرية فلهذا يقع انما الله في الجمل
 اقبل ما يقع للجمل من انما الله في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي** في قوله **الذي**

وهر رندا فيتلو بع الحما وكنش الكلام فيه بلا حجة الا التفسير والتمسك
الشئ الذي لا يلبث في اليد فاذ الكلمة العالم وبير له الحجة اشتكش وابتدع في الح
من اعلم الا في والوصية في اهل الحق ومنه لا يعرف الحق ولا يعلم الحقيقة
ومع ذلك يكملو لسانه بما يرضونه وياشبع به وان ملك العالم بمثلا
واخر في الحجة هلكي فكانه فاللجاء اما ذال التفسير او احسن من
ان كملته

لو کہ تمام افول عزت ہے ، او کہ اچھا ماقول عزت کا

لائي هم كست مقلد بجزايه، و علمت انك جامد و عزيزنگا

[illegible]

وقد فحنت لبحر وفلك الرمحول وانغمض العلم ورثته وثمنه
 الجمل على خولته اه والاكتار ومنع الجمل غير محتاج اليه
 خزائن الانوار **روى** ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اهل البيت
 اخرجوا من النار من انتم اكلتم من العسل فقالوا يا رسول الله
 انما اطفال لانهم لم يلمسوا العسل فيعلموا العسل فيسمعون
 ايها بعض الفناء انما كانوا العسل بمفردنا لو ان اهل البيت
 ملائكة السماء يخرجونهم كاهن الخامس من اهل البيت
 في يوم النور الذي جعل الله على الانبياء عليا في يوم النعمة التي
 اطلعوا فيها الشمس **روى** عن الانبياء لانه جاء من الغر التي هي
 الله عز وجل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 احسنوا في البغض **قال** انما النار التي اخرجت قال صلى الله عليه وسلم
 عليه وسلم انما هووا واتقوا هروا واتقوا هروا واتقوا هروا واتقوا هروا
 الله اخوانا **قال** قال صلى الله عليه وسلم ذلك لا يخرج من احد
 الا من والى الله والحسد وساحرته بالحرمة من اهل البيت فلا تمنعوا
 عليه فامروا به احسن فلا تبخروا **قال** صلى الله عليه وسلم من ابى
 بحمد الله فقلان الحسد والبغضاء والبغضاء هي الحالفة لا قول حالفة
 الشعر وما كفى حالفة الدجى والذين يغترون **قال** من دخلوا الجنة
 حتى يومئوا ولم يمتنعوا حتى يمتنعوا الا انهم لما ثبتت في الجنة لم يمتنعوا
 السلام **روى** ان موسى عليه السلام لما توجه الى ربه راى كل احد
 رجلا في حلة من حلاته فقال اني عبد الكريم علمي ربي فساكن ربي
 ان يسمع باسمه فلم يسمع **وقال** المحدث ومحمد شلا كان ما يسمع الناس
 على ما انهم **قال** من خلت وراعى والديه وايث بالتيمة
 قال **روى** عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **قال** تعلموا انما هو
 نقصان غير ان يغيب الله عنه يرحمهم **وقال** صلى الله عليه وسلم

لنعم الله اعزوا معا ومن ههنا الذي يسير في الدنيا على ما يشاء
 الله من فضله وقال بعض السلف انا اول خطيبه كانت متى
 الحضر من ابيس ارج عليه السلام على ريقه وانه يسير في الجبل
 الحضر على المعصية **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 ومحبب الحسود ما يلقى **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 بكلمة من حاسر الله في الجنة عليه **وقال** **الحسين** **عليه السلام**
 والى لم يتغير هذا جاري الذي اكل الله **وقال** **الحسين** **عليه السلام**
 اكروه الله واكراني **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 الحاسر لا يشر في الجاهل **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 ولا يشر في الجاهل **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 عن الموت **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 رجل يتشبه بغير الملوك **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 وان الحسود سيكف **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 فسحق به الى الملك **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 انهم فقال الملك وكيفية **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 وضع يد على انعه لئلا يشتم **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 من غير الملك **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 من غير الملك **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 وان المستع **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 يد على فيه **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 خلافا للاقرار **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 وكتب له كتابا **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 اسلمه واحضره **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر
 الذي سقى به **وقال** **الحسين** **عليه السلام** لا يشر

32

مسس الصبب الطري به افترسه الر افصين المعارضين المقومين للمستعمر الفرنسي. وزاد في هذا

المخطوط على النسب هاديه! التسنعمر الفرنسي وقد استند في موقفه الرافض هذا من القرآن والسنة

البيرة المطهرة

[illegible]

115

[illegible]

23

[illegible]

والله اعلم
واعلم
ولذلك وجعل على المسلمين ايام يدعوا وبكل ما يدعونهم

[illegible]

الذي هم الغنم وصرها من اهل خيل ارضها الجارية اخذوا من اهل ارض مصر سبوا وقال
شوروه العظمى ان الجارية هبة من اهل ارض مصر فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا
والمدينة والموطنات من ارض مصر على ان يعطاهم سال محمد صرصر شمر من اهل ارض
على ارض مصر وصرها من ارض مصر فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا
خيلهم ولا يبيعوا غنمهم على ارض مصر ولا يبيعوا من ارض مصر سبوا وقال
سبوا وقالوا لا يخرجوا من ارض مصر فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا
شبهين الى ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
لحمهم وغيره من ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
ولا يبيعوا من ارض مصر سبوا وقالوا لا يخرجوا من ارض مصر
فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا من ارض مصر
وقررته على من ارض مصر فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا
الجارية اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
العدوان اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
ترجمتها وان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
والا فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا من ارض مصر
جبران اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
ان اهل ارض مصر لا يخرجوا من ارض مصر
فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا من ارض مصر
ايها اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
الادانة عندنا اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
والادانة عندنا اهل ارض مصر الا ان اهل مصر لا يخرجوا من ارض مصر
ويجب على اهل ارض مصر ان لا يخرجوا من ارض مصر
فاستحسنوا من اهل مصر ان لا يخرجوا من ارض مصر

والله اعلم
فصل في معرفة

فصل

[illegible]

وهم صبيته في بيع فويلك سبعة من وائل والشرية فوصفهم وادان ذلك وادان العربان
بأنهم ياتون بغيره شاة غير الرب وسطها وهو من والشرية طالع السور من خسة
بشبيبة بحبيبه ويحرم ويحرم له ان اذا خيرة بيا دعير او كعلا لالة وكنه انما يوزن وها
انما انما الكبار ثلثة انا من ثوبه غير طالع سبعة وبيسة طالع الا يغلب منه وادان السلام
وهم مشركو العرب والرتة وادان مشركو العرب طالع النسيه عليه السلام بقت منهم
ولفقت العجرات الحيرة وكبره في ركنه عشر واما الرتبة واما انهم لم يحرر سبي
الهما بعد اطلاقهم على ما احسنه وميكه وكونه كبره على انهم قتلوا على الجاسية
وزن وضع الجارية العذراء يستغفرو في وزون اثرها انهم جنة يستلموا الزانية
الجارية وها الزانية والنصارى والحدس والبيكون والنصارى ويحسب كذا زانية واما
المعسر وسيف السعيد السلام ستمسك اربعة سبعة اهل النصارى في زانية فتمسكهم
والكل في النصارى والاندلس في ستمسك الكعبة في النصارى في ستمسكهم
والامم ستمسك العرب كعبه وادان واما في النصارى في ستمسكهم واما
الزكاة والاصل انما اخذ الجارية منهم كذا في النصارى في ستمسكهم واما
غير العرب انما يلقى في ركنه واما في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
ادان في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
لا ينسب ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
يكون بعد اطلاقهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
قال وادان في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
كلية وادان في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
الامم الجارية ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
مقال في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
الزكاة والاصل انما اخذ الجارية منهم كذا في النصارى في ستمسكهم
والانصار في ركنه واما في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم
لجميع صرغ الزكاة واما في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم في ستمسكهم

[illegible]

والله اعلم بالصواب فان الحق معكم وان الله تعالى يتوفى الصالحين

من عهد هذا الزمان وسنة اكلان من بعد ذلك سنة حراة انوار احوال واهل
عليه السلام الى ذلك حين خرجت بعد ان الحقة التي راها ورفاه يا محمد وان
عقوبة عبادي فعلم له عليه السلام ان الله لا يسمي عا رصدا لمعة تزفون
خذ عسا اهراسه فخر عاصره الزمان وبصر عصفه ومع رانية الزبير فزان عليه
السلام لا يلدغ المؤمن من جحر وسره الى يده اذ انجى بالغبية والخذل عدا
لبير راكحه لانه زبده في كنفه اذ تعمد اذعم النعم الخ فويل وقد عرفت في واسر
وفيل بعد اذ ان من النصاري ورجالها الكفرة ان باخذ من بلاوا المسلمين و
يتمتع بهم ويتخصش حتى يقطل ويقتل ما عبد مريخا نية وفزان بجل واما انما
فوم خيانه والنبذ اليهم على رؤا ان الله لا يحب الخائنين واما انما بل و
والخوف مستعلا اهلهم من قدم من اعداءهم خيانه ففزع عده هبما سبيل
لام ان عظمهم من علاماته انذروا انذبا البهلر واكرحوا اليهم عدهم كان كره على
سواك انما بدت كل شيء سقوي العار والى بان تظهرهم انقض وفان خبايا وراستهم
خبايا تنقم نية وانذروا عتقنا ان امان اخر منهم الخ خيرة قامة عبادهم
ومرضهم وينذروهم بان لا عده لهم واول شورت وارتفعوا خبايا نية بل انذار
ولما ان النبذ والهم عدهم على كره من كرا ارضي تنبهي اليهم من ارفايع حاله
واما ان حاله ان خذاله انزل واخذ بالانهم واما عديهم وعده عليه حرام اياهم
لما اذ اسيد رانام عليه اجل الصلابة والسلام واعرف بالله من جداه حاله
تباطل واعلم انه لا ينكح ولا يلا الكوبة ولا ينكح ولا ينكح ولا ينكح ولا ينكح
تظهر لا لثيا دارا لغيره عتقنا ان انفسهم ان الله ارحم من كان خيرا انهم
في الخبايا مصر عليهم منه فابوا وعرفه ان اريدوا السلم وامر بالنصارى
الانما ايسر انفسهم يتبعهم لهم عده مع اذ في اهلهم بل لا يسمي بل لا يسمي
لهم عده لهم لم ينسب له خذ عده بما اقدم ان الله انما ينكح عتقنا اهلهم ليس را
لما كان اهلهم ليس عداك على كعتبة وقومهم هانتم ملكا خذ لتر عتقنا الكبريت
والنار اهلهم يخذل الله قدس يوم القيتا فاطمك ليل بعد اذ خاها فالا ورتلى

تضرعوا اليه وروا النص وحيث تنضم ملته وبتنضم بهذا المعنى فلهذا
ولم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ولم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
من يري هذا النص في النصين قالان هذا ما يراه في النصين
الاسلام اصحابه ثم انه قال في هذا النص انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
مبيننا انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
والا انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ابن جبريل انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
لا تكتب في النصين والذين في النصين انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ومع انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
به انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
محافظات الكون من دون المسلمين والذين في النصين انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ورسالة من ولايتهم وقيل في كل من يتنقل من المسلمين ومن يتنقل من الكون
منهم انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
الذين في النصين والذين في النصين انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ونما انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
فيهم يقولون انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
فيصحبوا على اسرارهم انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
الذين في النصين والذين في النصين انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
والا انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
الذين في النصين والذين في النصين انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر
ياخذ بعضهم من نصيبه في نصيبه في كل من يتنقل من المسلمين ومن يتنقل من الكون
ومع انهم بعد اجراء الامر انما اذ لم يثبتوا انهم بعد اجراء الامر

صورة من تقرير قبولاى مهندس الاحتلال البريطاني لموريتانيا الى الحاكم العام الفرنسي بغرب افريقيا بعد ان كلفه حاكم السودان الفرنسي ترنتيان Trintinan بمهمة التعرف على سكان موريتانيا سنة ١٩٩٨م وذلك بغرض إخضاعها للسلطة الفرنسية ، وقد اقترح قبولاى في هذا التقرير وضع يد فرنسا على البلاد موضحا أهميتها الاستراتيجية التي تكتسبها وإن كان مشروعه في البداية اصطدم بصعوبات جمه من قبل الإدارة الفرنسية المباشرة ومن الخارجية الفرنسية ومن التجار الفرنسيين في سانت لويس ، وفي هذا التقرير ظهر رسميا لأول مرة اسم موريتانيا .

ANALYSE : REGIONS OCCIDENTALES ET ORIENTALE DES PAYS TRAZA

A.S. D'AGISSEMENTS INTERESSES AUPRES DES POPULATIONS DE CES REGIONS.

Dès mon retour à Saint-Louis, ma première préoccupation a été d'examiner la possibilité de rassurer sur nos intentions de paix et de prospérité de leur pays. Les populations traza qu'on avait engagées à revenir sur les conditions premières de leur soumission, en leur faisant valoir les bienfaits de l'ancienne politique négative des coutumes.

Le manque d'expérience des résidents de région, et, il faut bien le dire, les inconvénients inévitables nécessités par les déplacements au Tagant.

Je comptais pour cela sans l'esprit particulier qui s'est révélé dans la correspondance diabolique officielle, ensuite officielle de M. le Capitaine Maroix à M.M. les résidents de région auxquels il recommandait notamment à la demande du

Gouverneur Général, écrivait-il, de lui envoyer copie des instructions que j'aurais pu et pourrais leur adresser leur laissant entendre que... nouvelle direction à bref délai...etc. L'on est toujours grand clerc dans les choses que l'on connaît le moins. et comme il arrive toujours en pareilles occurrences ses désirs étaient acceptés pour des réalités par des officiers qui avaient besoin de quelque bonne volonté pour se plier aux exigences d'une situation spéciale à laquelle rien ne les avait préparés.

De là, leur attitude vis-à-vis des marabouts, de religieux confiants dans notre justice, de gens paisibles, mais encore peu habitués à nous. Depuis quelques jours l'on a pu constater à Saint-Louis la présence de plusieurs centaines de maures.

J'ai saisi cette occasion pour rechercher les mobiles de l'opposition systématique qui, paraît-il, n'a cessé de se manifester dans certains milieux du Sénégal, contre une oeuvre dont le haut intérêt pour la colonie, les commerçants de Saint-Louis et la

l'opposition, et fait disparaître du moins pour quelques temps ces graves difficultés que des rapports optimistes laissaient entrevoir dans un avenir très rapproché.

En maintes circonstances, vous avez été à même de vous rendre compte - Monsieur le Gouverneur Général, des causes de cette opposition qu'il convient, - j'ai hâte de le dire - de ramener à de bien faibles proportions. Elle a été provoquée d'une part par des intérêts d'ordre privé peu dignes de retenir notre attention, et que j'avais d'ailleurs tout lieu de les voir revenir à une plus saine conception, de la mentalité et des traditions de notre pays au fur et à mesure de l'organisation des régions maures du Bas Sénégal ; d'autre part par des ambitions peut être légitimes, en tous cas respectables, mais ne pouvant trouver place dans une entreprise qui, pour réussir, nécessitait une certaine connaissance des hommes et des choses maures, l'observation stricte d'une politique spéciale commandée par la pénurie de nos ressources, et surtout par les conséquences

graves à tous égards qu'une ou des expéditions militaires aux résultats sûrement négatifs n'auraient point manqué d'occasionner.

Je n'ai pas cru devoir, au cours de nos opérations pacifiques en pays maures, m'arrêter aux agissements de ces intérêts particuliers, malgré les obstacles qu'ils nous ont apportés, obstacles que je savais impuissants à empêcher la partie saine de la population de venir reconnaître notre autorité et seconder nos efforts de pacification.

Mais aujourd'hui que l'essai loyal d'une politique sur laquelle s'élevaient tant d'appréhensions a donné les résultats inespérés que vous connaissez : que dans un délai relativement très court elle nous a permis de parcourir et d'occuper plus de deux cent cinquante mille kilomètres carrés, d'installer neuf postes et résidences, au milieu de populations réputées farouches, avec le concours même de ces populations, de donner ainsi aux noirs riverains du Sénégal une sécurité qu'ils n'avaient jamais connue, d'appliquer les principes de notre domination à plus

de trois cent mille nomades auxquels hier encore, nous payions des redevances annuelles aujourd'hui qu'il nous est permis de présenter ces résultats positifs, obtenus sans perdre un homme ni combats offensifs avec des ressources pécuniaires limitées et pour ainsi dire immédiatement couvertes par le produit équivalent de l'impôt zekkat en vole de perception, vous estimerez sans doute comme moi, Monsieur le Gouverneur Général, qu'il est temps d'envisager les intérêts particuliers dont il s'agit aux divers points de vue auxquels ils se placent afin d'en arrêter, s'il y a lieu, les manifestations contraires aux intérêts généraux dont nous avons la garde.

J'ai l'honneur de vous soumettre dans ce but les résultats de l'enquête minutieuse à laquelle je me suis livré.

Les intérêts envisagés regardent :

1° Les divers commerçants et traitants échelonnés sur la rive gauche du Sénégal entre Saint-Louis et Bakel, plus particulièrement ceux de Podor

2° Quelques notables en résidence à Saint-Louis, protecteurs, mandataires ou créanciers nouveaux.

3° Les tentatives irrésistibles ou plutôt le désir manifesté de quelques ambitions en vue de transformer en expéditions militaires, l'organisation spéciale que nous poursuivons en pays maure.

A- Les sentiments des premiers ont été résumés par les traitants eux-mêmes, venus à Podor et dans les autres escales pour me demander d'intervenir en leur faveur auprès de quelques maures auxquels ils avaient fait des avances en marchandises. Nous venons vous prier, me disaient-ils, de nous faire connaître comment, désormais, nous allons procéder en pays maures pour obtenir le remboursement des prêts considérables par nous consentis aux tribus guerrières et religieuses de ces pays.

Avant l'occupation par les français de ces régions, il y avait sur la rive droite des ruis. des princes, auxquels nous nous adressions pour nous faire rendre justice. Au moyen de quelques cadeaux

dont la valeur était toujours ajoutée aux sommes dues, nous obtenions leur concours, ils allaient piller les tribus retardataires, retenaient sur le produit du pillage le prix de leurs fatigues et de leurs risques et largement ils nous remboursaient directement le montant des avances que nous avions faites. Chacun de nous avait son roi, son prince ou, à défaut quelques guerriers à sa disposition. Aucun ne craignait les conséquences d'une mauvaise affaire puisque chacun s'entourait de garanties sérieuses de repression.

Aujourd'hui, il n'y a plus de rois, encore moins de prince, et les guerriers hésitent à se charger de remplir les missions particulières que nous leur confions. Nous subissons ainsi par votre domination en pays maures de grosses pertes, à moins que vous ne preniez des mesures énergiques pour nous faire rentrer dans nos créances sans nous obliger à avoir recours aux jugements des cadis ou des résidents de région, auxquels nous ne pouvons soumettre nos affaires

2

Une autre question du plus haut intérêt pour notre commerce nous préoccupe au premier degré. Vous n'ignorez pas que la rive droite était le seul endroit où il nous était permis de vendre et d'acheter nos captifs aux maures qui se faisaient volontiers nos fermiers et nos colporteurs de cette précieuse marchandise. Au Soudan, des centres les plus éloignés de la Boucle du Niger, l'on nous amenait des captifs à un prix relativement peu élevé, en passant par Tombouctou, le Hodh, le Tagant, avec arrêt parfois dans l'Adrar Occidental, qu'on nous échangeait avec de la marchandise.

En face de Podor, de Dagana à N'Diogo, il y avait de véritables marchés, où sans crainte, nous nous livrions aux transactions les plus fructueuses.

En occupant les Pays Maures, vous comptez sans doute, supprimer ces marchés, interdire la vente des captifs de même que vous l'avez fait dans les autres régions où vous dominez. Nous sommes inquiets sur les résultats de cette occupation, car nous sommes atteints dans l'un des revenus essentiels de notre négoce.

L'on nous dit aussi que dans un but de sécurité, vous vous disposez à interdire la vente des armes, de la poudre des munitions... Nous ne pouvons ajouter foi à ces dires et laissez-nous espérer qu'il n'en sera pas ainsi.

Pour quelques kilogrammes de poudre, les maures nous donnent leurs moutons, leurs boeufs, leur gomme ; nous écoulons à des prix rémunérateurs les troupeaux que les guerriers nous envoient en échange des munitions que nous leur faisons parvenir pour soutenir les guerres intestines qu'ils se livrent entre eux. Que nous importent les pillages, les vols commis dans les villages du fleuve, dans les campements des tribus paisibles ! Evidemment ils sont regrettables, mais en est-ce la faute des traitants ? Vous ne le pensez certainement pas et nous comptons sur votre bienveillance pour ne pas toucher dans l'organisation que vous poursuivez aux trois privilèges dont nous jouissons : sur la rive droite, savoir : la possibilité de vendre à crédit et d'employer les guerriers pour rentrer dans

nos créances, le libre commerce des captifs et l'exploitation des armes et munitions.

Ce raisonnement m'était tenu en toute sincérité notamment par un groupe de commerçants de Podor parmi lesquels se trouvaient MM. Baka Ouall ancien conseiller général, Amar Gaye, représentant de la maison Rabaud, Amar Bouia, Saniba Bou Kouman, représentant de la maison Buhan & Teisseire etc....

Je l'ai entendu depuis répéter par d'importants négociants européens, et le Président de la Chambre de Commerce entre autres, n'a jamais caché sa manière de penser à ce sujet. Il m'avait été corroboré par trop d'exemples pour ne pas y ajouter foi.

Au moment des premières négociations que j'engageais avec les Brakna en vue de l'organisation de leurs territoires, nous assistions, mes collaborateurs et moi à l'un de ces meetings commandés, en face de Podor, sur la rive droite même du Sénégal, que personne n'avait le droit ni le pouvoir de franchir.

Aux explications que je demandais à Ahmedou, émir des Brakna, sur les coups de fusil que j'enfendais sur la rive interdite pendant que je palabrais avec ce personnage, il me répondait le plus naturellement du monde.

Ce sont mes guerriers qui viennent de tuer quelques Oulad Aid à la demande du Naçrani tidjar (de l'Européen commerçant) auquel ils refusaient d'acquiescer une dette déjà ancienne. Tu vois combien je vous suis dévoué. - vos ordres sont toujours ponctuellement exécutés. Il en est de même toutes les fois que pareil cas se présente.

Je faisais payer le prix du sang des malheureuses victimes, mais combien de cas analogues impunis.... C'était la coutume.

de vous, si entre-tenu de ce commerçant à Saint-Louis. - un excellent homme. m'a-t-on dit plus tard - qui avait toute une tribu (les Ikoumleiten) comme intermédiaire dans la vente et l'achat des captifs ; et vous connaissez le cas de ce Toukna qui tous les ans conduit de Chenguitti à N'Diogo une caravane comprenant plusieurs centaines d'esclaves dont le

produit est destiné à de nombreux achats dans les meilleures maisons de commerce du chef lieu du Sénégal. Il faudrait des volumes pour relever les cas particuliers et pourquoi les relever, au surplus puisque c'était de véritables privilèges, c'était la règle, la liberté d'un commerce lucratif sur des territoires limitrophes de la capitale de la plus ancienne de nos colonies.

A l'abri des institutions de droit commun qui régissent le Sénégal, ces territoires semblaient avoir été réservés pour perpétuer les mœurs antiques des nègres et nous rappelle les pratiques esclavagistes qui ne sauraient plus trouver leur application dans aucune autre partie du monde.

B Le deuxième point de vue envisagé est encore plus caractéristique et mérite toute votre bienveillante attention. Mais là aussi, il ne faut accuser que la tradition, la mentalité d'une catégorie de personnes qui trouvent matière dans les institutions mêmes qui les régissent à détourner à leur profit les bénéfices échus naguère aux chefs des agglomérations sédentaires dans leurs relations avec

les chefs des peuplades sahariennes. De même que ceux-ci étaient ces dépositaires des biens appartenant aux chefs nomades, qu'ils étaient les surveillants de leurs entrepôts tandis qu'ils étaient les maîtres des routes et du pays, de mêmes ceux d'aujourd'hui dont par les fonctions électives qu'ils exercent par leur qualité de membre de la Djemâa (assemblée délibérative) des Français, ou par le rôle qu'ils remplissent les mandataires, les soutiens intéressés contre leurs ennemis des émirs ou autres chefs indigènes d'une certaine importance.

Depuis trois ans vous n'avez point manqué de relever l'exemple le plus caractéristique de cet état de choses : les agissements de la famille Devès contre l'émir Ahmet Saloum et en faveur de Sidi Ould Mohamed Fall.

Il est avéré que ce concours n'avait d'autre mobile que le désir manifesté par certains membres de la famille Devès de remplacer l'émir des Trarza dans la perception de certains droits sur les caravanes (ghafar, ou droit de protection).

De même que j'ai acquis la certitude que Mr. Riguetti ne soutenait Ahmet Saloum contre Sidi et par suite contre les Devès que dans l'espoir d'obtenir la perception de ces mêmes droits.

Les Devès et les Riguetti forment légion dans ce pays. Ils se présentent dans des conditions analogues sous le même aspect intéressé. Hier c'était un certain Djibril N'Diaï professeur à l'école laïque de Saint-Louis qui essayait, sous le patronage de M. Couchard de se donner pour le mandataire de Sidi Ould Mohamed Fall qu'il supposait agréé en qualité d'émir des Trarza.

Demain ce sera un autre personnage qui offrira ses services à d'autres chefs supposés. Le remède est heureusement trouvé puisque l'objet du mal n'existe plus dans cet ordre d'idées. Mais ne voilà-t-il pas que ces mêmes personnages groupent des tribus de Zenaga, leur imposent une contribution relativement élevée, toujours pour les défendre contre l'autorité de ce pays dans le cas où elle l'exercerait dans un but de sécurité ou de justice. C'est ainsi que des milliers de maures installés sur

la rive gauche (Oulad Embarek, Iroumbaten...etc) relient en quelque sorte des Devès, que les Iroumbaten vendent les captifs des Pellegrin...etc que chacun de ces Messieurs de la Djemâa--comme les qualifient les maures de la rive droite a ses clients, ses esclaves, ses alliances contractées selon les moeurs d'un autre âge.

L'action réellement française, celle du gouvernement, gêne ces intérêts particuliers qui ne pouvant se manifester dans leur caractère propre essayent de vains moyens pour entraver cette action ou en amoindrir la portée.

Devons-nous Monsieur le Gouverneur Général, nous y arrêter, retarder l'oeuvre de transformation économique et d'émancipation sociale que vous avez engagée en Afrique Occidentale à laquelle ces intérêts sont naturellement opposés ?

Je n'ai pour ma part jamais songé à en tenir compte, et j'estime que le moyen infailible de les combattre est celui de les méconnaître.

Au cours de la mission que vous avez bien voulu me confier, je me suis appliqué à gagner la

confiance des faibles, de ceux qui travaillent produisent et possèdent sans me préoccuper d'aucune mesure des inspirations intéressées qu'ils pouvaient recevoir de par ailleurs. J'ai tenu à donner à notre oeuvre d'organisation des pays maures son double caractère de conquête matérielle, et morale qu'elle doit avoir. Je ne néglige aucune occasion pour briser les liens qui attachent encore la partie riveraine de la population maure du Sénégal à ceux qu'elle croyait être les chefs du gouvernement français, et j'ai hâte de vous dire qu'en cela ma tâche est facile. Peu à peu chacun reprend sa place ; ceux qui semblaient irréductible comprennent aisément la politique de justice et d'humanité basée sur certains principes de religions et de jurisprudence musulmane que nous nous appliquons à faire triompher en Mauritanie Saharienne.

L'essentiel est de séparer nettement l'administration des populations de la rive gauche de celle de la rive droite, que rien ne permet d'assimiler ni de confondre.

9 Nous enlevons ainsi tout prétexte à ceux qui jusqu'à ce jour ne s'occupaient de ces dernières que dans le but d'en exploiter les vices.

Et nous pourrions, sans nous attarder davantage à leurs agissements, essayer de faire évoluer dans sa civilisation propre corrigée, si besoin en était par certains principes d'ordre moral et économique puisés dans la nôtre, une population digne de nos efforts et de notre sollicitude.

Les considérations d'un autre ordre ont sans doute incité Monsieur le Capitaine Maroix à suggérer à M.M. Les Résidents des régions Trarza une ligne de conduite contraire à celle qui nous avait permis d'organiser pacifiquement ces régions.

J'avais accepté, sans arrière-pensée, la collaboration provisoire de cet officier autant par bienveillance à son égard que pour donner satisfaction au désir qui m'en avait été maintes fois exprimé.

J'avais eu néanmoins, la précaution en lui confiant les services de la Délégation durant mon séjour en pays Brakna, Tagant, de réserver la

question politique afin d'éviter les conséquences regrettables qui auraient résulté d'un changement dans la direction et l'application d'une organisation qu'il ignorait et à laquelle je n'avais eu le temps nécessaire de l'initier.

Le seul résultat à obtenir était le maintien de l'ordre de choses établi en pays Trarza en attendant mon retour du Sénégal. Nous ne pouvions franchir l'obstacle sans les soulever. Ils étaient inévitables.

Mais il importe de ne plus revenir, de ne plus confondre les races, les éléments disparates si contraires qui existent d'une part, en pays maures d'autre part, sur la rive gauche du Sénégal, voire même au Soudan français.

Il importe de maintenir à notre oeuvre son caractère de pénétration soutenue, progressive et pacifique, - personne ne peut plus le contester, - mais en tenant compte des mesures de police Saharienne ou de répression qui s'imposent en Mauritanie comme dans tous les autres pays habités par des êtres humains.

Il a fallu et il sera encore utile d'occuper quelques points stratégiques, au moyen de forces régulières, à défaut d'autres troupes. En utilisant ces forces de nos troupes avaient servi de prétexte aux agissements des partisans intéressés de cette politique.

Pour faire disparaître toute illusion, de ce côté et ramener les maures marza aux véritables règles de notre protectorat, j'ai pu commencer d'urgence la perception de l'impôt Zekkat qui devait en être le résultat important et arrêté les dispositions propres à assurer l'application de ces règles sans plus tarder.

Dans ce but, j'avais convoqué à Saint-Louis, M. le Capitaine Frerejean, résident de la région Occidentale, Sidi Ould Mohamed Fâll et quelques chefs de cette région.

J'ai reçu également un certain nombre de délégations composées des principaux notables qui avaient attendu mon retour du Tagant pour venir me soumettre leur désir et s'inspirer de la ligne de conduite que je leur ai tracée, d'accord avec les membres de leurs djemâa respectives.

C'est pour ces diverses raisons que comme escorte défensive et en faisant précéder leur marche d'une action politique entendue, nous avons occupé certains de ces points et nous pouvons occuper les autres sans tirer un coup de fusil.

Cependant, notre oeuvre serait vaine si elle se bornait à l'occupation militaire de ces points. Elle n'est sérieuse que si elle apporte à la fois aux Indigènes la sécurité et la prospérité. Nous établirons la sécurité au moyen des gourd en voie de formation, et nous augmenterons le bien être des populations en leur appliquant avec toute la liberté d'action qu'elle comporte une organisation adaptée à leur mentalité et au climat de leur pays. //

[illegible][illegible]

[illegible][illegible]

[illegible][illegible]

منه ما يملك من طي اللعاب مع القفا من عصم القوال
في الخلق من اجساد النما وخوانما يستحقون ولا حلال
لا فاعولها لاهل الله لا يقر على مساقاة من
عزيم وبنين لما خلت اذ تهم بانفسها حتى اعترها بالنا
الشهم قد يكون نافعا وهدوا الله تعالى وناوره في جهنم وليس
هل الكفوي الا من هو النسيان ينقص على ذل الذر فانهم كدوا به
لانه طاب في البحر الموه نكاحه هو اللاتيق بحفاج وزاد فيهم
ولا لا فخر اذ احصى النصب فيما يستلزم الوفاء والحق ولا حيل
ولا فخر الا بالبد العلى المكنهم وطاب الله على نبيهم الذي رواد
ولهم فخر من نكاحها فانا نيق للذين ابع بهم الله

LETTRE DE FELICITATIONS,
DE MONSIEUR LE GOUVERNEUR DU SOUDAN FRANCAIS.
à CHEIKH TORAD OULD EL ABBAS.

TRA D U C T I O N -

Louange à Dieu Maître des Mondes - Seule sa face est éternelle

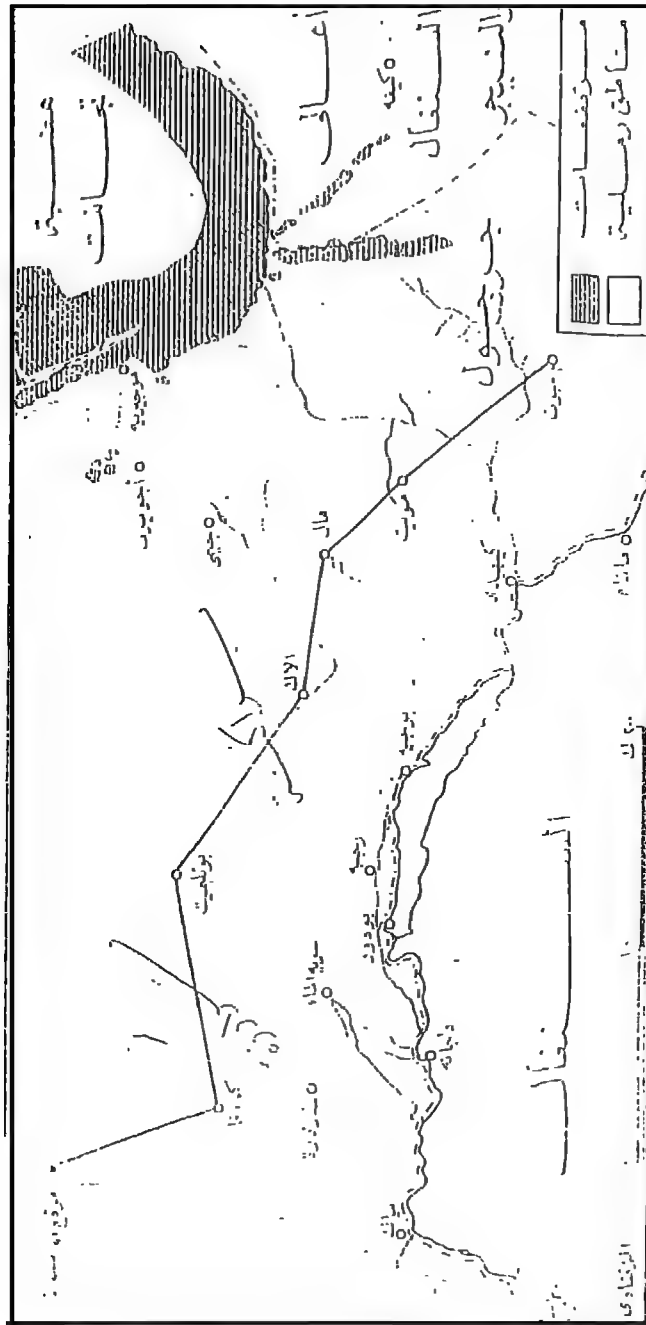
DE LA PART DE MONSIEUR CALVEL GOUVERNEUR DU
SOUDAN FRANCAIS.

AU CHEIKH TORAD EL ABBAS.

Après vous avoir présenté les salutations d'usage je tiens à vous faire savoir que les sentiments qui vous animent l'égard de la France et de son gouvernement ne me sont pas inconnus. J'ai à coeur de vous décerner les louanges que mérite votre comportement actuel envers l'Autorité et je vous félicite de mettre votre science et votre intelligence au service de la cause française dans ce pays. Continuez à inculquer à vos talibés l'amour profond de la France, parce qu'Elle est le seul pays protecteur de l'Islam et qu'Elle saura au jour de la victoire imposer aux pays vaincus le respect de votre belle religion.

La bénédiction de Dieu s'étende sur vous et votre famille, qu'il augmente votre bien et comble vos désirs. /.-

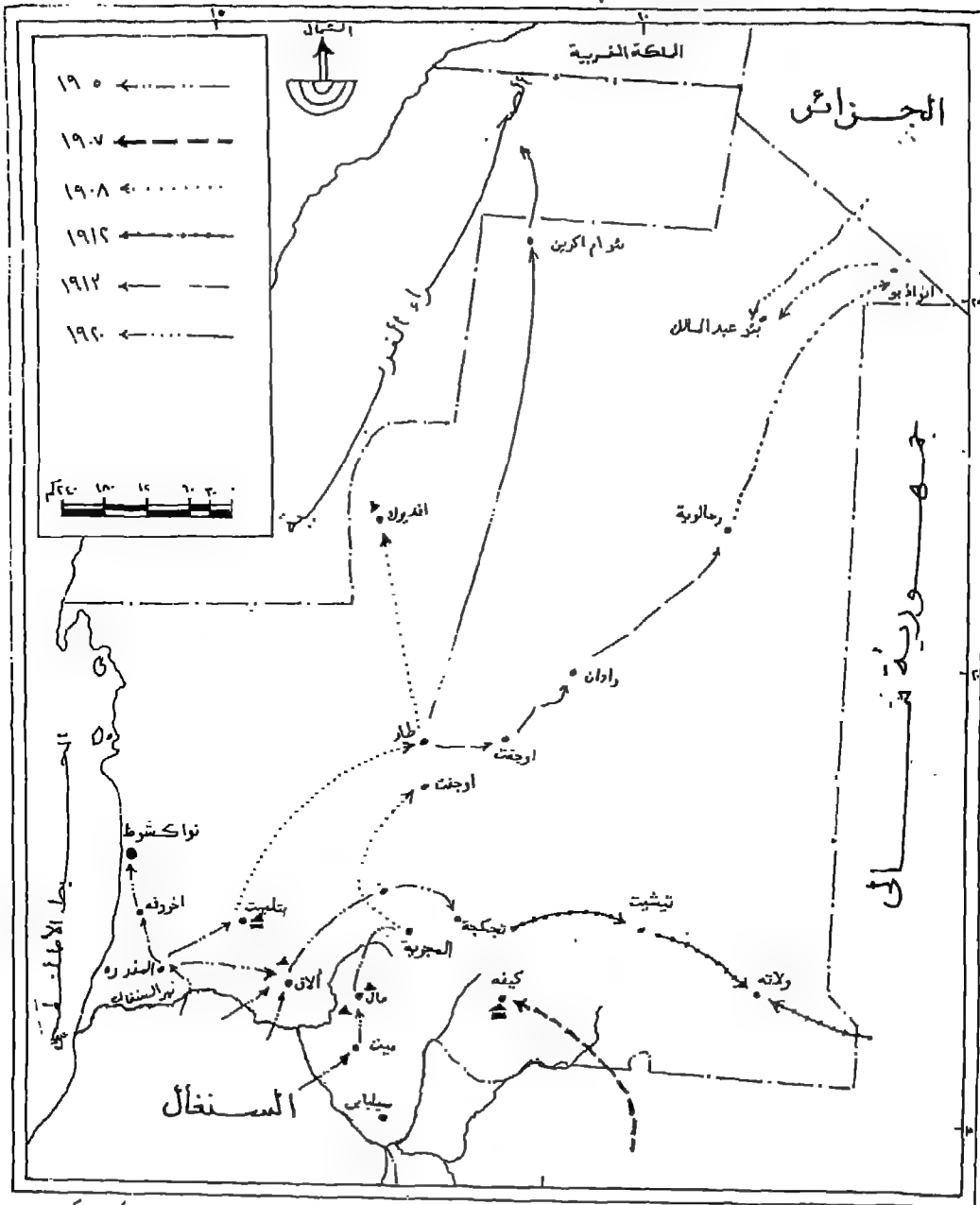
خريطة رقم (١)



كوبولاني والتوغل السامي - خط انواقع الأمامية ١٩٠٤ - ١٩٠١

مصرف - مصر خليل، تلوس مورنا الحديدة - الحاهرة ١٩٧٧.

خريطة رقم (٢)

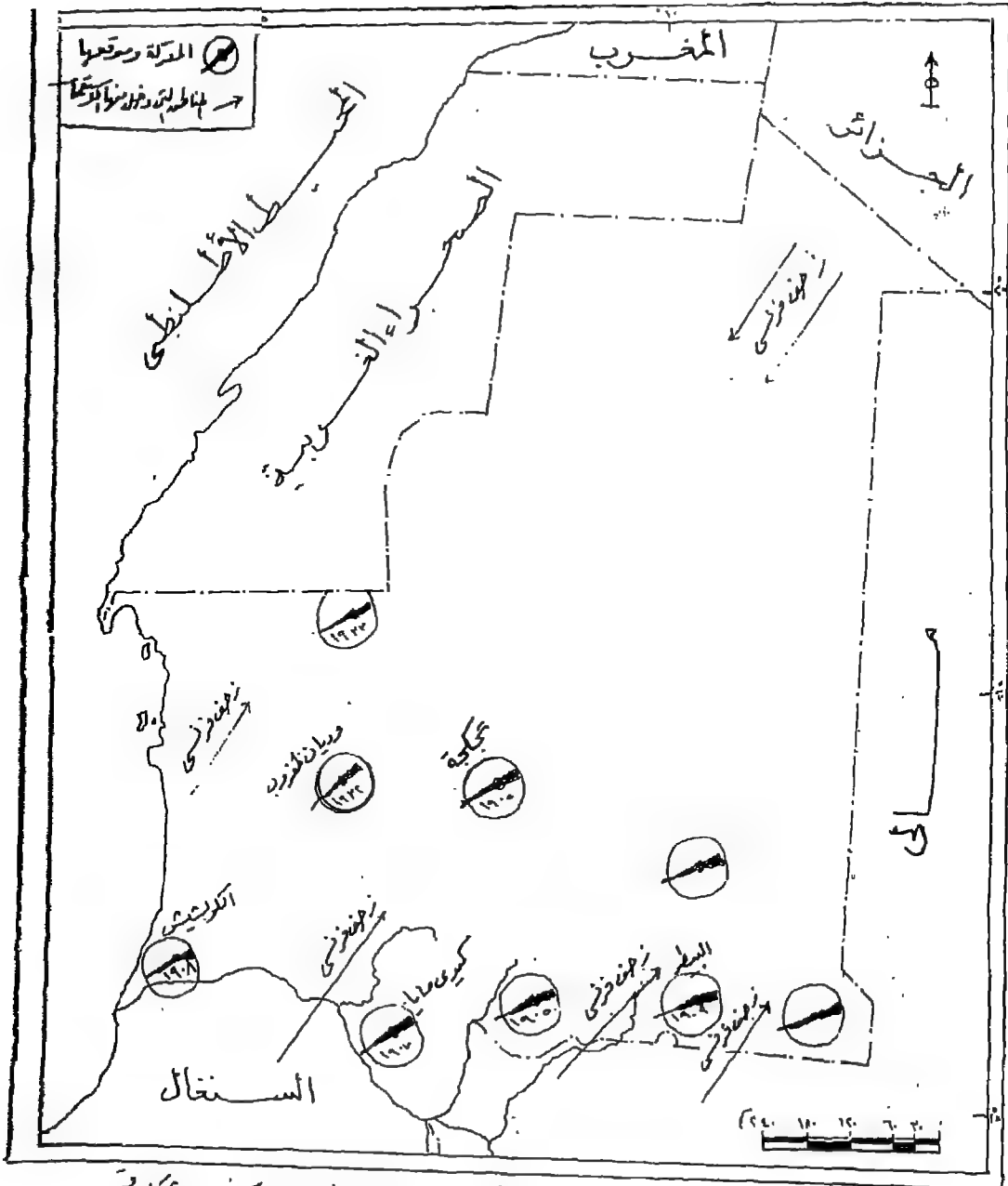


شكل رقم

الموغل الفرنسي في موريثانيا

المصدر: أسلم به محمد الهادي، موريثانيا عبر العصور، الجزء الأول

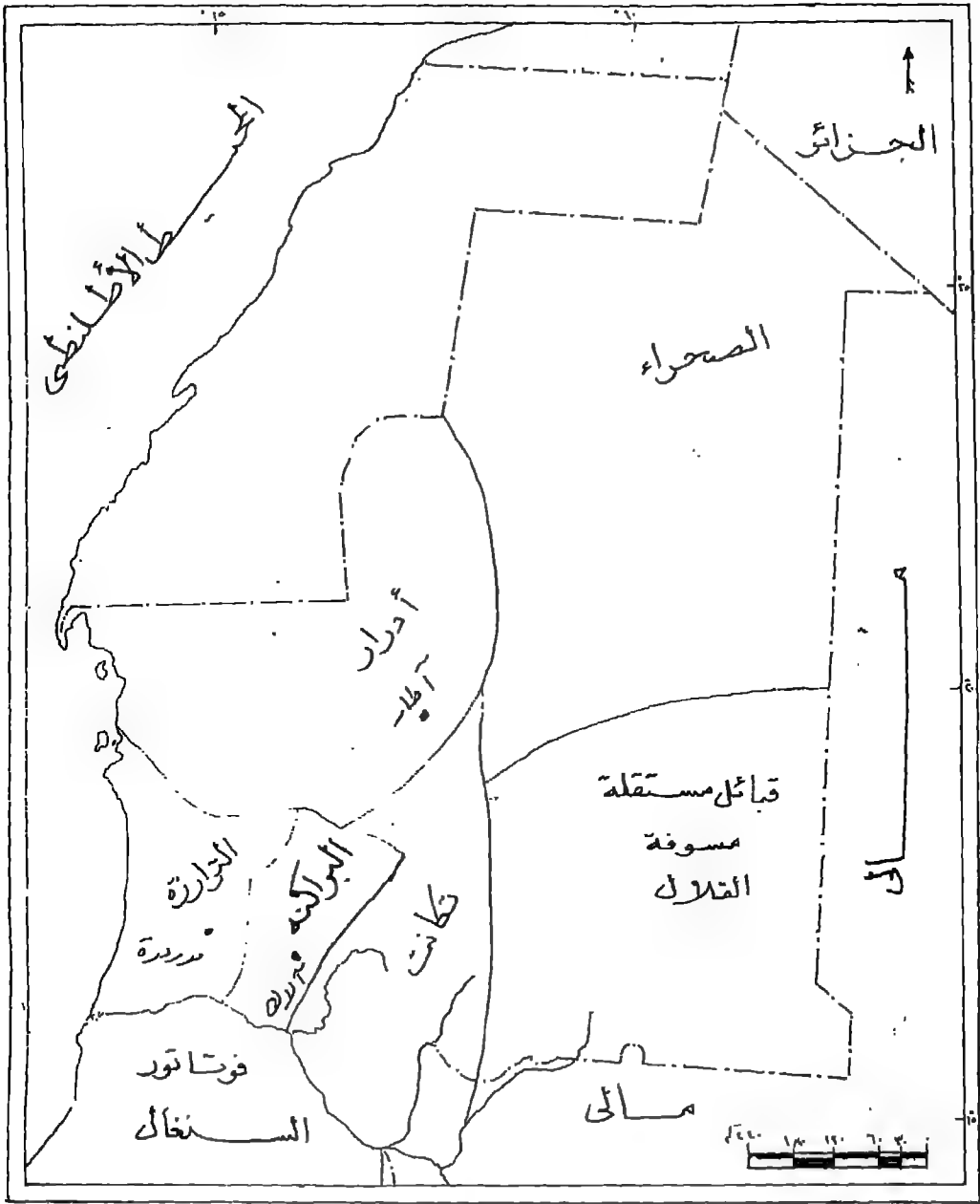
هرطیریم (۲)



المقاومة ضد الغزو الفرنسي والعراق المشهورة

المصدر: المعهد القومي، تاريخ مصر بيناينما وتاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٤

خريطة قسم (٥)



محل رسم

الإمارات الموريتانية

المصدر: نسخة من المجلد وأثرها الترتيبية ثم الجمع لموريتاني لمحمد لوصفي
سيد محمد الامين: نسخة من مخطوطات جامع الربيع في كلبه الرئيس،

تطور المحاماة في سوريا

المصدر: المحاضر وأثرها التربوية في المجتمع الموريتاني في محمد الصفوري بـ محمد الأمين
 رحمة الله عليه، جامعة الرياض، كلية التربية

